ديوان ابن يمان

الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن التميمي
اليسجني الصعبي المتوفى سنة 1232هـ - 1817م

دراسة وتحقيق

الأستاذ:
يحيى بن بهون حاج امحمد

1672

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع

1672

ديوان
ابن حمادوش

الشّيخُ إبراهيم بنُ عبد الرّحمنِ الشّيبيّ
اليسجنيّ المُصعبيُّ المُتوفّى سنة 1232هـ - 1817م

دراسة وتحقيق

الأستاذ
يحيى بن بهون حاج امحمد

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الرقم التسلسلي 101 - 2007 دار الهدى
رقم الإيداع القانوني 3949 - 2007 المكتبة الوطنية
ردمك 7- 950 - 60 - 9961 - 978

الفـــروع

مكتبة وراقة دار الهدى بـــ:

عين مليلة: الحي البلدي
الهاتف: 032.44.83.57 الفاكس: 032.44.92.67

قسنطينة: حي كوحيل لخضر جنان الزيتون
الهاتف: 031.92.22.08 الفاكس: 031.92.27.08

الجزائر: 01 شارع أوراس بشير باب الواد
الهاتف: 021.96.62.20 الفاكس: 021.96.61.11

وهران: 05 شارع زيغود يوسف عمارة الحرية
الهاتف: 041.40.46.47/041.40.46.89
الفاكس: 041.41.46.54

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص.ب 193
عين مليلة – الجزائر

الهاتف:
032.44.92.00
032.44.95.47

الفاكس:
032.44.94.18

Web: www.elhouda.com
e-mail: darelhouda@yahoo.fr

تمّ السحب بـ:
مطبعة دار الهدى
2007

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطيّ من الناشر



إهـــــداء

إلى روح الشيخ الحاج إبراهيم بن بحمان _ رحمه الله_ في عليائها.

إلى من يعجز اللسان عن شكرها ويقصر البيان عن الوفاء بحقها إلى أغلى ما في الوجود، إلى من فرشت لي الطريق المستقيم بعطفها وبدعواتها طول هاته السنين، أمي العزيزة _حفظها الله و أمدّ في عمرها_.

إلى من كان عونا لي مذ وعيت على الدنيا، إلى الذي عمل من أجلي وشقى وتسلح في الحياة بالعزيمة والرضى وما ضاق بالحياة ذرعا وما شكى،

إلى منير دربي ورمز افتخاري ومحل ثقتي و مثالي الأعلى

إلى الذي دلني على العلم وحثني عليه، أبي العزيز_حفظه الله وأطال في عمره_.

لا يفوتني وأنا أخط هذه السطور دون أن أُحيّي زوجتي الغالية

التي تخلت عن ملاذ الحياة وصبرت من أجلي وعانت حتى ترى هذه الثمرة اليانعة

ولطالما غمرتني بالأمل كلما نال مني الإرهاق أو تسلل إليّ الملل.

إلى كل طالب علم يسعى في ذلك إلى نيل رضا الله تبارك وتعالى.

والى كل باحث عن الحقيقة الناصعة وناشر لكلمات الحق الساطعة.

إلى كل مخلص ساعدني على إنجاز هذا العمل المتواضع ...

يحي بن بهوش

اختيار الموضوع:

إنّ الحديث عن التّراث حديث عن مجد الأمّة العريق، وحديث عن حضارة أنتجتها عقول أجيال عبر كثير من الاجتهادات الإنسانية الصّائبة والخيّرة، والتي استطاع فيها أبناء الأمّة أن يقدّموا كلّ خدمة جليلة ومكرمة خالدة، ونتاج إنساني نافع، أسهم في صنعها الذّوق الفنّي الرّفيع.

ولما أدركت فئة خيّرة من أبناء هذه الأمّة حقيقة الحفاظ على التّراث، سارعت إلى إعادته صفحة مشرقة من صفحات الحضارة الإسلامية، ليغترف منه شباب الأمّة دروسا وقيما رائعة.

لقد امتاز الكثير من العلماء المسلمين الذين شيدوا الحضارة الإسلامية بخاصية فريدة وهي خاصية الموسوعية، فلم يكن الواحد منهم عالما متخصصا في فن واحد أو في فرع واحد من فروع العلم والمعرفة بل كان موسوعيا يعرف معظم ما انتهى إليه العلم في معظم التخصصات.

ولعل ما يميز هذا الديوان هو اشتغال صاحبه بمناصب مهمة واطلاعه على أهم علم وهو علم التأريخ الذي صار في العصر الحديث يحتل مكانة عالية بين العلوم، بل ويأتي في الصدارة بين العلوم من حيث الاهتمام به وبمؤلفاته، حتى صار يطلق على العصر الحديث بعصر التاريخ، وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى كانت المؤلفات في التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخي وآثار وغيرها من فروع المعرفة التأريخية، تُكوِّن خُمس المكتبة العالمية.

إنّ هذا الاهتمام بالتاريخ لم يأت من فراغ فالإنسان عبر تاريخه الطويل مرتبط أشد الارتباط بجذور تاريخية في كل جوانب حياته المختلفة، وما المرحلة التي يعيشها إلا إحدى حلقات السلسلة التاريخية التي ترتبط بسلسلة تاريخية طويلة وعميقة الجذور، فالإنسان تاريخي بجوهره وطبعه، ذلك أن وعي الإنسان التأريخي يبدأ منذ إدراكه لنفسه وشعوره بإنسانيته وبإحساسه لما له في ماضيه من رصيد تاريخي.

لذلك فقد اهتم الشيخ ابن بحمان بتسجيل مختلف الأحداث التاريخية في عهده بأسلوب شعري وأدبي فنيٍّ، حتى ينقل لنا ما استطاع من وقائع عصره ومِصره، فنعرفها ونعمل على الأخذ بما يفيدنا منها لإصلاح أمور معاشنا ومعادنا، ومن هنا فهو موسوعة مصغرة في مختلف الأغراض الشعرية في كثير من المناسبات المهمة.

إن هذا العمل هو في الأصل مذكرتي المقدَّمة لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب واللغات بجامعة الجزائر في تخصّص تحقيق المخطوطات، وقبلها كنت عزمت على تحقيق الرّحلة الحجازية للشّيخ إبراهيم بن بحمان بن أبي محمّد بن عبد الله بن عبد العزيز الثّميني اليسجني المُصعبي ـصاحب الديوانـ المتوفّى سنة 1272هـ/1817م، لما أحبّه في أدب الرّحلة من سبر للأغوار واستنطاق للمعالم والأمكنة، ومن الوقوف على المسالك والأقوام والجماعات، واستنباط التعاليق المختلفة...

ولمّا اتّصلت بأستاذي المشرف على البحث الدّكتور محمّد بن قاسم ناصر بوحجّام وعرضت عليه الموضوع اقترح عليّ تحقيق الدّيوان كله حتّى يرقى العمل إلى المستوى المطلوب ولأقف على شعر الشّيخ وأدبه وعصره ومِصره، ذلك لأنّ الشّيخ عاش في فترة لم يُؤرَّخ لها كثيرا، لا في عواصم الجزائر ولا في حواضرها فناهيك عن صحاريها، كما ويعد شعره التأريخ الفعلي لمنطقة مزاب خلال تلك الفترة من الزمن..

وبعد أخذ وردّ اقتنعت برأيه بعد أن زال تردُّدي خَوفَ أن يستغرق العمل فترة طويلة من الزّمن، وبذلك عدلت إلى تحقيق الدّيوان كلّه والحمد لله.

أمَّا عنوان الديوان فهو من اقتراحي، فبعد أن جمعت كلّ الآثار الشعرية للشاعر اقترحت عليها أوّلاً عنوانًا من وضعي وهو: "وُجدٌ وأسى" لما يحمله في نظري من دلالات كثيرة، أما الوُجدُ فهو من وُلُوعه بشيوخه وأصدقائه وابنه الغائب..، بينما كان الأسى من سوء معاملة قومه له وبإبعادهم لابنه عنه، ومن وفاة أمه وشيوخه، وكذا تبدُّلِ أحوال مجتمعه..، وقد عَنوَنتُ به مذكرتي لنيل درجة الماجستير.

لكني بعد ذلك عدلت إلى العنوان الموضوع الآن وهو: "ديوان ابن بِحمان" لشهرة هذا العالم بهذا الاسم، فقد كان يُمضي كل أعماله بهذا الاسم فعرفت أنه الأحبُّ إليه فوضعته، وحتى لا يتوهم القارئ بأنّ العنوان السابق ـوُجدٌ وأَسَىـ من وضع الشيخ صاحب الديوان، ثم لأحفظ اسم الشاعر في الذاكرة فيتميَّز به عن غيره من أقرانه.

إنّ لكلّ بحث ـمهما صغُرـ فائدته العلمية التي لا تحتاج إلى مُبرّر، ولكنّه لا مانع من ذكر بعض الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع.

لقد كنت وأنا لا زلت طالبا معجبا بالشّعر والشّعراء متذوّقا له حافظ لما يعجبني ويشدّ عقلي وقلبي منه، وقد زاد بي الشّوق إلى البحث في التّراث وفي زوايا التّاريخ، انتسابي إلى منطقة غنيّة بتراثها حاضِرة بتاريخها وشعرائها وأدبائها... وهي وادي مزاب.

وحين عُرض عليّ شعر صاحب الدّيوان وقرأته، لأوّل وهلة أحسست بقربه منّي ومن عصرنا الحاضر، ـولعَّلك ستلاحظ في قصائد شكوى الزّمان والحال ذلك النّقد الصريح لأحوال زمانه وكأنّه حيٌّ بين أظهرنا، كما أردت أن أضمّ قلم صاحب الديوان إلى أقلام شعراء الجزائر الموهوبين ـعلى قلّتهمـ في عصره، ذلك لأنّ العهد العثماني بالجزائر يبقى من الفترات المغمورة التي لم يؤرّخ لها كثيرا كما سبق وأشرت، وهي من ثَمَّ فرصة لتسليط الضّوء على بعض أحداثها التي شارك في صنعها الشيخ إبراهيم بن بحمان بقلمه البسيط من مسقط رأسه بني يسجن بمزاب.

كما كانت مناسبة مهمة للتقرب من مخطوطات المنطقة ونفض بعض الغبار عنها، والتي لطالما تاقت إلى أيدي الباحثين ليفضّوا مكنوناتها، ويخرجوا ما استطاعوا منها ليرى النور، وينال نصيبه من الدراسة والتحقيق.

وقد قدمت مذكرتي للمناقشة إلى كلية الآداب واللغات بجامعة الجزائر في بداية سبتمبر 2005م، ونوقشت بتاريخ: الثلاثاء 24 رمضان 1427هـ الموافق لـ: 17 من أكتوبر 2007م بتقدير حسن، وإيمانًا مني بضرورة تعريف الخلف بتاريخ السلف فإنّي

رأيت ضرورة إخراجها في هذه الحلة حتى ترى النور طبعًا بعد استدراك بعض التعاليق عليها، حتى تزيدني حزمًا وعزمًا على المزيد من العمل في هذا المجال، وبالله التوفيق.

طريقتي في البحث:

لقد ملكت إعجابي شخصية الشّيخ الحاج إبراهيم بن بحمان، لأنّه كان طيلة حياته يخدم العلم والمجتمع، ويسعى في تحصيل العلم ونشره، كما لا تفتر همته عن توعية المجتمع وإرشاده وإصلاحه.

لقد شدّتني إليه همّته العالية رغم توالي النّكبات عليه وعلى بلاده، فتراه يراسل هذا ويجيب عن أسئلة هؤلاء، ويعلق على الكتب، ويفسّر القرآن الكريم، ويشرح الأحاديث، ويرحل بعزيمة المؤمن الصّادق إلى أداء مناسك الحجّ بعد أن يضع في ذلك كتابا[1] يُبيّن آدابه ومقاصده..، لقد ملكت إعجابي هذه الشّخصية التي لم تتقيّد بحدود تخصص ضيّق أو معيَّن.

وأحسبه قد تأثّر في ذلك بالوارجلاني أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم، حين علّق على شخصه وكتابه الدّليل والبرهان، هذا الذي قال فيه الدّرجيني[2] في طبقاته: «..هو بحر العلم الزّاخر المسخّر للنّفع فترى الفلك فيه مواخر، الرّفيع القدر والهمّة، الجامع لفضائل كلّ أمّة، المحتوي على علوم جمّة، ... إذ كان له في كل جوّ متنفّس، ومن كلّ نار مقتبس، وهذا الشّيخ (أي الوارجلاني) له يد في علم القرآن، وفي علم اللّسان، وفي الحديث والأخبار، وفي رواية السّير والآثار..»[3].

إنّ الموسوعية والتنوّع الذي تميّز بهما الشّيخ إبراهيم بن بحمان فيها تأثّر كبير بشخصية الوارجلاني[4]، إذ كان له يد في التّفسير، والشّروح والأجوبة، والتعاليق،

1. هو كتاب "مختصر المناسك ومهذّب المسالك" المنسوب خطأ إلى شخص يُدعى إبراهيم المصعبي.
2. هو أبو العبّاس أحمد بن سعيد الدّرجيني (ت670هـ)، صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، من أشهر الكتب التي أرخت لمشائخ الإباضية بالمغرب الإسلامي، رتبه على اثنتي عشرة طبقة، ومدى كل طبقة خمسين سنة، طبع في جزأين.
3. ينظر: أبو العبّاس الدّرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاّي، دار البعث قسنطينة، ط1، 1970، ج2 ص491.
4. ينظر: تعليق الشيخ ابن بحمان على ديباجة الدّليل والبرهان، مخطوط، مكتبة الاستقامة بني يسجن، المج كلّه.

والمراسلات، ثم المديح النّبوي، ممثّلا في بردة على منوال بردة البوصري، والرّحلة، والمنطق، والفقه، والرّدود، والمراسلات شعرا ونثرا وهذه كلها شكّلت مجتمعة ديوانه الشّعري.

لعلّ تنوّع مظاهر النّبوغ فيه، رسّخ جدوى جعل العلم في خدمة واقع الحياة، إذ إنّ من حسن حظّ المكتبة الجزائرية أن حفظت لنا يد الزّمن مجموع مؤلّفات الشّيخ إبراهيم بن بحمان ـعلى ما وصل إلينا ـ والتي بين أيدينا اليوم، لتكون شاهدا على فترة تاريخية مهمّة من حكم الأتراك بالجزائر، والتي تبقى مغمورة في كثير من أجزائها، ويشاء الله أن يوجد بصحراء الجزائر الحبيبة من يسجّل بعض وقائعها بعيدا عن الكتّاب المقرّبين إلى الدّايات وأصحاب السلطان، ممّن يتزلّفون بشعرهم ويكتبون سير الحكّام على ما فيها، تقرّبا أو تطوّعا...ليبقى قلمُ الشيخ إبراهيم بن بحمان جزائريا محضًا نزيهًا ومنتقدًا.

لم يكن للشّيخ ابن بحمان طلبة يُملي عليهم، أو كتّابا يشتغلون بنسخ مخطوطاته رغم معاصرته للعديد منهم، وازدهار حركة النّسخ في وقته بشكل كبير، فقد كتب الشّيخ كلّ كتبه بخطّه، ووقّعها بنفسه كذلك، إلاّ ما صار متداولا بعده بكثرة كبُردَتِه البديعة التي تحوي منها خزائن المخطوطات بمزاب نسخا عديدة، نظرا لطابعها الديني، ولاحتفاء المسلمين بسيرة الرسول محمدﷺ، وهو ما يمكن اعتباره دليلا على رقي لغته، وذيوع صيته في عصره وبعده.

لم أجد بعد طول بحث وتنقيب نسخا أخرى من مؤلّفاته وديوانه الذي هو في الأصل جزء من مجموع مؤلّفاته، إذ كان يضمِّنُ أشعاره في الغالب مجموعةً في آخر بعض كتبه القيّمة، ومن هنا تكون نسخة الدّيوان التي اعتمدتها هي الأصل وبخطّ الكاتب وتوقيعه، مجموعةً من أصول مؤلفاته، وهي في نفس الوقت من الشّواهد على صحّة نسبة الدّيوان إلى مؤلّفاته، فتشابه الخطوط، ودقّة التّواريخ، ثمّ صحة الأعلام المذكورين فيه إذ كلّهم معاصروه وأغلبهم مشهورون وله معهم مراسلات، يضاف إلى ذلك أسلوبه الأدبي والفني الذي لا يتغيّر، ثم النّقد الصّريح ودقّة الملاحظة، وغير ذلك.

لقد أغنتني النّسخة الأم بخطّ المؤلّف من عناء المقابلة، رغم أنّها أضنتني في البحث عنها، وفي تفكيك ما غمض وتمحّل منها، والدّيوان مجموع كما أسلفت إلاّ بعض القصائد التي عثرت عليها في مجموع آثاره، كما ستجده مفصّلا فيما سيأتي من وصف المخطوطات وأماكن وجودها، والملاحظ هنا وجودها جميعها تقريبا بمكتبات بني يسجن[1]، مسقط رأس الشّيخ.

وقد شرعتُ في تحقيق الدّيوان معتمدا على النّسخة الأم المذكورة بعد جمعها، وبعد أن ذلّلَ لي مشكورين معظم الإخوان الكثير من العقبات، بتصوير النّسخ وتصفّح المخطوطات مرارًا، ومساعدتي في قراءة بعض النّصوص المُتمحِّلَة، ونسبة الخطوط إلى أصحابها وأعني بذلك شكري الجزيل للأستاذ الباحث يحي بن عيسى بوراس ـبارك الله في أعمالهـ، وكذلك المؤرخ الحافظ الحاج سليمان بَكّاي ـحفظه اللهـ قيّم مكتبة الاستقامة ببني يسجن... وغيرهما كثيرون.

وقد رأيت أن أجعل عملي على قسمين رئيسيين وهما:

القسم الأوّل:

الدراسة وتحوي بدورها مجموعة من العناوين وهي: نظرة على جزائر القرن الثّامن عشر الميلادي، الثّاني عشر الهجري، وادي مزاب خلال نفس الفترة، النّهضة الفكرية بمزاب وروّادها، جهود الشّيخين أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي، والشّيخ ضياء الدّين عبد العزيز الثّميني، المؤلّف نسبه ونشأته، أبناؤه، صلته بمجتمعه، تولّيه المناصب، زملاؤه، مؤلّفاته، نظمه للدّيوان، وقد فصّلت قليلا في رحلته الحجازية وفي قضية صالح باي نظرا لأهميتهما في مؤلفات الشيخ ابن بحمان، فذكرت رحلته وتفاصيلها ـرحلة المُصعبيـ، ثم قضيّة صالح بـــاي

1. بني يسجن، أو "آت يزجن" من أشهر قرى مزاب، غرداية الجزائر، مدينة العلم والعلماء، أسست عام 720هـ/1321م، أصل المدينة "تافلالت"، وقد عرفت عدة توسُّعات، وهي تقابل قصر بنورة ومليكة في ضفة وادي مزاب.
ينظر: الحاج سعيد يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، ط1، 1991، ص22.

وتداعياتها، وفي الأخير وصفت النّسخ المخطوطة التي اعتمدتها، والرّموز المستعملة في التّحقيق، ولقد أنهيت الدراسة بخلاصة عن الخصائص الفنّية في شعر ابن بحمان.

القسم الثّاني:

التّحقيق، وقد سلكت فيه الطرّق الفنّية والمنهجية العلمية خاصّة ما يتعلق بتحقيق النّصوص ونشرها، فأخرجت النصّ نقلا محقّقا من المخطوط إلى المبيضة قدر المستطاع دون إضافة أيّ شيء على المتن، وتركت كلّ ملاحظة أو تعليق مُهمٍّ إلى الهامش ولم أضف أيَّ شيءٍ في المتن إلاّ بعض العناوين وأشرت إلى ما كان منها من وضعي، ليظهر بذلك النصّ مقاربا لما تركه عليه مؤلّفه آخر مرّة، ولأحقق بذلك الأمانة العلمية، وقد وضعت أرقاما على الأبيات ليسهل بذلك التّعليق عليها في الهوامش، كما وضعت عناوين على القصائد وبيّنت ما كان منها من اقتراحي وما هو من وضع الشيخ، كما أن هناك لبعض القصائد شروحا للمفردات على الهوامش، ثبتُّها بعد أن عُدت إلى لسان العرب ووجدتها مطابقة لها، وقد عرَّفت بالأعلام الذين أتى ذكرهم في الدّيوان إلاّ ما كان منهم مغمورا لم أستطع الوصول إليه، وكذلك الأمر بالنّسبة للأماكن، وأشير هنا إلى أنّ البحث عن الأعلام والأماكن استغرق وقتا طويلا وجهدا كبيرا لأنّ منهم الكثير ممن لم يأت ذكره في المصادر والمراجع فسألت المؤرّخين والعارفين بالأنساب، وقد اهتديت والحمد لله إلى التّعريف بأغلبهم، وقد شرحت ما غمض من الألفاظ معتمدا اللّسان لأنّ الشّاعر كان يستعمل لغة جزلة، وضبطت قبل ذلك النّصوص والقصائد التي لم يضبطها الشّاعر بالحركات الإعرابية، كما خرّجت الآيات والأحاديث والأشعار من مظانّها في المصادر والمراجع مشيرا ومعلّقا على الاقتباسات، وقد صحّحت بعض الكلمات المصحّفة والتي اندثر أو انمحى خطّها بعوامل الزّمن، وقد حافظت أيضا على التّسلسل الزّمني للقصائد فلم أرتّبها حسب الأغراض لأنّ التّحقيق هنا لا يستدعي ذلك، وحتّى تتبيّن لي مصادر تلك

الطّفرة في شعر الشّيخ إبراهيم بن بحمان، وحتّى أبلّغ بأمانة مقاصد الشّاعر، كما استثمرت _ما استطعت_ كل ما قرأته في كتاب فن تحقيق النّصوص ونشرها للدّكتور محمّد عبد السّلام هارون، وغيره من الكتب المهمة في منهجية التحقيق، كما أنني حافظت على الرسم الذي كتب به الشيخ ابن بحمان مراعاة لسير التحقيق بموضوعية، ولتحقيق الأمانة العلمية، ولم أغير من أسلوب المؤلف في الكتابة، ومن أمثلة ذلك: (لاكن=لكن)، و(كذالك=كذلك)..، لأني أرى أن تصحيح ذلك أو تركه لا يمس في سلامة المعنى، كما أن أسلوبه فعلا بحاجة إلى المزيد من الدرس والتحليل؛ وقد أنهيت بحثي بملحقٍ يحوي عرضًا لبعض النّماذج المخطوطة مصوّرة من الدّيوان ونسخًا أخرى مصورة من بعض مؤلفاته المختلفة، ثمّ خريطة تبيّن مسلكه في رحلته إلى الحجّ ذهابا وإيابا، وفي الختام فهارس الموضوعات، والآيات القرآنية والأحاديث، وفهارس الأعلام والأماكن، والقبائل، والاقتباسات الشعرية، وفهرسا للمقابلات والمراسلات، ثم المصادر والمراجع.

الرّموز المستعملة ودلالتها الاصطلاحية:

المج:	المجموع	س:	سطر
نا:	النّاسخ	خ:	خط
ت.ن:	تاريخ النّسخ	ج:	جمع / جزء
م.ن:	مكان النّسخ	ق:	ورقة
*:	ملاحظة	و:	وجه
مخ:	مخطوط	ظ:	ظهر
[كذا]:	هكذا ورد في الأصل	م.آ:	مبتور الآخر
م:	مقاس	م.أ:	مبتور الأوّل
ح.ح:	حالة الحفظ	اللّسان:	هو لسان العرب
ف:	فصل	ح:	حرف

87(هـ) الصفحة 87 في الهامش تر: ترجمة

(1) (2) (3) إحالات على هامش المتن هي من وضعي.

التّواريخ الميلادية في الدّيوان مثل (1796م) هي من وضعي كذلك.

مدخل إلى جزائر القرن الثامن عشر الميلادي:

تعدّ فترة الحكم التّركي بالجزائر من الحِلق المجهولة والمغمورة، كما تفتقد بحق إلى تأريخ واضح، يعود ذلك إلى ندرة المصادر العربية فيها وهو ما زاد في تعقيدها، وتبقى الإشارة واضحة إلى أنّ الشّخصية الجزائرية المحضة لم تظهر بوضوح، طالما أنّ المؤرّخين نقلوا عن المجتمع الرّاقي والذي لم يحو في مناصب السّلطة إلاّ أتراكا أو كراغلة أو أجناسا أخرى، ليبقى العنصر الجزائري الخالص بعيدا عن دواليب الحكم والسّلطة إلاّ من فرض نفسه بالقوّة، وهي قلّة قليلة.

خلال هذه الفترة التي أتناولها بالدّراسة استطاعت الطّبقة الحاكمة أن تقترب كثيرا من الشّخصية الجزائرية التي تسمح بالتعدّد والتنوّع، وتنصهر في بوتقتها إلى الفترة القريبة من الاحتلال الفرنسي، تلك الطّبقة العسكرية الحاكمة استطاعت فعلا أن تنفصل عن القُسطنطينية وصارت تضبط سياستها على أساس المصلحة الوطنية[1]، ولعلّك ستلاحظ ذلك في شخصية صالح باي[2] كما صرّح بذلك الشّيخ أحمد توفيق المدني في حديثه عن نظام الدّايات في الفترة الممتدّة من 1671 إلى 1830م بقوله: « ..وكان الدّايات ملوكا مستقلّين استقلالا واسعا لا يتبعون الدّولة العثمانية إلاّ اسما»[3].

لقد امتازت هذه الفترة من حكم الدّايات بتطوّرات وتغييرات مختلفة على جميع الأصعدة ولم تستقر الأوضاع لأيّ داي، باستثناء محمّد عثمان باشا[4] الذي

1. ينظر: مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مطابع بدارن وشركاؤه، بيروت لبنان، ط1، 1964، ج3، ص12.
2. ينظر: تعريفه فيما سيأتي، وقضيّته، المشهورة مع بني مزاب.
3. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا (داي الجزائر) وخلاصة من تاريخ الجزائر في العهد التّركي، المطبعة العربية بالجزائر، 1356هـ، ص50.
4. ينظر: نفسه، ص 92 وما بعدها.

فصّل في سيرته الشّيخ أحمد توفيق المدني، إذ كان معظم الدّايات يلقون حتفهم مغتالين أو مخلوعين بسبب الفتن الدّاخلية والخارجية التي كانت تعصف باستمرار بالبلاد شرقها وغربها، شمالها وجنوبها.

إنّ الوضعية السّياسية والاقتصادية والاجتماعية والثّقافية في الجزائر كانت بين مدّ وجزر كبيرين، بين الغزو في الدّاخل والقرصنة في الخارج[1]، ومن ثَمَّ فإن الجزائر لم تشهد تطوّرات مستمرّة في النّمو في شتّى الميادين، إذ لا يمضي دايٌ يُعدّل حتى يأتي بعده آخر يفرض سياسته وحكمه الشّخصي المتفرّد فتعُمّ بذلك الفوضى.

لقد أسرف الدّايات على أنفسهم في طلب ملاذ الحياة ومتاعها، بينما كان السّواد الأعظم غارقا في الجهل وبؤس المجاعات، التي كانت تتوالى أحيانا في سنوات متلاحقة.

أضف إلى ذلك السياسة الجبائية التّركية المتعسّفة، التي كان من ورائها إسراف الدّايات وأتباعهم في طلب رغد العيش في قصورهم، ما جعلهم يرفعون الإتاوات والجبايات باستمرار على التجّار والحرفيين البسطاء فصار هؤلاء الضعفاء مضطرّين إلى طلب العيش من مكاسب أخرى لعدم قدرتهم على تسديد تلك الرّسوم، كما أنّ الفلاّحين هجروا أراضيهم لذات السّبب، ولعوامل القحط والجفاف، وهو ما فتح الباب على مصراعيه لانتشار ظاهرة السّلب والنّهب وقطع الطّرق حتى استفحلت وصارت تشكل باستمرار ظاهرة تهدد الأمن والاستقرار[2].

ليبقى الازدهار النّسبي ملاحظا في الهندسة المعمارية في المدن والعواصم الكبرى حيث قصور الدّايات، أمّا ما سوى ذلك من البوادي والصحاري فلا أثر يُذكر للحكم التّركي.

1. ينظر: عثمان الكعّاك، موجز التّاريخ العام للجزائر، مكتبة العرب بتونس، 1344هـ، ص459.
2. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، ص117.

وانظر بتمعّن فصل الثّورات ضدّ العثمانيين[1]، والتي كان من أسبابها فرض المسئولين الأتراك للضّرائب الباهضة على قبائل كاملة لإخضاعها إلى سلطتها بالقوّة، وذلك بعد التوسّعات إلى الجبال والجنوب[2]، أمّا المؤسّسات الثّقافية فلم تكد تخرج عن المساجد والكتاتيب والزّوايا، هذه الأخيرة التي ازدهرت كثيرا بما لها وما عليها، في ظلّ الظّروف الاجتماعية والسّياسية المضطربة.

وبصفة مختصرة هذه هي وضعية الجزائر خلال حياة الشّيخ الحاج إبراهيم بحمان الذي سيصنع بعض تاريخها مع العثمانيين، وينافح بقلمه الجزائري الخالص عن تجار قسنطينة ضد الهيمنة الجبائية التركية الممثلة في شخص الباي صالح، ومن هذه الزاوية فإنه يمكن فعلاً اعتبار الشيخ إبراهيم بن بحمان المُصعبي شخصية جزائرية ثورية دافع عن جزائريته من مسقط رأسه بني يسجن بمزاب.

هذا الأخير الذي كان يعيش أوضاعا أخرى تختلف عن أوضاع الجزائر بحكم البُعد والانزواء، ولا تختلف عنها في أشياء كثيرة لأحكام أخرى كانتشار الجهل والفقر والتخلف...

مزاب خلال القرن الثّامن عشر:

لمّا حلّ الأتراك بالجزائر، وتوطّدت أرجلهم بعواصمها وسهولها، كان بنو مزاب بحكم عزلة واديهم يحيون حياة بسيطة عادية، لمناعة منطقتهم وبعدهم عن مناطق العمران الحضري وطرق القوافل.

ولمّا صار عددهم يتزايد ومردود زراعتهم يتضاءل بسبب الجفاف الذي صار يتوالى في سنوات متتالية مترابطة، أُجبر بنو مزاب على التّفكير في موارد أخرى للعيش، فأخذوا في الاغتراب المنظم إلى شمال البلاد للتّجارة[3].

1. ينظر: د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج1، صفحات 209-224.
2. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، ص65.
3. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص46.

و لم تكن سبلهم من مزاب إلى التلّ ومنه إلى مزاب آمنة في كلّ وقت، فقد اعتراها ما يعتري كلّ البوادي التي لم يصلها جند الأتراك، واستحوذ عليها الأعراب الذين باتوا يمتهنون من قطع الطّريق حرفة لمعاشهم لا يردّهم عن ذلك وازع ولا يقهرهم رادع.

وبفضل نشاط بني مزاب وتفانيهم صاروا أربابا للصّناعات في أغلب مدن التلّ وتوطّدت بذلك علاقتهم مع الأتراك من خلال الصّناعة والتّجارة، ويقول عنهم عثمان الكعّاك: «وهم (بنو مزاب) من أنشط البربر في العمل، وأكثر سكّان المغرب عملا وإنتاجا ونشاطا وحماسا ودفاعا عن المذهب والوطن، ولا تزال بلادهم إلى الآن (إلى الاحتلال الفرنسي) متمتّعة باستقلالها الدّاخلي»[1]، أما أحمد توفيق المدني فقال: « ولمّا كان المزابيون يهاجرون لبلاد التلّ باستمرار قصد التّجارة والمكسب، فقد اعترفت قصورهم منذ انتصاب الأتراك بالبلاد بالتّبعية للدّيوان، إنّما كانت تلك التّبعية اسمية فقط و لم يُحدّد مداها، فكان استقلالهم مطلقا في بلادهم».[2]

وقد اضطرّ بنو مزاب بسبب تردّي الأوضاع والفوضى وقلّة الأمن في الطّريق إلى عقد تحالفات دفاعية وتعاونية مع بعض الأعراش، كالمخاليف والأرباع وأولاد نايل، لحماية قوافلهم وأموالهم من قطّاع الطّرق ومن النّهب والسّلب[3].

لقد توصّل بنو مزاب أيضا إلى عقد اتّفاقات مع الأتراك أيضا في الجزائر لحماية ممتلكاتهم، وأوّل اتّفاق مع الأتراك كان بعد مشاركة المزابيين المستميتة في الحرب ضدّ الأسبان بمدينة الجزائر، حيث خلّصوا كدية الصابون التي احتلّها الأسبان وأشرفوا بها على العاصمة.

وملخّص القصّة هو أنّ خير الدّين بربروس[4] لمّا أحسّ بخطورة الموقف واحتلال كدية الصابون وإحاطة العدوّ بالعاصمة بعث بسرعة في استدعاء الشيخ بحيو موسى

1. ينظر: عثمان الكعّاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص455.
2. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، ص156.
3. ينظر: حمو عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار البعث قسنطينة، ط1، ج1، ص58.
4. والي الجزائر العاصمة من 924هـ إلى 941هـ، (1517– 1534م).

العطفاوي[1] قائد معركة الفرسان ضدّ حملة "دُونْ قَارصْيا" على جزيرة جربة سنة 916هـ/1510م، وأمين المزابيين ـ بعد ذلك ـ في الجزائر بكير بن الحاج محمّد بن بكير وهو من مُليكة بغرداية، وبعض المجاهدين المخلصين ليستشيرهم، فأشاروا عليه بالقيام بعملية فدائية، حيث يتسلّلون إلى معسكر العدو وهم يحملون نعشا به أسلحتهم وكأنّهم يشيّعون جنازة حتّى إذا تمكّنوا من وسط المعسكر يتسلّل واحد منهم لينسف مستودع الذّخيرة والبارود فيختلط حال العدو ويرتبك، فينالون منه بعد أن يلتحق باقي العساكر، وتمّت لهم تلك العملية بنجاح كبير، ولا تزال مقبرة شهداء بني مزاب بالمكان المسمّى "لِيفِيي" بوسط حسين داي بالعاصمة إلى اليوم، ومن هنا توطّدت العلاقة أكثر فأكثر مع الأتراك حيث تأكّدوا من وطنية المزابيين فاستحدث لهم الدّاي منصب الأمين، والذي يُخوّل له حضور الاجتماعات في قصره، وينوب عن بني مزاب، كما منحت لهم امتيازات كتسيير المسالخ ليكون الذّبح على الشّريعة الإسلامية، وتسيير الحمّامات وغيرها من الصّنائع[2].

وقد جدّد بنو مزاب ولاءهم للدّولة العثمانية عندما احتلّ صالح باي[3] الأغواط وأخضع جبال عمّور وبني جلاب وما حولهما، إذ رأى جماعة بني مزاب أنّه من الحكمة تجديد الولاء للسّلطة العثمانية طوعا واختيارا، حتّى يحافظوا على حقوقهم وامتيازاتهم، فأرسلوا وفدا عنهم إلى الأغواط عندما حلّ بها الباي صالح وأعلنوا انضمامهم وولاءهم، ووقّعوا على الاتّفاق الذي يقضي بأن تبقى مزاب

1. من مدينة العطف بغرداية، عالم ومجاهد قاد حملة الرّد على الأسبان في جربة 1510م، وله قصيدة في وصف تلك المعركة، وتذكر المصادر أنه غنم في تلك المعركة أكثر من عشر بواخر أسبانية، كما قاد العملية الفدائية في الجزائر ضدّ الأسبان 1518م، ولا يزال ضريحه قائما إلى اليوم بالعطف، غرداية، الجزائر، يزار في مواسم الفضل للدعاء والذكرى.
ينظر بتفصيل أكثر: حمّو عيسى النّوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر، ج1، ص221 وما بعدها.
ينظر كذلك: حاج يوسف سعيد، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، ط1، 1991، ص56 وما بعدها.
2. ينظر: المرجعين نفساهما، وبتفصيل أكثر حمو عيسى النّوري، دور المزابيين، ج1، ص203–209.
3. هو صالح بن مصطفى المولود في أزمير بتركيا 1725، دخل الجزائر سنة 1741، التحق بسلك الجندية وأخذ يترقّى في الوظائف العامّة والإدارية حتّى ولاّه عثمان باشا على قسنطينة سنة 1771، وبقي بايًا عليها حتّى مصرعه سنة 1793.

حرّة مستقلّة في داخليتها، تدير أمورها بنفسها حسب عوائدها وتدفع سنويا للخزينة العامّة مقدارا معلوما من المال[1].

أمّا الأجواء الدّاخلية في مزاب فلم تكن ذهبية ناصعة إنّما كانت برونزية مُعتمة، إذ أنه ورغم وجود النّظم التي حفظت الاستقرار بالوادي، إلاّ أنّ المجتمع البربري المزابي لم يكن من السّهل توجيهه وقيادته في ظروف نقُص فيها العلم لذهاب أهله وانتشرت فيه العصبية القبلية التي كان يغذّيها الجهل ومبدأ التّناصُر حتّى في الظّلم، إذ يكفي أن يجرّ متخاصمان اثنان عشيرتين كاملتين ويزجّان بهما في صراعات طاحنة تأتي على الأخضر واليابس، كما كان من أسبابها أيضا الانحطاط الثّقافي عموما وغياب سلطة مادّية قاهرة كالجيش النّظامي أو الشّرطة، وكذلك ازدواجية الصّف فمعظم العشائر كانت مقسّمة إلى كتلتين شرقية وغربية.[2]

على المستوى العام فإنّ قرى مزاب كانت تشكّل اتّحادا يشرف عليه مجـلس أعلى يمثّل من كلّ المدن (القرى) من: العزّابة والأعيان... ولا يعرف تاريخ إنشاء هذا المجلس الاتّحادي ولكن أقدم قرار له وجد مكتوبا كان يحمل تاريخ 01 رجب 807هـ/1405م، وقد كان أوّل الأمر ينعقد في مقبرة باعبد الرّحمان الكرثي[3] ثمّ أخذ يتجوّل حسب الظّروف بين هذه المقبرة ومقبرة الشّيخ عمّي سعيد؛ وهذا المجلس الأعلى مجلس تشريعي يشرِّعُ الأحكام في الجرائم والجنايات والمعاملات كما يضع اللّوائح التي تخصّ حياة مزاب العامّة، ورئيس هذا المجلس يسمّى شيخ وادي مزاب تنتخبه عزّابة القرى من بينهم وهو الذي يعلن عن الاتّفاقات التي تصدر عن المجلس.

1. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، ص156-157.
2. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص71.
3. باعبد الرحمان الكرثي من علماء وادي مزاب ق1276م، له مصلّى لا يزال قائما بمليكة إلى اليوم.
ينظر: معجم أعلام الإباضية، جمعية التّراث، ط1، 1999، المطبعة العربية، ج3، ص512.

مما وقع عليه الاتّفاق مثلا: في شوّال 1025هـ/1642م: اجتمعت خمس قرى في روضة أبي مهدي عيسى واتّفقوا أنّ: «من يحمل الحديد (السّلاح الأبيض) فغرامته عقوبته 25 ريالة، والذي يضرب به 50 ريالا والنّفيان، والحمية والعصبية فغرامته 25 ريالا، والذي عاقبته الجماعة بغرامة فَنَافَ عليه أحد أو أوشاهُ يغرَّم عليه 5 ريالات، ومن غضب من بني عمّه وصار يُشوّش على عشيرته فغرامته 25 ريالا».[1]

إن مثل هذه الاتفاقيات حفظت للمجتمع المزابي جزءًا هامًّا من كيانه وتوازنه واستقراره، في حين كانت السلطة العثمانية لا تنتظر من رعاياها إلاّ دفع الغرامات والدُّنُوش التي عليهم بعد الحصاد، ومن جهة أخرى فإنه ورغم الردع المفروض بالتّعزيرِ والنفي والهُجران...، إلا أن السواد الأعظم كان غارقا في مظاهر التخلف السالفة الذكر، وانتشرت فيه الأمراض الاجتماعية والآفات المختلفة، وهو ما دعا النخبة إلى التفكير بعمق فيما يخرجهم من هذا التخلف الخطير، حتى توصلوا إلى أنه لن يُحييَ هذه الأمة إلا ما أحياها في أول عهدها، وهو طلب العلم من مصادره، فراحوا يرسلون البعثات المختلفة لإحياء العلم وتنوير العقول، تماما كما فعل السلف، وفي كتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني تاريخ حافل بسِيَرِ الأسلاف ونشاطهم في طلب العلم ونشره.

النّهضة الفكرية في مزاب:

كان من النّتائج المحمودة للبعثات العلمية في تلك الفترة إلى جزيرة جربة ومصر الأثر المحمود على بني مزاب، وهو ما جعلهم كذلك يفكّرون بعد عقود أخرى في إرسال بعثات متتالية، وممّن كان لهم الفضل في إحياء العلم بمزاب بعد عودته من جزيرة جربة: الشّيخ أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي الشهير بـ"عَمِّي يحي"[2] (1712-1788م) وهو من العلماء الأعلام وكبار المشائخ بمزاب إبّان النّهضة الحديثة،

1. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص50-51.
2. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، صفحات 965-968.

بل هو باعثها الأوّل[1]، ولد ببني يسجن بمزاب، ثمّ رحل إلى جربة لطلب العلم ومكث بها اثنتي عشرة سنة متّصلة متفرّغا فيها لطلب العلم، ثمّ رحل منها إلى مصر وأقام بها أيضا ردحا من الزّمن، يغترف من معين علمائها ويجلس لدروس المدرسة الإباضية بوكالة الجاموس العامرة، ودروس جامع الأزهر، كما رافق في ذات الفترة الشّيخ أبا حفص عمرو بن رمضان التلاتي الجربي، ثمّ عاد إلى وطنه مزاب حوالي 1744م وشرع في وضع أسس حركة إصلاحية شاملة، فعلّم وأرشد وأصلح في التّعليم والوعظ وفتح مدرسة هي في الأصل جزء من مسكنه، تحوّلت بعد ذلك إلى معهد هو عبارة عن قسم للدّراسات العليا، ومنه تخرّجت على يديه جحافل الطّلبة الذين قادوا الحركة الإصلاحية بوادي مزاب ووارجلان ووادي أريغ، منهم: ابنه موسى والشّيخ ضياء الدّين عبد العزيز الثّميني، والحاج إبراهيم بن بحمان، وحمّو والحاج اليسجني وأبو يعقوب يوسف بن عدّون، وبابه بن امحمّد الغرداوي...وغيرهم.

التحق الشّيخ بعد استقراره بمزاب بحلقة العزّابة، وقد صدرت في عهده تقنينات (اتّفاقيات العزّابة) والتي كانت تهدف إلى تنظيم الحياة العامّة بوادي مزاب[2].

إضافة إلى جهوده في الإصلاح وتخريج الطّلبة فقد اشتغل بنسخ الكتب والتّأليف وترك ما لا يقلّ عن عشرين نصّا بين رسالة وحاشية، كما وله تآليف في شروح على دواوين شعرية في العقائد، وقد ترك مكتبة ثرية لا زال ذووه يتوارثونها إلى اليوم، وقد توفّي ـرحمه الله ـ عن عمر يناهز 76 سنة بعد مرض عضال ألزمه الفراش ثلاث سنين، وقد رثاه تلميذه الشيخ ابن بحمان كما سيأتي في مكانه من الديوان.

ومن أعلام الإصلاح أيضا: الشّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز الثّميني الملقّب بـ"ضياء الدّين"[3] (و: 1718م- ت: السبت 11 رجب 1223هـ،

1. ينظر: علي يحي معمر، الإباضية في موكب التّاريخ، الحلقة الرّابعة، الإباضية في الجزائر، مطبعة الدّعوة الإسلامية مصر، ط1، 1979، ص310.
2. ينظر: السابق، ج4، ص966.
3. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، صفحات 532-534.

1808م) وهو خال الشّيخ صاحب الدّيوان، وكثيرا ما افتخر به في شعره ونثره كما ستلاحظ ذلك في أماكن مختلفة من الدّيوان.

يعدُّ الشيخ ضياء الدين عَلَمًا من أعظم أعلام الإباضية، وهو من بني يسجن بمزاب، نشأ بها وحفظ القرآن ثمّ سافر إلى وارجلان ليدير أملاك والده هناك حتّى سنّ الثّلاثين[1]، ومع عودة الشّيخ "عمّي يحي" إلى مزاب، سمع بخبره فانتقل إلى مزاب لملازمته في حلقاته، وكان حاذقا فنبغ في علوم اللّغة العربية، والشّريعة والمنطق وغيرها، كما خاض مع شيخه حركة الإصلاح، وقد أسندت إليه مشيخة المسجد خلفا لشيخه سنة 1786م، وقام بها أحسن قيام حتّى اعتزل النّاس لفتنة وقعت في المدينة، وتفرّغ للتّأليف موصدا باب منزله مدّة 15 سنة لا يخرج منه إلاّ إذا حزب الأمّة أمر[2]، مشتغلا بالتّدريس والفتوى والتّأليف، فأثحف المكتبة الإسلامية بمجموعة مؤلّفات منها ما هو عمدة المذهب الإباضي في الفقه ككتاب النّيل وشفاء العليل، الذي اختصره ثلاث مرّات، وشرحه قطب الأئمة الشّيخ اطفيش وطبع في 17 مجلدا، والتّاج على المنهاج في 26 جزءا، وتعاظم الموجين، وهو شرح لمرج البحرين للوارجلاني أبو يعقوب يوسف، وغيرها كثير لا يزال مخطوطا، كما ترك مكتبة عامرة انتقلت إلى حفيده محمّد بن صالح الثّميني ثم صارت اليوم إلى بني يسجن وهي الآن تعرف باسم مكتبة الاستقامة.

جهود الشّيخين "عمّي يحي"[3] و"ضياء الدّين"[4] في الإصلاح:

لم تستقم جهود الإصلاح التي بادر بها الشيخان "عمّي يحي" و"ضياء الدّين" الثّميني بسهولة، وذلك لتجذّر الفتن واستفحال الآفات والخرافات، وانتشار

1. هكذا تؤكّد مختلف الرّوايات ولم يشكّك أحد فيها، إذ المعروف عن التّاريخ الإباضي أنّ أغلبه لم يُدوّن بل كان يحفظ ويروى ولا يكتب إلى عهد قريب، حيث صار أبناؤه اليوم متحمّسين لتدوينه ونشره.
2. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص82.
3. هذه الكنية أشتهر بها الشيخ أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي.
4. الراجح عندي أن هذا اللقب أول من أطلقه على الشيخ عبد العزيز الثميني هو ـابن أخته ـ الشاعر إبراهيم بن بحمان الثميني صاحب الديوان.

الاعتقادات الزّائفة، فلاقى لذلك الشّيخين السّالفين من أجل نشر رسالة الإصلاح أذًى كثيرا، كما كان للشّيخ صاحب الدّيوان نصيبه من أذى النّاس ومكرِهم، حيث فقد ابنه ظُلما حين نفاه قومه إلى البليدة متّهما زورا، ليموت بالجذري هناك، وقد رثاه وبكاه أبوه بحزن شديد، ويطول بذلك سخط الشّيخ وتهجّمه على قومه وفضح أفعالهم بسب هلاك ابنه وثمرة فؤاده، لم يكن ذلك تهكّما أوتهتّكا ولكن فضحا وتأنيبا لهم حتّى ينيبوا ويخجلوا من أفعالهم، كما كان تنفيسا من الهموم التي أسرت قلبه، وكادت تقضي عليه، وستلاحظ كثرة ذلك في أماكن مختلفة من الدّيوان.

إن جهود الشيخين في الإصلاح جلبت إليهما الطلبة من مختلف المشارب والذين صاروا بعد ذلك هم الأقطاب، ولا شكّ أنّ ملازمة الشّيخ إبراهيم بن بحمان لهما كان لها الأثر الكبير في صقل شخصيته الرّافضة للجهل والنّاهية عن المنكر، في زمن طغت فيه العصبية واشتد فيه الأخذ بالثّأر.

لقد سلم الشيخ من محاولات الاغتيال التي كانت كثيرا ما تحاك ضدّ الشّيوخ المُصلحين، ولعلّه كما قال لي الحاج سليمان بكّاي[1]: «إنّه (يعني الشيخ ابن بحمان) لّما كان من عائلة عُرفت بالعلم وكان لها مكانة اجتماعية مرموقة صار أبناؤها ومنهم الشّيخ الحاج إبراهيم والشّيخ "ضياء الدّين" لا يُمسُّون بالأيدي وإن كانوا يؤذون بالقدح في مجالس الغوغاء أو باللّمز في الطّرقات».[2]

وقد كانت حركة التنقّل العلمية خلال هذه الفترة مزدهرة بحكم الإصلاحات وظهور تقنينات "اتّفاقيات العزّابة" التي كانت تجمع العزّابة باستمرار، ما أحدث نقلة نوعية للقاءات التي كانت تجمع عزّابة قرى وادي مزاب، إذ فيها وجد العلماء والأدباء منهم ضالّتهم ومتنفّسهم من جفاء أقوامهم، كما وازدهرت حركة النّسخ والمراسلة بينهم وبين إباضية عمان وجربة، ولقد وقفت بنفسي على كثير منها كما

1. الحاج سليمان بكّاي، مؤرّخ وحافظ، وهو أيضا قيّم مكتبة الاستقامة ببني يسجن، غرداية.
2. لقاء مع المؤرّخ الحاج سليمان بكّاي بمكتبة الاستقامة بني يسجن، 13ديسمبر 2004.

لاحظت معاصري الشّيخ إبراهيم بن بحمان فإذا أغلبهم ممّن اشتغل بنسخ المخطوطات، إذ منهم من لا تقلّ منسوخاته عن عشر كتب من الأُمّهات[1]، ليس هذا فقط بل إنهم اعتنوا حتّى بتجليدها وزخرفتها وتدبيج خطّها، وكلّ ما يمكن أن يعتبر وقتئذ من المكمّلات الحديثة للتّأليف والنّسخ.

أمّا المراسلات فقد كانت بحق نزهة للألباب الحائرة من غلظة أقربائها وجفاء أبناء البلدة الواحدة، فترى شيخنا إبراهيم بن بحمان يتذمّر من أوباش بلدته بني يسجن، يتوق إلى القرارة وأهلها، مادحا إيّاهم بكلّ بديع ورفيع، في حين تجد شكوى صديقه الشّيخ بالحاج بن كاسي القراري واستياءه من أهل بلدته القرارة ومن فضاضتهم، في ردٍّ لجواب إلى شيخنا إبراهيم بن بحمان[2]، وهذا الأسلوب كان هو الغالب في مراسلاته، ومردُّ ذلك أنّ الإنسان السّجين يرى أو يتوهّم أن كل ما هو خارج محيطه أحسن ممّا عنده، وعلى العكس فقد يتوهّم البعيد أنّ ما بالدّاخل أجود ممّا عنده، وكلّ هذه وأخرى قضايا نسبية كونها ظواهر إنسانية نفسية وجدانية.

الشّاعـر:

نسبه ونشأته: هو إبراهيم بن عبد الرّحمان[3] بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد العزيز بن عبد الله بن بكير بن موسى بن امحمّد بن عبد العزيز[4] بن عبد الله بن يحي بن موسى الحفصي قبيلة المُزابي بلدا[5]، من علماء بني يسجن البارزين، وقطب من أقطاب مزاب على عهده، وكما قال فيه الحاج سعيد يوسف: «كان مؤلّفا وشاعرا جليلا وعالما حكيما أديبا، فيلسوفا ورحّالة»[6]، لم تورد المصادر سنة ميلاده، ولعلّها كانت في الثلاثينيات أو الأربعينيات من القرن 18م ذلك لأنّه

1. ينظر: فهرس مخطوطات الخزانة العامّة، مؤسّسة عمّي سعيد غرداية، ط1، 2002، كشّاف النسّاخ، 187.
2. ينظر: جواب الشيخ بلحاج إلى ابن بحمان، مج مؤلفات هذا الأخير بمكتبة الحاج صالح لعلي، مخ كله.
3. هذا هو الاسم الأصلي للشيخ ويقال لعبد الرحمان بالبربرية بحمان، ولا تزال مثل هذه الأسماء منتشرة بمزاب.
4. إليه يرجع نسب عشيرة بامحمد بن عبد العزيز ببني يسجن من أكبر العشائر بها.
5. ينظر: مذكرة لدفتر قديم لعائلة الثّميني، بحوزة المؤرّخ الحاج سليمان بكّاي بمكتبة الاستقامة، ببني يسجن. مخ كله.
6. الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص84.

كان قد اختصر كتاب المناسك للجيطالي[1] ليأخذه معه كزادٍ معرفيٍ في رحلته إلى الحجّ سنة 1196هـ/1781م، حيث فرغ من تأليفه في ذي القعدة 1195هـ، ثم انطلق إلى الحجّ في رجب 1196هـ، ثم إن منصب العزّابي يكون في الغالب معتبرا، لا يرشح له الإنسان إلاّ إذا بلغ الرّشد، لذلك رجحت أن تكون هذه السّنوات هي التي عيّن بها عزّابيًّا وحجّ بعدها مباشرة، فكان سنّهُ آنذاك 31 أو 41 سنة، وقد توفّي بعد عودته من الحجّ بـ 35 سنة، ما يعني أنّه عمّر 77 أو 87 سنة تزيد أو تنقص؛ أمّا والده فلم يرد ذكره في أيّ مصدر حتّى من الشّيخ ابن بحمان نفسه على عكس ذلك فقد رثى أمّه، وهي أخت الشّيخ ضياء الدّين عبد العزيز الثّميني، الذي نعته غير ما مرّة بقوله "خالي"، كما أطلق عليه لقب "ضياء الدّين" في قوله من رسالة إلى أعيان عمان: «.. العالم العلاّمة الفاضل، النّدب الأديبُ الكامل، ضياءُ الدّين ونور العالمين، شيخي وأستاذي وقدوتي ونور مذهبي وجلدة ما بين عيني، عبد العزيز بن الحاج إبراهيم بن عبد الله بن عبد العزيز الثّميني الذي هو أخٌ لأُمّي، أعزّه الله مولانا..»[2]، كما أنّ أمّه قامت بدورٍ مهم وكبير في تنشئته على الطّريقة الإسلامية المستقيمة، كيف لا وهي سليلة أسرة علمٍ وورعٍ، ولا شكّ أنّها تعبت وقاست في تلك الظّروف العصيبة، فناهيك عن الأوبئة الفتّاكة التي كانت تنخر المجتمع وتحصد أرواح الصّبيان في سنوات متعاقبة كالجُذري والسّعال الدّيكي والمجاعات[3].. كانت الآفات الاجتماعية بدورها تترصّد الغافلين من الصّبيان أيضا، وتوقع بهم في متاهات الرّذيلة والهوان، ولمّا كانت أمّه صاحبة همّة وتديّن فقد نشأ ابنها متديّنا تحت رعايتها على ذلك، وقديما قال الشّاعر:

1. الجيطالي: هو أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي (ت: 750هـ/1349م) عالم جليل من نفوسة نشأ بجيطال، اشتهر بحافظته القوية والعجيبة، وشدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من مصنّفاته: "قناطر الخيرات"، وهي موسوعة فقهية أخلاقية في ثلاثة أجزاء، شرح النونية لأبي نصر الملوشائي، "قواعد الإسلام"، "الحج والمناسك"... ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج1، ص 112-115.
2. ينظر: تذييل القصيدة الهمزية في أعيان عمان، الدّيوان، ص 172.
3. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص85-86.

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منّا ... على ما كان عَوَّدهُ أَبُوهُ
وما دان الفَتَى بِحِجَى ولكن ... يُعوِّدُهُ التَّدَيُّنَ أقربُوهُ

كما نلتمس أثر والدته في حياته من قصيدته "كشف الغمّ في مرثية الأمّ"[1] وكيف كانت له حصنا وملجأ منيعا في الملمّات، وقد بكاها طويلا، بعد ما كاد ينسى أنّ الموت سيخطفها منه ذات يوم، وطالما أنّها قد ملأت حياته فقد غفل عن الموت الذي هو مصير كلّ حيّ مهما عمّر في هذه الأرض؛ ومنها أخذ مبادئ العلوم الأولى كالقرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، كونها كما يذكرها بأنّها قد حفظت قرآن ربّها وبعض حديث الرّسول ﷺ، هذا وقد توفّيت والدته بعد صراع مع المرض دام ثلاث سنوات ظلّت بها طريحة الفراش إلى أن لبّت نداء ربّها، ولم يذكر الشّيخ سنة وفاتها غير أنّ ابنه قد جاورها في قبرها، ولعلّه ابنه محمّد المتوفّى في ربيع الأوّل من سنة 1218هـ/1805م في البليدة ، والذي مات بالجذري كما يذكر ذلك أبوه.

أبنـــاؤه:

يورد الشاعر إبراهيم بن بحمان ـرحمه اللهـ في تقييد يلي قصيدته "الباترات الوُجديَّة والقاطعات الحُزنيَّة"، شهادات ميلاد أبنائه ووفاة أحدهم كما يأتي: «..وقد زاد ولدنا عبد العزيز بن الحاج بن بحمان صبيحة يوم الجمعة من ثلاث بقين من شهر مبارك رمضان سنة 1180هـ (1766م)، وزاد بعده ابننا صالح ليلة السّبت من ثمانية عشر يوما مضت من ذي القعدة سنة 1182هـ (1768م)، وقد زاد ولدنا محمّد بن الحاج في أواخر سنة 1190هـ (1776م) وزاد ابنه عبد الله ـيعني عبد الله بن محمّد بن الحاج بن بحمانـ ليلة الأحد الثّاني عشر من رجب سنة 1215 هـ (1802م)، وتوفّي أبوه محمّد في ربيع النّبوي من سنة 1218هـ (1805م) ببلد البليدة مُجذريًا رحمه الله»[2]، هذا الأخير عمّر 28 سنة، وترك ابنا هو عبد الله، الذي انتقلت إليه مكتبة جدّه الشّيخ الحاج إبراهيم بن بحمان، ولقد تأثّر الشّيخ بوفاة ابنه محمّد بعيدا

1. ينظر: القصيدة في الدّيوان، الأبيات 13-32، صفحات 110، 112.
2. ينظر: الذيل الذي يلي قصيدة الباترات الوجدية القاطعات الحزنية. الديوان، صفحات 89، 90.

عنه في منفاه بالبليدة، هروبا من بني عمومته الذين أساؤوا إليه كثيرا، ما جعل الابن يقرّر السّفر، ولعلهم اتّهموه حسب ما فهمت من شعر الشّيخ ظلما، ونفّذوا فيه حكم النّفي الذي كان ساري المفعول وتنصّ عليه بعض اتّفاقيات العزّابة[1]، وخلال مدّة النّفي مرض بالجذري ومات، وقد رثاه والده كثيرا لحظوته وثقافته مقارنة بأترابه، ولعلي أميل إلى أن نفيه كان مكيدة مدبّرة ــ والله أعلم ــ.

علاقته بمجتمعه:

لقد كان الشّيخ إبراهيم قريب الصّلة بمجتمعه الصّغير والكبير، قريبا من أسرته وأبنائه حتّى وهم في منفاهم، وقريبا من أهل بلدته يسجن حتّى وإن أساؤوا إليه، يُسدي لهم النّصح ويرشدهم، مدافعا عن أهل مزاب وعن الجزائريين عموما حين جار عليهم الباي صالح بقسنطينة، أين انبرى الشيخ ابن بحمان بقلمه فآزرهم ودافع عنهم عند داي الجزائر الحسن باشا الدولاتلي.

أمّا في مزاب فقد شمّر الشّيخ عن ساعد الجدّ للدّعوة والإصلاح ولاقى مع شيخيه "عمّي يحي" وخاله "ضياء الدّين" الكثير من الأذى، لتجدّر الخرافات والآفـــات كما أسلفت.

تذكر المصادر من دون توثيق أنّ الشّيخ كان ينتقل بين مدن مزاب وقراها للوعظ والإرشاد؛ قلت لعلّ وجود بعض النّسخ المخطوطة من مجموع مؤلفاته في الخزانة العامّة للمخطوطات[2] بغرداية، ربما يمكن اعتباره دليلا على أنه كان ينسخ أو يعلّم هناك، في حين يبقى المؤكّد هو تنقّل مجلس عمّي سعيد[3] الذي كان الشيخ صاحب الديوان كاتب تقاريره ومراسلاته الرّسمية خلال فترة معتبرة، متنقلا بين غرداية ومليكة وبني يسجن...وغيرها، ولا أدري ــ مع البحث الدقيق ــ إن كان قد رافق شيخه ضياء الدّين إلى القرارة لإخماد فتنتها الأولى سنة 1200هـــ/1786م.

1. ينظر: اتّفاقيات المجالس العامّة لمزاب (1405م–1928م) تقديم بعمارة عيسى، دار الشّهاب، ط1، 1990، ص37.
2. قصيدة في الشّكوى من الزّمان والحال وهي دالية، مع قصيدة أخرى من الرّجز في نخيل أهل العطف، رقمها في الخزانة د.غ170.
3. هي الهيئة العليا بوادي مزاب التي تجمع ممثلي عزّابة القصور السّبعة ووارجلان إلى اليوم.

لقد كان الشيخ شديد الحبّ والتعلّق بشيوخه وزملائه وأصدقائه فتراه يكتب قصيدة في مدح شيخيه يعرضها عليهما فيستحسنانها، ثمّ يكتب جوابا إلى الشّيخ يوسف بن محمّد المصعبي "نزيل جربة"[1] مشتاقا إليه ولم يره، ناسبا إليه نفسه تشريفا بقوله: «..من تلميذك بالواسطة الحاج بن بحمان..» أي: تلميذ تلميذك، حيث أن الشّيخ عمّي يحي كان قد أخذ العلم عن الشّيخ يوسف "نزيل جربة" حين كان بها في أيّام شبابه، وعن هذا الأخير أخذ العلم ابن بحمان، كما نلمسُ غيرته على دينه ومذهبه حين انبرى للردّ على ذلك القادح، وبيّن له في الردّ حقيقة أصله ودينه، ومن هذه السّمات وغيرها تظهر لنا شخصية الشّيخ إبراهيم بن بحمان الاجتماعية والوطنية.

لو أنّ شخصا تعرّض لما تعرض له الشّيخ ابن بحمان لهاجر أو انزوى على نفسه ولم يسمع به أحد، لكن محنًا مثل هذه صقلت شخصيته وقرّبته من مجتمعه أكثر وأكثر، تمامًا كما يرجع الفضل أيضا إلى حلقة العلم التي كان بها، وفيها قطباها الشّيخ عمّي يحي وخاله ضياء الدّين.

تولّيه المناصب:

لا تذكر المصادر أنّه تولّى مشيخة مسجد بني يسجن بعد خاله الشّيخ ضياء الدّين عبد العزيز الثميني، هذا الأخير الذي استَخلف على المشيخة والقضاء الشّيخ أبو يعقوب يوسف[2] بن حمّو بن عدّون (و:1158هـــ/ 1745م- ت:1252هـــ-1836م)، الذي تولّى التّدريس والوعظ والإفتاء ورئاسة مجلس عزابة بني يسجن، وصار حلقة في سلسلة نسب الدّين التي تعدُّ إجازة خاصّة لدى علماء الإباضية، وكان من النسّاخ أيضا[3].

1. هو: يوسف بن محمّد المصعبي المليكي (أبو يعقوب) 1079–1187هـ الشهير بـ: "نزيل جربة " من شيوخ جربة وعلمائها الأفذاذ، صار مفتي الجزيرة، وكان مهاب الجانب لا يخاف في الله لومة لائم، ويعتبر المُحشيّ الثاني بعد أبي ستّة.
ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4 صفحات 1031–1033.
2. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص1019.
3. ينظر: نفسه، ج4، ص1021.

ومن هذا المنطلق فإنّ الشّيخ إبراهيم بن بحمان لم يتولّ المشيخة و لم تكن له حلقة علم خاصّة به، ولكنّه كان يحضر بانتظام دروس خاله والشّيخ عمّي يحي، وكان يراسل رسميا باسم عزابة مزاب وإخوانيا باسمه الخاص، وينظم الشّعر ويكتب تقارير المجلس الأعلى للعزّابة واتّفاقياته، وهي في الحقيقة مهام تصرِفُ صاحبها أو المشتغل بها عن مشيخة المسجد التي تقتضي التفرّغ التّام لها، إذ يتّصل بالمشيَخَة عادة إمامة النّاس في الصلاة، والتّدريس والوعظ والإفتاء، وفي الغالب تنظيم أوقاف المسجد وأحيانا القضاء.. وغيرها، وشيخنا ليس من خُلقه التعطّش للسّلطة بل هو يذمّ السّاعين وراءها والمتشبِّثين بها[1] لمعرفته بحقيقتها، فالمسؤولية عنده تكليف وليست تشريفا.

إذن فالرّاجح والمتّفق عليه تقريبا بين المؤرّخين لحياة الشّيخ أنّ المنصب المعلوم الذي تولاّهُ هو اشتغاله كاتبا لتقارير ومراسلات الهيئة العليا بمزاب ـ مجلس عمّي سعيد ـ، وتنقّلهُ مع شيوخه وزملائه في الحلقة لفضّ النّزاعات التي كانت تحدث هنا وهناك في قرى مزاب[2] بين العشائر وبين الناس عموما.

زملاؤه: هم كثيرون، وكانت تضمّهم في الغالب جلسات الهيئة العامّة للعزّابة، منهم من بني يسجن سعيد بن قاسم بن زكرياء، ويوسف بن امحمّد هو ابن الشّيخ حمّو أُويُوسف، وقد تولّى المشيخة ببلدته بعد الشّيخ عبد العزيز الثّميني "ضياء الدّين" كما أسلفت، ومنهم موسى بن يعقوب مُنشِئُ خزانة آل فضل ببني يسجن، وصالح بن محمّد بن سليمان[3]، وموسى بن الشّيخ "عمّي يحي"، ومن غرداية الشّيخ بابه بن محمّد ابن الشّيخ "حمّو وَالحاج"، وعمر بن صالح، وأبو بكر بن يوسف، ومن مليكة الشّيخ عبد العزيز بن صالح بن امحمّد، والشّيخ يحي بن

1. ينظر: البيت 89 من قصيدة كشف الغمّ في مرثية الأم، الديوان، ص 116.
2. قلت لعلّه حضر فتنة آل العطف التي وقعت سنة 1221هـ- 1806م، وسعى لإصلاح ذات البين، وفيها كتب قصيدته في حرق نخيلها.
3. قال لي الأستاذ: يحي بن عيسى بوراس، لعلّه من آل وينتن اليوم.

إبراهيم بن امحمّد، وباعمّور بن أحمد بن إبراهيم، ومن بنورة موسى بن إسماعيل، ويحي بن عيسى بن إبراهيم بن يحي، ومن تجنينت (العطف) أبو بكر بن داود بن يوسف وأبو عيسى بن إبراهيم، ومن برّيان إبراهيم بن سليمان وأحمد بن قاسم، ومن القرارة أعز أصدقائه وأحبّ النّاس إليه الشيخ بلحاج بن كاسي الشّهير بـ "الشّيخ بالحاج" دفين العطف، وسليمان بن يوسف، هذا وقد أورد الشيخ قائمة من ثلاثين اسما من أعيان القرارة وعزّابتها لم أتوصّل إلى التعريف بهم كلهم، مع طول بحث وتنقيب.

كما أني لم أجد أحدا من معاصريه على صلة بمجموعة كبيرة من العلماء والمشائخ إلاّ صاحب الديوان، وهي دليل آخر على تفوُّقه في الاتصال بالناس، ونجاحه في إقامة المراسلات الإخوانية.

مؤلّفاته:

ترك الشّيخ الحاج إبراهيم بن بحمان رحمه الله آثارا عديدة، منها ما وصل إلينا ومنها ربّما ما لا يزال في خبايا الخزائن، وربما هناك ما لم تصل إليه أيدي إخواننا في جمعية التّراث، لتصنيفه ونفض الغبار عنه، ولعلّ منها ما عبثت به يد الزّمن على يد من لم يعرف قيمة العلم وأهله.

وقد نسمع بين الفينة والأخرى بمخطوط ظهر لشيخ من الشّيوخ أو تصحيح نسبته بعد البحث والتّحقيق، كشأن كتاب مختصر المناسك ومهذّب المسالك، المنسوب خطأً إلى شخص يدعى إبراهيم المُصعبي [هكذا] دون تفاصيل أخرى عن حياته، وهو في الأصل لشيخنا إبراهيم بن بحمان المصعبي، كما سيأتي بيانه في مكانه.

لقد كانت لشيخنا جهودا في التّفسير، وفي شرح الحديث ووضع الحواشي، وفي نثر المنظومات والتّلخيص، وكتابة السّير، ووضع التّعاليق وشرح الأمثال وبيان معانيها، وفي علم المنطق كذلك.

كما وله يد طويلة في نظم الشّعر مع تنوّع الأغراض وإجادة عروضه وأضربه، وله يد أخرى في تدبيج الرّسائل وتذييلها، ولا تسأل عن أدب الرّحلة

فإنّه بالفعل مؤرّخ رحّالة، وقد بلغ في هذا الفنّ إلى أقصى الغاية، أمّا مدح الرّسول فبردته البديعة حقًا تستوجب هي الأخرى بحثا وتعليقًا، ولقد وقفت على أزيد من عشر نسخ مخطوطة منها في بعض خزائن مزاب، وما خفي أعظم، ولقد كانت إلى عهد قريب تلقى في مناسبة المولد النّبوي الشّريف بمساجد مزاب وقد طبعت دون تحقيق سنة 1387هـ/1967م في كتيِّب يحوي المولديّات، وعلى العموم يمكن تصنيف مؤلّفات الشّيخ إبراهيم ابن بحمان كما يأتي:

1. ديوان شعر في مختلف الأغراض مبثوث في مجموع مؤلفاته، وهو موضوع بحثي.
2. المعدن المصون على سورة الكتر المدفون وهو تفسير لسورة الفاتحة، فرغ منه أواخر فاتح العام محرّم 1221هـ (مخروم الأوّل) مخ.
3. تفسير آيات من سورة النّور، فرغ منها محرّم 1221هـ مخ.
4. أصداف الدّر وأكمام الزّهر الموضوعة على سورة العصر، وهو تفسير لسورة العصر، حقّقه مؤخّرا الشّيخ إبراهيم طلاّي.
5. تفسير آية ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُومِنِينَ أَنْفُسَهُم..﴾ أواخر 1223هـ، مخ.
6. حاشية على تفسير أنوار التّنزيل وأسباب التّأويل، مخ.
7. شرح موازين القسط لأبي مهدي عيسى بن إسماعيل، مخ. أتمه في الفاتح من محرّم سنة 1224هـ.
8. مختصر المناسك ومهذّب المسالك، مختصر من كتاب مناسك الحج، للشّيخ إسماعيل الجيطالي. مخ، أتمّه في ذي القعدة 1195هـ.
9. قصيدة البردة في مدح خير البريّة، فرغ منها أواسط المحرّم 1196هـ، ط.د.ت.
10. الرّحلة الحجازية. (نثرا وشعرا) وقد انطلق إليها في: 15 من رجب 1196هـ، وعاد منها في أوائل ربيع الثّاني 1197هـ.
11. شرح مجموعة من الأحاديث النّبوية. مخ، أوائل ربيع الثّاني 1225هـ.
12. تلخيص عقائد الوهبية في نكتة توحيد خالق البريّة. مخ، أواسط ربيع الثّاني 1202هـ.

13. شرح عشر أمثال من كلام العرب، مع بيان أسبابها ومعانيها. مخ، فرغ منها أوائل رمضان 1222هـ.
14. تعليق مطوّل على ديباجة الدّليل والبرهان للشّيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني. وقد كان من قبل يريد وضع حاشية عليه فلم يستطع، وعدل عن ذلك إلى التّعليق. مخ، فرغ منه في آخر يوم من ذي الحجّة 1223هـ.
15. مجموعة من الأدعية لأيّام الفضل. مخ، أواخر المحرم 1221هـ.
16. الجواهر الثّمينية على المنظومة الميمية. مخ، وهو شرح مطوّل لبردته، وقد شرح ما فيها من العقائد على منهج أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني في كتابه الدّليل والبرهان، وقد جلس له بعد عودته من الحجّ بعد إلحاح من بعض الطّلبة، وفرغ منه في ربيع النّبوي سنة 1200هـ.
17. ذكر ما كان من قصّة أُوَيْس القرني مع الفاروق عمر بن الخطّاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، مخ، أوائل ربيع الثّاني 1225هـ.
18. مراسلات مختلفة مع داي الجزائر حسن باشا الدولاتلي في شأن باي قسنطينة "الباي صالح"، وما كان من أمره مع تجّار قسنطينة، بتاريخ ذي القعدة الحرام سنة 1206هـ.
19. الردّ على طاعن في المذهب نظما ونثرا بتاريخ أواسط صفر 1207هـ.
20. بيان جملة التّوحيد. مخ، أوائل رجب 1201هـ.

تصحيح نسبة كتاب مختصرُ المناسك ومُهذّبُ المسالك:

أردت هنا أن أصحح نسبة هذا الكتاب المنسوب خطأً إلى شيخ يدعى إبراهيم المُصعبي هكذا دون تفاصيل أخرى عن نسبِه، وقد ترك مؤلَّفًا وحيدا هو هذا الكتاب[1]، أما النّسخة الأم منه فتوجد بمكتبة القطب ببني يسجن، وقد

1. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص43.

دلّني عليها الأستاذ يحي بن عيسى بوراس، وقال لي هي بخطّ الشّيخ الحاج إبراهيم بن بحمان ـرحمه اللهـ، وعندما تفحّصتُها وجدتُها فعلا كذلك.

وبالإضافة إلى كونها بخطّ مؤلّفها، فقد ضمّنها بردته أيضا، وهي تلي الكتاب مباشرة، إذ أن المُختصر موقّع بتاريخ الخميس 06 ذي القعدة 1195هـ، والبردة موقعة بتاريخ أواسط المحرّم 1196هـ، وكلا التّاريخين يسبقان رحلته إلى الحجّ التي انطلق إليها يوم الخميس 15 من رجب 1196هـ، وكما صرّح الشيخ حين تحدّث عن غرض وضعه لهذا المختصر، فإن الداعي إليه كان يحوي عدة أسباب منها ما لم يصرح به في ديباجة الكتاب، وهو نظمه للبردة شوقا إلى البيت الحرام، والتي سيشرحها بعد عودته من البقاع المقدّسة في أوائل ربيع الثّاني سنة 1197هـ، ويضع لها كتابا يشرحها فيه وهو: "الجواهر الثّمينية على المنظومة الميمية".

ويحوي المسوِّغ الثاني وهو المُصرح به، وقد جاء بعد إطلاعه على كتاب مناسك الحج للشيخ إسماعيل بن موسى الجيطالي، ومحاولته تهذيبه واختصاره، لينتفع به ويصحبه معه كزادٍ معرفيٍّ لطريق الحج، ولينفع به السائلين عن المناسك وكيفية أدائها...

يقول الشّيخ في مقدّمة كتابه المختصر: «...وبعد فلمّا عزمت على القدوم إن شاء الله لبيته العظيم الشّأن، الجليل القدر الرّفيع المكان، وألقي ذلك العزم بقلبي وأنا بمجلس من القرآن لثمان عشرة خلت من شهر الله المبارك رمضان، ظفرت بكتاب مناسك الحجّ بيد بعض الفضلاء من إخواني حفظه الله المنسوب للعلاّمة الشّيخ إسماعيل بن موسى الجيطالي النّفوسي ـرحمه اللهـ، فوجدته كتابا جامعا.. غير أنّه يحتاج إلى التّهذيب والاختصار لما فيه من طول العبارة والتّكرار،... فصرفت عنان فرسي تلقاء مدين تهذيبه، ووجّهت زمام ناقتي إلى جهة اختصاره، وقد رتّبته...، وجعلته تذكرة لنفسي، ولمن أراد بعدي من أبناء نوعي وجنسي...، وليكون حمله معي إن حُقّق رجائي إلى البيت الشّريف... وسمّيتُهُ مختصر المناسك ومهذّب

المسالك، راجيا من المولى أن ينفع به كما نفع بأصله... »[1] في هذه العبارات من الدّيباجة ما يغني عن الكثير من التّعبير، لكن لا بأس من سَوقِ المزيد من الأدلة والشواهد لتحقيق صحة نسبة الكتاب لصاحبه، وتحقيق الأمانة.

ثم لاحظ قوله أيضا عندما يصفُ عُزُوف أهل زمانه عن الحجّ بالقول: «..هذا وإنّ النّاس قد استخفّوا بحقّ الله في الحجّ في هذا الزّمان، وصار عندهم كأنّه تطوّع وفضيلة، وأسقطوا فرضه "وطرحوه في زاوية الهجران"[2]، وتقوّلوا فيه بعض الأقاويل الكاذبة، وتعلّلوا بالعلل الواهية السّاقطة، فقالوا إنّ طرقه مشحونة بالآفات، مسدودة بالمخافات، ...فلو قيل لهؤلاء إنّكم قد ورثتم بمكّة أو أقصى بلد منها مثلا ألف درهم أو مائة دينار لقطعوا إليها سهلَ المَفاوِزِ وَوَعرَهَا، آناءَ اللّيل وأطراف النّهار...» [3]، إن هذه العبارات وغيرها في الكتاب كثيرة، تدل على أسلوبه في الكتابة وهي تكفي لتعدِّل من صحّة نسبة الكتاب وتضمّه إلى جهود الشّيخ ـرحمه اللهـ، إذ إنّ صحة التّواريخ كما هو معلوم أفضل دليل على تصحيح الأعمال والمؤلفات ونسبتها إلى أصحابها، أضف إلى ذلك خطّه، ثمّ أسلوبه في التّعبير؛ ثم لاحظ العبارة الأخيرة التي أوردتها واعرضها على ما يناسبها من العبارات في الدّيوان، ستلمس أسلوبه الصريح في نقده لكلّ زيغ أو اعوجاج؛ أمّا الورقة الأولى من الكتاب والتي عليها هذه العبارة: «...الحاج إبراهيم المُصعبي، المتفنِّن العلاّمة الماهر سلالةَ الشّيخِ المُدرِّسِ [فراغ قدره ثلاث أو أربع كلمات] نسبًـا، المتأصِّلِ من أعضاءِ الدّوحة المباركة علمًـا وأدبًـا، عالم زمانه، البالغ في العلوم ومُجلي ميدانه، ووحيد أوانه، أستاذ صُنعه وزمانه، "البالغ في العلوم النّهاية، المتفنّن فيه إلى أقصا غاية"[4] ...»[5].

---

1. ينظر: مختصر المناسك ومهذّب المسالك، إبراهيم المصعبي، بمكتبة القطب ببني يسجن، مخ، ق1، 2.
2. لقد وردت هذه بنصّها في أكثر من موضع في الديوان كديباجة رسالته إلى فضلاء القرارة.
3. ينظر: السابق، ق2ظ، 3و.
4. ينظر: الجملتان السابقتان حيث وردتا في الدّيباجة التي تسبق قصيدته: لوعة الاشتياق، الديوان، ص2.
5. ينظر: السابق، ق1. أو في الملاحق، ص151.

إنّ الاسم كما هو ثابت هو الحاج إبراهيم، إذ كان يذكر اسمه في الدّيوان كذلك دائما، فمرّات نجده يوقّع رسائله بـــ: الحاج بن بحمان، وأخرى بـــ: إبراهيم بن عبد الرّحمان، فالاسم إبراهيم ثابت والنّسبة إلى بني مُصعب صحيحة أيضا، لذلك تبقى ــفي نظريــ مع كثرة الشواهد وتضافرها أنّ نسبة هذا المخطوط إلى عَلَمٍ هو: إبراهيم المصعبي[1]، الذي ترك مؤلّفا وحيدا هو هذا الذي بين أيدينا، من دون تفاصيل أخرى، هي نسبة ناقصة، وتحتاج إلى دلائل أخرى مُعينة.

يضاف إلى ذلك أنّ الكتاب من الحجم الصّغير، فمقاسه 16.5×11.5سم، يسهلُ حمله في الكُمِّ، وبالفعل فإنه بذلك تسهل العودة إليه للإنتفاع به في أثناء الرحلة، كما أنه يستطيع بسهولة النّظر فيه متى شاء ولو على راحلته، وقد صرّح هو بنفسه في ديباجة الكتاب بقوله: «.. وقد جعلته تذكرة لنفسي، ولمن أراده بعدي من أبناء نوعي وجنسي، وليكون حمله معي إن حُقّق رجائي إلى البيت الشّريف، حجابا مستورا من كلّ عاهة الزّمان وآفة الطّريق..»[2]، وعلى الكتاب غلاف من جلد مُحكم الصُّنع، وتوجد نسختان منه متأخّرتان نسبيًّا بمكتبة إروان بالعطف.

وفـــاته:

تجعل كل المراجع الموجودة بحوزتي من سنة 1232هـــ (1817م) تاريخـــا لوفاة الشّيخ إبراهيم بن بحمان دون تفاصيل عن المصادر التي استقت منها تلك المعلومة، ولم أجد للأسف ما أحدّد به سنة وفاة الشيخ، إلاّ مصدرا مهمًّـــا هو تقييدات لأحد زملائه هو يوسف بن حمّو بن عدّون الذي ذكر: «... وُقوعُ مرض [كذا] في مزاب في أشهر قبل ذي القعدة المؤرّخة وفيما بعدها من أشهر عديدة في سنة 1232هـــ، ومات منه ثمانون رجلا في بني يسجن ..»[3]،« ..وقد استمرّ الموت يحصد الأرواح حتّى سنة 1233هـــ...»[4]، قلت لعلّ الشّيخ كان من جملة ضحايا هذا الوباء ــوالله أعلمــ.

1. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص43.
2. ينظر: مختصر المناسك ومهذب المسالك، مخ، ق2، 3.
3. ينظر: يوسف بن حمو بن عدّون، بيان التّواريخ التي علمت بها في زماني، مخ، ق6، مكتبة الاستقامة.
4. ينظر: نفسه، ق6.

نظمه للدّيـــوان:

الملاحظ بعد طول الدّرس والبحث أنّ الشّاعر لم يتفرّغ للنّظم مرّة واحدة، بل كان يتحيّن لذلك الفرص، كأن يكتب مراسلة أو يؤرّخ لحادثة نثرا ثمّ ينظم على إثرها شعرا بعد ذلك، خذ مثلا الدّيباجة التي تسبق قصيدته في مدح الحاج علي بن عبد اللّطيف بعد قراءته لشكوى بني مزاب على داي الجزائر حسن باشا الدّولاتلي ولاحظ قوله: «..ومن حق ذلك السيّد الجليل المُبرّع الجميل، أن يضرب ثناءه بالمنثور صفحا، ويُطوى عنه كشحا، وينتقل به إلى المنظوم، لتمكّنه في النّفوس أشدّ تمكّن معلوم، ولإصغاء السّمع إليه، وميل الطّبع لديه..»[1].

إنّ هذا الإقرار من الشّيخ صاحب الدّيوان بأهمّية الشّعر وسهولة استساغته في الأسماع وحفظه في الأذهان من النّثر، هي بلا شك من العوامل الخفية التي كانت تدفعه باستمرار إلى نظم الشّعر رغم إقراره المستمرّ بعدم أهليته لذلك، وهو ما لمسته ويلمسه المتذوّق في شعره، فالغالب عليه عدم استقامة الأوزان في القصيدة الواحدة، مع كثرة الزحافات والعلل، رغم إحاطته بعلم العروض أعاريضه وأضربه، وهو ما يورده قبل وُلُوجِهِ في النّظم كقوله مثلا: «...فقلت في مرثيته قضاءً لما عليّ من بعض حقوقه، من البسيط ثالث البحور الكثير الاستعمال، المثمّن الأجزاء التي هي مستفعلن المركّبة من سببين خفيفين ووتد مجموع والخماسية التي هي فاعلن المركّبة من سبب ووتد كذلك، المكرّر كل منهما بكلّ بيت أربع مرّات وله أعاريض ثلاثة وستّة أضرب، فالأوّلان من الكلّ مخبونان كما في مقولتي إلى آخره..»[2].

كان الجدير بمن يحيط بعلم العروض أن يحسن الرّصف والنّظم إن لم يكن شعره مستويا على السّليقة، ذلك لتمكّنه من وسائل وأدوات العمل، ولكنّه ولعلّه كما كان

1. ينظر: ديباجة رسالته في مدح الحاج علي بن عبد اللّطيف، الدّيوان. ص 240.
2. ينظر: الدّيباجة التي تسبق قصيدته في رثاء شيخه أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي "عمّي يحي"، كلها، الدّيوان، ص151.

يكرّر قوله في كثير من الأحيان، ما مفاده جمود فطنته كقوله مثلا: «..إذا تقرّر هذا فنقول مع جمود القريحة، وخمود الفطنة والسّليقة، مستعينا بالله تعالى..»[1] وقوله أيضا في موضع آخر والذي منه تستشفّ تكلّفه النّظم فعلا: «..وبعد فقد هَمَمتُ بمُضيّ أن أسبِكَ في قالب البردة سبيكة من الوديلة، وأن أنسج على منوالها قصيدة... وقد صدر ذلك منّي مع كثرة الأشغال والدّعاوي، وجمود فطنتي وخمود قريحتي، وقلّة بضاعتي، لما أنّي ما رأيت أحدا من السّلف الصّالح ـرحمهم اللهـ حام حول هذا الشّأن ولا أشار إليه إشارة ما ولو بالبنان..»[2]

إنّ هذا التّواضع المحسوب للشّاعر لا يضعُ عنه إقراره بضُعف قريحته وخمود فطنته كما صرّح هو بنفسه، ثمّ تكلّفه عناء الرّصف مجاراة كما هو الحال في بردته التي سبكها في قالب بردة البوصيري، أين أصرّ على نظمها لّما تيقّن أنّه لم يسبقه إلى ذلك شيوخه من الإباضية، وهو الثّابت عندي حتّى هذه اللّحظة مع طول البحث والسّؤال عن ذلك، إذ لم ينظم في فنّ البردة إلاّ لاحقوه.

إنّه من المرجّح عندي ـوالله أعلمـ هو النظم التأريخي المناسباتي للشّعر، إذ لا تمرّ مناسبة مهمّة كتب فيها نثرا ـكما أسلفتـ على اختلاف مناحيه من رثاء أو مراسلة أو مدح أو شكوى أو عتاب.. إلاّ وأعقب ذلك النّثر بنظم وهو الغالب على شعره، كما ستلاحظ ذلك من خلال تصفّحك للدّيوان، فقد كان بذلك ينظم ويؤرّخ.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ النّظم يمكن حصره بين سنوات معلومات، رغم طول المدّة نوعا ما بين أوّل قصيدة وآخر قصيدة في الدّيوان، فالأولى موقعة بتاريخ أوائل عام 1182هـ[3] والأخيرة بتاريخ أواسط صفر من سنة 1221هـ، يعني حوالي أربعين سنة بين الأولى والأخيرة، مع ملاحظة كثرتها خلال سنوات 1206-1207هـ، ولا أدري سبب غياب النّظم بعد سنة 1221هـ.

1. ينظر: آخر الدّيباجة التي تسبق قصيدته لوعة الاشتياق، الدّيوان، ص 78.
2. ينظر: الدّيباجة التي تسبق قصيدته البردة، الدّيوان، ص 137.
3. ينظر: البيت 84 في قصيدة الكشافة الهمّ الباترة الغمّ، الدّيوان، ص 102.

لكنه بقي يكتب في أغراض نثرية أخرى[1]، ثمّ ليتوقّف عن الكتابة نهائيا ـعلى ما وصلت إليهـ بعد سنة 1225هـ، وذلك من خلال ملاحظة مؤلّفاته والسّنوات التي كُتبت فيها، لتبقى بذلك مدّة سبع سنوات لم تعرف أي تأليف - إن صحّ ذلك-، بعد الرّجوع طبعا إلى ما هو بين أيدينا من مؤلّفاته حتّى التحاقه بالرّفيق الأعلى، ولعل من أسباب توقف الشيخ عن التأليف، بالإضافة إلى جمود الفطنة وخمود القريحة وقلّة البضاعة، كثرة الهموم والدعاوي..، فقد كانت بالفعل من السّمات الواضحة في شعره، ولعلّك ستلاحظ ذلك من خلال قراءتك المتأنّية للديوان.

ومما يؤاخذ على الشيخ في شعره التّكرار المستمر والمتواصل في تضمين الشّواهد والاقتباسات واقتصاره على استعمال مجموعة من الأبحر الشّعرية دون غيرها... ولعلّها من الأسباب التي جعلته يبتعد عن الشّعر شيئا فشيئا لينظمه تحت الضّرورة المُلحّـــة فقط، كرثائه لابنه أو نهيه عن المنكر كالقصيدة التي نظمها مستنكرا من حرق نخيل أهل العطف...، ثمّ يتوقّف عن النظم تماما ليتفرّغ بعد ذلك إلى وضع الشُّروح وإلى التّفسير حتّى سنة 1225هـ كما أسلفت.

الأغراض الشعرية في الديوان:

يمتاز ديوان الشيخ إبراهيم بن بحمان بالتنوع في الأغراض، ومرجع ذلك - كما أسلفت- إلى أنه كان ينظم الشعر تكلفا رغم علمه وإقراره بضعف قريحته وخمود فطنته، وإلى تعمده الرصف أحيانا مجاراة لسابقيه، كما فعل مع البردة التي سبكها على منوال بردة البوصيري، ولا أحسبه نظم تلك الحجازية إلاّ احتذاءً لآثار الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني (570/500هـ)، هذا الأخير الذي نظم قصيدة حجازية، ولما كان الشيخ ابن بحمان متأثر به كثيرا فقد قلّده في ذلك.

يغلب على شعره طبع النظم المناسباتي ـكما أسلفتـ كالمراسلات والرحلة والتأريخ لوفاة عالم، وشكوى الزمان والحال، والردود المختلفة وحتى الاستعطاف

1. ينظر: قائمة مؤلفات الشيخ، وقد مرت قبل قليل في التقديم، حيث وضعت أمام كل مؤلف سنة الفراغ من تأليفه.

والشكر والوفاء.. وعلى العموم فإن هذا التنوع في حد ذاته يشهد للشاعر بتنوع موارده وتعدد مصادره، ومن ثمّ البراعة والدِّقة في اختيار مواضيع النظم والتنويع في الأغراض والأساليب الأدبية.

أخلاقُه:

قبل أن أطوي صفحات هذا التقديم حول حياة ومؤلفات شاعرنا ابن بحمان لابد لي أن أقف لحظات على الجوانب الروحية والخُلقية لشاعرنا الجليل، ومما لاشك فيه أن لكل أديب وشاعر خصائص خُلقيَّة يمكن أن نتعرَّف عليها من خلال آثاره المكتوبة المتنوعة الشعرية منها والنثرية.

ومن هنا فإنه يمكن القول إنَّ شاعرنا قد امتاز بأخلاق إسلامية سامية قلَّ نظيرها في أترابه، أوَّلها: همَّته العالية المتصلة دائمًا بالله تبارك وتعالى، وعدم خضوعه للواقع المتخلف المرير، بل وتصدِّيه مع ذلك لنشر الحق وإعلاء كلمة الله العليا، رغم كثرة مثبطات العزائم واستشراء البدع والتخلف كما ذكرت غير ما مرة في الحديث عن أوضاع مزاب والجزائر في عهده.

ثانيها: احتفائه الشديد بالعلم والعلماء، فتجده يراسلهم مشرقًا ومغربًا ويُعلِي من شأنهم ما أمكنه ذلك، ويمدح صفاتهم ويثني عليهم في كلِّ مناسبة مهمَّة يتاح له فيها ذكرهم، كما سيأتي ذلك في أمكنة عِدّة من الديوان، وتلك هي أخلاق المؤمن الفاضل الذي يكرم العلم وأهله في زمن تكالب الناس فيه على امتلاك عرض الدنيا الزائل، ونسوا من أجله طلب العلم ابتغاء مرضاة الله تعالى، فعَمُوا وضلُّوا وأضلُّوا.

ثالثها: غيرته على دينه ووطنه، هذه الخصلة الحميدة هي من خصال المؤمن الصادق، وقد تجلت في آثاره الشعرية المتنوعة المبثوثة في أماكن من الديوان، ومنها: التعريف بفضل العلماء الأعلام، ونهيه عن المناكر التي يراها أو تصل إليه كاستنكاره لحرق نخيل أهل بلدة العطف، وحنقه على ما رآه من الأرجاس

والأدناس البشرية الواقعة بالحرم المكي حين كان يقوم بأداء لمناسك الحج، ثم غيرته على وطنه الجزائر ومزاب حين تصدى بقلمه وبكل إيمان صادق لأطماع الباي صالح في محاولته اليائسة من الانتقام لنفسه من تجار قسنطينة من المسلمين حين ساءهم ضرب الغرامات الفادحة وإجبارهم على دفعها قسرًا، فدافع ابن بحمان بقلمه عن هؤولاء المستضعفين بكل جرأةٍ وبسالةِ مجاهدٍ مؤمنٍ، متيقِّنًا دون شكٍّ أنَّ حبَّ الوطن من الإيمان.

هذه بعض الخصال النبيلة التي امتاز بها شاعرنا ولعلِّي أترك للقارئ الكريم المجال حتى يستجلي غيرها من خلال قراءته المتأنية للديوان.

رحلةُ المُصعَبي[1]:

تعدُّ رحلة الشّيخ إبراهيم بن بحمان من بين أبدع الرّحلات وأجملها في تلك الفترة، لما تحويه من الفوائد والتّقييدات المهمّة في زمن غاب فيه التّأريخ الدّقيق للأحداث، لذلك فقد أفردت لها هذه الصفحات في التقديم لما تكتسيه من أهمية بين مؤلفات الشيخ ابن بحمان، وعندما قارنتها مع بعض حجازيات المغاربة[2] في عصره لمست قرب الشّيخ من الميادين المختلفة وقربه من المجتمعات البسيطة كذلك، على خلاف معظم الرحّالة الذين أرّخوا لذوي السّلطة وأربابها كالسلاطين والبايات وأصحاب دائرتهم، كما قد تجد فيهم من بالغ في ذكر مقامات الأولياء والصّالحين، ومن نظم في آثار أحد السلاطين، قلت لعلّهم اضطرّوا لذلك لطول ملازمتهم لأولئك الأشراف.

إنّ رحلة شاعرنا ابن بحمان ــرحمه اللهــ أضافت لأدب الرّحلة عند المغاربة معاني جديدة وكشفت النّقاب عن أحداث تاريخية مهمة، ربّما لم يتعرّض لها معظم الرحّالة كالحجز من السّلطات والإرغام على دفع المكوس، وهي حقائق تاريخية تعكس جانبا مهمًّا من أنظمة الحكم آنذاك، ثمّ إنّي لم أجد ــفيما قرأتــ تدقيقا مثل الذي للشّيخ ابن بحمان في الانطلاق والوصول من مرحلة إلى أخرى باليوم والشّهر، وأهمّ الملاحظات التي كان يسجّلها بدقّة في كل مرحلة، والأهمُّ من ذلك كله تصدِّيه لنظمها شعرًا.

ويبقى سبب تسجيله لتلك الرّحلة ونظمه لتلك القصيدة أخلاقيا راقيا، كقوله: «..بعثني صدق الهمّة إلى نظم بعض ما لقيته في سفري ليكون تذكرة لي، ولمن يريد سلوك هذه الطّريقة من بعدي..» ويقول أيضا مستنكرا فعل أهل زمانه: «..وأمّا

1. هذا العنوان من وضعي، وهو الذي دفعني إلى إخراجها مع "رحلة الوارجلاني" للشّيخ أبي يعقوب في دراسات مستقلة، ولعلي أُوفَّقُ إلى إخراج غيرها ــإن شاء الله تعالىــ.
2. ينظر: رحلات معاصريه عند: د.ناصر الدّين سعيدوني في كتابه: من التّراث التّاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي (تراجم مؤرّخين ورحّالة..) دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1999، ص398 وما بعدها.

حالها اليوم وفي الزّمان الآتي فقد طارت بقيّتها أدراج الرّياح، و لم يوجد لها جدّ ولا رسم في خيف الأرض ونجدها ولا في بطحة من البطاح بأن استولى على الدّنيا سلطان الظّلم والفساد، فلم يترك محرمة منها تنفلت كظلم الحَكَمَة وخفض العالي، ورفع الدّاني من العباد، وإنّي لمّا دخلت مصر التي هي اليوم أمّ المعاصي وأساس ذلك الظّلم للدّاني والقاصي، النّاشئ عن تعداد الحُكّام فيها... »[1].

قلت إنّ التّراث الإباضي المغاربي في شقّيه الأدبي والتّاريخي ما يزال مغمورًا لمّا يرَ بَعدُ النّور كلّهُ، ولو أنّ أدب الشّيخ إبراهيم بن بحمان وصل أيدي الدّارسين والباحثين أمثال الباحث الدكتور: أبو القاسم سعد الله، والباحث الدكتور: ناصر الدّين سعيدوني وغيرهما..، لضمّنوه كتبهم جنبا إلى جنب مع فحول الأدباء والرحّالة والمؤرّخين على عصره، ولعلّي أوفّق إلى إضافة هذا العمل البسيط إلى جهود الأوّلين ليكون لبنة أخرى تضاف للتأريخ لفترة الحكم التّركي بالجزائر.

إنّ الشّيخ إبراهيم قد اطّلع على حجازية الشّيخ أبي يعقوب[2] يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، كما اقتبس منها فصولا[3]، وهو دليل على تعلّقه بفكر أبي يعقوب وبأدبه وتآليفه[4].

استغرقت الرّحلة 120 يوما ذهابا من مزاب إلى الحجاز، في حين كانت رحلة العودة على مرحلتين من المدينة المنورة إلى مصر مسيرة شهر، ومن هذه الأخيرة إلى مزاب مسيرة شهرين، فتلاحظ أنّ العودة كانت أقلّ مدّة من الذّهاب، ذلك لأنّ الغالب على المسافر الجِدَّة في السّير عند عودته إلى وطنه منه عند الخروج منه، يضاف إلى ذلك خبرته ومعرفته بالطريق بعد الذهاب.

1. ينظر: ديباجة الحجازية في الدّيوان، ص189.
2. ينظر: القصيدة الحجازية للشّيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، مخ كلها، منها نسختين بدار إروان بالعطف، غرداية.
3. ينظر: حجازية المصعبي، الأبيات 39-41-68-73.. وقارنها بحجازية الوارجلاني.
4. ينظر: التّعليق على ديباجة الدّليل والبرهان لإبراهيم بن بحمان، ص85 (مخ).

تفاصيل الرّحلة:

الانطلاق من يسجن إلى غرداية، حيث مقام الشّيخ حمّو والحاج[1]، هناك شُيِّعَ ومُرافقوهُ كما جرت العادة ولا تزال إلى اليوم بكلّ قرى مزاب، إذ يُشيّع الحجّاج من أحد الأماكن المباركة بالدّعاء والتّهليل، ويستقبلون عند عودتهم كذلك بتلك المظاهر البهيجة؛ كان ذلك يوم الخميس 15 من رجب 1196هـ، باتّجاه الأغواط التي دخلوها يوم السّبت 18 من رجب 1196 بعد العصر، الإقامة بالأغواط أربعة أيام هي 18 -19-20-21 من شهر رجب إلى ما بعد الأصيل؛ ثم مواصلة السّير في البراري والخروج من هذه الأخيرة يوم 22، النزول عند شيخ الرّكب الفلالي ليلاً، حيث ينضمّ إليهم ويرافقهم في الرّحلة، ثم المرور على فجّ (لعلّه في نواحي بسكرة) أمسية الجمعة 23 من رجب، ثمّ النّزول على وادي خالد نهار السّبت 24 من رجب والمبيت به، ثمّ الإقامة به يوما كاملا هو يوم الأحد 25 من رجب؛ الدخول إلى بسكرة في الثاني من شعبان والإقامة بها يومين؛ منها إلى الجريد ثمّ الزّرائب والنّزول على غسران التي بها واد مالح، ثمّ عين الشبيكة، ثمّ إلى واد الجريد حيث باتوا به يوما، هناك التقوا بجماعة من القرارة قاصدين البيت الحرام فانضمّوا إليهم وأقاموا معهم يوما، وفيه طعموا وشربوا جيّدا وبها غسل الشّيخ ملابسه؛ في 13 من شعبان نهارا توفّي سلمان (هكذا) قرب حامة قابس فساروا به إلى هناك حيث دفن قبيل المغرب.

الإقامة بقابس يوما كاملا على واد بها طيّب المياه، منها إلى طرابلس التي وصلوها في نيّف العشرين من شهر أحمد (شعبان) نهارا، وبها التقوا بجماعة من جربة (الجزيرة) فانضمّوا إليهم كذلك.

وبها أقاموا سبع ليال كما لقوا كرمًا حاتميًّا من آل بارون، وشاهدوا بها كثرة الدّلاّع (البطّيخ الأحمر) أيضا، ومنها إلى مهرة التي وصلوها في الفاتح من شهر

1. سليل عائلة عريقة في العلم، شيخ غرداية ومزاب، صاحب عبقرية نظام تقاسيم المياه بغرداية، مؤلّف ونسّاخ، وصاحب حلقة علم، له أجوبة ومراسلات متنوّعة...
ينظر بتفصيل أكثر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص760 وما بعدها.

أمّة الرّسول (رمضان) ودخلوا سوقا عامرة بها، ومنها إلى مواضع مرّوا بها دون توقّف كعَرعَر، الزّعفران، نعيم، ثم الجواب، ووصلوا إلى السلوك ظهيرة، وبها ملئوا قربهم بالماء ولبثوا بها يوما، ثمّ قطعوا مفازة ووصلوا واد التّميم حيث صلّى بهم شيخ الرّكب الفلالي صلاة عيد الفطر، ومنه إلى أحذر ثمّ جرجوب وقد كانتا ذات مياه، وبها زراعة الشَّمَّام (البطّيخ) منتشرة، ومنها إلى واد عفون حيث يقيم الرّهبان، ثمّ سهول مفتاح برقة، حيث صار السّبيل سهلاً وواضحًا.

وصولوا إلى كُرداس على نهر النّيل في آخر العشرين من شهر شوّال، والدّخول إلى ميناء بولاق، وقد أرسل منه فُلكا (قاربا) للمتخلّفين من الرّكب، أقاموا بهذه الأخيرة ثلاث ليال.

الدخول إلى وكالة الجاموس حيث التقوا بالمقيمين هناك من الطّلبة وغيرهم في طولون، كان ذلك عصر اليوم الثّالث من ذي القعدة، يقيم بها حينئذ شيوخ جربة ويرأسهم سلمان [هكذا]، رحبّوا بهم وأكرموهم، وهناك شكوا إليهم ما حلّ بهم من كيد أحسن النويري وهو من مستر حذاءَ تونس، حيث قدم مصر حاجًّا، فأسرّ لملكها إثما وزورا أخبارا عن إباضية تونس (جربة) لعلمه بهم وبطريقتهم، ولكونه مجاورا لهم هناك، فاستدعى أميرهم أمرد بك [هكذا] قلت لعلّه مراد بيك، شيخ الجماعة أو مسؤول وكالة الجاموس خفية، ولّما حضر عنده أمر بسجنه دون سبب مدّة 15 يوما واشترط على طلبته دفع غرامة مالية تقدّر بألوف بطاقيا، مقابل إطلاق سراحه فمكثوا يراودونه حتّى طرحها الأمير إلى 13 ألفا، فتقاسموها بينهم وجمعوها ودفعت إليه فأمر بتحرير شيخهم، وقد كان الإسهام الكبير من الجربيين.

حاول مرّة أخرى ذلك العدوّ أحسن النويري أن يشي بهم إلى السّلطان ثانية، لكن مكره حيقَ به هذه المرّة، فردّ كيده في نحره، وأمر السّلطان به فقبض عليه، وضُرب بشدّة حتّى كادت تزهق روحه وجرّده من كلّ ملكه، بعد أن أمر بسجنه شهورا، فعاد بذلك فقيرا مُعدما خلال فترة قصيرة، قلت ربما كان صاحب حظوة بمصر زمانًا فصار مذموما بها بعدل الله وإنصافه.

ثم دخل الشيخ الرحّالة إبراهيم بن بحمان مصر سائحا ونزل عند علي بن عمر بن عياد[1]، وهو سليل عائلة ابن عيّاد من الحُكّام من جربة بتونس، وقد قام الشّيخ بخزن متاعه عنده، قلت لعلّه اقتنى كتبا أو غيرها سيحملها معه عندما يعود من الحجّ، كما قضى حوائجه أيضا، منها السّياحة حيث وقف على النّيل معجبا به.

بعد تسعة أيّام تتجدّد الرّحلة في الثاني من ذي القعدة، انطلاقا من بركة الدّرب إلى حمراء التي كانت قفرا دون ماء، ثمّ إلى ساحة عجرد ثمّ نابعة حيث كان بها الماء زلالا عذبا، وبعد قضاء يوم كامل بها ساروا إلى واد التيه ووصلوه ليلا فباتوا به؛ في اليوم السّابع انطلقوا من النّخيل، مرورا على الزّعلوك التي دخلوها في اليوم الثّامن، ووصلوا سطح جبل عقبة الطّويل في التّاسع من ذي القعدة، وأشرقت عليهم الشّمس في العاشر منه على رأس ذلك الجبل، ثمّ دخلوا قلعة بقاع ذلك الجبل وقد كان بها سوق عامرة كسوق بولاق بمصر؛ منها إلى ظهر الحمار على ساحل البحر الأحمر أو بحر القُلزُم الذي كان على يمينهم، فصاروا بذلك يسيرون في شبه جزيرة العرب، ومنها إلى أمّ العظام وقد كانت صحراء بلا ماء، ثمّ أمغرة الرّسول ﷺ وكانت منهلا جليلا وموردا عذبا، كما كانت كثيرة النّخيل، وبها واد أيضا ومنها إلى عين قصب حيث الماء سائغ شرابه.

وصلوا إلى أميلح حيث بادروا بالتخفيف من أحمال الإبل بالتخلّص من بعض المتاع، ومنه بعد إقامة، ولعلّها كانت يوما واحدا إلى أبيار سلطان التي كانت غزيرة المياه عذبة وافرة، ومنها إلى موضع يقال له زَلم، ثمّ اصطبل عنتر وكلّها مواضع خالية، ثمّ إلى موضع يقال له بوش (هكذا) به آبار هناك ملئوا قربهم، وقد ألحّ على المسافر أن لا يستهزيء ويحتاط بالكافي من الماء، قلت لعلّه خاف بعد مروره بالأماكن الخالية قبل هذه المرحلة أن تتكرّر ولا يوجد حينها الماء الكافي كما نهى بشدّة ملئها بالمياه الآسنة العكرة، ونهى حتّى عن سقي

1. سيحفظ الشّيخ لهذا الصّديق وُدّه، ويراسله بعد ذلك من مزاب، ينظر: الدّيوان، ص 217.

الجمال منها، كما يعرّفنا بحوراء ويوصي المسافر بزيادة العَوِين (الزّاد) بها، وباقتناء العلف والماء لرواحلهم ولأنفسهم.

قرب نبطا مات رجل اسمه التُّومي زوالا، وقد لُفّ بثوبه، وهم واقفون يشاهدون من بعيد أين كانوا يروون إبلهم على بئر هناك، وكان ذلك في 27 من ذي القعدة، قلت لعلّ هذا المدعو التُّومي هو والد أو جدّ المدعو أحمد بن التُّومي بن إبراهيم (1827–1875م) من الغيشة بجبال عمُّور المنيعة بالأطلس التّـــلّي في الشمال الجزائري، والذي حاول الهجوم على مزاب بعد تخريبه ورقلة يوم 05 ماي 1871م، أين تجنّد المزابيون بكاف الدخّان (جنوب العطف) لصدّ هجومه وقدّموا عليهم البطل حمّو بن باحمد بكلّي الذي قاد آخر إمامة دفاع بمزاب، وقد تولّى العدوّ خائفا من سوء المصير[1]، قلت لماذا قال عنه: « مات من غير توبة ولُفّ بثوبه »[2]، إن الشّيخ لن يحكم عليه هكذا ويمتنع عن الصّلاة عليه لو لم يكن على علم بسيرته، والله أعلم.

الوصول إلى حظيرة خالية، ثمّ ينبع بعدها وهي بلاد خير وبها سوق أسعارها حامية، وقد كان بعض الركب يحاول السّرقة ويتربّص لها، فأوقع بعضهم في السّوق جلبة وضوضاء حتّى يتسنّى لهم تحيّن الفرص للنّهب والسّلب، لكن من كان بالسّوق تفطّن لذلك، فتصدّوا لأولئك المعتدين وفرّ الرّكب الفلالي الذي دبّر للمكيدة وللسّرقة، وتبعهم أصحاب الجزيرة (جربة) وتونس، خوف أن ينالهم انتقام من أصحاب السّوق من التجّار؛ قلت يبدو أنّ ركب بني مزاب كان بعيدا عن مجريات الأحداث لذلك لم يرتابوا ولم يفرّوا كالباقين، ومن ينبع إلى بندرا، ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى عين بعدها تسمّى عين زرقاء وكان بها ماء عذب يشفي الغليل.

النزول بقاع بزوة باتجاه ربى حيث بدأ في التّلبية، ومنها أخذ عُمرته للحج، وربّما لمن كان قد أوصاه بها أو لبعض الرّكب، ثمّ إلى قديد ولم يمكثوا بها طويلا،

1. ينظر بتفصيل أكثر: حمو عيسى النّوري، دور المزابيون في تاريخ الجزائر، ج1، ص295 وما بعدها.
ينظر كذلك: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص102–103.
2. ينظر: حجازية المصعبي إبراهيم بن بحمان، الأبيات 128–129، الديوان، ص 203.

وساروا جنوبا ليتركوها وراءهم من جهة اليسار، وراحوا منها إلى بركة الخليص وهي حصن دخلوه وقت العشاء هذا وقد كان بها بركة ماء لعلّها كانت كبيرة نوعا ما، وماؤها كما قال عنه عذب بارد.

وجازوا بعد ذلك على عسفان وأبيار لشجر الدفلة في واد هناك، ثمّ التنعيم التي كانت مراده ومبتغاه، وهي مرحلة من مراحل الطّريق قبل مكّة.

يعبّرُ الشّيخ عن صعوبة الرّحلة وهولها، حتّى أنها أثّرَت في الأصحّاء فأنحلتهم، كما أذابت شحوم سمان الإبل لطولها وصعوبة مراحلها، ولندرة الماء وفقدانه في مراحل أخرى.

وصل الرّكب إلى البيت الحرام في السّابع من شهر ذي الحجّة 1196هـ حيث بادر الشيخ بالطّواف والسّعي بعد الشّرب من زمزم والإحلال من العمرة، ثمّ أحرم للحجّ من تحت ميزاب الكعبة يوم الخميس 08 ذي الحجّة 1196هـ، وقد بات مع الركب المرافق له ليلة التّاسع بمرمى الجمرات ومنحر الهدي، وكان يوم الجمعة 09 ذي الحجّة الوقوف بعرفات، أين ذهل لكثرة الخلق الواقفين هناك، وقد أطال الشّيخ في الدّعاء وألحّ فيه، وكان في كلّ ذلك حسن الظنّ بالله متفائلا فيه بالخير، بأن نال مراده بزيارة البيت الحرام وإتمام مناسكه؛ ومن عرفات نزل إلى منى، وبعد أن قضى الحجاج حوائجهم بها دخلوا إلى سوق بمكّة كانت أسعاره غالية كذلك، قلت هكذا هي الأسواق في المواسم حيث ترفع الأسعار وتُضرب المكوس الفادحة رجاء الرّبح السّريع.

وهذه القضية كان قد تباحثها الشيخ أبو عمّار عبد الكافي التناوتي مع الشّيخ أبي يعقوب يوسف الوارجلاني وهما بجبال مكّة[1] وفي هذا حديث طويل، أين يتعرّض الحُجاج أحيانا للابتزاز والتّهديد حتّى يدفعوا المكوس مقابل إنزال رواحلهم.

وقد زار مكان ميلاد فاطمة الزّهراء ﷺ ورسول الله ﷺ، وقبر خديجة ﷺ وقد شدّه الموقف كثيرا، حتّى تمنّى لو أنّه يستطيع شراء تلك المشاعر والأماكن وافتداءها بنفسه وماله.

1. ينظر: أبو العبّاس الدّرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص490.

ثمّ يعود إلى المسجد الحرام وما استرعى اهتمامه هناك من وقوع الأرجاس والأدناس البشرية وكثرتها من طرف الفلاّحين الجهلاء حتّى صار ذلك المكان مساويا لمسلخة أو مرحاض عمومي عتيق، وأعظم مصيبة هي مشاهدة تلك الأوساخ البشرية داخل البيت الحرام بين المسجد والمقام علانية، وكأنّ القوم قد أباحوا كلّ محرّم بما لم يكن معهودا في سالف الدّهور.

إنّ إشارة الشّيخ هذه هي سابقة أولى من نوعها على ما لاحظت في الحجازيات من عدم التّعليق على مثل هذه الظّواهر التي تتنافى والذّوق السّليم، فكيف إن كانت في أماكن مقدّسة، ومعظم أصحاب الحجازيات لا يشيرون إلى هذه الظّاهرة ولعلّه سهو منهم، ومن هنا يظهر حرص الشّيخ على الطّهارات، والإباضية إلى اليوم يولون عناية خاصّة ونصيبا وافرا للطّهارة، وقد وقفت بنفسي على عدد كبير من المنظومات من غير النّثر في معظم فهارس المخطوطات، بها أقسام وفصول كاملة بعنوان "الطّهارات" هكذا، لهذا لا تعجب من كثرة الأبيات في ذلك، ولا تعجب لدهشته وحيرته وكيف استوقفه ذلك المنظر كلّ ذلك الوقت ليُسلّم في الأخير إلى أنّ ذلك صادر من الأعراب الفلاّحين كما أسلفت، ومنها راح يُسلّي نفسه وينسيها ذلك بمشاهدة الكعبة المشرّفة ومنظرها الشامخ وما كان عليها من الكسوة المذهّبة، وما كان على بابها منه أيضا من الذّهب والفضّة أشكال وألوان، أما الباب فهو موال جهة المشرق، وعلى اليمين مقام إبراهيم الخليل، وهو عجيب بما كان عليه من الذّهب، وهو مُوال لباب الرّسول ﷺ.

وكان بئر إسماعيل أو زمزم كقبّة على يسار المقام، ثم استقبلوا الميزاب الذي يعلو الكعبة حيث كان قد أحرم منه لمناسك الحجّ عندما دخل البيت الحرام أوّل الأمر، صلّى الشيخ ومرافقيه هناك ثمّ خرجوا من الباب الغربي بين الرّكن اليماني والحجر الأسود، ثمّ خرجوا إلى الصّفا يريدون السّعي، وقد لبثوا هناك يسعون مدة ثلاثة أيّام وعشر ليال.

وفي الثالث والعشرين من ذي الحجّة 1196هـ رحلوا إلى المدينة زائرين، حيث وصلوها في السّابع من محرّم ومات قربها عيسى بن أحمد [هكذا] ودفن هناك، وفي يوم السّبت وصلوا إلى قبر رسول الله ﷺ فوقف هناك مطوّلا ودعا الله كثيرا مسلّما على نبيّ الأمّة سائلا شفاعته في أبيات بديعة، ومنها إلى قبر الصدّيق أبي بكر والفاروق عمر بن الخطّاب، وقد بالغ في وصف جمال روضة البقيع التي حوت عظامهم ﷺ، وقد أحيا الرّكب المرافق لهم مناسبة عاشوراء في الزّيارة والدّعاء، كما مات أحد مرافقيه وهو عيسى بن سليمان إمام من القرارة، صلّى عليه ودفن بالبقيع.

يوم الأربعاء 11 أو 12 من محرّم زوالا تجدّدت رّحلة العودة إلى مزاب، وكان الشيخ يومها كئيبا حزينا غير راغب في الرّحيل، وبعد مرحلة من السّير وصلوا موضعا يقال له صفرى فدارت بهم جماعة فتقدّم كبارهم طالبين الرّشوة، ولعل المَكسَ كان مقابل إيوائهم أو حماية قافلتهم أو مرافقتهم إلى مسافة معيّنة، ولّما كان المبلغ باهضا قال الشّيخ إبراهيم بن بحمان: « ثمانين ألفا من ريال بطاقيا»[1] وأضاف « فاقوا بذلك حاكم مصر في أخذه للمال منهم»[2].

امتنع الرّكب عن أداء الرشوة وفضّلُوا الاعتماد على أنفسهم، وساروا حتى نزلوا واديا قرب صفرى التي دخلوها بعد ذلك مساء، وباتوا ببعض أهُجِها دون حماية، تحت قلعة على واد هنالك، وراحوا يطلبون الماء لرواحلهم فشرعوا في حفر بئر دون توانٍ ونالوا مرادهم قبيل الصّبح، وما يزالون على ذلك حتّى أمطرت السّماء عليهم مدرارًا غزيرًا، وفي الصّباح جرّ عليهم الوادي ذيله ففرّوا منه هاربين، ولعلّه آوى مع بعض رفاقه إلى مرتفع قريب حيث لم يدركهم الماء الذي نال من بعض مرافقيهم فأغرقهم وأخذ متاعهم، عند أصيل ذلك اليوم كانوا قد جمعوا شتاتهم وملؤوا قربهم

1. ينظر: حجازية المصعبي، ديوان ابن بحمان، البيت 194، ص 209.
2. ينظر: نفسها، البيت 197، ص 209.

من الماء الصّافي وانطلقوا في رحلتهم من جديد ولو أنّهم فقدوا الكثير من الزّاد، وقد مات في موضع يُسمّى أُميلح المدعو سعيد بن قاسم وهو مؤذّن من القرارة.

في 11 من صفر الخير 1197هـ دخلوا مصر بعد مسيرة شهر من يثرب، لاحظت أنّ الشّيخ لم يقل دخلنا مصر في شهر صفر بل قال " بعد شهر محرّم " ولعلّه تشاءم من حكّام مصر مثل أوّل مرّة لذلك لم يقل صفر الذي يقرن بالخير غالبا ويقال له " صفر الخير" لأنّه توقّع أنه لا خير فيه، طالما دخلوا مصر وفيها من يتربّص بهم الدّوائر، وقد تمنّى لو يسلكون سبيلا آخر غيرها، لكن ماذا عساهم يفعلون وبها إخوانهم من الطّلبة في المدرسة الإباضية بوكالة الجاموس في طولون، إذ تيقّن أنه لا حلّ لهم إلاّ الصّبر والرضى بالقضاء ممّن بيده مفاتيح الأمور يدبّرها كيف يشاء.

وقع فعلا ما كان الشيخ يتشاءم منه بمصر، إذ سمع بهم إبراهيم بيك خان مرّة أخرى فبعث إليهم هذه المرّة من جهة الاستهزاء والسّخرية طالبا منهم سلفا ألوفا من بطاقيا من الفضّة، لكنّهم احتالوا لذلك الطّلب وصرفوه بالحيلة والتأنّي ومن حيث أدركوا أنّها مكيدة وأمر دُبّر بليل، تفاوضوا معه مثل أوّل مرّة فردّت الغرامة إلى أربعة آلاف ومائتي ريال وقسّمت بينهم ثانية فدفعوها مُكرهين، ذلك أنّهم ليسوا ملزمين بها إذ ليس لهم تجارة يديرونها هناك ولا يوجد ما يحتّم عليهم دفع الغرامات، وقال لهم إنّ من قعد بمصر بعد هذه الحادثة فلا يلُومنَّ إلاّ نفسه، وقفل ومرافقيه بركبهم راجعين إلى مزاب.

وصل ركب الشيخ إلى مسقط رأسه في أوائل ربيع الثّاني من سنة 1197هـ أي بعد مسيرة شهرين من مصر إلى مزاب، وهي في نظري مدة كافية، ذلك أنّ المسافر يكون مُجدا في سيره عند العودة من رحلته منه عند الانطلاق والخروج من وطنه، وهي من أوائل صفر إلى أوائل ربيع الثّاني، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشّيخ لم يفصّل في مراحل الطّريق من مصر إلى مزاب ولعلّ ما لحقه بمصر عكّر صفو مزاجه فمنعه من تقييد المراحل، أو أنّه أشغل بغير ذلك في ذهنه كالتّأليف أو الإعداد لتصنيف أو

غير ذلك، وهمّة الشّيخ عالية لا يقصرها في أشياء بسيطة؛ المهمّ أنّ الرّحلة استغرقت ذهابا حوالي 120 يوما، وعودة حوالي 100 يوم وهي فترة منطقية ومعقولة.

تأخّر نقل الرّحلة إلى ذي الحجّة الحرام من سنة 1217هـ، أي حوالي عشرين سنة كاملة بين الرّحلة ونقلها إلى المبيضة، ليتوفّى بعد 35 سنة من أدائه فريضة الحجّ، وهو ما جعلني أرجّح قيامه بالرّحلة في الثلاثينيات أو الأربعينيات من عمره.

أمّا عن سبب تأخّر نقل الرّحلة فإنّ كلّ ما يمكن أن يقال عن ذلك يبقى مجرّد تخمينات ليس إلاّ، طالما أنّ الشّيخ لم يفصّل في ذلك بنفسه، ولعل من الأسباب تكدر صفو مزاج الشاعر، واشتغاله بالوعظ والتدريس ثم المراسلات....

إنّ ما أثبته المُصعبي إبراهيم بن بحمان في رحلته من ملاحظات أو أورده من معلومات أو ما وضعه من تعاليق يتّصف بمميّزات يمكن أن تُحدّد قيمتها التّاريخية والاجتماعية، ومستواه الفني الأدبي.. ولعل من أهمّ فوائد رحلته ما يأتي:

أ.الصّدق: عندما قرّر أن يدوّن ما لقيه في سفره ليكون تذكرة لنفسه ولمن بعده قائلا: «بعثني صدق الهمّة إلى نظم بعض ما لقيته في سفري ليكون تذكرة لي ولمن يريد سلوك هذه الطّريقة من بعدي..»[1] ولقد ظلّ بالفعل في كلّ مرّة ينصح بصدق فتراه يقول مثلا: «وإيّاك والشمّام فاحذر شرابه..»[2] وغير ذلك في القصيدة كثير خاصّة ما كان متعلّقا بمواضع المياه التي يجب ملء الأوعية فيها وعدم التسويف في ذلك، والتي يجب تجنب مائها بعدم الشرب منه وسقي الجمال.

ب.التحرّي: فالشّيخ كان يتحرّى الوقائع مثل ما وقع بمصر للمقيمين بوكالة الجاموس من الطّلبة وما لاقوه من الأذى، ثمّ ما شاهده بأبواب الحرام من الأرجاس، وعدم سكوته عن المنكر عندما قدمت الجماعة تطلب الرّشوة أو

1. ينظر: رحلة المصعبي، الديباجة، ص 191.
2. ينظر: نفسه، البيت81، ص 192.

المكس، فقد أعرض وعقد ومرافقيه العزم على المضيّ دون الاعتماد على أحد، وواصل الرّكب المسير دون أن يقدّم أي رشوةً وفضّلوا المبيت في الطّريق[1].

ج.عرض الواقع: وهو ما طبع على رحلته ببعض التّشاؤم خاصّة ما كان بمصر والحجاز، وما كان يشتكي فيه من الفرق الضالّة ومن المخالفين، ثمّ ما استولى على البلدان من سلطان الظّلم والفساد... وما كان من مجانبة النّاس للأخلاق الفاضلة والذّوق السّليم.

د.التحلّي بالورع والتّقوى: فهو يكثر من الثّناء عند ذكره للأشخاص الذين تعرّف عليهم ونالوا إعجابه، ويصفهم بعبارات الشّكر والتّقدير والإجلال، وهو مع هذا يحفظ الودّ معهم، فتراه يراسل علي بن عمر بن عياد الجربي الذي أكرمه وآواه بمصر، ومدحه في قصيدة أرسلها له[2]، ناهيك عن وصفه للبقاع المقدّسة وكيف صعب عليه فراقها بعدما تعلّق بها وأحبّ ساكنيها.

إن أسلوبه في التّأريخ نثرا وشعرا يدلّ على أدب راق في عصور تخلّفت فيها العلوم والتزم الرحّالة بتدوين رحلاتهم بكثير من الألفاظ العامّية، ما يعكس ضعف المستوى الثّقافي والأدبي عند المغاربة عموما، في حين التزم المصعبي بلغة فنية راقية، إذ تفنن وأبدع فيها.

لذلك فإنه يمكن اعتبار رحلة المصعبي الشّيخ إبراهيم بن بحمان من المصادر الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها للتعرّف على أوضاع الجزائر وبلدان تونس وليبيا ومصر والحجاز في القرن 12هـ، 18م فهي تسجيل حي للواقع الاجتماعي، والأدبي، والسّياسي، والاقتصادي.. ووصف دقيق لحالة المسالك والعمران والأسواق ونقاط الماء، والمسؤولين والحُكام وأنظمة الحكم وغيرها..

1. ينظر: نفسه، الأبيات 196-197-198، رحلة المصعبي، ص 209.
2. ينظر: الدّيوان، مدحه لعلي بن عياد الجربي، ص 217.

قضيّة صالح باي

التوطئة:

لقد ضلت قضية صالح باي تكتسي عند المزابيين خاصة والمؤرخين لهذه الفترة عموما أهمية معتبرة لما يلفُّها من الغموض، خاصة ما كان من النهاية المأساوية للباي صالح بعد أن قضى في منصبه حاكما للولاية الشرقية مدة اثنين وعشرين سنة، ولما كان الشيخ إبراهيم بن بحمان ـ بمراسلاته ـ أحد صانعي أحداثها فإني رأيت أنه من الضروري وضع هذه الصفحات لأقربها من القرّاء والباحثين أكثر من جهة، ومن جهة أخرى فلأنها تُنشر محققة هنا لأول مرة، وبالتالي فإنه لابد من التقديم لها والتعليق عليها، حتى أضع الباحثين المهتمين أمام شهادة تاريخية جديدة تضاف لشهادات السابقين.

يقول الشّيخ إبراهيم بن بحمان: «..ولمّا وقع ما وقع في سنة ست ومائتين وألف من بعد هجرة سيّدنا ومولانا محمّد بن عبد الله ﷺ من أمور عظام، وأهوال جسام، ومن جملتها أنّ عدوّ الله والمسلمين الباي صالح صاحب الولاية الشّرقية.. قد دخل بلد الجزائر، واشترى من المولى حسن الدولاتلي بلاد بني مزاب أن يكون أميرا عليهم بعدّة من ألوف لا تحصى، وأن يجعل أمورهم بيديه وجهّز له ما جهّز، ممّا لا يعدّ ولا يستقصى.. اضطربت أودية بني مزاب حين سمعوا ذلك الخبر الشّنيع، وصحّحوا هذا الأثر الفظيع.. فرفعوا شؤونهم لكاتبه إبراهيم بن عبد الرّحمان[1] مريدين منه مكتوبا يكتبهم لهم في ذلك الشّأن إلى ذلك السّلطان العالي، القهرمان الغالي.. وأرسلوه إلى ابنهم إبراهيم بن صالح الأمين، وأدخله إليه على يد صهره الحاج علي بن عبد اللّطيف، الآتي ذكره الشّهير عن التّعريف، وقرأ عليه وأصغى إليه غاية الإصغاء، وأثّر في نفسه تأثيرا عجيبا.. ورجع في حينه وساعته عمّا فعله لذلك اللّعين، ونقض ما أبرمه له على رؤوس العالمين، فكتب إليه أن يرجع عمّا عزمه، ويخلّي سبيل بني

1. هو المصعبي إبراهيم بن بحمان صاحب الديوان.

مزاب، وحذّره وأكّد عليه أن لا يذكرهم ولو باللّسان، ما دام مرور الزّمان، فلمّا وصله خبر المولى، أنف وأبى واستكبر وعلى وغضب غضَب الخيل على اللّجام، وغاظه الحال حين ردّ عليه وأبطل أمره بين الأنام، فبعث إليه باعتزاله، وبمن يقوم بدله في مكانه، فاحتال عدوّ الله ورسوله إلى قتل القادم عليه وجمع من أصحابه، فقتل منهم جما غفيرا، فجدّد إليه الدولاتلي رؤوس مملكته، فأخذوه ومزّقوه تمزيقا عظيما، وفصّلوه على أربعة أجزاء.. وفعلُوا وبدائرته ما يعتبر به جميع الأنام..»[1]، ثمّ قال بعد ذلك في ديباجة نصّ الرّسالة الرّسمي إلى داي الجزائر: «.. وتحيّة وإكرام.. من المُسلِّمين عليك جموع بني مزاب، المُشتكين إليك ما نزل بهم وحلّ بأسماعهم.. وهي أنّك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية علي يد صاحب الولاية الشّرقية، غير ما كانوا عليه من قديم الزّمان، وتريد أن تبدّل أحوالهم المسطّرة من الأسلاف والأجداد في الدّيوان، مع أنّ ما كانوا عليه لا يُطاق وصفُه، ولا يحصى عدُّه من تحمّل الصّنائع على عواتقهم.. فانظر في هذا الأمر والشّأن وخَمِّم فيه بعين البصيرة.. على أنّ في ظنّ بني مزاب واعتقادهم المساوي لاعتقاد العسكر الأحباب.. أنّه لا يمكن ولا يقع، فكيف يكون ذلك؟.. فإن قلت يا مولانا لا بدّ من هذا.. فسرّح حينئذ أولادنا الدّاخلين بلد الجزائر بالأمان الخادمين صنائعها بالإحسان، أن يقدموا إلى ما يريدونه من البلدان وأرض الله واسعة ما دام الزّمان..

وحاصل ما ذكر من الأمر أنّ خدمة العسكر الأعلى والجند الأسنى هم بنو مزاب من قديم الزّمان، إمّا أن تسعى فيهم بقواعد الأسلاف والأجداد، من غير تبديل قاعدة، ولا تغيير ضابطة، أو تسرّحهم إلى الخروج من بلد الجزائر كما دخلوها بالأمان ليدبّروا على أنفسهم ما دام الزّمان؛ بتاريخ ذي القعدة الحرام من سنة ست ومائتين وألف بعد الهجرة النّبوية المحمّدية الإسلامية..»[2]

1. ينظر: الرّسالة في مكانها من الدّيوان، ص 227 وما بعدها.

2. ينظر: المراسلة في الدّيوان، ص 231.

لقد كان الردّ من داي الجزائر إيجابيا ما دفع بني مزاب إلى الطّلب من كاتبهم إبراهيم بن بحمان أن يكافئ الدّاي وصهره على عدله وإنصافه في قضيّتهم.

يقول الشيخ إبراهيم بن بحمان: «..ثمّ لمّا بعث السّلطان العالي، القهرمان الغالي، مكتوبه المشتمل على الرضاء وقضاء المأمول.. تلقّاه جموع بني مزاب بالفرح والقبول، وطلبوا منّي مكافأة باللّسان، في شأن ذلك الهمام..»[1]، موقّع بتاريخ أوائل المحرّم من سنة 1207هـ.

وإلى صهر الداي الحاج علي بن عبد اللّطيف: «..إذا أحبّ الله عبدا ردّ إليه حوائج عباده.. فلا نطيل به»، بتاريخ أواخر صفر من سنة 1207هـ.

باختصار هذه مراسلات الشّيخ إبراهيم وتقييداته التّأريخية فيما يعرف بـ" قضية صالح باي " قال أحمد توفيق المدني: «.. ولمّا كان المزابيون يهاجرون لبلاد التلّ باستمرار قصد التّجارة والمكسب فقد اعترفت قصورهم منذ انتصاب الأتراك بالبلاد بالتّبعية للدّيوان، إنّما كانت تلك التّبعية اسمية فقط و لم يحدّد مداها، فكان استقلالهم مطلقا في بلادهم..»[2].

ويقول عبد الرّحمن الجيلالي مؤرخا لحادثة الباي صالح: « وزعموا أنّه كان ينازع الدّاي في منصبه وأنّه كان عازما على رفض الاعتراف بالسّلطة المركزية والاستقلال بقسنطينة وجميع نواحي الجزائر الشّرقية، .. فما راعه إلاّ وقد عُزل عن منصبه وأحاط به الجُند وألقي في السّجن.. ونُفّذ فيه حكم الإعدام صبيحة يوم الأحد 16 محرّم 1207هـ وصودرت جميع ممتلكاته ومكتتراته البالغة يومئذ ستين مليون فرنكا، وكانت مدّة ولايته على قسنطينة إثنين وعشرين سنة..»[3].

إنّ الجدل الكبير الذي أثير حول قضية صالح باي بوادي مزاب دفع بالشّيخ إبراهيم بن بحمان ليلج أدب المراسلات السياسية، ليصبح بذلك بعد هذه المسألة رجل سياسة، وشاعر قضية من الدّرجة الأولى، يتردد ذكره مقرونا بها إلى اليوم بمزاب.

1. ينظر: نفسه، نصّ الرّسالة، الدّيوان، ص 236.
2. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، ص 156.
3. ينظر: عبد الرّحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثّقافة بيروت، ط1، 1980، ج3، صفحات 278، و280.

إنّ المكتوب النّثري والشّعري رغم قساوة عباراته نوعا ما، خاصّة وأنّه كان موجّها للرّجل الأوّل في البلاد ـداي الجزائرـ أعطى إشارات جديدة لمزيد من البحث والتّنقيب في خبايا تاريخ الجزائر وبني مزاب على العهد العثماني، وهو ما يدل على تبلور الشخصية الجزائرية الرافضة للهيمنة التركية المطلقة.

لاحظ مثلا قول الشّيخ في رسالته الأولى إلى الدّاي: «..فإن قلت يا مولانا لا بدّ من هذا.. فسرّح حينئذ أولادنا الدّاخلين بلد الجزائر بالأمان، الخادمين صنائعها بالإحسان، أن يقدموا إلى ما يريدونه من البلدان وأرض الله واسعة ما دام الزّمان،...وحاصل ما ذكر من الأمر أنّ خدمة العسكر الأعلى والجند الأسنى هم بنو مزاب من قديم الزّمان، إمّا أن تسعى فيهم بقواعد الأسلاف والأجداد، من غير تبديل قاعدة، ولا تغيير ضابطة، أو تسرّحهم إلى الخروج من بلد الجزائر كما دخلوها بالأمان ليدبّروا على أنفسهم ما دام الزّمان..»[1].

يجمع كلّ الباحثين المزابيين الذين أرّخوا لهذه القضية، أنّ سبب تمسّك ممثّلي بني مزاب بقضيّتهم أمام داي الجزائر يرجع إلى عدالتها، ولو أنّي لم أعثر على مراسلة الدّاي وجوابه بأرشيف مزاب، وردّه على دعوة بني مزاب بإنصافهم وكذا مراسلة صهره "وكيل الخَرْج" الحاج علي بن عبد اللّطيف، وأكبر احتمال أنّها بأرشيف العثمانيين بتركيا، وهو ما يجب على الباحثين البحث عنه.

ملخّص القصّة بتصرّف من مختلف المراجع التي فصّلت فيها، هي أنّ صالح باي طلب من التجّار المزابيين بقسنطينة دفع غرامات إضافية باهضة دون غيرهم، ليأخذ معه من الهدايا ما أمكنه عندما يسافر إلى الجزائر، وهذا لعرض حصيلة سنة من الإنجازات على الداي كدليل على طاعته وتفانيه، وقد جرت العادّة أنّه عندما يدخل الباي العاصمة من عين ربط إلى قصر الدّاي وهو يُلقي الهدايا والدّنانير على الجماهير المصطفّة على حافتي الطّريق؛ يقول أحمد توفيق المدني عن ذلك: «..في فصل الصّيف من سنة 1207هـ قدم صالح باي من قسنطينة وأتى معه

1. ينظر: الرّسالة الأولى، الديوان، ص 232.

بأموال لا تُحصى ودخل الجزائر في يوم مشهود، ومن "عين ربط"[1] وهو يوزّع النقود على الفقراء في الزّقاق حتّى وصل لدار الإمارة، وأعطى الأمير وأهله مالا كثيرا من غير حصر، وليلة من اللّيالي استضافه الأمير لداره خلافا لعادتهم، وأعطى في تلك اللّيلة مالا كثيرا خصوصا إلى بنت الأمير..»[2]، وكان الباي صالح قبل انطلاقه في هذه الرّحلة إلى العاصمة قد حجر على بني مزاب أملاكهم وأجلاهم من قسنطينة حفاة عراة بعد سوء تفاهمهم معه ورفضهم دفع الغرامات الباهضة، إذ التجئوا إلى شيخ زاوية سيدي بوحجر، هذا الأخير كان يجالس الباي صالح ويدخل عليه باستمرار، كما كانت كلمته مسموعة، فشكوا ما حلّ بهم من جهة الباي فساءه ذلك كثيرا، فذهب إليه ولامَهُ على سوء تصرّفه مع بني مزاب وحذّره من مغبّة ظلم هؤلاء النّاس المسلمين، ثمّ انصرف بعد ذلك مباشرة، وتقول الرّوايات إنّه لم تمض ساعة من مغادرة ذلك الشّيخ قصر البـــاي حتّى طلعت سحابة سوداء وأمطرت حجرا بدل المطر، خاف الباي وأرعبه ذلك الموقف وظنّ أنّ دعوة بني مزاب وذلك الشّيخ قد لحقته فأسرع بإرسال من يُعيد بني مزاب إلى ممتلكاتهم بقسنطينة.

كان تجّار بني مزاب في تلك الأثناء قد أرسلوا مكتوبا إلى مجلس عمّي سعيد يطلبون من عقلاء مزاب النّظر في الموضوع والتّفكير في حلّ للمشكلة، كما تشير المصادر أنّ شيخ الزّاوية اسمه سيدي ابن الحلاوي وبعد واقعة الحجر أصبح يُسمّى سيدي بوحجر[3]، لم يهنأ بال صالح باي ولم ينشرح صدره فعندما سافر إلى العاصمة والتقى بالدّاي حسن، عرض عليه فكرة ضمّ وادي مزاب إلى ولايته الشّرقية ضاربا عرض الحائط بكلّ الاتفاقيات السابقة بين ممثّلي بني مزاب والسّلطة المركزية العثمانية، التي تمتدد من رسوخ أول قدم للعثمانيين بالجزائر إلى

1. هي ساحة أول ماي حاليا بالجزائر العاصمة.
2. أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، ص149.
3. ينظر: حمّو عيسى النّوري، دور المزابيين، ج1، ص230 وما بعدها.

وصول أول طلائع المستعمرين الفرنسيين، وأمام إلحاح الباي قَبِلَ الدّاي حسن باشا الدولاتلي، ولم تكن في نيّة صالح باي إلاّ الانتقام لنفسه ممّا وقع له بقسنطينة من عدم انصياع التجّار المزابيين لأوامره.

لم يكد الباي صالح يصل قسنطينة حتّى كان المجلس الأعلى بمزاب قد بعث برسالة إلى الدّاي ــهي الأولىــ كتبها الشّيخ إبراهيم بن بحمان، وأرسلها إلى أمين المزابيين بالجزائر فأدخلها إلى الدّاي على يد صهره " وكيل الحرج " الحاج علي عبد اللّطيف، فقرأها على الدّاي الذي تأثّر بها كثيرا، ورغم قساوة بعض ألفاظها إلاّ أنّ معرفة الدّاي بحقيقة المزابيين وبشرعية دعواهم جعلته ينصفهم، ويُحقّ لهم الحقّ بأن كتب في حينه إلى باي قسنطينة يُخبره بأنّه قد أبطل ما عهد له من ضمّ وادي مزاب إلى ولايته[1]، وتأكّدت الشّكوك التي كانت تراوده من جهة هذا الباي وطمعه في الاستقلال بولاية قسنطينة وجميع نواحي الجزائر الشّرقية[2]، فبعث بباي جديد يقوم مكان الباي صالح بشؤون ولاية قسنطينة، هو إبراهيم بك بوصباع قائد سباو في ذي الحجة 1206هـ/ أوت 1792م[3]، وقد كان شهما فاضلا فحَلّ بقسنطينة واستدعى إلى دار الباي رجال المخزن والعلماء والأعيان فتلا عليهم "البَاشْكَاتَبْ" أمر الباشا، ولبس الباي الجديد قُفطان الولاية[4].

لم تكن في نيّة صالح باي حسب مبارك الميلي أن يقاوم الأمر الصّادر من الجزائر، وعزم فقط على أن يفرّ بنفسه وكنوزه إلى عنّابة ليبحر منها إلى الخارج، لكن حرسه منعوه وقتلوا الباي الجديد[5]، وحين وصلت الأنباء إلى الجزائر جنّد الدّاي قوّة عسكرية معها الباي الجديد الثّاني وهو حسين بُوحنك المشهور

1. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص67-68.
2. ينظر: عبد الرّحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص279.
3. ينظر: نفسه، ج3، ص279.
4. ينظر: حمّو عيسى النّوري، دور المزابيين، ج1، ص230.
5. ينظر: مبارك الميلي، تاريخ الجزائر، ج3، ص243.

بالوزناجي، الذي نفّذ حكم الإعدام في الباي صالح بعد إلقاء القبض عليه، وهذه الرّواية انفرد بها مبارك الميلي، ويرى آخرون أنّ إبراهيم بك بوصباع أطلق سراح الباي صالح ما جعل هذا الأخير يدبّر للنّيل من إبراهيم بك والوفد المرافق له، فتمّ له ذلك واستطاع الفتك به وبمرافقيه فعلا، ولم يكد الباي الجديد الثّاني أي "الوزجاني" يصل إلى قسنطينة حتّى كان أهالي المدينة قد طوّقوا صالح باي وقبضوا عليه، ولم يشفع فيهم حكمُهُ لهم اثنين وعشرين سنة، ذلك لأنهم لم يألفوا القلاقل والشّغب فأسرعوا إلى إنهاء الفتنة بالطّريقة المحكَمة، بأن أوقفوا المُعتدي عند حدّه، وهكذا ينتهي فصل من تاريخ قسنطينة بحُلوِه ومُرّه، ولو أنّ التّأريخ الفعلي والحقيقة النّاصعة تبقى غير جليّة واضحة تماما طالما أنّ هناك من الحقائق المهمّة ما نحن بصدد فضّ بِكارته الآن _أعني رسائل ابن بحمان_، وأعني هنا المؤرّخين المعاصرين الذين أوردنا شهادتهم على ما وصل إليهم رغم أنّهم لم يثبتوا مصادر رواياتهم، لم يدرجوا مراسلات الشّيخ إبراهيم بن بحمان لأنّها كانت مغمورة في خزائن مخطوطات وادي مزاب، ولهذا فإنه من العدل أن نضيف شهادة الشّيخ إلى شهادات المؤرّخين المعاصرين لأنّه حضر الوقائع بنفسه وشارك في صنع جزء منها، هذا بالنّسبة لما كتب، مع إدراج الرّوايات الشّفوية كونها هي الأخرى تحمل التّاريخ الفعلي للكثير من القضايا، ذلك لأنّ التّاريخ الإباضي عموما كان يحفظ ويروى ولا يكتب حتى عهد قريب.

أمّا بالنّسبة لهذه القضية التي هي جزء من تاريخ العثمانيين بالجزائر فإنّ الشّيخ إبراهيم بالفعل صنع بعض أحداثها بشعره ونثره وأرّخ لداي الجزائر وباي قسنطينة وتجّارها كذلك، بالقدر الذي يمكن أن يدعو الباحثين إلى النّظر في قضيّة صالح باي ويدرجوا مراسلات الشّيخ ابن بحمان مع داي الجزائر في دراساتهم حول الفترة العثمانية ونظام الحكم، والوجود المزابي بالجزائر وقسنطينة، وتاريخ الاتّفاقيات المبرمة بين بني مزاب والسّلطات العثمانية، ولا شكّ أنّ الأرشيف العثماني بتركيا يحوي الكثير منها.

إنّ مراسلات ابن بحمان تعكس جوانب خفيّة من تاريخ الجزائر العميق، أتمنّى أن يتصدّى لها أهل الاختصاص إنطلاقا من الحقائق التي صارت الآن موجودة بعد أن كانت حبيسة الخزائن، والتي تُظهر جانبا آخر من الشّخصية الجزائرية المحضة التي كانت تدافع عن حقوقها في ظلّ الهيمنة التُّركية التي إن أحسنت للجزائر في كثير من الأحيان فقد أساءت لأهاليها في أحيان أخرى كذلك، كما ويمكن اعتبار شعر الشيخ مع الدّاي من إرهاصات الشّعر السّياسي الجزائري الحديث، خاصة وأنه جاء مع اقتراب أفول شمس الدّولة العثمانية بالجزائر وقرب وصول طلائع المستعمر الفرنسي، وفي الوقت الذي كان فيه من الممكن أن يتقرّب بشعره إلى الدّاي لينال حظوته، فضّل شاعرنا الاعتزاز بجزائريته والدّفاع عن قضيّته الوطنية المشروعة.

قصيدة البـردة:

لقد شهد الشّعر الدّيني الجزائري خلال القرن الثّاني عشر الهجري الثّامن عشر الميلادي نكسات خطيرة على يد المتصوّفة والدّراويش الذين انتشروا بصورة كبيرة جدا، وخيّمت ظلالهم على أجزاء كبيرة من القطر الجزائري، استطاع هؤلاء المتصوّفة والدّراويش استغلال الوافدين عليهم في ظلّ الجهل المتنامي، وأصبح عند البعض منهم وسيلة للرّشوة والفساد وعند البعض الآخر وسيلة لاتّخاذ الحَضرَة ونشر البدعة واستغلال العامّة[1] في ظلّ غياب السّلطة الرّدعية التي فضّلت السّكوت على هذه التصرّفات، لأنّ ذلك كان في صالحها في بعض الأحيان..

أمّا وادي مزاب فكان يعيش سكّانه وينعمون بالاستقلال الذّاتي رُغم اعترافهم بالتّبعية للدّيوان، فقد ظلّوا على أعرافهم وتقاليدهم في تسيير شؤونهم الدّاخلية، وكانت السّلطة الدّينية ممثّلة في مجالس العزّابة على مستوى قرى مزاب تصدر أحكامها إذا احتاجت إلى تشاور أكثر على مستوى الهيئة الدّينية العليا ممثّلة

1. د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 1، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1998، ج1 ص478. بتصرف.

في مجلس عمّي سعيد، الذي يضمّ ممثّلين عن عزّابة كل القصور، ورغم هذا التّنظيم المحكم إلاّ أنّ مزاب لحقه ما لحق كلّ القطر الجزائري من التخلّف الفكري فظهرت في عوامّهم البدع والخرافات بسبب موت العلماء الأعلام[1]، وتردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية عموما، ما جعل القلّة الباقية من علمائهم تفكّر في تنظيم رحلات فردية ثمّ منظّمة للاغتراف وتحصيل العلوم من جربة ومصر وحتّى من عُمان، ولّما عادوا انكبّوا على الإرشاد والتّدريس، وفي بداية التّقديم للديوان كلام كثير عن هذا.

ذكر الشّيخ إبراهيم بن بحمان في الدّيباجة التي تسبق بردته بأنّه نظم قصيدته سَبكًا في قالب البردة التي هي للبوصيري، وقد اقتبس منها كثيرا كما أراد أن يضمّنها الكثير من ذكر الله تعالى ومدح نبيّ الأمّة محمّد ﷺ ولعلّ وحسب ما فهمت من كلامه أنّه شغل بكثرة الدّعاوي ما عاقه عن نظمها، حتّى رأى في منامه صورة البيت الحرام فتجدّدت همّته وقام إلى نظمها، كما كان من الدواعي إليها أنه لم يجد أحدا من سلفه الصّالح من شيوخ الإباضية قد نظم في هذا الفنّ و لم يُشر إليه ولو إشارة عابرة.

بعد قراءتي للقصيدة البديعة المحتوية على مائة وخمسة وستّين بيتا (165)، وجدت أن الشّيخ إبراهيم بن بحمان ـرحمه اللهـ قد أثبت جدارته مرّة أخرى حين تطرّق للشّعر الدّيني ولفن البردة في عصره، لذلك أفردت له هذه الصفحات للتعليق على بعض خصائص بردته وغيرها كثير نذكر منها:

- أنّ الشّيخ بالفعل صاغ بردته في قالب بردة البوصيري، وقد أحسن سبكها وضمّنها من أسماء الله الحسنى التّسع والتّسعين اسما، وسرد سيرة المصطفى ﷺ من ميلاده إلى بعثته ومعجزاته ثمّ ذكر غزواته، وبيته وأزواجه وبناته وأبدع في مدحه وذكر صفاته عليه أزكى الصّلاة والتّسليم، ودعا نفسه إلى المبادرة بالتّوبة وعدم القنوط، سائلا الله ﷻ الصّفح والغفران.

1. ينظر شهادة الشّيخ بن بحمان، في الدّيباجة التي تسبق قصيدته في رثاء مجموعة من علماء مزاب، الدّيوان، ص 180.

- إنّ بردة الشّيخ إبراهيم صارت متداولة في عصره ومِصرِه (مزاب)، وإلى وقت قريب كانت تنشد مع المدائح الدينية بمناسبة المولد النّبوي الشّريف.
- كثرة النّسخ المخطوطة من بردة الشّيخ على عهده فقد شاهدت بنفسي أزيد من ثماني نسخ مخطوطة منها بالخزانة العامّة بغرداية[1].
- تفرّد الشّيخ بنظمه بردة في ذلك العصر وفي تلك الظّروف، ما يدلّ على عبقرية خارقة وهمّة عالية قل نظيرها.
- شوقه الكبير لرؤية بيت الله الحرام وزيارة قبر الرّسول الكريم ﷺ.
- ضمّنها (البردة) الشّيخ كتابه مختصر المناسك ومهذّب المسالك، وأخذها معه إلى الحجّ.
- التصدّي لشرحها بعد عودته من البقاع المقدّسة في كتاب مطوّل سمّاه "الجواهر الثّمينية على المنظومة الميمية"، وهذا بعد إلحاح من بعض إخوانه العزابة ومن الطّلبة (إروَانْ)، فلولا أنّها لاقت استحسانا كبيرا لما ألحّوا عليه وبالغوا في ذلك حتّى نزل عند رغبتهم، والذّهنيَّة المُصعبية البربرية ليست من السّهولة بمكان أن تقبل كلّ شيء يقال لها، لو لم يكن مرتقيا بنفسه إلى الأدب الذي تستسيغه الآذان وتطمئنّ إليه القلوب[2].

بطاقة المخطوط:

توجد مجموع مؤلّفات الشيخ إبراهيم بن بحمان موزّعة على الشّكل التّالي:

قسم بخزانة الشّيخ الحاج محمد بن يوسف ببانو المتواجدة بمكتبة الحاج صالح لعلي ببني يسجن، وقسم بمكتبة الحاج صالح لعلي نفسه، وقسم ثالث بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، وأجزاء أخرى بالخزانة العامّة بمؤسّسة الشّيخ عمّي سعيد بغرداية وكتاب بمكتبة القطب ببني يسجن، تلاحظ بذلك تمركز أغلبها ببني يسجن مسقط رأسه، وكلّها بخطّ يده، وعليها توقيعات تشير إلى ذلك وتأكّد عليه:

1. ينظر فهرس مخطوطات الخزانة العامّة، مؤسّسة الشّيخ عمّي سعيد، غرداية، باب المديح، ص263 وما بعدها.
2. لاحظ هجاءه لقومه في داليته من الدّيوان.

أ. مؤلّفات ابن بحمان المخطوطة بمكتبة الشّيخ الحاج صالح لعلي ببني يسجن:

رقمها في الخزانة: مج3.

	القصيدة	رقمها في الفهرس	موقعها من المجموع
1	قصيدة لوعة الاشتياق	م166	وهي من 164ظ إلى 166ظ
2	قصيدة الباترات الوجدية والقاطعات الحزنية	م174	من 166ظ إلى 167ظ
3	قصيدة في المدح والشّوق	م181	وهي في ق185
4	قصيدة الكاشفة الهم الباترة الغم	م206	من 177و إلى 179ظ أوائل 1182هـ
5	قصيدة كشف الغم في مرثية الأم	م220	من 179ظ إلى 182و
6	قصيدة في مدح الشّيخ يوسف بن احمّد المصعبي"نزيل جربة"	م166	من 176و إلى 177و
7	قصيدة في مدح بعض أعيان القرارة	م166	من 182ظ إلى 185ظ

* لم تفهرس بعد المؤلّفات الموجودة بهذه الخزانة، إلاّ أنّ الأستاذ يحي بوراس قد تفحّص مخطوطاتها، وأفادني في ذلك كثيرا ـ بارك الله في مساعيه ـ.

ب. مخطوط خزانة الحاج محمّد بن يوسف ببانو.

توجد المخطوطة بمكتبة الشّيخ صالح لعلي ببني يسجن بخزانة مخطوطات الشّيخ بابانو.

رقمها بالمكتبة: 233ب.

عنوانها: مجموع مؤلّفات الشّيخ الحاج إبراهيم بن بحمان.

فـــن: النظم

المؤلّف: إبراهيم بن عبد الرّحمان بن أبي محمّد بن عبد الله بن عبد العزيز الثّميني المصعبي.

المستهل: بعد البسملة، اللهمّ يا فتّاح بارك في الافتتاح...

الخاتمة: فهمت عند ذلك يا خليلي فأسبلت الدّموع على الدّماء

النّاسخ: إبراهيم بن عبد الرّحمان بن أبي محمّد بن عبد الله بن عبد العزيز الثّميني المصعبي.

مكان النّسخ: بني يسجن.

تاريخ النّسخ: من 1182هـ إلى 1187هـ

عدد الأوراق: 12، المقاس: 22.9×16.3، المسطرة: 273 مم.

الخط: مغربي مقروء، المداد: بنّي

التّجليد: مفصول، الزّخرفة: هندسة نباتية.

حالة المخطوط: كامل، حالة الحفظ: متوسّطة، خروم على حواف بعض الورق.

ملاحظات:

* موقعه من المجموع: 20 في مج به 121 ق، وهي من 164ظ إلى 185ظ.

** على حواف الورق شروح كثيرة، معظمها في قواعد اللغة والصّرف.

*** في 167ظ بعد قصيدة الباترات الوجدية والقاطعات الحزنية تقييد مهم ففيه تاريخ ميلاد ووفاة أبنائه وقد نقلته كما هو ومنه عرفت ابنه المتوفّى بالبليدة سنّه وسبب وفاته.

ب. مجموع المؤلّفات ابن بحمان الشعرية بمكتبة الحاج صالح لعلي: (تفصيل)

القصائد كما هي مرتّبة في الدّيوان:

1. ميمية من 82 بيت في رثاء شيخه أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي، من 78ظ إلى 80و.

مطلعها: حمدا جليلا لذي العزّة والكرم شكرا جميلا لذي الآلاء والنّعم

ختامها: صلّ وسلّم على خير الورى وعلى الآل والصّحب والأزواج والخدم

ما هبّ ريح الصّبا ولاح برق سما وفاح ورق الهوى في القلب بالنّغم

وقد تمّت المرثية المباركة بحمد الله سبحانه في أواخر رجب من سنة 1202هـ.

2. قصيدة للشّيخ بن بحمان يمدح فيها علماء المشرق، وهي بائية من 88 بيتا من 81 وإلى 83ظ.

مطلعها: تأوّبني وجد أليم بمصعب فبتّ كملدوغ بأفعى وعقرب

ختامها: وما نشد الصبّ الحبيب مقالتي تأوّبني وجد أليم بمصعب

3. وأخرى له في نفس الغرض ولنفس الأشخاص يقول عنها: «فبعد ذلك كلّه تراكم عليّ شوق عن شوق، وتزاحم وجد عن عشق حتّى قلنا.. في حقّ سادتي وأحبّتي..» ، وهي همزية من الخفيف عدد أبياتها 78 بيتا، من 83ظ إلى 86ظ.

مطلعها: إنّ قلبي بيسجن ذو البساء كثب حزن كثير البلاء

مسّ جسمي ضر فصرت نحيلا وجنا مدنفا كوهي السّقاء

ختامها: ما أجاد فكري وفهت بنطقي إنّ قلبي بيسجن ذو البساء

ينهي الشاعر القصيدة بتذييل يذكر فيه حالة يسجن ومزاب عموما على عهده وفي حياة شيخه -خاله- عبد العزيز الثّميني: «.. وتاريخ هذا المكتوب المبعوث إلى المحبوب زوال يوم الإثنين ثالث عشر من شوال سنة 1206هـ».

4. وله أيضا قصيدة في بيان فضائل بعض علماء بلدته يسجن، بها ديباجة أيضا، وهي لامية من بحر الوافر في 91 بيتا، موقّعة بتاريخ 29 رمضان سنة 1208هـ؛ من 89ظ إلى 91ظ.

مطلعها: فيا مولاي بالسّبع الطّوال سألتك داعيا حسن المآل

ختامها: دوام النّظم مرسوما بطرس وما هبّ الصّباء من شمأل

5. بردته المشهورة، وهي ميمية عدد أبياتها 165 بيتا؛ من 92و إلى 95ظ.

مطلعها: إنّي رأيت خيال البيت والحرم في ليلة من ليال الأشهر الحرم

ختامها: ورنّ قلبي بما قد قلته وجدا إنّي رأيت خيال البيت ذي الحرم

6. قصيدة إلى الحسن باشا الدولاتلي، بائية عدد أبياتها 27 بيتا؛ من 95ظ إلى 96و.

مطلعها: أقول وأعني بهذا الخطاب هام الإسلام حسن المآب

ختامها: دوام زمان لما قلته أقول وأعني بهذا الخطاب

7. رائية عدد أبياتها 12 بيتا في مدح إبراهيم الشمّاخي[1]؛ كلّها في 96و.

مطلعها: حمى الله بدرا زاهيا نورا زهرا لبيبا نجيبا باسلا كغضنفرا

ختامها: عليك سلام أينما كنت قاطنا بنجد وخيف السّهول وأوعرا

8. بائية عدد أبياتها 15 بيتا في مدح علي بن عياد الجربي[2]؛من 96و إلى 96ظ

مطلعها: حمى الله بدرا في بلاق تساميا ونال ببرج السّعد حسن المعاليا

ختامها: وما قال إبراهيم ذو الوجد والأسى حمى الله بدرا في بلاق تساميا

9. رائية أخرى عدد أبياتها 21 بيتا في مدح الباشا الدولاتلي، من 96ظ إلى 97و.

مطلعها: رعى الله سلطانا كريم المفاخر جميلا لبيبا قاطنا بالجزائر

ختامها: وما قال إبراهيم ذو الوجد والأسى رعى الله سلطانا كريم المفاخر

10. قصيدة في مدح ابن أبي القاسم القراري، يبدأها بديباجة أيضا ثمّ نظم بعدها في تائية عدد أبياتها 20، وينهيها بتذييل، بتاريخ 01 صفر 1207هـ؛ من 97و إلى 98ظ من بحر الطّويل.

مطلعها: رعى الله بدرا زاهيا بقرارة أديبا نجيبا ذا براعة

ختامها: وما قال منشد أسير محبة رعى الله بدرا زاهيا بقرارة

11. رد على طاعن في المذهب نثرا ونظما، أمّا القصيدة فبائية عدد أبياتها 44 بيتا من بحر الطّويل، موقّعة بتاريخ: أواسط صفر 1207هـ؛ من 98ظ إلى 100ظ.

مطلعها: أتانا كتاب من جهول مذبذب زنيم زنيم ذي خبال معندب

ختامها: ومنّي عليه بعد ذلك مطفلا صلاة وتسليم مشوب بزرنب

* لا يكاد يخلو هامش بيت من شرح المفردات، ولكن معظمه اندثر بفعل الرّطوبة.

---

1. صديق للشّيخ ربّما بالواسطة أو بالمراسلة، لأنّه لم يغادر مزاب إلاّ للحجّ.
2. تعرّف عليه الشّيخ في رحلته إلى الحجاز إذ نزل عنده بمصر، وقد حفظ الشّيخ هذا الودّ لصديقه. ينظر: رحلة المصعبي الحجازية.

12. وله قصيدة في رثاء بابه بن محمد، وهي عينية من 41 بيتا، من دون ديباجة موقّعة بتاريخ أواسط صفر من سنة 1207هـ؛ من 101و إلى 101ظ.

مطلعها: تأوّبني داء دخيل موزع به كادت النّفوس توذى وتنزع

ختامها: وما قال منشدٌ أسيرُ محبّةٍ تأوّبني داءٌ دخيل موزع

* عليها هي الأخرى شروح كثيرة خلال السّطور ولكنّها مندثرة.

13. أ. بيان حادثة الباي صالح –باي قسنطينة– وكيف أوصل صاحب الدّيوان صوت ومعاناة تجّار قسنطينة إلى الحسن الدولاتلي داي الجزائر، ويعقب ذلك قصيدة من 7 أبيات وهي سينية من بحر الكامل من 102و إلى 102ظ.

مطلعها: مولى ملوك الأرض من في وجهه مقباس نور أيّما مقباس

ختامها: ورواه عباس كذلك عن علي ورواه إسماعيل عن عبّاس

ب. الرّسالة التي بعثها إلى الحسن باشا الدولاتلي نثرا ونظما، أمّا القصيدة فهي من المتقارب وعدد أبياتها: 26 بيتا، بتاريخ ذي القعدة 1206هـ؛ من 103و إلى 103ظ

مطلعها: أقول وأعني بهذا الخطاب همام الإسلام حسن المآب

ختامها: دوام زمان لما قلته أقول وأعني بهذا الخطاب

ج. رسالة إلى الحسن باشا الدولاتلي يشكره باسم بني مزاب على جميل عدله وإنصافه نثرا ونظما أمّا النّظم فهو في قصيدتين:

الأولى: كافية من سبع أبيات؛ كلّها في 104ظ.

مطلعها: خليفة ملك الآفاق سطوته والحقّ كان مداه آية سلكا

ختامها: علا فأصبح الورى يدعوه ملكا وريثما فتحوا عينا غذى ملكا

أمّا الثّانية: فهي رائية من بحر الطّويل في عشرين بيتا، موقعة بتاريخ 01 محرّم 1207هـ؛ من 104ظ إلى 105و.

مطلعها: حمى الله بدرا قاطنا بالجزائر جميلا لبيبا جامعا للمفاخر

ختامها: وما قال إبراهيم ذو الوجد والأسى حمى الله بدرا قاطنا بالجزائر

14. جواب إلى الحاج علي بن عبد اللّطيف نثرا ونظما على رسالة بعثها إلى أعيان مزاب، أمّا النّثر ففي ديباجة أنيقة، والنّظم في قصيدة لامية من بحر الخفيف في 32 بيتا، وأخرى من المتقارب ممدودة في 19 بيتا، موقّعة بتاريخ أواخر صفر من سنة 1207هـ.

الأولى: من بحر الخفيف؛ من 105ظ إلى 106و.

مطلعها: قد أتانا كتاب خل جميل سيّد ماجد لبيب جليل

ختامها: ما أجاد فكري وفهت بنطقي قد أتانا كتاب خل جميل

أمّا الثّانية: وهي من المتقارب في 106ظ.

مطلعها: أتانا كتاب جميل الثّنى غريب سنيع بديعُ الدُّمى

ختامها: وما فهت نطقا لما قلته أتانا كتاب جميل الثّنى

15. كتاب آخر إلى الدولاتلي في شأن قبيلة أولاد صالح التي كانت تقطع سبيل قوافل بني مزاب باستمرار في جبال الشفة جنوب الجزائر العاصمة، وتسلبهم أموالهم، يبدأها بديباجة رقيقة ثمّ ينظم ذلك شعرا في قصيدة من بحر الطّويل عدد أبياتها 34 بيتا وهي بائية؛ من 107و إلى 108و.

مطلعها: أقول وقلبي جمرة تتلهّب وجسمي موصب وعيني تسكب

ختامها: وما قال منشد كلامي ومقولي أقول وقلبي جمرة تتلهّب

16. قصيدته الحجازية وفيها ما شدّ انتباهه وشغل باله بمصر والحجاز وهي بائية من 221 بيتا، يبدؤها بديباجة رائعة، ويختمها بتذييل كذلك وبتوقيع اسمه، بتاريخ أوائل ربيع الثّاني بعد ربيع النّبوي من سنة 1197هـ، وتأخّر نقلها إلى ذي الحجّة من سنة 1217هـ؛ من 108ظ إلى 114و.

مطلعها: فنحمدك اللهمّ حمدا موافيا على نعمٍ منها بلوغي مُراديا

ختامها: دوام الذي قد قلت حمدا موافيا على نعمٍ منها بلوغي مُراديا

17. رسالة إلى ولده، نظما في 63 بيتا، من بحر الخفيف من 114و إلى 115ظ.

مطلعها: يا خليلي عرجا بعنان لأرى رسم طفلة بعيان

ختامها: وأجاد فكري وفهتُ بنطقي يا خليلي عرجا بعنان

18. وأخرى في رثاء ابنه لمّا وصل إليه نعيه، وهي نونية من خمس وعشرين بيتا, هذا ولم تصله رسالته الأولى؛ 115ظ إلى 116و.

مطلعها: يـا خليـلـي عرجـا بعنـان لأرى رسـم ثمـرة للجنـان

ختامها: وأجاد فكري بنظـم عجيـب وبشعر حوى بديـع المثـانـي

19. أخرى يترجّى فيها سلامة ابنه بالبليدة، وهي تائية من 26 بيتا؛ من 116و إلى 116ظ.

مطلعها: إلى سيدي المعبود أشكو مصيبتي وما قد دهاني من أمور عظيمـة

ختامها: دوام زمان قيـل فيـه مقالتـي إلى سيدي المعبود أشكو سريرتي

20. وأخرى وقد بلغه شفاء ابنه وسلامته، بعثها له ولم تصله حينئذ، وهي نونية من ستة عشر بيتا؛ من 116ظ إلى 117و.

مطلعها: أتانا كتاب بالسّـرور وبالهنـى كتاب وليد بالبليـدة مسكنـا

ختامها: يدوم زمان المنشديـن لقولنـا أتانا كتـاب بالسّـرور وبالهنى

21. فوائد وملح متنوّعة نثرا ونظما.

بها قصيدة من الرجز من 65 بيتا، موقّعة بتاريخ أواسط صفر من سنة 1221هـ.

*يسبق هذه القصيدة ديباجة هي عبارة عن قصّة إندرس معظم خطّها، وقد نظم صـاحب الدّيوان قصيدته على إثر ما جاء فيها، وهي نفسها التي بالخزانة العامّة بغرداية في نخيل أهـل العطف، من 118و إلى 119و.

مطلعها: الحـمد لله العـلـيّ الشّـأن الملـك المهيمـن الديـان

ختامها: ما فـاه منظومـي على اللّسـان الحمـد لله العـلـيّ الشّـأن

ج. قصائد الشّيخ ابن بحمان المخطوطة بالخزانة العامّة بغرداية.

1. قصيدة في شكوى الزّمان والحال:

رقمها في الفهرس 621، وفي الخزانة د.غ130.

مطلعها: ...ولمّا كانت الأحوال متبدّلة والطّبائع متغيّرة..

فـن : النظم؛ عدد أبياتها: 76؛ المؤلّف: إبراهيم بن بحمان..

المستهل: أكاملـة الحسـن البديـع تجلّد بصبر لعلّ الوصل يوجد في غـد

ختامها: دوام النّـاطقيـن يقـولنـا أكاملـة الحسن البديـع تجلّـد

النّاسخ: إبراهيم بن بحمان..

2ق، 29س، المقاس: 24.1 × 17.6، الخط: مغربي رديء، بنّي أحمر فاتح.

حالة المخطوط: كاملة، ح.ح: رديئة، ورقتان منفصلتان بهما رطوبة واسعة وتمزّق.

* الأولى في المجموع وتتلوها قصيدة له في نخيل أهل العطف.

** القصيدة مشكولة وبعض مفرداتها مشروحة.

2. قصيدة في نخيل أهل العطف:

المؤلّف: إبراهيم بن بحمان..

المستهل: الحـمـد لله العلـيّ الشّـأن الـمـلـك المهيمـن الديـان

ختامها: وجاوزوا الحـدود في الفسـاد وقتـل نخـل الله فـي البـلاد

رقمها في الفهرس: 638، وفي الخزانة: د.غ130.

ناسخها: إبراهيم بن بحمان

1 ص، 21 بيتا، المقاس: 24.1 × 17.6، الخط مغربي مقروء، بنّي وبنفسجي.

*مبتورة الآخر، وتمامها في مجموع المؤلفات الموجود بخزانة الحاج صالح لعلي.

**هي الثّانية والأخيرة، تلي القصيدة الأولى في شكوى الزّمان والحال.

ح.ح: رديئة: ورقتان منفصلتان بهما رطوبة، وتمزّق بأحدهما.

3. البردة:

المؤلّف: إبراهيم بن بحمان.

المستهل: (بعد البسملة) الحمد لله الذي ألهمنا اختزال النظم من الكلم المنثور...

ختامها: ورنّ قلبـي بمـا قلتـه وجمـا إنّي رأيت خيال البيت ذي الحرم

النّاسخ: إبراهيم بن بحمان، أواسط المحرّم سنة 1196هـ.

03ق، 12س، المقاس 17.4 × 13.5، الخط: مغربي واضح، أسود-أحمر، مبتورة الوسط بعد ق1.

*مبتورة الأوّل في الدّيباجة، وتمام النّاقص: في نسخة مكتبة القطب.

ح.ح: متوسّطة، د.غ، الورق مفكّك، في ق1 رطوبة.

د. قصائد الشّيخ إبراهيم بن بحمان المخطوطة بمكتبة قطب الأئمّة ببني يسجن:

قصيدة واحد هي البـردة، بخط المؤلّف: إبراهيم بن بحمان..

المستهل: (بعد البسملة) الحمد لله الذي ألهمنا اختصار النّظم من الكلم المنثور...

الخاتمة: ليت من كشف القناع عن وجهها لا سيما ما فيها من التّسعة والتّسعين اسما لمولانا جل وعلا..في أواسط المحرّم من سنة 1196هـ.

النّاسخ: إبراهيم بن بحمان..

6ق، المقاس 16.5 × 11.5، الخط: مغربي مقروء، ح.ح: جيّدة، كاملة.

* تلي كتاب مختصر المناسك ومهذّب المسالك.

** في الأخير: "ولكن لا معوّل هذه النّسخة وإنّما يعوّل على المشروحة".

*** هذه الإضافة الأخيرة ملحقة بالمخطوطة بحبرٍ مغاير، لعله أراد لفت الانتباه إليها.

خصائص فنية في شعره:

يمكن التعليق على أسلوب الشاعر من ناحيتين هما، المضمون وطرق الصياغة:

أما من ناحية المضمون فهو يمتاز بالتنوع في الأغراض، مع تسجيل كثرة في غرضي المدح والشوق قبل اللقاء، هذا إن قسمنا القصائد كما في الجدول الذي أوردته في التقديم، لكنه في الأصل تجدر الإشارة إلى أن الشاعر لم يلتزم بالأغراض الأساسية في قصائده، فقد يضع العنوان والديباجة مشيرا إلى الغرض الرئيسي من نظمه تلك القصيدة ثم تجده بعد ذلك يعدل عنها إلى أغراض أخرى غيرها، وهو ما يآخذ عليه، خذ مثلا داليته في شكوى الزمان والحال حيث يبدأها بثلاثين بيتا في الغزل وهو عدد كبير من الأبيات مقارنة مع الأبيات المتبقية التي تشكل الموضوع الرئيسي وهي موزعة على قسمين هجاء قومه والشوق إلى ابنه!!.

إن هذا التداخل يعتبر من الخصائص الفنية في شعر تلك الفترة، وبالتالي فإنه ليس من العيوب الخطيرة التي تنقص من قيمة الشاعر ومن أهمية ما يكتب، كما أنه مما يحسب لصالحه تفوقه في التخصص حين نظم في فن الرحلة وفن البردة.

أما طرق الصياغة فيمكن القول إن ألفاظ الشاعر وعباراته تعد في كثير من الأحيان بسيطة ومستهلكة، وفيها بعض الرَّكاكة أحيانا، وليس المجال هنا مجال التحليل والنقد وإلاّ لعرضت نماذج عديدة من شعره، وقد ينتبه لها المتذوق للشعر بفطرته وحسِّه، ناهيك عن التكرار المتواصل للألفاظ والمعاني، والتضمين المستمر للأمثلة والشواهد...

يضاف إلى ذلك الضعف الكبير في إقامة الأوزان، وكل هذه وغيرها تشير ـ كما أسلفت ـ إلى شعر تلك الفترة وما انتابه من ضعف، إلا أنه من الإنصاف إمكانية اعتبار شعر الشيخ ابن بحمان "شعرًا تأريخيًّا" ـ مجازًا ربَّما ـ ذلك لحفظه وتسجيله للكثير من الأحداث والوقائع التاريخية المهمة، في حقبة لم يؤرخ لها كثيرون.

أما البيان والبديع فهو كثير في ديوان الشاعر، هذا مما لا يخفى على أحد أنه كان من نتائج عصور الضعف والتخلف الفكري، حيث كانت العناية بالزخرفة اللفظية هي صاحبة الأولوية على حساب المعاني التي صارت مهلهلة وضعيفة، وهي من أول صفحة من ديوان الشاعر إلى آخر صفحة فيه، وفي هذا كلام كثير ليس من دواعي التحقيق هنا بل هو من نصيب الدارسين والنقّاد.

وعلى العموم فإنه يمكن تلخيص الخصائص الفنية في شعر ابن بحمان كما يأتي:

أ. المحافظة:

وتُلاحظ هذه الخاصية في المطالع الطَّلليَّة والغزلية لبعض القصائد، وهو في ذلك يجاري نمط الجاهليين في مطالع قصائدهم، مثال ذلك من قصيدة في ابنه محمد حين غادر مزاب:[1]

1. يَـا خَلِيلِـيَّ عَرِّجَـا بِعِنَـانِ ... لأرَى رَسْـمَ ثَمـرَةٍ للجِـنَانِ
2. وَقفَا بِي عَلَى الأطـلاَلِ قَلِـيلاً ... نَتَبَاكَى بِفَقدِ مَن قَـد شَـجَانِي
3. فَإِذَا مَـا بَلَغتُمَـا الرَّبـعَ حُطَّـا ... تُسعِدَانِي عَلَى البُكَـا تُـسعِدَانِي

كما وتُلاحظ عنده ظاهرةٌ ظلَّ يحافظ عليها وهي ولوجه النظم ببيت واختتامه بنفس البيت الذي بدأ به أو بصدره أو بعجزه، مثال ذلك من قصيدة في ابنه محمد كذلك[2]:

1. أَتَانَا كِتَابٌ بِالسُّرُورِ وَبَاهِنَى[3] ... كِتَابُ وَلِيدٍ بِالبُلَيدَةِ مَسكَنَا

16 يَدُومُ زَمَانُ المُنشِدِينَ لِقَولِنَا ... أَتَانَا كِتَابٌ بِالسُّرُورِ وَبَاهِنَاء

كذلك من خصائص المحافظة عنده الاختتام بالصلاة على الرسول ﷺ، وأمثلة ذلك كثيرة، إن لم أقل هي في ختام كل القصائد، ومنها هذه وهي في نخيل أهل العطف[4]:

1 – ينظر: الديوان ص 257.
2 – ينظر: نفسه ص 261.
3 – هكذا في الأصل، وهي الهناء.
4 – ينظر: السابق ص 263 وما بعدها.

1. وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَـى الإِمَـامِ ... مُحَـمَّـدٍ وَآلِـهِ الكِـرَامِ
2. الطَّاهِرِينَ الطَّيِّبِينَ الـشُّـرَفَاء ... ذَوِي المَعَـالِ وَالكَمَالِ وَالوَفَـاء
3. وَصَحبِهِ الأبـرَارِ وَالأَخـيَارِ ... أَهلِ التُّـقَـى فِي اللَّيلِ وَالنَّهَـارِ
4. مَا فَاهَ مَنظُـومِي عَلَى اللِّـسَانِ ... الحَمـدُ للهِ العَـلِـيِّ الـشَّـانِ

ب. التدبيج والتذييل:

أما التدبيج والتذييل فلا يخلو نص من ذلك خاصة ما كان من مراسلات وردود... مثال ذلك ديباجة قصيدته لوعة الاشتياق[1]، وهذا مستهلها: "..اللَّهُمَ يَا فَتَاحُ بَارِك في الافتتَاحِ، إنَّ أَحسَنَ مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ الوِجدَانُ، وَأَفْضَلُ مَا يُخَطُّ على البَالِ وَالأذهَانِ، وأهمُّ ما يَتَعَلَّقُ به الجَنَان..."

أما تذييلها فهو هذا: "..هذَا وَلَقد طَالَمَا كُنتُ مشغُوفًا بِحُبِّه، ومَنحُولاً بِمُخَالَجَتِه في الخَاطِرِ وَتَرَدُّده، فَلاَ تَعذلُونِي يَا إِخْوَتِي، كَفَاكُم عَنِ اللَّوْمِ مَا بِي، وَنَسأَلُ مَولانَا العَظِيم أن يَحْشُرَنَا مَعَ نَبِيِّه الكَرِيم، وأن يَغفرَ لَنَا مَا طَغَى به القَلَمُ، أَو زَلَّ به القَدَمُ، إِنَّهُ حَنَّانٌ مَنَّانٌ رَحِيمٌ رَحمَانٌ، وَلَقَدْ أَعرَضْتُهَا عَلَى الشَّيْخَينِ المَذكُورَينِ[2] فَاستَحسَنُوهَا غَايَةَ الحُسنِ وَقَبِلُوهَا "[3].

ج. التكـرار:

لقد تكررت بعض النصوص بعينها أو أجزاء منها، كأن يغيِّر الشاعر القافية محافظا على نفس الألفاظ ونفس المعاني، وقد يكرر حتى استعمال الشواهد والاقتباسات، ولو أن هذه الخاصية تحسب على الشيخ إلا أنها عكست جانبا من أسلوبه في الكتابة، أما أمثلة ذلك في الديوان فكثيرة ولا يسع المجال لذكرها جميعها، خذ مثالا لذلك قصيدته في مدح واستعطاف الحسن باشا الدولاتلي التي مطلعها:

1 – ينظر: الديوان ص 76.
2 – يقصد هنا شيخيه: "ضياء الدين" عبد العزيز الثيني، و"عمي يحي" صالح بن يحي الأفضلي.
3 – ينظر: الديوان ص 85.

أَقُــولُ وَأَعنــي بِهَذَا الخِــطَابِ هُــمَامَ الإِســلامِ حسَــنَ المَآب

فقد وردت هذه الأخيرة بنصها في المجموع مرّتين ص90 وص114 من المخطوط.

ت. التضمين والاقتباس:

إن التضمين والاقتباس عند الشيخ متنوع في الأغراض، وموجّهٌ نوعا ما في الاستعمال، فتلاحظ تضافرُهُ في تضمين آي القرآن الكريم والشعر الجاهلي، وتراجعه في الحديث النبوي الشريف، كما ويلاحظ عليه تكرار شواهد شعرية للخنساء وامرئ القيس...، هذا وقد خرَّجتُ ما استطعت من الشواهد وأحلت عليها في مظانها من مصادرها، وهو مبثوث على هوامش الديوان، ومن هنا فلا ضرورة للتمثيل لها لأنها تُدرك بسهولة، من خلال الأقواس وعلامات التنصيص.

ث. الإغـراب:

يعتبر الإغراب من الظواهر الأدبية عند بعض الأدباء في عصور الضعف، أما عند شاعرنا ابن بحمان فقد تجلت فقط في قصيدته ردا على مجهول هو هيان بن ميان الذي طعن في مذهب الشيخ، ولا أدري بالضبط السبب الذي دفع بالشيخ بالرد على ذلك الطاعن بتلك اللغة الغريبة، وكأني بالشيخ يحمل لسان العرب بين يديه وينتقي منه ما شاء وينظم ذلك لأن المفردات التي استعملها في ذلك شرحها على هوامش المخطوطة، وكلما عدت إلى لسان العرب وجدت الشرح الذي وضعه الشيخ على الهامش يوافق تماما ما وجدته في اللسان، ومن النّص هذه القطعة[1]:

"...كَعَّاب[2]، سَفيه صَخَّــاب، خُجَــاء[3] شَنظيــر[4]، هُــرَاء شَنغيــر[5]، غَشَمشَم[6] مُعَنــدَب[7]، قَفَنــدَر[8] مُقَرتَــب[9]، حَقِير لَئِيــم،

1 – ينظر : الرد على هيان بن ميان، الديوان ص 269.
2 – كذّاب: كثير الكذب.
3 – الخجاء: مشية فيها تبختر. ج1، ص64.
4 – الشنظير: الفحّاش السيّء الخلق. ج4، ص408.
5 – الشنغير: الفحّاش البذيء: ج4، ص431.
6 – الغشمشم: الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء. ج12، ص438.
7 – المعندب: الغضبان. اللسان، ج1، ص631.
8 – القفندر: القبيح المنظر. ج5، ص112.
9 – المقرتب: الغليظ اللسان، ج1، ص661.

هَبيت[1] ذَميم[2]، قَوَّاد[3] دَفير[4]، دَيُوث[5] مَكير، هَمَّاز لَمَّاز[6]، كَزَّاز[7] نَبَّاز، لَذِيغ كَعَقرَب، لَميج كَثَعلَب[8]، جَسيس[9] سَليط، طَمُول[10] رَطيط[11]،..."

ح. الصور الفنية:

تعد الصورة الفنية عند الشاعر من أُسس النَّظم ومن محسنات البناء الشعري، من خلال استعمال التشبيهات المتنوعة التي تزيد من عمق المعنى وتقربه من الذهن ليكون ألصق وأبقى في أذن السامع، إن أمثلة ذلك في الديوان كثيرة ولعلّي أكتفي بعرض بعضها هنا لتُظهر حرص الشيخ على إيصال الفكرة من خلال تنويع استعمال الصور الفنية، فخذ مثلا وصفه لتداعي الشيوخ العلماء وهلاكهم حتى تأثر الخلق بذلك، في نص رسالته في مدح بعض علماء بني يسجن[12]، "...وَالثَّانِيَةُ[13] كَانَت مَدِينَةٌ بِعُلَمَائِهَا، غَيرُ مُحتَاجَة إِلَى غَيرِهَا، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِم بِأَن أَهلَكَ مَن كَانَ فِيهَا عَالِمًا كَشَيخِهَا العَلاَّمَةِ بَابَ[14] بن المحمَّد وَالعَالِمِ أَبِي بكر بن يُوسُف وَغَيرِهِمَا، فَبَقِيَت كَبِير[15] مُعَطَّلَة، وَآنِيَة مِن غَيرِ عُرُوَة[16]"...

1 – الهبيت: الحمق، وقيل الذي لا عقل له. ج2، ص102.
2 – الذميم: القبيح. ج12، ص220.
3 – القواد: هو الدّيوث الذي لا يغار على أهله. ج2، ص150.
4 – الدفير: شدّة نتانة الريح. ج4، ص306.
5 – الديوث: هو القواد لا غيرة له على أهله. ج2، ص150.
6 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿ويل لكلّ همزة لُمزة﴾ [الهُمزة: 1].
7 – الكزّاز: البخيل. ج5، ص400.
8 – اللميج: ذوّاق بفمه كالمتلمظ. ج2، ص358.
9 – الجسيس: الذي يظل متحسّسًا. اللسان، ج6، ص43.
10 – الطمول: الفاحش اللسان. اللسان، ج11، ص408.
11 – الرطيط: السارق. اللسان، ج7، ص312.
12 – ينظر : رسالة في مدح بعض علماء بني يسجن، الديوان. ص 178 وما بعدها.
13 – يريد: مدينة غرداية.
14 – هكذا ورد في الأصل: وهي بابه أيضا، لقب لاسم إبراهيم بالبربرية لا يزال متداولا إلى اليوم بمزاب، وهو بابه بن محمد بن الحاج أبي القاسم الغرداوي المصعبي (1716–1792) ابن الشيخ حمو والحاج.
15 – يريد: كبئر، لكن البربر من عادتهم تخفيف الكسرة وفيها اقتباس أيضا من قوله تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها، وبير معطلة وقصر مشيّد﴾ الحج: 45.
16 – كناية عن غياب من تسند إليه الأمور ومن يستعان به على معضلات الحياة بعد ربّ العباد.

ومثال ذلك أيضا قوله مادحا أهل القرارة، واصفا بسالتهم وشجاعتهم كناية عن كثرة عددهم حتّى صار غبار النّقع لمّا ارتفع كليل أسود، ولا يكون الغبار كثيفًا إلاّ بكثرة العدد أو بالضراوة في القتال[1].

وَسَارُوا بِرَكبٍ مِثلَ أَسوَدَ حَالِكٍ إِلَى كُلِّ بَـاغٍ عَنهُمُ مُتَجَـنِّبِ

إن هذا التشبيه ليس مبتكرا عنده، فقد سبقه في ذلك بشار بن برد حين قال:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنـا وأسيافنا، ليل تهاوى كواكبـه

لكن التوظيف الجيد للفظ والمعنى أعطى للموضوع جِدَّةً وزاده جمالا.

كذلك يمكن ملاحظة قوله مستهلا قصيدته في مدح سليمان بن ناصر العماني:[2]

9. إِذَا ابتَسَمَت ضِحكًا بَدَا مِنهَا جَوهَرٌ كَبرقٍ أَضَاءَ بَـينَ دَاجٍ وغَيهَـب
10. كَأَنَّ مُجَاجَ الثَّغرِ مِنهَا مُدامَـةٌ رَحِيقٍ، وَمَختُومٍ بِمِسكٍ وزُرنُـب
11. كَأَنَّ جَبِينَ عَينِهَـا بَـينَ حَالِـكٍ هِلاَلُ تَمَـامٍ أو ضِـيَاءٌ لِكوكَـب
12. كَأَنَّ اصطِفَافَ حِليِهَا فَوقَ نَحرِهَا تَرَنُّـمُ غِـزلانٍ بِنَجـدٍ وَكَبكَب

إن جمال التشبيهات السابقة ورونق تصويرها، تعبّر بنفسها عن نفسها وتدلّ على سلامة ذوق صاحبها، ولا أشك في أن الشيخ إبراهيم بن بحمان كان ينظم شعره نظما وليس على السليقة، وبالتالي فإنه كان ينتقي ما يعجبه من الألفاظ ثم يصوغه في قالب الشعر كيف يشاء.

هذه بعض الخصائص الفنية في شعر الشيخ إبراهيم بن بحمان وغيرها كثير، مثل طول النفس والعاطفة والموسيقى..، أترك القارئ المتذوق يصل إليها بحسه، ويتبيَّنُ غيرها إنْ شاء.

1 – ينظر: رسالته في مدح بعض أعيان القرارة، الديوان، ص 119 وما بعدها.
2 – ينظر: قصيدته مدح سليمان بن ناصر العماني، نفسه، ص 160 وما بعدها.

الديوان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا

لـوعـةُ الاشتيـاق[1]

اللَّهُمَ يَا فَتَّاحُ بَارِك في الافتتاحِ، إنَّ أَحسَنَ مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ الوِجدَانُ، وَأَفْضَلُ مَا يُخَطُّ على البَالِ وَالأذهَانِ، وأهمُّ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ الجَنَان، وأَبهَى مَا نَطَقَ به اللِّسَانُ، وَأَزْهَى مَا سَمِعَتهُ الآذَانُ، وأشْهَى ما رأَتْهُ العيْنَان وأحرَى ما كَتَبَهُ البَنَانُ، وأعْلَى مَا يَهْتَمُّ بِهِ الإنسَانُ، بَعْدَ حَمْدِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَان، وَشُكْرِ الحَنَّان المَنَّان، وَتَقْدِيسِ المَلِكِ الديَّان، والصَّلاَةِ على سيِّدِنا المخصُوصِ بِالكَمَالِ والإحْسَانِ، وَالسَّلاَم على مولانا محمد المنسُوبِ إلى عَدنَان، المبعُوثِ بنَقضِ البُهتَان بالبُرهان، والأَدلَّةِ القَاطِعَةِ كالفُرقَان، فمن بَعدِ مَا أثنَى الله عليه في القرآن، فما مَدحِيَ لَهُ والواصفينَ إلاَّ تَعسُّفٌ وَاهِي الأَركان[2]، وعلى آله البالغين دُرُجَ المَعَالي، وأصحابه المُقتَدَى بِهِم كالنُّجُوم في اللَّيَالي، نَظمُ اللُّؤلُؤ والجَوهَرِ في عُقُودِ القَصَائد، وسلكَ الدُّرِّ والياقُوتِ في سُمُوطِ الفَرَائد، هذا وإنِّي تكلفتُ القَرِيضَ وإن كان جَنَاحُ النُّهُوضِ إليه مَهيضًا بِعَدَمِ أَهليَتِي لِذَلِكَ[3]، ولم أنظم في سُلاَكِ تلك المَسَالِك، ولرَفْضِي التَّعَلُّمَ في زمانه، وَهجرِ ذلك في أَوَانِه، بِمَا سنَحَ من اختلاَلِ الحَالِ عَلى البَالِ، وكَدَرِ الخَاطِرِ بعد صفْوِهِ والبلْبَالِ[4]، وكثيرًا ما يتردَّدُ في خَاطِرِي ويَختَلِجُ ويَضْطَرِبُ في قَلْبِي، أَن أُصَرِّحَ بِمَا هُوَ مستُورٌ، وَمكتُومٌ غيرُ مذكُور، إلى أن تلفَّظتُ بهذه القصيدة، وهي قريبة الفَهمِ للمبتدئ مثلِي ـغير بعيدةـ، والسَّببُ

---

1 – أخذت هذا العنوان من آخر الديباجة التي تسبق هذه القصيدة أين قال: "دعوتها بلوعة الاشتياق".

2 – يريد أن مدحه للرسول ﷺ والواصفين له أمثاله، لا يضيفون لصفاته شيئا مما أثنى الله به عليه فحالهم كمن يضيف الماء للبحر.

3 – هنا تواضع من الشيخ، كحال الشعراء النابغين فهم عادةً ما يستهلُّون شعرهم بمثل هذه العبارات التي يكمن وراءها تضلّعهم في الشعر. واستحواذهم على ناصيته.

4 – البلبال: شدّة الهمّ وكدره، يريد هنا تساقط الهموم عليه وكثرتها حتّى تكدّر صفوُهُ.

في ذلك المُحقّقُ الآتي، المَخصُوص بالكَمَال الذّاتي، قَد نَشَدَ قَصيدَةً لم ينسُج نَاسجٌ على منوالِهَا، و لم يأت أحدٌ بمثالِهَا، بديعةُ الشّأن غَريبَةُ البَيَان، ولولا أنّي وجدتُ نحريرًا ماهرًا، ولقيتُ سَحَابًا هَامرًا، عَنَيْتُ به من اسمه، مُشْتَقٌّ من العزّة وَالغَلاَء، وَمن هُوَ صَاعدٌ في دُرَى المَجد والعَلاَء، ومن شَهدَ بفَضله المَلَوَان[1]، هذا لا خفاء فيه على من يعتَريه [الجُنُونُ][2] كالقَمرَان، ومن هو كاشفٌ النِّقَابَ عن وُجُوه غَانيَات المَعَاني، وَمُزيلِ الأَسْتَار عن عَرَائس المَبَاني، ومن لا قَرينَ لهُ في إيضَاح المَعَاني وَكشْف المُهمَّات، ولا نَظير لَهُ في إبرَاز المَبَاني وَزَوَال المُلمَّات، ولقد بَلَغَ في العُلُوم النِّهَايَةَ، وَتَفنَّنَ وَتَبَرَّعَ فيهَا إلى أَقصَى الغَايَة، ولا سيما علمَ البَيَان فَإنَّهُ نَفسُ التِّبيَان، ولا سيمَا علم المَعَاني فإنَّهُ قد ارتَقَى في ذروَة المَبَاني، ولا سيَمَا علم البَديع، فإنَّهُ شُهرَ باليَد الرَّفيع، وَلاَ سيَمَا علمَ الأُصُول، فَإنَّهُ بَلَغَ نهَايَةَ الوُصُول، وَلاَسيَمَا علمَ الكَلاَم فَإنَّهُ فيه فَهَّامٌ، وَلاَسيَمَا علمَ الميزَان فَإنَّهُ معيَارٌ لذي البُرهَان، شَيخي وأُستَاذي وَنحريري، مَن بذكره تَهتَزُّ أَعطَافي وَجَوَانبي، وَبمُنَاظَرَته تَقَرُّ عُيُوني، وَبمُجَالَسَته تنشَرحُ صُدُوري، وَبمُلاَقَاته [تنجَلي][3] فُؤَادي، عبد العَزيز بن الحَاجّ إبرَاهيم[4]، أَعَزَّهُ اللهُ تَعَالَى وَأَدَامَ بَقَاهُ، وَبَلَّغَهُ مَا يَتَمَنَّى وَوَقَاهُ، فَيَا رَبِّ أَدمْهُ لَنَا زَمَانًا، وَأَبْقِ ذِكْرَهُ فِينَا بَقَاءً[5].

لَكُنتُ[6] إلى الآن تَائهًا في أَوديَة الضَّلاَل، وَخَاليًا عَنِ التَّعَلُّم في المَاضي وَالمُستَقبَل والحَال، ثمّ إنّي بعدما شَفَيتُ أَوَّلاً بعض الغَليل، على ذلك السَّيِّد بالمَدح

1 – الملوان: هُما اللّيل والنهار، لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر بيروت. ط6، 1998، ج15، حرف الواو، فصل الميم، ص775.

2 – هكذا في الأصل: وهي شدة ظلمة الليل. اللسان، ج13، حرف النون، فصل الجيم، ص:92.

3 – هكذا في الأصل، المقصود: ينجلي ويصفو.

4 – هو الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن إبراهيم الثميني _خال صاحب الديوان_ سبق التعريف به في التقديم. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص532 وما بعدها.

5 – هنا دليل على أنّه نظم قصيدة في حياة شيخه وخاله (ضياء الدين).

6 – يريد: لقد كنت. فيه بلاغة تعبير باستعمال الاختصار.

القَليل، رميتُ ثَانيًا ثناءً يُغَطّي ما بَين الآفَاق، على وَحيد عَصره وفَريد دَهره عَلى الإطلاَق، أَخُصُّ بذَلكَ شَيخَ شَيخنَا المذكُور مَن هُوَ حَقيقٌ بدَقَائق العُلُوم في العَشيِّ وَالبُكُور، فَإليه تَرجعُ غَوَامضُ المُشكلاَت، وَإليه تُرَدُّ عَوَائصُ المُعضلاَت، وَلَو شَهَدْتَهُ يا أَخي عندَ تقرير المَبَاحث لَرَأَيتَ أَمْرًا عَظيمًا، ولو حَضَرتهُ في نَظم اللَّطَائف لَحَسبْتَهُ نَجْرًا[1] جَسميًا، من اسمه كفعله اللاّزم مُشتَقٌّ من الحَيَاة، يحي بن عَمِّنَا صَالح[2] المشهُور بكَمَال الصِّفَات، أَصلَحَ اللهُ أَحوَالَهُ وَرَعَاهُ، ومن صَوب الغَمَام سَقَاهُ، ﴿ذلك فضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضلِ العَظيم﴾[3]، وَنَسألهُ أن يَحشُرَنَا وأَشيَاخَنَا وصَالح وَالدينَا والمُسلمينَ مَعَ نَبيِّه الكَريم، وَسَمَّيتُ القصيدةَ باسمٍ شَريف وَلَقَب لَطيف، وهو البيت:

لُعبَـرَةٌ سُقتُـهَا من أمَاق دَعَـوتُهَا بلَـوعَة الاشتيَاق[4]

إذا تقرر هذا فنقُولُ مع جُمُود القَريحَة، وخُمُود الفطنَة وَالسَّليقَة[5] مُستَعينًا بالله تعالى: (بحر الوافر)

1. أمِـن سَـجْعٍ وَتَغريـد الحَمَـام وَبَـرقٍ وَامِـضٍ عَلَـى الأَكَـام
2. وَمِـن هُبُـوب أَريَـاح الـصَّبَاء وَمِـنْ بَـين[6] الأَحبَّـة الكِـرَام
3. وَمِـن ذِكـرِي لجِـيرَانٍ وَأَهـلٍ ومِـن رَبـعٍ وسُـكَّان الخِيَـام
4. أَمِ الـذِّكرِ الغَنِيَّـة ذَاتِ خِـدرٍ غَـذَاةَ البَـينِ وَاضِـعَة الفِـرَام[7]

1 – النُّجر: والنِجار والنُّجار، الأصل والحسب. لسان العرب، ج5، ح الراء، ف النون، ص193.

2 – هو الشيخ أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي. ولقد سبق التعريف به أيضا في التقديم.

3 – اقتباس من قوله تعالى في سورة الحديد، وتمام الآية: ﴿لئلاّ يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ الآية: 29.

4 – من هذا البيت أخذت العنوان "لوعة الاشتياق"

5 – تلاحظ دائما عبارات التواضع والاعتراف بالضّعف والنُّقص على عادة الشعراء الموقنين بأنه فوق كل ذي علم عليم، وتواضع العالم يأتي للاستزادة من العلم، تواضع من غير ذلة وعزة من غير كبرياء.

6 – البَيْنُ: البُعد والفراق. لسان العرب، ج13، حرف النون، فصل الباء، ص553.

7 – الفرام: خرقة تضعها المرأة في فرجها. اللّسان، ج12 حرف الميم، فصل الفاء، ص450.

5. مُهَفهَفَةٌ[1] بَرهرَهَةٌ[2] تَمِيسُ كَمَغلُوبِ النَّزِيفِ بِالحَرَامِ
6. كَأَنَّ الفَرعَ[3] يُغشِ المتنَ[4] منهَا بَهِيمُ اللَّيلِ مُرتَكِمُ الظَّلاَمِ
7. كَأَنَّ الشَّذرَ وَالياقُوتَ منهَا عَلَى اللُّبَّاتِ[5] جَمرٌ ذُو اضطِرَامِ
8. وَمُقلَةُ شَادِنٍ[7] كَالعَينِ منهَا وَجِيدُهَا المُشرَعَبُ[6] كَالأَرَامِ
9. وَمِرسَنُهَا[10] مِسرَجٌ طَوِيلٌ وعَذبُ ظَلمِهَا[8] رَاحُ المُدَامِ[9]
10. لَهَا كَشحٌ[11] لَطِيفٌ كَالجَدِيلِ[12] لَهَا ثَغرٌ كَدُرٍّ فِي انتِظَامِ
11. لَهَا سَاقٌ كَأُنبُوبِ السَّقِي وَأَعمَمَ مَوضِعَ القَيدِ الخَدَامِ
12. لَهَا خَوَاتِمٌ زَانَت بَنَانًا لِكَفِّهَا المُخَضَّبِ[13] لِلعِصَامِ
13. لَهَا قَدٌّ يَغَارُ الغُصنُ مِنهُ لَهَا حِلِيٌّ يَصُوتُ كَالبُغَامِ[14]
14. لَهَا نَحرٌ يُضِيءُ كَالشِّهَابِ وَوَجنَتُهَا كَبَدرٍ فِي التَّمَامِ

1 – المهفهفةُ: المرأة الخميصة البطن، الرقيقة الخصر. اللسان، ج9، حرف الفاء، فصل الميم، ص642.
2 – البرهرهة: البيضاء، وقيل النّاعمةُ الجلد كأن الماء يجري فيها. اللسان، ج13، حرف الهاء، فصل الباء، ص320.
3 – الفرعُ: الشّعرُ. اللسان، ج8، ح العين، ف الفاء، ص602.
4 – المتنُ: الظّهرُ. اللسان، ج13، ح النون، ف الميم، ص560، لاحظ جمال التصوير مما يدل على حسن تذوّقه للجمال.
5 – اللُّبّات: ج. لُبّة، موضع العقد على الجيد. اللسان، ج2، ح التاء، ف اللاّم، ص124.
6 – الجيد المشرعب: العنق الطويل أناقة دون فُحش. اللسان، ج1، ح الباء، ف الشين، ص736.
7 – الشّادِنُ: صغير الظبي. اللسان، ج13، حرف النون، فصل الشين، ص129.
8 – الظّلمُ: بفتح الظّاء، اللّعابُ. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الظاء، ص217.
9 – المُدامُ: من أسماء الخمر، مثلها الرّاحُ أيضا.
10 – المرسن: أنف الفرس في الأصل ويستعمل للإنسان أيضا، فيه إشارة إلى الجمال. اللسان، ج13، حرف النون، فصل الميم، ص180.
11 – الكِشحُ: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، وهو من لَدُن السُّرّة إلى المتن. اللسان، ج2، حرف الحاء، فصل الكاف، ص571.
12 – الجديل: حبل مفتول من أَدَمٍ أو شَعرٍ يكون في عنق البعير أو الناقة مُستوٍ. اللسان، ج11، حرف اللاّم، فصل الجيم، ص103.
13 – المخضّب: المصبوغ بالحنّاء.
14 – البُغام: صوت لا يُفصحُ بِهِ تنادي به الظبية صغيرها. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الياء، ص51.

15. تَفُوقُ الشَّمسَ ضِيَاءً وَنُورًا تَفُورُ بِالمِسكِ نَشرًا بِالقِيَامِ
16. إِلَى أَمثَالِهَا يَرنُو الحَلِيمُ إِلَى أَترَابِهَا يَدنُو النُّهَامُ
17. وَلِهتُ لِبينِهَا عِندَ الرَّحِيلِ وَقَد صَرَمَت حِبَالَ الاعتِصَامِ
18. بَكَيتَ وانتَحَلتَ ثُمَّ شَجَوتَ فَبِتَّ تُكَابِدُ اللَّيلَ التَّمَامِ
19. وَأَرَّقَنِي وَأَفنَانِي وَأَشجَا نُحُولُ الجِسمِ عَن طِيبِ المَنَامِ
20. فَلَم يَدَع لَدَيَّ وَعِندِي إِلاَّ بَنَاتَ الفِكرِ تَاهَت لِلغَمَامِ
21. تُنَاوِيهَا وَقَد بَعُدَت عَلَيهَا كَذَا لِلأَرضِ تَفعَلُ وَاحَدَامِ[1]
22. رَمَى قَلبِيَ بِالرُّمحِ المُصِيبِ وَسَيفِ الظُّلمِ وَالرَّدَى وَالسِّهَامِ
23. فَلَوْ قِيسَتْ لَوَاعِجُهُ[2] بِنَارٍ لَقِيلَ بِالسَّوَاءِ وَالثُّؤَامِ
24. فَلَم يَكُ ذَا لِسَلْمَى[5] وَلاَ لِأَسْمَى[6] وَلاَ هِندٍ وَمَيَّةَ[3] مَعْ فَطَامِ[4]
25. كَدَيدَنِ ابنِ حِجرٍ[10] وابنِ سُلمَى[11] وَعَلقَمَةَ[7] وَعَنتَرَةَ[8] الضِّغَامِ[9]
26. وَهَا أَنَا ذَا أُخَالِفُهُم وَأَشكُوا إِلَى الإِلَهِ مَا بِيَ مِن غَرَامِ
27. وَلَكِن كَانَ ذَاكَ لِدِينِ رَبِّي عَفَت أَطلاَلَهُ صَمَّ الرِّجَامِ[12]

1 – هكذا في الأصل: لعلّه نداء.
2 – اللّواعج: ج. لاعج وهو الهوى والحبّ المُحرق. اللسان، ج2، حرف الجيم، فصل اللاّم، ص423.
3 – 4 – 5 – 6: هذه أسماء لمعشوقات كثير من الشعراء الجاهليين وقد ساقها هنا تعريضًا بأصحابها ليس إلاّ، وكلّ واحدة اشتهر ذِكرها عند شاعر أو أكثر من الجاهليين.
7 – 8–10– 11: هؤلاء جملة من فحول الشعراء الجاهليين أيضا، ولم أتعرض للتعريف بهم، إذ لا ضرورة لذلك في البحث، أما أسماؤهم فهي مبثوثة في الكتب.
9 – هذا دليل على إلمام الشيخ بسير الشعراء وشعرهم، كما وستلاحظ توظيفه لما حفظ من خلال كثرة الاقتباسات فيما سيأتي.
12 – هنا تصريح الشيخ بحقيقة تغزّله، فقد أفناه جمال الدّين الذي صار مهجورًا منبوذًا بين أهل زمانه، فلم يُشغله هوى فتاة ولا رحيل قومها على عادة الشعراء، ولكن رحيل الدّين وتفشّي الظّلم والبغي والفساد.

28. لَقَد أَمسَى طَرِيدًا بَل غَرِيبًا عَلَى مَا قَالَ سَيِّدُ الأَنَامِ[1]
29. فَيَا لَهفِي وَيَا حُزنِي عَلَيهِ وَقَد هُدِمَت مَعَالِمُه العِظَامُ
30. وَقَد أَمسَت مَنَارَتُهُ خَرَابًا كَأَنَّ الرَّبعَ لَيسَ بِهِ سَلاَمُ
31. أَلاَ يَا صَاحِ أَقبِلْ ثُمَّ خَمِّشْ[2] أَعِنِي عَلَى الهُمُومِ بِاحتِزَامِ
32. وَقَفتُ مُسَائِلاً الدَّارَ أَعَيَت جَوَابًا مَا بِهَا إِلاَّ الأَرَام
33. وَإِلاَّ النُّؤُورُ[4] وَالأُوَارُ[5] لَمَّا [نَادَيتُهَا][3] وَإِنِّي ذُو سَقَامِ
34. فَعِندَ ذَاكَ هِمتُ إِذ شَجَانِي فَأَسبَلْتُ الدُّمُوعَ كَالمُدَامِ[6]
35. فَدَع ذَا ثُمَّ دَع ثُمَّ دَع ذَا وَسَلِّ الهَمَّ عَنكَ بِالحِمَامِ
36. فَسُقيًا ثُمَّ سُقيًا ثُمَّ رَعيًا مِنَ الوَسمِيِّ جَادَ بِهِ الغَمَامُ
37. عَنَيتُ لِمَن تَقَدَّمَ مِن إِبَاضٍ[7] لَقَد حَازَ وَفَازَ عَلَى الأَنَامِ
38. وَهُم هُم مَا هُمُ وَهُم مَجَنِّي هُمُ اللِّوَا مَصَابِيحُ الظَّلاَمِ
39. وَهُم قَتَلُوا اللُّيُوثَ فِي خَمِيسٍ[8] وَهُم أَصحَابُ يَومِ الاقتِحَامِ
40. وَهُم دِرعِي وَهُم عَضُدِي وَسَيفِي فَلاَ عَتْبَ وَلاَ لَومَ اللِّئَامِ

1 – إشارة واضحة إلى قول الرسول ﷺ: «إنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبًا كما بدأ» صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحديث رقم: 209، ص144.
2 – خمِّشْ: فعل أمر لـ: "خَمَشَ" الخدش في الوجه وقد يستعمل في سائر الجسد. اللسان، حرف الشين، فصل الخاء، ص299.
3 – هكذا في الأصل: ولعله تصحيف من "ناديتُها".
4 – النُّؤُور: ضرب من بقر الوحش. اللسان، ج15، حرف الواو، فصل النون، ص540.
5 – الأُوار: الحرُّ والعطش الشديد. اللسان، ج4، حرف الراء، فصل الألف، ص35.
6 – المُدامُ: من أسماء الخمرة.
7 – إباض: يُريدُ من كان من السابقين على الطريقة الوهبية الإباضية، الذين لم يغيّروا ولم يبدّلوا عكس أهل زمانه الذين ظهر فيهم الانحراف.
8 – الخميس: الجيش العظيم، لأنّه خمس فرق. اللسان، ج6، حرف السين، فصل الخاء، ص272.

41. وَهُم مَلجَأٌ وَهُم وَزَرٌ وَهُم لِي دَوَاءٌ، داءٌ لِغَيرِي، هُم صِرَام
42. فَأَهلاً ثُمَّ أَهلاً ثُمَّ سَهلاً بِذِكرِهِمْ وَحِزبِهِم الكِرَام
43. لَقَد شَيَّدُوا قَوَاعِدًا بَنَوهَا لِدِينِ رَبِّهِمْ بِالاحتِزَامِ[1]
44. فَكَم مِن وَقعَةٍ وَقَعَت لَدَيهِم تَعِيشُ بِهَا الوُحُوشُ وَالرُّخَامِ[2]
45. فَلَولاَهُم وَلَولاَهُم وَلَولاَ لَمَا اهتَدَينَا لِلنَّهجِ القَوَام
46. فَسُحقًا ثُمَّ تَعسًا ثُمَّ تَبًّا لأَيدِي مَن يُغَيِّرُ فِي الرِّجَامِ[3]
47. عَنَيتُ بِذَا أَوَاخِرَنَا فَوَيلاً لَهُم مِن حَيثُ زَاغُوا لِلظَّلاَمِ
48. قُلُوبُهُمُ قُلُوبُ المَارِدِينَ وُجُوهُهُم وُجُوهٌ لِلأَنَامِ
49. فَشُغلُهُمُ وَهِمَّتُهُم ضَلاَلٌ قُلُوبُهُمُ أَصَمُّ مِنَ السِّلاَمِ[4]
50. فَذَا مِمَّا قَضَاهُ اللَّه فِينَا وَمَا أَرَادَ كَانَ بِلاَ خِصَامِ[5]
51. أَلاَ يَا صَاحِ فَكِّر ثُمَّ دَبِّر خُطُوبَ المَوتِ أَهوَالَ العِظَامِ
52. أَلاَ يَا صَاحِ فَكِّر ثُمَّ دَبِّر أُمُورَ القَبرِ مَع نَشرِ العِظَامِ
53. أَلاَ يَا صَاحِ فَكِّر ثُمَّ دَبِّر وُقُوفَ النَّاسِ يَومَ الازدِحَامِ
54. أَلاَ يَا صَاحِ فَكِّر ثُمَّ دَبِّر تَقَلُّبَ الوُجُوهِ فِي الجِحَامِ[6]
55. أَلاَ يَا صَاحِ فَكِّر ثُمَّ دَبِّر تَنَعُّمَ الوُجُوهِ فِي السَّلاَمِ[7]

1 – الاحتزام: التحمّل والمصابرة. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الحاء، ص502.
2 – هنا كناية عن كثرة قتلى أعدائهم حتّى أنّهم لا يستطيعون دفنها جميعا، فيعيش منها لكثرتها الضباع وآكلو الجيف.
3 – الرِّجام: الحجارة المجموعة على القبور، وهي أيضا ما يبنى على البئر فتجعل عليه الخشبة للدلو. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الراء، ص319 وقد تكون إشارة إلى ما ساد عصره من بناء وتزيين القبور...
4 – السِّلام: الحجارة القاسية. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل السين، ص937.
5 – هنا تسليم بقضاء الله وقدره، بعدما أدّى ما عليه من النّصح والسّعي في تنوير عقول قومه بتذكيرهم بحقيقة الدين.
6 – الجحام: ج. جحم، وهي النار الملتهبة. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الجيم، ص84.
7 – تضمين لأبيات حجازية أي يعقوب الوارجلاني من50 إلى 51، ينظر الحجازية، مخطوطة دار إروان، العطف، غرداية، الجزائر، ق13.

56. عَلَى المُختَارِ سَيِّدِ الأَنَامِ صَلاَةٌ واعتِنَاءٌ مَعْ سَلاَم
57. مُحَمَّدٍ صَفِيِّ اللهِ حَقًّا مِن أَصلٍ بَارِعٍ، آلٍ كِرَام
58. وَأَزوَاجٍ وَأَصحَابٍ وَآلٍ وَأَنصَارٍ وَأَحزَابِهِ القِيَام
59. دَوَامَ الوُرقِ[1] تَسجَعُ بِالأَرَاكِ[2] وَمَا هَبَّ البُرُوقُ عَلَى الأَكَامِ
60. وَمَا يَجرِي المُعَدِّلُ بِالنُّجُومِ وَمَا دَامَت طُرُوسٌ للنِّظَامِ
61. وَمَا سَبَحَت سُفُونُ الشِّعرِ يَومًا بِوَافِرِ البُحُورِ وَالتَّمَام
62. فَدُونَكَهَا مُغَنِّنَةً كَحَادٍ حَدَا بِالنُّوقِ صُبحًا أو أَرَام
63. تَلوحُ كَأَنَّهَا خُودٌ[3] تَهَادَى بِمِسكٍ سُطُورُهَا فُضَّ الخِتَام
64. وَأختِمُهَا بِمَا بِهِ بَدِيتُ أَمِن سَجعٍ وَتَغرِيدِ الحَمَام[4]

هَذَا وَلَقد طَالَمَا كُنتُ مشغُوفًا بِحُبِّه، ومَنحُولاً بِمُخَالَجَتِه فِي الخَاطِرِ وَتَرَدُّدِه، فَلاَ تَعذُلُونِي يَا إِخْوَتِي، كَفَاكُم عَنِ اللَّوْمِ مَا بِي، وَنَسأَلُ مَولانَا العَظِيم أن يَحْشُرَنَا مَعَ نَبِيِّه الكَرِيم، وأن يَغفِرَ لَنَا مَا طَغَى به القَلَمُ، أَو زَلَّ به القَدَمُ، إِنَّهُ حَنَّانٌ مَنَّانٌ رَحِيمٌ رَحمَنٌ، وَلَقَدْ أَعرَضْتُهَا عَلَى الشَّيْخَينِ المَذكُورَينِ[5] فَاستَحسَنُوهَا غَايَةَ الحُسنِ وَقَبِلُوهَا[6].

وَإِنَّمَا جَعلتُ هَذَا ذَيلاً لَهَا لِتَكُونَ كَالفَرِيدَةِ فِي صَدرِهَا، يا ذَا الذي [طَلَعَهَا][7]، إِن رَاقَ حُسنُهَا فَعُدَّ لَنَا وافتَح لنَا بَابَ الرِّضَا، وَإِن تَجِد عيبًا فَسُد،

1 – الوُرق: ج. ورقاء، الحمامة البيضاء. اللسان، ج10، حرف القاف، فصل الواو، ص225.
2 – الأراك: شجر يُستاك بأغصانه، طيّب الرائحة. اللسان، ج10، حرف الكاف، فصل الألف، ص92.
3 – الخود: المرأة الشابّة. اللسان، ج3، حرف الدال، فصل الخاء، ص322.
4 – يلاحظ فيما سيأتي في كلّ القصائد الانتهاء بما بدأ به، أي الخروج بمطلع القصيدة، ويحافظ على هذه الميزة مع جميع القصائد إلى آخر الديوان.
5 – يقصد هنا أستاذيه: الشيخ "ضياء الدين" عبد العزيز الثميني، والشيخ "عمي يحي" الأفضلي.
6 – لابد من الإشارة هنا إلى كثرة الكسور العروضية وتعدد عيوب القافية... وغيرها كثير، وهي تشير إلى ضعف شعره مقارنة بما سيأتي من القصائد أين سيتحسّنُ أسلوبه، ولعل هذه كانت من أولى محاولاته في نظمه للشعر.
7 – هكذا في الأصل: ولعلّه أراد طَالَعَهَا اطّلع عليها، فأسقطت الألف سهوًا.

وتَمَّت بِحَمدِ اللهِ تَعَالَى وَحُسنِ عَونِه وَتَوفِيقِه، وَالصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِه، وَفِيهَا أَربَعَةٌ وَستُّونَ بَيتًا، ثُمَّ نُثَنِّي بِقَصِيدَةِ سَيِّدِنَا [المُسَمَّاتِ][1]: بِالبَاتِرَاتِ الوُجدِيَّةِ وَالقَاطِعَاتِ الحُزنِيَّة[2] وهي هذه: (بحر الوافر)

البَاتِرَاتُ الوُجدِيَّةِ وَالقَاطِعَاتُ الحُزنِيَّة

01 بَكَت عَينِي وَحَقَّ لَهَا البُكَاءُ وَقَد طَعَنَ الدَّوَاءُ وَحَلَّ دَاءُ
02 وَأَلبَسَنِي النَّوَا دَنَفًا وَشَجوًا عَلَى آثَارِ مَن ذَهَبَ العَفَاءُ[3]
03 وَأَفنَانِي النُّحُولُ فَلَيسَ يُرجَى لِمَا قَد كُنتُ أُعَانِي الشِّفَاء
04 فَلَم يَترُك لَدَيَّ وَفِيَّ إِلاَّ بَنَاتَ الفِكرِ تَائِهَةً تَشَاء
05 تَطِيرُ إِلَى السَّمَاءِ هَجرًا لأَرضٍ [تُنَاوِيهَا][4]، وَقَد بَعُدَ السَّمَاءُ
06 رَمَى قَلبِي بِتَبرِيحِ الجَوَاءِ يُفَارِقُنِي وَقَد بَرِحَ الخَفَاء
07 رَمَانِي الدَّهرُ بِالسَّهمِ المُصِيبِ وَسَيفُ البَغيِ جَرَّدَهُ الرَّدَاء
08 وَيُزعِجُ لاَعِجُ النَّومَ عَنِّي، إِذَا مَا العَينُ طَابَ لَهَا الكَرَاء
09 فَلَم يَكُ ذَا لِحَورَا ذَاتِ وَشمٍ وَذَاتِ شَوًى خَدُولٍ كِيمِيَاء
10 كَأَنَّ الفَرعَ مِنهَا إِذَا تَرَاهُ بَهِيمُ اللَّيلِ صَاحَبَهُ الدُّجَاءُ
11 وَجَنَّةٍ وجْنَةٍ، نَارٌ تَشُبُّ لِصَبٍّ فِي حَشَاهُ وَعَازَمَاء
12 وَذَاتُ مُقبِلٍ عَذبٍ إِذَا مَا تَبَسَّمَ شِمتَ برقًا قَد يُرَا
13 وَذَاتُ الجِيدِ جِيدِ الرِّيمِ[5] أَنَّى لِجِيدِ الرِّيمِ أَنَّى لَهُ البَهَاءُ

1 – هكذا في الأصل: وهي بتاء مربوطة.
2 – ألا ترى أن مثل هذا العنوان يستدعي التوقّف لبُعد ما يحمل من معان ودلالات.
3 – اقتباس من بيت زهير بن أبي سلمى الذي يقول فيه:
تحمّل أهلها منها فبانوا على آثار من ذهب العفاءُ
ديوان زهير، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص8.
4 – هكذا في الأصل: وهي تُناوِئُها: بمعنى تزعجها وتضايقها، للضرورة الشعرية خفف مراعاة للوزن.
5 – الرِّيم: نوع من الغزلان رشيق القوام. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الراء، ص335.

14 وَسَرْوُ الـرَّوْضِ يَحسُدُهَا إِذَا مَا تَقَابَلَت الـقُدُودُ لَهُ اعـتِـدَاء

15 مُهَفهَفَةٍ بَرَهـرَهَـةٍ تَـهَـادَى كَمَغلُوبٍ نَـزِيـفٍ بِه امتِـلاَءُ

16 لَهَا حِلـيٌ لَهُ صَوتُ القَطَا، مِن عَلَى قَيـضٍ يُصـلَ بِهِ الظَّمَـاءُ

17 وَلِهـتُ لِبَينِها صَرَمت عُهُـو دِي، وَأَمسَى الرَّبعُ حَلَّ بِه البَلاَء

18 وَلَكـن كَـانَ ذَاكَ لِدِينِ رَبِّـي زَهُوقَ الرُّوحِ صَـيَّرَهُ الـوهَاء

19 وَقَد دَرَسَـت مَعَالِمُهُ وأمسَـت خَرَابًـا بَـلقَـعًا مَـاذَا الخَلاَء

20 وقَـد هَدَمَـت أَوَاخِرَنَـا بَنَاهُ الأَوَّلُونَ سَمَـى الـبِنَـاء

21 فَـيَا أَسِفِي وَقَد تَبَّت يَـدَاهُم[2] فَعَـزَّهُمُ وَبَـزَّهُـم[1] العِـدَاء

22 وَكَـان مِن أَخٍ عَضُدٍ وَسَـيفٍ وَنُـورِ العَـينِ نَـاءَ بِـهِ النَّوَاء

23 كَـرِيمٍ فَـاضِلٍ وَرِعٍ ذَكِـيٍّ وَبَحرٍ لاَ تُـكَـدِّرُهُ الـدِّلاَء[3]

24 كَرِيـمٍ ابن الكَرِيمِ ابن الكَرِيـمِ وَطَودٍ[4] لاَ يُزعزِعُـهُ الهَـوَاءُ

25 ضِـيَاءُ الدِّينِ إبرَاهِيمُ[5] نَجـلٌ لِـتَاجِ الدِّينِ لَيسَ بِهِ خَفَـاءُ

26 عَنَيـتُ مُحَمَّدًا شَيخ الجَمَاعَـةِ أَبَا البَرَكَاتِ لَيـسَ بِـهِ امتِـرَاءُ

27 هُوَ ابن الشَّيخِ زَينُ الدِّينِ حَقًّـا أَبُو الحَـجَّاجِ قَاسِـمُنَا[6] اللِّوَاء

28 سَأَلتُ تَحِـيَّةً تُـهدَى إِلَيـهِم مِنَ الرَّحمَـانِ يشـمَلُهُم ثَـنَاء

---

1 – بزَّهم: غلَبَهم، تضمين للمثل المشهور "مَن عَزَّ بَزَّ" أي من غلب سلب اللسان، ج5، حرف الزاي، فصل الباء، ص312.

2 – تبّت يداهم: بمعنى قُطعت وخسرت. هنا دعاء بالشرّ لمن غيّروا وخالفوا.

3 – اقتباس من شعر حسان بن ثابت: لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدّره الدلاءُ
ديوان حسان، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1987، ص8.

4 – الطَّود: الجبل العالي. اللسان، ج4، حرف الدال، فصل الطاء، ص685.

5 – إبراهيم: للأسف لم أستطع أن أتوصل إلى معرفة هذا العلم مع طول بحث وتنقيب.

6 – هو بالحاج بن كاسي بن امحمد القراري، المعروف بـ"الشيخ بالحاج" دفين العطف. وهو بالفعل كما وصفه هنا "هو ابن الشيخ.." وقد سبق التعريف به في التقديم.

29 فَكَيفَ بِمِرآةٍ وَلِـوَاءِ جُنـدِي وَنَجمٍ للسِّـمَاكِ بِـهِ اهـتِدَاءُ

30 لَقَد جَرَ المُـعَدِّلُ كُلَّ نَجـمٍ لِمَغرِبِنَا بِقَـسرِيَـةٍ قَـضَـاء

31 وَذَا مِن بَيـنِهِم، قَد جَرَّ يَومًـا فَغَـابَ بِمشرِقٍ فَـمَتَى اللِّـقَاءُ

32 هُدِيتَ لِمرَبعٍ حَسَنٍ، سَـقَـاهُ مِن الوَسمِيِّ جَـادَ بِهِ الـسَّمَـاءُ

33 سَـقَـاهُ اللهُ سُقيًا بَعدَ سُـقيٍ وَحَيَّاهُ الكَـرِيمُ بِـمَا يَـشَـاءُ

34 قَرَارَتُكُم[1] تَقَرُّ بِهَـا الـعُيُـونُ قَـرَارُ الدِّينِ دَامَ لَـهَا الهَنَـاءُ

35 مَـقَـرٌّ لِلأَفَاضِـلِ وَالـعُلُـومِ وَنَيلِ الخَيـرِ، نَيـلَ بِهَـا الغَنَاءُ

36 تَحَمَّلَ فَـجأَةً عَنَّا وَسَـارَت رِكَابُهُـم وَسَـارَ بِهَا الـثَّوَاءُ

37 ظَعَائِنُـهُم ظَعَـنَّ فَلَم يَعُجْـنَ دُجَى لَيـلٍ وَعَـاجَ بِـيَ الرِّدَاء

38 حَلَلتَ مَحَـلَةً حَـلَتْ عُيُونًـا وَلَـبَّتكَ الـسُّرَاةُ وَهُم شِفَـاءُ

39 وَهُم هُم مَا هُمُ وَهُمُ [الهُدَاتُ][3] هُدَاتُ الدِينِ لَيسَ بِهِ خَفَـاءُ[2]

40 وَهُم وَزَرٌ وَهُم تِـريَاقُ طِـبٍّ دَوَاءٌ لِي، وَهُـم لِلـغَـيرِ دَاءُ

41 وَقَاهُـم رَبُّهُم وَحَمَى حِمَاهُـم وَزَكَّاهُـم وَنَـاوِيهِم[4] هَـبَاء

---

1 – القرارة: هي مسقط رأس "الشيخ بالحاج" وموطنه حيث قاد حملة الإصلاح الأولى، لكن الجهل والعصبية حالت دون ما يصبو إليه، ووقعت فتنة كبيرة سنة 1200هـ هلك فيها قوم كثيرون، ثم إنَّ حاسديه قد دبّروا لقتله، لكنه فرّ منهم بفضل الله إلى غرداية ثمّ إلى (تجنينت) العطف حيث توفي هناك.
أمّا القرارة: فهي بلدة أنشئت بعد التوسّع من مجموع سكان وقبائل من غرداية وبعض قصور مزاب المختلفة، تبعد عن وادي مزاب بتسعين كيلومترا في الشمال الشرقي، وتقع على طريق القوافل ما جعل أسواقها تنتعش ويتردّد إليها الأرباع وأولاد نايل وأعراب تقرت وبسكرة. وقد اتّسعت وحوّل سورها ثلاث مرّات، ولها واحة مزدهرة يسقيها واد زقرير...
ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ط1، 1992، ص62.

2 – تلاحظ التكرار في الألفاظ والمعاني، مقارنة بالقصيدة الأولى كذلك الأمر مع البيت الذي يليه،
ينظر: " لوعة الاشتياق" الأبيات: 38، 41، 45 من هذه القصيدة مقارنة بالبيت 61 من الأولى.

3 – هكذا في الأصل وهي بتاء مربوطة.

4 – نَاوِيهم: هي نَاوِئُهُم، أي مزعجهم، وهي هنا مخففة للضرورة الشعرية.

42 سَلاَمُ اللهِ يَشْمَلُـهُم جَمِيعًـــا وَرَحْـمَتُـهُ يَشَـاءُ بَعدَ الرِّضَاءِ

43 وَمِنِّي عَلَى الرَّؤُوفِ بِنَا الـرَّحِيم صَلاَة مَعْ سَـــلاَمٍ وَاعتِـــنَاءِ

44 وَأَصـــحَـــابٍ وَأَزوَاجٍ وَآلٍ لَهُم، وَعَلى أَخٍ فِيـهِ الوَفَـــاءُ

45 يَدُومُ دَوَامَ مَسِيرِ الفُلكِ سَـبحًا بِوَافِرِ البُـحُـورِ لَـهُ ارتِـــوَاءُ

46 وَمَا الأَفلاَكُ تَجرِي بِالـــنُّجُومِ وَمَا الـنِّظَامُ يَقْـفُوهُ الـذُّكَاءُ[1]

47 وَمَا الأَسبَابُ وَالأَوتَـادُ يُبنَـى عَلَيهِ البَيتُ يُحكِمُـهُ البِنَـــاءُ[2]

48 فَدُونَـكَهَـا تُغَـنِّن مِثل رِيـمٍ عَلَى رَملٍ تُـنَاغِيـهَا الظِّـبَاءُ

49 وَأَختِمُهَا بِما كُنتُ ابـتَدَيـتُ أَوَّلاً بَكَت عَينِي وَحَقَّ لَـهَا البُكَـاءُ

تمت بحمد الله سبحانه.

وقد زاد ولدنا عبد العزيز بن الحاج بن بحمان صبيحة يوم الجمعة من ثلاث بقين من شهر المبارك رمضان سنة 1180هـ، وزاد بعده ابننا صالح ليلة السبت من ثمانية عشر يوما مضت من ذي القعدة سنة 1182هـ، وقد زاد ولدنا محمد[3] بن الحاج في أواخر سنة 1190هـ، وزاد ابنه عبد الله ليلة الأحد الثانية عشر من رجب سنة 1215هـ، وتوفي أبوه محمد في ربيع النبوي[4] من سنة 1218هـ ببلد البليدة مُجدريًا ـ رحمه الله ـ[5].

1 – الذُّكَاءُ: الشّمس. اللسان، ج10، حرف الألف، فصل الذال، ص238.

2 – الأسباب والأوتاد: يريد هنا الأبيات الشعرية وما تبنى به القصائد.

3 – ابنه محمّد هو ثمرة فؤاده، وقد رثاه بعد وفاته في منفاه بالبليدة، وقد صرّح الشاعر هنا بأنّ سبب موته كان بداء الجذري، كما فصّل في سبب هجرة ابنه إلى البليدة في قصائد أخرى كان قد بعثها إليه، وقد عاش ابنه محمد 28 ربيعا فقط.

4 – هو ربيع الأول الذي شهد ميلاد الرسول محمد ﷺ.

5 –لم أجد تقييدا آخر غير هذا عن عائلة الشيخ ابن بحمان.

مدح الشيخ أبو يعقوب يوسف بن امحمد المليكي المُصعبي، "نزيلُ جربة"[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

إنَّ أَبهَى مَا تَتَزَيَّنُ بِه جِيَادُ القُلُوب لَدَى المُهِمَّات، وَأَزهَى مَا تَتَحَلَّى به عَرَائسُ الأَلسنَة عندَ المُلِمَّات، وَأَحسَنَ مَا تَتَخَلَّقُ به الخَوَاطِرُ، وَأَفضَلَ مَا تَتَعَلَّقُ لِرُؤيَته النَّوَاظِرُ، حَمدُ اللهِ الذي رَفَعَ كَلِمَةَ الحَقِّ بالبُرهَان وَخَفَضَ رَايَةَ البَاطِلِ وَالبُهتَان، وَخَصَّ المُصطَفَى بِأَحسَنِ الأَخلاَق، سَيِّدُنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد المَنعُوت بالكَمَالاَت الذَاتِيَة عَلَى الإِطلاَق، صَلَّى اللهُ عَلَيه وَعَلَى آله الذينَ بِهم تَتَلألأُ غُرَّةُ وَجه الصَّبَاح، وَأَصحَابِه الذينَ بِهِم يُهتَدَى لِطَرِيقِ الرُّشد وَالفَلاَح وبعد:

فَإِلَى مَن أَشرَقَ بِضِيَاءِ سَنَـــائِه وُجُوه أَرضنَا، وَانعَكَسَ بَعضُ أَشِعَّة أَنوَارِه إِلَينَـــا، وَمَن لاَ قَرِينَ لَهُ فِي إِيضَاحِ المَعَانِي وَكَشفِ المُهِمَّات، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ فِي إِبرَازِ المَبَانِي وَزَوَالِ المُلِمَّات، وَمَن تَتَمَنَّى زِيَارَتَهُ نُفُوسُنَا، وَتَشتَاقُ لِمُلاَقَاته خَوَاطِرُنَا، وَتَنبَسِطُ لِحُسنِ أَخبَارِه الأَفكَارُ، وَتَنفَتِحُ لِمُنَاظَرَتِه الأَبصَارُ، أَخَصُّ بِهَذَا مَن شَاعَ وَذَاعَ، وَمَلأَ الآذَانَ وَالأَسمَاعَ، وَظَهَرَ كالشَمسِ فِي النَّهَارِ ظُهُورًا يُغنِي فِي التَّعرِيفِ عَن الإِكثَارِ، السَّيِّدُ الكَامِلُ السَّمَيذَعِ[2] الفَاضِلِ، الوَجِيهِ المُكَرَّمِ،

1 – هو الشيخ يوسف بن محمّد المصعبي المليكي، أبو يعقوب، الشهير بـ"نزيل جربة " ولد بمليكة بمزاب من عائلة آل ويرو، سافر مع والده إلى جربة بتونس سنة 1112هـ/1701م لطلب العلم ثمّ رحل منها إلى الأزهر بمصر، ثم عاد إلى جربة وقد ملئ علما فصار مفتي الجزيرة، وكبير علمائها. تخرّج على يديه فطاحل العلماء إباضية ومالكية. من أشهرهم "عمّي يحي" وسليمان بن محمّد الشماخي له آثار عديدة منها خاصّة الحواشي حتّى اشتهر بالمُحشّي الثاني بعد أبي ستة. كما عُرف بالاستماتة في الدفاع عن الحق، وكان في نظر الدولة التركية ممثّل إباضية المغرب وزعيمهم.
ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص1031–1032.

2 – السَّميذَعُ: بفتح السين، الكريمُ. اللسان، ج8، حرف العين، فصل السّين، ص618.

النَّبيه المُعَظَّم، التَّقيِّ المَاهرِ الزَّكيِّ الطَّاهرِ، الكَاشفِ النِّقَابَ عَن وُجُوه غَانيَات المَعَاني، المُزيلِ الأَستَارَ عَن عَرَائسِ المَبَاني[1]، حَامي الحَقيقَة، رَافعُ لوَاءِ الطَّريقَة، شَيخُنَا وَأُستَاذُنَا وَجلدَةُ مَا بَينَ عُيُونِنَا يُوسُفُ ضيَاءُ الدِّينِ ابنُ الشَّيخِ مُحَمَّد مُنيرِ العَالَمينَ، -رَعَاهُ اللهُ تَعَالَى وَأَدَامَ بَقَاهُ، وَمن بَوَائقِ الدَّهرِ وَصُرُوفِه وَقَاهُ-، سَلاَمٌ عَلَيكَ وَعَلَى أَبنَائكَ العظَامِ، وَتَلاَميذكَ الكرَامِ، وَعَلَى جَميعِ الإِخوَانِ وَالأَهلِ وَالولدَانِ، من تلميذكَ بالوَاسطَة[2] الحَاج بن بحمَان المَشُوقِ إِلَيكُم عَلَى طُولِ الأَزمَان.

1. فَمَا يَكُ من مَجدٍ أَتَـوهُ فَإِنَّمَـا تَـوَارَثَهُ أَكَابِـرٌ عَـن أَكَابِـر
2. فَهَل تُنبتُ النَّخـيلُ إلاَّ ثمَارَهَـا وَهل تُغرَس الخَضرا بغَيرِ العَنَاصر[3]
3. فَلَو غَايَةٌ كَانَت لِمَجدِهِـمُ العُلَى أَتَيتُ بِـهَا نَظمًا فَرِيـدَ الجَوَاهِرِ
4. عَلَى رَغمِ أَنفِ حَاسِدٍ ذِي عَدَاوَةٍ عَلَى مَنهَجٍ لَهُم شَرِيـف المَآثِـرِ
5. وَلَكِـنَّه لَألأَ، فَفِيمَـا تَـلَوتُـهُ وَفِيمَا سَـأَتلُوهُ شِفَاءُ الضَّمَائِـرِ

هَذَا وَإِنَّ كِتَابَكَ الأَثِيرَ بَارَكَ اللهُ فيكَ، وَصَلَنَا[4] وَسَرَّنَا مَا قُلتَ فيه من بَرَكَة المَذهَبِ الأَسنَى وَالطَّرِيقَة الحُسنَى سُرُورًا عَظِيمًا، فَحَمدنَا اللهَ سُبحَانَهُ عَلَى ذَلكَ حَمدًا جَسِيمًا، وَصَادَفَني وَأَنِّي مَشغُولُ البَالِ بِإِحَاطَة أَنوَاعِ الهُمُومِ بِفكرِي وَاختلاَلِ الحَالِ،[5] ثُمَّ أَلجَأَني مَعَ هَذَا تَبَارِيحُ الجَوَى وَالأَشجَان، إِلَى مُكَافَأَة نعمَة شَيخنَا وَنحرِيرنَا وَلَو بِاللِّسَانِ، فَلَم أَزَل أُحَدِّثُ نَفسِي بِهَا فِي اليَقظَة وَالمَنَام،

1 – كثيرا ما تتردّد هذه العبارات أو مثيلاتها في ديباجات الرسائل، وهي من خصائص ذلك العصر في النثر والشعر.

2 – نسب الشيخ نفسه إلى هذا العالم، لأنه تعلّم على يد تلميذه الشيخ "عمّي يحي"، فصار بذلك تلميذ تلميذه أو "تلميذه بالواسطة"، وهي نسبة تشريف وإجلال لمكانته العلمية والدينية.

3 – استعمل المنطق للبرهان على نسبة ما يقول إلى ممدوحه.

4 – هذا دليل على أنّ هذه القصيدة هي جواب لمكتوب من "نزيل جربة".

5 – هنا تصريح آخر بصعوبة ما كان يلاقيه مع قومه من التعنّت والأذى وإلاّ فما ضرورة التصريح بكلّ هذه الضوائق، لولا أنّه يريد التنفيس عن نفسه بمداد قلمه، وليشاركه غيره هَمّه ويُخفّف عنه غربته في قومه.

فَدَافَعتُهَا مِرَارًا عَن ذَلكَ، عَلَى مَمَرِّ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، لِرَفضِي التَّعَلُّمَ فِي زَمَانِه، وَهَجرِي ذَلكَ فِي وَقتِ أَوَانِه، وَعُرُوضِ سَحَائبِ الأَشغَالِ لجسمِي، وَمُرَادَفَة الكُرُوب من كِلاَ الجَانبَين بقَلبِي، حَتَّى تَلَفَّظتُ بِأَبيَاتٍ شَرِيفَةٍ فِي حَقِّ أُستَاذنَا الجَلِيلِ فَقُلتُ تَرغِيبًا فِي الثَّوَابِ الجَزِيلِ[1].

1. رَعَى اللهُ أَنجُمًـا لَنَـا بِالمَـشَارِقِ[2] وَأَسعَدَ أَفـلاَكَ العُـلاَ وَالـشَّوَارِقِ
2. وَأَكمَلَ نُورَهَـا وَأَعلَـى بُرُوجَهَـا وَأَشرَفَ قَدرَهَا عَلَى كُـلِّ شَـاهِقِ
3. وَزَادَ لَهَا فَخـرًا وَمَجـدًا وَأَخلَـدَا، حَمَاهَا بِكُلِّ سَـاعَةٍ عَـن طَـوَارِقِ
4. فَللَّه مِـن بَـدرٍ مُـنِيرٍ فَمُـذ بَـدَا بِشَرقٍ لَنَا أَخفَـى سَـنَاهُ البَـوَارِقِ
5. وَأَشرَقَ وَجهُ الأَرضِ غَربًا وَمَـشرِقًا بِنُورِ ضِيَاءِ الـدِّينِ، حِـبرِ مَوَافِـقِ
6. عَنَيتُ بِذَا شَيخَ الجَمَاعَةِ يُوسُـفُ[3] سَلِيلُ مُحَمَّـدٍ كَـرِيمُ الخَلاَئِـقِ
7. حَـدِيـدٌ فُـؤَادُهُ فَصِيحٌ لِـسَـانُهُ رَحِيبٌ، رَبِيطُ الجَأشِ عِندَ العَوَائِـقِ
8. عَتِيـقٌ مُـبَرَّعٌ إِمَـامٌ سَـمَيدَعٌ حَلِيمٌ وَقُـورٌ للوَلِيـدِ الـدُّرَادِقِ[4]
9. أَيَا يُوسُفُ الصدِّيقُ نِلـتَ المَكَارِمَـا وَحُزتَ المَعَالِي بارتِقَاءِ الـسُّرَادِقِ[5]
10. أَيَا حَـامِيَ الـذِّمَارِ حَقًّـا حَقِيقَـةً أَيَا قَاضِيَ القُضَاةِ عِنـدَ الـدَّقَائِقِ[6]

1 – نظمه الشعر مكافأة وطلبًا للثواب الجزيل باب في الشعر معروف، على غرار الناظمين في فن "البُردة" في مدح الرسول ﷺ، كذلك حال شاعرنا له قصيدة في المديح سيأتي ذكرها في مكانها من الديوان.

2 – المشارق: يقصد جزيرة جربة بتونس كونها تقع شرق الجزائر، وبها نزل الممدوح للإقامة منذ زمن.

3 – هو الشيخ يوسف بن محمّد المصعبي المليكي "نزيل جربة" سبق التعريف به.

4 – الدُّرادق: الصبيان الصّغار، يُقال: ولدان دَرْدَقٌ ودَرادِقُ، وأصله للغنم. اللسان، ج10، حرف القاف، فصل الدال، ص94.

5 – السُّرادِقُ: ما يُمدُّ فوق صحن البيت من بناء، ج: سرادقات. اللسان، ج10، حرف القاف، فصل السين، ص151.

6 – هنا تأكيد لما قيل عن سيرة الممدوح من الاستماتة في الدفاع عن الحقّ، وتوليه منصب القضاء..

11. لَقَد طَوَّقَتْ بِـكَ المَفَـاخِرُ كُلُّهَـا وَجَفَّت لِعَـدِّهَا مَحَابِـرُ نَـامِقِ
12. بَنُـوهُ الكِرَامُ[1] هُم بِـدُورُ سَـمَائِهِ بِهَا يَهتَـدِي بِالبِرِّ كُـلُّ الخَلاَئِـقِ
13. شُمُوسُ الهُدَى أُولُوا المَكَارِمِ وَالعُـلاَ بُـدُورُ الدُّجَا أَهلٌ لِفَتحِ المَغَالِـقِ
14. كَرِيمُـونَ أَطـرَافًا عَفِيفُونَ أَنفُسًا ذَكِيُّونَ أَشـخَاصًا لِحَلِّ الوَثَائِـقِ
15. فَكَيـفَ فَكَـيفَ لاَ وَمَـجدُهُم عَلاَ وَهُم مَفزَعُ الأَنَـامِ عِندَ البَوَائِـقِ[2]
16. هَنِيـئًا لِجـربَةَ لَكُـم ذَاتِ بَهـجَةٍ فَيَا نِعمَ رَوضَةٍ زَهَـت بِـالحَدَائِـقِ
17. سَقَاهَا إِلاَهُ العَـرشِ مِن كُلِّ وَابِـلٍ غَدُوقٍ مِنَ الوَسمِيِّ[3] سَحٍّ وَدَافِـقِ
18. وَأَسبَلَ عَنهَا ذَيلَ مَجـدٍ وَعِـزَّةٍ وزوَّلَهَا عَن كُلِّ صَـرفٍ وَطَـارِقِ
19. عَلَيكُم سَـلاَمٌ مِن مَشُـوقٍ إِلَـيكُم وَأَلـفُ ثَـنَاءٍ مُشرِقٍ كُلَّ شَـارِقِ
20. وَحَمدٍ وَشُكرٍ بَعدَ أَلـفِ تَحِيَّـةٍ تَسُـرُّ وُجُوهًا لِلـوَرَى وَالخَلاَئِـقِ
21. بِرَوضَةِ كَافُورٍ تُشَابُ[4] وَزُرنُـبٍ[5] وَمِسكٍ وَعَنـبَرٍ وَزَهـرِ الشَّقَائِـقِ
22. دَوَامُ زَمَـانٍ مَـا حَمَـامٌ تَنَـوَّحَت وَمَا حَـنَّ مُـشتَاقٌ لَـدَى لَمَـعِ
23. فَعِدَّةُ هَـذَا النِّـظَامِ وَقـتَ تَمَامِـه كَغَمـرِ فَقِيرٍ نَاظِـمٍ بِالسَّـمَالِقِ[6]

1 – أبناؤهُ الشيخ امحمد نزيل جربة هم على ما وجدت بعد البحث الدقيق: أبو عبد الله محمّد، أبو الحسن علي، والحاج مهني، وأبو الربيع... وقد ساروا على نهج والدِهم في الصّلاح والكرم...
ينظر: سالم بن يعقوب، تاريخ جزيرة جربة، دار الجو يني للنشر، تونس 1986، ص123–138.
2 – لعل هذه إحالة للحادثة التاريخية أو معركة الفرسان حين هجوم الأسبان على الجزيرة ومشاركة الشيخ بحيو موسى العطفاوي في الدفاع عنها، وقد ذكرت ذلك مفصّلا في التقديم.
ينظر: حمو عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر، ج1، ص: 221 وما بعدها.
3 – الوسميُّ: المطر الخفيف. ج12، حرف الميم، فصل الواو، ص628.
4 – تشاب: من شاب الشيء شوبًا، أي خَلَطَهُ، والشُّوبُ الخَلطُ اللسان، ج1، حرف الباء، فصل التاء، ص42.
5 – الزُّرنب: ضربٌ من النبات طيّب الرائحة، وقيل ضربٌ من الطيب. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل الزاي، ص92.
6 – السّمالق: الأرض التي لا نبات فيها. اللسان، ج10، حرف السين، فصل السين، ص172.

24. فَفِـي قَلـبِهِ مَتَى ذُكِـرتُم صَـبَابَةٌ وَوُجدٌ وَلَوْعَـةٌ، كَثِـيرُ العَـلاَئِـقِ
25. فَلَولاَ غَرَامُكُـم وَشَوقٌ لَكُـم لَـمَا تَكَـلَّفَ نَظمًـا وَهُـوَ لَيـسَ[1]
26. عَلَى خَيرِ خَلقِ اللهِ بِالأَرضِ وَالسَّمَا صَلاَتِي وَتَسلِيـمِي لَـدَى لَـوحِ
27. وَأَخـتِـمُهَا بِـمَا بَدَيـتُ بِـهِ أَوَّلاً رَعَـى اللهُ أَنجُمًـا لَنَـا بِالمَشَـارِقِ

1 – تلاحظه متواضعا ومعترفا بقلّة بضاعته نثرا في الديباجة وشعرا كذلك.

الكاشِفَةُ الهَمِّ البَاتِرَةُ الغَمِّ[1]

(وهي في مدح أهل عمان والإمام سُليمان بن ناصر الإسماعيلي العماني) (من بحر الطويل)

1. أَرِقْتُ لِهَمٍّ نَاصِبٍ بِالضَّمَائِرِ ... وَأَوقَدَ فِي جِسمِي حَرِيقَ المَجَامِرِ
2. فَبِتُّ عَلَى طُولِ اللَّيَالِي مُسَهَّدًا[2] ... سَمِيرًا مُرَوَّعًا كَئِيبَ الخَوَاطِرِ
3. تَطَاوَلَ لَيلِي حَتَّى قُلتُ لَهُ: انجَلِي ... بِصُبحٍ وَلَيسَ الصُّبحُ مِنكَ بِسَادِرِ[3]
4. فَقَالَ: لَدَيهِ يَنجَلِي مَا كَتَمتَهُ ... فَلِلَّهِ مِن صُبحٍ فَشَى بِالسَّرَائِرِ
5. تَضَاعَفَتِ الهُمُومُ مِن كُلِّ جَانِبٍ ... عَلَيَّ وَمَا بِقَلبِي لِذَاكَ
6. فَلَمَّا مَنَعتُ العَينَ عَن لَذَّةِ الكَرَى ... تَسَربَلتُ ثَوبَ الصَبِّ عِندَ البَوَاكِرِ
7. سَحَبْتُ خُزُوزَ اللَّهوِ فِي سَاحَةِ الهَوَى ... وَهَيَّجتُ لِلجَوَى جُيُوشَ المَشَاعِرِ
8. وَجَّهتُ تِلقَاءَ الغَرَامِ مَطِيَّتِي ... فَقُلتُ وَدَمعِي سَاجِمٌ[4] مِن نَوَاظِرِ
9. وَهَمِّي وَلَوعَتِي وَشَوقِي وَحَسرَتِي ... وَوَجدِي وَتَعذِيبِي بِذَا غَيرَ سَاتِرِ[5]
10. إِذَا نَوَّحَت وُرقٌ عَلَى غُصنِ بَانَةٍ ... أَجَابَ لَهَا بَلبَالُ[6] وُجدٍ بِخَاطِرِ
11. أَلاَ يَا حَمَامَ الفِكرِ مَا لَكَ لَم تَعِي ... مَقَالَةَ وَاجِمٍ[7] سَقِيمِ الضَّمَائِرِ

1 – هذا العنوان العريض من وضع الشيخ صاحب الديوان، أما الذي يليه فهو من وضعي.

2 – المسهَّدُ هو الذي أصابه الأرق فلم ينَم ليلَته. اللسان، ج4، حرف الدال، فصل السين، ص347.

3 – اقتباس من بيت امرئ القيس المشهور في معلقته اللامية

ألا أيّها الليل الطويل ألا انجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ديوان امرئ القيس، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص15.

4 – السّاجم: السائل، والسّاجم من المطر المُنهَمِرُ. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل السين، ص282.

5 – لاحظ الرصف البديع من خلال سوق المترادفات.

6 – البَلبال: شدّة الهمّ والوسواس، وحديث النفس. اللسان، ج11، حرف اللاّم، فصل الباء، ص52.

7 – الواجمُ: الذي اشتدّ حزنُه حتّى أمسك عن الكلام، أو الذي أسكته الهمّ وعلته الكآبة. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الواو، ص628.

12. يَبِيتُ يُعَانِي حُرقَةَ الوُجدِ وَالضَّنَى ... وَيَنهَلُ دَمعًا سَاكِبًا مِن مَحَاجِرِ
13. رَضِيتَ بِإِفنَاءِ الحَبِيبِ صَبَابَةً ... وَوُجدًا وَلَوعَةً كَحَرِّ المَجَامِرِ
14. يَمُوتُ عَلِيلُ القَلبِ وَأَنتِ طَبِيبَةٌ ... لِكُلِّ عَلِيلِ الجِسمِ بَل وَالخَوَاطِرِ
15. فَلَمَّا سَقَيتُ تُربَةَ الهَمِّ بِالبُكَا ... شُغِلتُ بِمَا فِي النَّفسِ عَن كُلِّ زَائِرِ
16. تُكَلِّفُنِي مَا لاَ أُطِيقُ لِحَملِهِ ... مِن أَمرٍ فَظِيعٍ لِلبِحَارِ الزَّوَاخِرِ
17. فَقُلتُ لَهَا: يَا نَفسِ وَيحَكِ اصبِرِي ... وَمَا تَخضَعُ الهُمُومُ إِلاَّ لِصَابِرِ
18. فَفَاضَت دُمُوعِي مِن جُفُونٍ كَلِيلَةٍ ... كَوَابِلِ سَحٍّ، أَو كَدُرِّ الجَوَاهِرِ
19. تَحَكَّمَ بِمَا تَهوَاهُ يَا حَاكِمَ الهَوَى ... عَلَيَّ وَلاَ تُشطِط لِحُكمِ الجَبَابِر[1]
20. فَيَا عَجَبًا مِن حَاكِمٍ صَارَ وَاشِيًا ... وَمِن شَاهِدٍ يَسعَى بِشَرِّ الصَّابِرِ
21. فَحِينَ بَدَت لَهُ تَبَارِيحُ[2] مُهجَتِي ... شَكَوتُ إِلَى رَبِّي عَلِيمِ السَّرَائِرِ
22. فَلَم يَكُ هَذَا مِن فَتَاةٍ كَرِيمَةٍ ... بَرَهْرَهَةٌ بَيضَاءَ سُودُ المَحَاجِرِ[3]
23. مُنَعَّمَةٌ هَيفَاءُ غَيرُ ذَمِيمَةٍ ... وَعَبْهَرَةٌ[4] خَدْلاءُ[5] ذَاتُ المَفَاخِرِ
24. مُهَفْهَفَةٌ[6] رِخوَةٌ[7] ثُمَّ رَادَةٌ[8] ... وَمَرْمَرَةٌ خُودٌ دَنَت لِلمَعَاصِرِ
25. خَدَلَّجَةُ السَّاقَينِ مِثلَ الوَدِيلَةِ ... وَمَهضُومَةُ الكَشْحَينِ ذَاتُ الغَدَائِرِ

1 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿إذ دخلوا على داود ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾. الآية 22 من سورة ص.

2 – التّباريح: الشدائد. وتباريح الشوق: توهُّجها. اللسان، ج2، حرف الحاء، فصل الباء، ص56.

3 – المحاجر: ج. محجر. مكان العين من الجمجمة أو أسفلها. اللسان، ج4، حرف الراء، فصل الميم، ص620.

4 – العَبهَرَةُ: الرقيقة البشرة النّاصعة البياض، وقيل: هي التي جمعت الخُلق والحُسن والجسم.

5 – الخدلاء: الممتلئة الساقين والذراعين. ج1، حرف الألف، فصل الخاء، ص216.

6 – المهفهفة: الخميصة البطن، الرقيقة الخِصر.

7 – الرّخودَة: الناعمة.

8 – الرّادة: الشابة الحسنة الشباب.

26. تَميسُ كَغُصنِ بَانَـةٍ عِنـدَ مَـشيِهَـا تُريكُ لَهَـا عَينًا كَعَيـنِ الجَنَـادِرِ[1]
27. وَقَدًّا يَغَـارُ الغُـصنُ مِنـهُ إِذَا مَـشَى وَجِـيدًا طَويلاً مُفعَمًا بِالجَوَاهِـرِ
28. وَكَشحًا[2] لَطِيفًا طَيُّـهُ كَمَطَـارِفٍ[3] وَنَحـرًا كَبَرقٍ خَاطِفٍ لِلنَّـوَاظِرِ
29. وَثَغرًا مُـفَلجًا كَـأَنَّ مُجَاجَـهُ[5] مِيَـاهُ مَـحَانٍ أو مُدامَةُ[4] تَـاجِرِ
30. وَفَرعًـا[6] أَثِـيتًا[7] مِثلَ رِيشِ نَعَامَـةٍ وَوَجهًا عَتِيقَ اللَّونِ بِيضِ المَـسَافِـرِ
31. لَقَـد كَمُلَت خَلْـقًا وَحُسنًا كَأَنَّهَـا بُدَيرُ تَمَامٍ أو شُـمُوسُ الهَوَاجِـرِ
32. فَلَو تَرَاءَت يَومًا لأَشْـمَطَ[8] رَاهِـبٍ لَمَا غَضَّ عَنهَا طَـرفَهُ مِـن مَنَـابِرِ
33. أَلاَ أُكفُفَن عَنِّـي لِـسَانَـكَ عَـاذِلي لأَنَّكَ لَم تَـعرِف حَقِيقَـةَ خَـاطِرِ
34. فَحَسبُكَ مِنِّي مَـا رَأَيـتَهُ ظَـاهِرًا مِنَ الوُجدِ بِالحَشَى وَدَمـعِ النَّـوَاظِرِ
35. وَلَكِن لإِخـوَانٍ لَـدَيَّ بِمَـشرِقٍ هُدَاتٍ ثِـقَاتٍ هُـم كِرَامُ العَنَاصِـرِ
36. أُهَيلُ عُمـانَ[9] بَلـدَةٍ ذَاتِ رَوضَـةٍ وَرَغـدٍ وَمَعْمَـرٍ وَذَاتِ المَـوَاقِرِ
37. بِـلاَدٍ عَرِيـضَةٍ وَأَرضٍ أَرِيـضَةٍ[11] وَمَغْيُورَةٍ[10] خَضرَاءَ ذَاتِ الزَّوَاهِـرِ
38. سَقَـاهَـا إِلَهُنَـا بِـصَوْبٍ مُجَلِّـلٍ وَأَسـدَلَ عَنهَا سُندُسًا مِـن مَـآثِرِ

1 – الجنادر: الظِّباء. اللسان، ج4، حرف الراء، فصل الجيم، ص563.
2 – الكشحُ: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي وهو من لدن السرّة إلى المتن. سبق شرحها.
3 – المطارف: أردِيَةٌ من خزٍّ مربّعة لها أعلام. اللسان، ج9، حرف الفاء، فصل الميم، ص271.
4 – المدامة: الخَمرة. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل الميم، ص565.
5 – المُجاجُ: الرِّيق. اللسان، ج2، حرف الجيم، فصل الميم، ص561.
6 – الفرعُ: الشَّعرُ. اللسان، حرف العين، فصل الفاء، ص245.
7 – الأثيت: الكثير والعظيم. اللسان، ج2، حرف الثاء، فصل الألف، ص112.
8 – الأشمط: المختلط حاله. اللسان، ج7، حرف الطاء، فصل الشين، ص327.
9 – هي سلطنة عُمان اليوم.
10 – مغيورة: مسقية. يقال: اللهمّ غِرنا بخير، أو غُرنا بخير أي: اسقنا مطرًا. اللسان، ج4، حرف الراء، فصل الغين، ص535.
11 – اقتباس من شعر امرئ القيس وتمام البيت. ديوان امرئ القيس، تحقيق كرم البستاني، ص29.
بلادٌ عريضَةٌ وأرض أريضَةٌ مَدَافِعُ ماءٍ في فضاءٍ عريض

39. لَعَمري لَنِعمَ القَومِ قَد نَزَلُـوا بِهَـا كَرِيمُونَ مَرضِيُّـونَ أَهـلُ المَفَـاخِرِ
40. أَصِيلُونَ أَطرَافًـا عَتِيقُـونَ أَوجُهًـا ظَرِيفُـونَ أَحلاَمًـا طِوَالُ البَـوَاتِرِ
41. مَرِيرُونَ أَشخَاصًـا نَقِيُّـونَ أَثوَابًـا عَفِيفُونَ أَنفُسًا جَشَتْ[1] عَن مَعَـائِرِ
42. زَكِيُّونَ مَغـضُورُنَ عَـيـشًا وَنِعمَـةً ذَكِيُّـونَ أَوَّابُـونَ، أَهلُ البَـصَـائِرِ
43. سَخِيُّونَ ضَـرَّابُونَ سُـوقَ نِيَاقِهِـم بِعَضْبٍ[2] قَشِيبٍ[3] يَومَ سَدِّ المَفَـاقِرِ
44. عُدُولُ الوَرَى أَهـلَ النَبَاهَـةِ وَالعُـلا هُـدَاةُ الأَنَـامِ هُم كِـرَامُ الـسَّرَائِرِ
45. نُجُومُ الهُدَى أَهلُ الفَوَاضِـلِ وَالتُّقَـى بُـدُورُ الدُّجَى وَهُم عُيُونُ النَّوَاظِـرِ
46. ذَوُو قُـوَّةٍ شَـدِيـدَةٍ وَبَـسَالَـةٍ عَلَى كُلِّ بَـاغٍ زَائِغٍ ذِي مَنَاكِـرِ
47. وَمَا بُغْضُـهُم إِلاَّ لَـهُ وَلِمِثـلِـهِ، وَمَا حُـبُّهُم إِلاَّ لأَهـلِ المَفَـاخِرِ
48. هُمُ القَصدُ وَالمَطلُوبُ هُم غَايَـةُ المُنَـى وَهُم حِزبُ رَبِّ العَرشِ خَيرُ العَشَائِرِ
49. وَهُم بِالوَغَى لُيُوثُ غَـابٍ وَعَثَـرٍ[4] وَهُم ضَرَبُوا عَـن دِينِهِم بِـالبَوَاتِرِ
50. وَلاَ عَيبَ فِيهِم غَـيرَ أَنَّ سُيُوفَهُـم بِهِنَّ فُلُولٌ[5] مِن قِـرَاعِ النَّظَـائِرِ[6]
51. فَمَا يَـكُ مِن خَيرٍ أَتَـوهُ فَإِنَّـمَـا تَـوَارَثَـهُ أَكَـابِرٌ عَـن أَكَابِـرِ
52. فَهَل تُـنبِتُ النَّخِيـلُ إِلاَّ ثِمَارَهَـا وَهَل تُغرَسُ الخَضرا بِغَـيرِ العَنَاصِـرِ

1 – جشت: ارتفعت وتسامت. اللسان، ج6، حرف الشين، فصل الجيم، ص103.
2 – العضبُ: السيف. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل العين، ص572.
3 – القشيب: اليابس الصلب، اللسان، ج1، حرف الباء، فصل القاف، ص675.
4 – العثر: الحرب، وفي الحديث: لا تَبْدَأهم بالعَثْرة، أي بالجهاد والحرب لأن الحرب كثيرةُ العِثَار.
أمّا البواتر: القواطع، وهي السيوف. اللسان، ج4، حرف الراء، فصل الباء، ص132.
5 – الفُلول: ج. فَلل، الثلمُ في السيف. اللسان، ج11، حرف اللام، فصل الفاء، ص513.
6 – اقتباس من شعر النابغة الذبياني وتمام البيت:
ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفَهُم بهنّ فلول من قراع الكتَائِب
ديوان النابغة الذبياني، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص11.

53. فَلَو غَايَةٌ كَانَت لِمَجدِهِمُ العُلاَ ... أَتَيتَ بِهَا نَظمًا فَرِيدَ الجَوَاهِرِ

54. عَلَى رَغمِ أَنفِ حَاسِدٍ ذِي عَدَاوَةٍ ... عَلَى مَنهَجٍ لَهُم شَرِيفِ المَآثِرِ

55. وَلَكِنَّهُ لأَلأَ فَفِيمَا تَلَوتُهُ ... وَفِيمَا سَأَتلُوهُ شِفَاءُ الضَّمَائِرِ

56. حَمَى اللهُ بَدرًا فِي عُلُوِّ سَمَائِهِ ... وَزَادَ لَهُ نُورًا كَشَمسِ الهَوَاجِرِ

57. وَحَيَّ مَقَامَهُ وَأَعلَى بُرُوجَهُ ... وَشَرَّفَهُ عِندَ ارتِقَاءِ المَنَابِرِ

58. فَيَا لَكَ بَدرًا كَامِلَ النُّورِ وَافِرًا ... مَنَازِلُهُ حَلَّت بِسَعدِ الدَّوَائِرِ

59. وَأَخُصُّ بِذَا سَلِيلَ سَيفٍ مُهَنَّدٍ ... صَقِيلٍ مُسَرَّجٍ حَسُومِ الكَعَابِرِ[1]

60. إِمَامٌ سَمَيذَعٌ[2] تَقِيٌّ مُبَرَّعٌ ... ذَكِيٌّ سَفِيرٌ عَالِمٌ بِالشَّعَائِرِ

61. كَرِيمٌ أَصِيلٌ فَاضِلٌ مُتَوَرِّعٌ ... جَرِيءٌ مَرِيرُ الجَأشِ مِثلَ العَذَافِرِ[3]

62. كَثِيرُ المَوَاهِبِ شَرِيفُ المَنَاقِبِ ... نَقِيُّ الفَضَائِلِ، صَفِيُّ السَّرَائِرِ

63. هُوَ المَاهِرُ النِّحرِيرُ وَالعَدلُ وَالهُدَى ... هُوَ العَالِمُ السُّرْسُورُ عَينُ النَّوَاظِرِ

64. هُوَ المَركَزُ النَّجرِيُّ حَقًّا هُوَ القَضَا ... هُوَ الحَكَمُ وَالتَّدبِيرُ، كَبشُ العَرَاعِرِ[4]

65. هُوَ الظِّلُّ لِلأَنَامِ وَالبَدرُ بِالدُّجَى ... هُوَ الفَلَكُ العَالِي وَقُطبُ الدَّوَائِرِ

66. هُوَ الغَايَةُ القُصوَى هُوَ المَنظَرُ العُلاَ ... هُوَ الحُجَّةُ الغَرَّا وَنَجلُ المَآثِرِ

67. هُوَ النُّورُ وَالمَلجَا هُوَ البَحرُ لِلوَرَى ... هُوَ القَهرَمَانُ[5] الكَامِلُ ابن المَفَاخِرِ

68. هُوَ الوَجهُ لِلنَّهجِ القَوِيمِ هُوَ الحَشَى ... هُوَ الرُّوحُ حَقًّا وَهُو طَبنٌ[6] الشَّعَائِرِ

1 – الكعابر: ج. كعبر وهو المجتمع المستديرُ. اللسان، ج5، حرف الراء، فصل الكاف، ص521.
2 – السَّميذعُ: السيّد الكريم، وقيل: هو الشجاع. ويُقال للذئب كذلك سميذعٌ لسرعته.
3 – العَذَافِر: ج. عذفر، الجمل الصلب، والعظيم الشديد، ويُقال كذلك للأسد. اللسان، ج5، ص642.
4 – العُراعِر: ج. عرعر، الشريف. وكبش القوم: رئيسهم وسيّدهم. اللسان، ج5، ص620.
5 – القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من هو تحت يديه، واللفظ فارسي مُعرّب.
6 – الطَّبنُ: الفطن الحاذق، العالم بكلّ شيء. اللسان، ج13، حرف النون، فصل الطاء، ص251.

69. لَقَد غَاصَ فِي بَحرِ المَكَارِمِ وَالعُلاَ ... وَجَفَّ لِكَتبِهَا مِدَادُ المَحَابِرِ

70. بَدَت بِسَمَاءِ القَومِ أَنوَارُ عَدلِهِ ... فَأَخفَى سَنَاهَا نُورَ شَمسِ الهَوَاجِرِ

71. عَلَيكُم سَلاَمٌ بَعدَ أَلفِ تَحِيَّةٍ ... وَحَمدٍ وَشُكرٍ دَائِمٍ بِالضَّمَائِرِ

72. إِذَا طَلَعت شَمسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا ... عَلَيكُم أَمَارَةُ السَّلاَمِ بِخَاطِرِ

73. وَإِن هِيَ مَالَت لِلغُرُوبِ فَإِنَّنِي ... عَلَيكُم أُكَرِّرُ السَّلاَمَ بِكَافِرِ[1]

74. كَفَاغِرَةٍ[3] وَصَندَلٍ[4] وَقُرنُفُلٍ ... وَرَندٍ وَأَلوِي[2] وَنَورِ الزَّوَاهِرِ

75. وَمِسكٍ وَكَافُورٍ وَبَانٍ وَعَنبَرٍ ... تَضَوَّعَ[5] مِنهُ النَّشرُ[6] عِندَ الذَّخَائِرِ

76. يُحَلِّلُ شَيخًا ثُمَّ كَهلاً وَبَالِغًا ... وَحُرًّا وَعَبدًا بَعدَ كُلِّ المَوَازِرِ

77. دَوَامَ زَمَانٍ مَا حَمَامٌ تَنَوَّحَت ... وَمَا سَكَبَت دَمعًا عُيُونُ النَّوَاظِرِ

78. وَغَنَّت ذُبَابَةٌ بِكُلِّ حَدِيقَةٍ ... وَزَانَت فَتَاةٌ ذَاتُ سُودِ المَحَاجِرِ

79. وَحَنَّت ضَمَائِرِي لِصَبٍّ حَبِيبِهَا ... وَرَنَّت بِلَوعَةٍ بَلاَبِلُ خَاطِرِ

80. وَهَذَا الذِي هَاجَ الغَرَامَ بِمُهجَتِي ... وَجَدَّدَ تَبرِيحًا بِهَا كَالمَجَامِرِ

81. فَبِتُّ كَمَلدُوغٍ بِسُمٍّ ضَئِيلَةٍ ... عَلَى طَوْلِ لَيلٍ وَاجِفًا أَوكَغَائِرِ

82. وَمُذْ كُنتُ طِفلاً وَالهُمُومُ تَجَاوَرَت ... بِجِسمِي فَصَبرٌ لاَزِمٌ بِالضَّمَائِرِ

83. وَلِي فِي حِسَابِ العُمرِ كَرٌّ لَقَد مَضَى ... أَلاَ لَيتَ شِعرِي هَل عَلِمتُ بِغَابِرِ؟

84. فَفِي آخِرِ الشَّهرِ المُحَرَّمِ حُرمَةً ... أَوَائِلَ عَامِ 1182[7] بَعدَ هِجرَةِ طَاهِرِ

1 – بكافر: بساتر، وكفر: غطّى وستر. اللسان، ج4، حرف الراء، فصل الكاف، ص535.
2 – الفاغرة: الوردة إذا تفتّحت وكان بها ريح طيّبة. اللسان، ج4، حرف الباء، فصل الفاء، ص476.
3 – الصّندل: شجر طيّب الرائحة. اللسان، ج11، حرف اللاّم، فصل الصّاد، ص317.
4 – هكذا في الأصل ولم أجد لها معنى. ولعلّها مصحّفة.
5 – تضوّع: فاحَ اللسان، حرف العين، فصل الضاد، ص443.
6 – النّشرُ: العِطرُ. اللسان، ج5، حرف الراء، فصل النون، ص728.
7 – 1182هـ: هي بالميلادي 1767م، وهي هنا أقدم قصيدة مؤرخة في ديوان الشيخ ابن بحمان.

85. عَنَيتُ بِهِ خَيرَ الخَلائِقِ كُلِّهِم نَبِيًّا مُحَمَّدًا عَظِيمَ المَآثِرِ

86. عَلَيهِ مِنَ الرَّحمَانِ[1] أَزكَى تَحِيَّةٍ وَأَسنَى سَلامٍ مَا بَكَيتُ بِخَاطِرِ

87. وَآلٍ لَهُ وَصَحبِهِ ثُمَّ حِزبِهِ وَزَوجٍ وَأَنصَارٍ وَكُلِّ مُهَاجِرِ

88. تَمَامُ نِظَامَ نَاظِمٍ ذِي صَبَابَةٍ تَكَلَّفَ نَظمًا وَهُو لَيسَ بِشَاعِرِ

89. فَدُونَكَهَا زَهرًا كَأَنَّ سُطُورَهَا مَطَارِفُ خَزٍّ أَو سُمُوطُ الجَوَاهِرِ

90. تَغَنِّي كَرِيمٍ أَو ذُبَابٍ بِرَوضَةٍ زَهَت، ذَاتِ زَهرٍ أَو كَحَادٍ قَرَاقِرِ[2]

91. حَمِدتُ إِلَهَ العَرشِ مَا دُمتُ قَائِلاً أَرِقتُ لِهَمٍّ نَاصِبٍ بِالضَّمَائِرِ

92. يَا ذَا الَّذِي طَالَعَهَا إِن رَاقَ حَسنُهَا فَعُد

93. وَافتَح لَنَا بَابَ الرِّضَى وَإِن تَجِد عَيبًا فَسُد

1 – هكذا في الأصل وهي أيضا: الرحمن.

2 – القرقرُ: القاع الأملس، وقيل ما قرّ فيه الماء. اللسان، ج4، حرف الراء، فصل القاف، ص789.

كشفُ الغمِّ في مَرثيةِ الأمِّ[1]

001 فَلَمَّا قَضَى مِنِّي جَمِيعَ المَآرِبِ تَبَارِيحُ وُجدٍ في جِبَالِ المَصَاعِبِ[2]

002 وَأَلبَسَنِي حُزنًا وشَجوًا ولَوعَةً وهَمًّا وغُمَّةً وَكَربَ المَصَائِبِ

003 وَوَسَّدَنِي باسًا وَتَوَّجَنِي أسًا ومَهَّدَنِي ثَوبَ الجَوَى والنَّوَائِبِ

004 وهَيَّجَ نِيرَانَ الغَرَامِ بِمُهجَتِي وَحَرَّكَ شَوقًا سَاكِنًا بِالتَّرَائِبِ

005 وبدَّل حَالِي بَعدَمَا كَانَ مُسفِرًا وغَيَّر عَقلِي ثُمَّ مَحضَ الضَّرَائِبِ

006 فَضَاقَت مَذاهِبِي، وَتَاهَت خَوَاطِرِي وَحَارت عُقُولِي عند تلك المَعَاطِبِ

007 وأَعيَت مَطَالِبِي، وحَنَّت بَلابِلِي ورَنَّت بَناتُ الفِكرِ مِن كُلِّ نَاصِبِ

008 فجِسمِي مُوصَّبٌ وقَلبِي مُتَيَّمٌ ورُوحِي مُعذَّبٌ بِنَارِ الكَرَائِبِ

009 وَكَم فِي فُؤادِي من هُمومٍ توجَّهت بَوَائِقُهَا إِلَيَّ مِن كُلِّ جَانِبِ

010 وَكَم فِي ضَمِيرِي مِن لواعِجِ كُربَةٍ وكَم في حشَائِي مِن خُطُوبِ المَشَاغِبِ

011 وكَم من لَيالٍ بِتُّ فِيهَا مُسَهَّدًا كَئِيبًا كَمَلدُوغٍ بِسُمِّ العَقَارِبِ

012 بَكَيتُ لِذَاكَ من جُفُونٍ كَلِيلَةٍ دُمُوعاً كَرَاحٍ[3]، صَبُّهُ كالسَّحائِبِ

013 وَفَاضَت لِفَقدِ أُمِّنَا[4] حِين أَشعَبَت دُمُوعِي بِخَذِّي مِن عُيُونٍ سَوَاكِبِ

014 كأنَّ غُروبَ الدَّمعِ في سَيلانِهِ مِن العَينِ بِالرَّداءِ، سَحّ الذَّنائِبِ

015 عَشِيَّةَ يَومٍ قَد قَضَت فِيهِ نَحبَهَا وَصَارَت بِحَشوِ تُربَةٍ وَجَلابِبِ[5]

1 – هذا العنوان من وضع الشاعر صاحب الديوان.

2 – هي سلسلة جبال بني مصعب أو وادي مزاب حاليا، سلاسل صخرية تحيط بسهل وادي مزاب.

3 – الراح: هي الخمر. اللسان ج2، حرف الحاء، فصل الراء، ص803.

4 – لا يوجد تقييد آخر عن أمه غير هذه الأبيات وما وصفها به.

5 – الجلابيب: هي ملاحف بينة، والمراد بها هنا الكفن.

016 وَبَاتَت عُيُونُ الخلقِ لَيلَةَ فَقدِهَا تَسُحُّ دُمُوعًا كانصِبَابِ المَذَانِبِ

017 وَكَانَت لَنا حِصنًا مَنِيعًا مِن الرَّدَى وَكانَت لِغيرِيَ مَلجَأً من شَوَاصِبِ[1]

018 وَمَا كُنتُ أدري قَبلَ مَوتِهَا مَا البُكَا وَلا مُوبِقَاتِ الدَّهرِ، لاَ وَالنَّوَائِبِ

019 إلى أن تَوَارَى جِسمُها تحتَ جَندَل وتحتَ تُرابٍ، ليتَ رُوحِي بِذاهِبِ

020 لقَد حَفِظَت قُرآنَ رَبِّي مُتَرَّهًا عَنِ الكَيفِ وَالمَتَى وكُلِّ الضَّرائِبِ[2]

021 وَبعضَ الحَدِيثِ للنَّبِيءِ مُحمَّدٍ عَليهِ صَلاتِي ما بَكَت عَينُ كَائِبِ

022 وقد وُسِّدَت بِعِلَّةٍ نَزَلت بِهَا[3] ثَلاثَ سِنِينَ غَيهَبًا لِلمَنَاكِبِ

023 وفارَقَ جَفنُ عَينِهَا لَذَّةَ الكَرَى وَبَاتَت تُراعِي لِلنُّجُومِ الثَّوَاقِبِ

024 سَقاهَا إلآهُنا بِحوضِ نَبِيئِنَا غَداةَ حِسابِ الخَلقِ يَومَ المَعاطِبِ

025 ومِن عَينِ تَسنِيمٍ مَشُوبٍ بِعنبَرٍ ومِسكٍ شَرابٌ لابنِ يَحيَ[4] ورَاسِبِ[5]

026 وطَيَّبَ تُربَها وأزهَرَ رَوضَهَا وَبَاهَى بِهَا عِندَ المَلاءِ الأَطَائِبِ

027 وَنَوَّرَ قَبرَهَا وَأصعَدَ رُوحَهَا إلى جَنَّةِ الفِردَوسِ دارِ الكَواكِبِ

1 – الشَّواصب : جمع شاصب، أي الشدة والجدب. اللسان ج1، حرف الباء، فصل السين، ص482.

2 – إقرار على طيب عنصره، لذلك فلا غرو أن يفيد من أمه وخاله وينشأ مُحبا للعلم و الدين.

3 – ألزمها المرض الفراش ثلاث سنين قبل أن تجيب نداء ربها.

4 – على هامش المخطوطة شرح للشيخ هذا نصه: «هو عبد الله بن يحي _طالب الحق_، وعبد الله بن وهب إمام أهل النهر_رحمهم الله_»، كلا العلمين من أئمة الإباضية وتنتسب للثاني الإباضية الوهبية.

5 – عبد الله بن يحي _طالب الحق_ (ت: 130هـ/747م) إمام الشُّراة، قائد أول إمامة للظهور عند الإباضية، بعد انتشار ظلم واعتساف بني أمية على أهل اليمن وكان قاضيها، حيث ثار ووزع الأموال المكدسة في الخزائن على الفقراء، لكنه قُهر وقتل بعد ذلك. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص586.

أمّا: عبد الله بن وهب بن راسب بن ميدعان بن مال بن نصر الأزدي العماني (ت: 38هـ/658م) صحابي جليل قدم المدينة مع وفد عُمان لإعلان إسلامها، عُرف بالعلم والرأي والصلاح، شارك في فتوح العراق، ونزل حروراء بعد وقعة صفين مع أصحابه وهم قعدة لا يلوون حرب أحد، حتى باغتهم جُندُ عليٍ فقتلوهم جميعا ظُلما وإثما. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص380–384.

028 وأعلَى مُقامَها وَأشرَفَ قَدرَهَا وأَنَالَ لَها رَبِّي عُلُوَّ المَرَاتِبِ

029 ولِي كَبِدٌ حَرَّاءَ مِن وَجَعٍ بِها عَلى فَقدِ أُمِّنا وَابنَ الحَواجِبِ[1]

030 أنِيسُ فُؤادِي مِرآةٌ لِنَواظِرِي وتَمرَةُ خلبِي، قِطعَةٌ مِن مَطَائِبِ

031 يَدِي وَذِرَاعِي ثُمَّ كَفِّي وَسَاعِدِي وَجِلدَةُ مَا بَينَ العُيُونِ السَّواكِبِ

032 وكانَ لَها عِندَ الضَّرِيحِ مُجَاورًا كَمَا كان بالدُّنيَا، وَذَا مِن عَجَائِبِ

033 أَتَانَا حديثٌ من نَبِيءٍ مُحَمَّدٍ نُسَرُّ بِهِ حَقًّا في كُلِّ المَذَاهِبِ

034 وَيُشفِي صُدُورَنَا وَيُجلِي هُمُومَنَا وَيَكشِفُ عَنَّا بعضَ تِلكَ النَّوائِبِ

035 وَمَن لِضَرِيحٍ قَدَّمَ ابنَينِ[2] لَم تَمَسَّسهُ النَّارُ غَيرَ أن يَرَاهَا بِنَاضِبِ[3]

036 تَدَاوَيتُ بِكُلِّ الدَّواءِ فلَم أجد دَواءً لِنفسِي شَافِيًا مِن كَرَائِبِ

037 سِوى مُقلٍ تَبكِي بُكاءَ الغَرانِقِ[4] عَلَى طُولِ دَهرٍ عَبرَةً مِن غَوارِبِ[5]

038 ظَنَنتُ البُكا يَشفِي فُؤادِي وَعلَّتِي وَيقضِي إلِيَّ حَاجَةً مِن مَآرِبِ

039 فلما وجدت ذا البكا غير نافع وقد غَرَّنِي تلكَ الظُّنُونُ الكَواذِبِ

040 عَدلتُ إلى الصَّبرِ الجَمِيلِ مَطِيَّتِي وصَبَّرتُ قَلبِي عِند تِلكَ الشَّواصِبِ[6]

041 فقُلتُ: تَعزَّ، لاَ لَذِيذَ لِعيشةٍ منغَّصَةٍ بِالموتِ ذاتِ المَخالِبِ

042 تَعزَّ فَلا أرَى على الدَّهرِ باقِيا من العالَمِين والنُّجومِ الثَّواقِبِ

1 – لا أعلم فيما وصلت إليه أن له ابنا متوفى غير المتوفى بالبليدة، ولعله أحضر ودفن بمزاب قرب جدته.

2 – لا أدري إن كان الشاعر يقصد هنا فعلا أنه فقد ابنين، أم أنه فقط ضمّنَ شعره هذا الحديث الشريف ليكون فَقدُهُ لأمهِ وابنِهِ اثنان.

3 – للأسف لم أستطع تخريج هذا الحديث الشريف من مظانه، ولعله ضمّن المعنى فقط في القصيدة.

4 – الغرانق: جمع غرنوق وهي المرأة الشابة، وإنما خصها بذلك لأن بكاءها يكون أشد وقعا في النفس.

5 – الغوارب: مجاري الدموع. اللسان ج1، حرف الباء، فصل الغين، ص639.

6 – الشواصب: الشدائد. اللسان ج1، حرف الباء، فصل الشين، ص484.

043 تعزَّ فلا أرى على الأرض خالدًا سوى ربِّنا ربًّا كَريمَ المَواهب

044 تعزَّ على فَقدِ الوَليدِ وأُمِّهِ ولا تَجزَعَنْ قلبي بموتِ الأَقارب

045 فعَمَّا قَليلٍ إنَّني لاحقٌ بِهِم على رَغمِ أنفي جَاهلاً بالعَواقب

046 إذا ما أتاني زائرٌ قُلتُ مرحبًا بِهِ، حين يأتيني عَديمَ الرَّغائب

047 وعِلمي مُحقَّقٌ بأنِّي لَميِّتٌ وَمطرُوحٌ تحت جَندَلٍ من رَواسب[1]

048 فيَا طَوْلَ وَحشَتِي وَيا طَولَ غُربَتِي إذا صارَ من جنسِ التُّرابِ رَوَاجب

049 فيا طَوْلَ حَسرَتِي وَيا طَولَ حِيرَتِي إذا صِرتُ في قبرٍ شَديدِ الغَياهب[2]

050 ويا حُزنَ قَلبي كَيف حالي ورِحلتي لِرمسٍ وَحيشٍ، هل مَعي من مُصَاحب؟

051 ويا حُزنَ قلبي كيف حالي وغُربَتي إذا قُمتُ من قَبري ليومِ المعاطب

052 ويا حُزنَ قلبي كيف حالي وموقفي غدًا بَين تلقَاءَ المَليكِ المُحاسب

053 ويا حُزنَ قلبي كيف حالي وحيلتي إذا قيل لي أقدِم لِحسبِ المَعائب

054 ويا حُزن قلبي كيف حالي وغُمَّتي إذا جَاءَ كُتبي من وراءِ المَناكب

055 ويا حُزن قلبي كيف حالي وكُربتي إذا كان سعيي خاسرًا ومَطالب

056 ويا حُزن قلبي كيف حالي وحَسرتي إذا أُتيتُ مغبُونًا بتَجْرِ المَكاسب

057 ويا حُزن قلبي كيف شوقي ولوعَتي إذا نَال أصحابي عُلُوَّ المَراتب

058 ويا حُزن قلبي كيف وُجدي وحيرتي إذا فازَ إخواني بِدَارِ الكَواعب

1 – يقين بالله كبير، وتسليم بقضائه وقدره، وهذه من صفات المؤمنين الموقنين، حيث يذكر نفسه بحقيقة مصيره ونهايته.

2 – الغياهب: ج غيهب، شدة الظلمة والسواد. اللسان ج1، حرف الباء، فصل الغين، ص650.

059 ألاَ كيفَ بهجتي وكيفَ مَسرَّتي إذا كانَ سعيِيَ شاكرًا غيرَ خائب[1]

060 أفِق وأقبِلَنْ قَلبي هَلُمَّنْ وَأسرِعَنْ إلى سَيِّدٍ يُعطي جَزيلَ الرَّغائب

061 رَأيتُ ذَوي الحَاجَاتِ حولَ بُيُوتِهِ قَطِينِينَ يَسئَلُونَ جُمَّ المَواهب[2]

062 فأعطَى لَهُم مُناهُم وَقَضَى لَهُم حَوائجَهُم من غَيرِ مَنٍّ أصَاحَب

063 أنا وَاحدٌ منهُم إلَهي وَسيِّدي فاغفِر ذُنُوبًا قَد جنَتهَا رَواجب

064 وأيدي ورجلي ثم سمعي وناظري وقَلبي وكُلٌّ شاهدٌ بمثالب[3]

065 عليَّ وكيفَ حَسرَتي وتلهُّفي بيومِ عبوسٍ قَمطَرِيرِ الحواجب

066 ألاَ يَا عَظيمَ الجُودِ أُعفُ واصفَحَن عَليَّ وأنقِذني غَدًا من مَعاطب

067 فإن لم تكُن فِيهِ مَلاذًا وناصِرًا إليَّ فَمَالِيَ من وَلِيٍّ مُراقب

068 لَئن كُنتَ لِي يومَ المَعادِ مُسامحًا بِفَضلِكَ يا مَولايَ نِلتُ مَطَالب

069 وإلاَّ فَمَن يَعفُو وَيمحُو خَطِيئَتِي إذا كُنتَ لِي مُناقشًا يَا مُحاسب

070 تَيقَّنتُ أنَّ عَفوَ رَبِّي أجَلُّ من ذُنُوبِي وإن جَلَّت على كُلِّ رَاسب

071 لَعَلَّ جَليلَ الفَضلِ يَعفُو بِمَنِّهِ وَيصفَحُ عَنِّي ثُمَّ يَمحُو مَعائب

072 وَيغفِرُ ذَنبِي بَعدَ سترِهِ زَلَّتِي وَيقبَلُ مِنِّي صَالحًا من مَكاسب

073 سألتُكَ يا مَولايَ مَحوَ خَطِيئَتِي وغُفرانَهَا يَومَ افتِضاحِ المَثالب

1 – إن مجموع الأبيات (من 48 إلى59) هي تضمين تام من حجازية الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني، مع تغيير بسيط في القافية لا أكثر، وقد تلاحظ التأثر العميق والواضح لشاعرنا بالوارجلاني حتى في شعره.
ينظر: الوارجلاني أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم، القصيدة الحجازية، نسخة دار إروان، العطف، ق12.

2 – اقتباس من بيت زهير بن أبي سلمى الشهير وتمامه:

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا بها، حتى إذا نبت البقل

ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت، 1986، ص62.

3 – إشارة إلى قوله تعالى: « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» النور، 24.

074 بِحُرمَةِ من صَـلَّى ونـادَى إِلَهَـهُ نِداءً خَفـيًّا[1] بالدُّجَا والغَياهِـب

075 وصـامَ وقـامَ ثُـم حَـجَّ بَيـتَهُ مِن المُسلِمِيـنَ والـمَلاءِ الأَطائِـب

076 وحُرمَةِ كُلِّ مِن نَبِـيءٍ وَمُرسَـلٍ وتَوراةِ مُوسَى ذي عُلـوٍّ المَراتِـب

077 وإنجِيـلِ عِيسى والزَّبـورِ لِـداوُدٍ وفُرقانِ أحمَـدَ كـرِيمِ الـضَّرائِـب

078 وَصَـلَّى عَليـهِم رَبُّنـا وَإِلاهُنَـا وَسَلَّمَ مَا غَنَّـت ذَوَاتُ الـذَّوائِب

079 ولِي هِمَّةٌ تَسـمُو عَلَى كُلِّ شَامِـخٍ وتَعلُو عَلَى فَوقِ النُّجُومِ الثَّواقِـب[2]

080 وَلكنَّ دَهرِي خَائِنِي [وَأَسَائَنِـي][3] وَكَدَّرَ صَفوَ العَيشِ لِي فِي المَـصَاعِب

081 وَعِشـتُ بِدَهرٍ ما سَمِعتُ بِمِثلِـهِ لَدَى سَالِفٍ مِن الـدُّهُورِ الذَّواهِـب

082 فَـلَم أَلقَ فِيهِ غَيرَ ذِيـبٍ وثَعلَـبٍ وأُسدٍ وكَلبٍ مَعْ نُمُورِ السَّباسِـب[4]

083 وَهَذَا زَمانٌ أَهـلُهُ أَهـلُ غِيبَـةٍ لِكُلِّ أَخٍ بَـرٍّ عَظِيـمِ المَناقِـبِ

084 حِراصٌ شِحـاحٌ بَل قِـباحٌ أَذِلَّـةٌ سفاهٌ رِذالٌ، فَخرُهُـم بِالمَعائِـب

085 نَقِيضُونَ أحلامًـا خَسِيسُونَ أنفُسًا يَسُومُونَ أهلَ الفَضلِ سُوءَ الـشَّوائِب

086 ويُبدُونَ لِي وُدًّا وَكشرًا بَـشَاشَـةً إذا كُنتُ حاضِرًا لَـهُم بِالجوانِـب

087 إذا جِئتُـهُم قالُوا سَلامًـا وَمرحَبًـا وإن غِبتُ عَنهُم أَلمَـزُوا بِالمَثالِـب[5]

088 وَلَيـسَ لَهُـم عَهـدٌ وَإِلٌّ وَذِمَّـةٌ وكُلٌّ لهُ وجهانِ مِثلَ القَواضِـب[6]

1 – اقتباس من قوله تعالى في سورة مريم، وتمام الآية: «إذ نادى ربه نداءً خفيًّا» مريم، الآية 03.

2 – هذا البيت من أبدع الأبيات في التفائل، لاحظ همة الشاعر العالية، فقد قلّت في عصره الذي كثرت فيه المؤامرات والفتن، لكنه بهمته بلغ مرامه ونال الدرجات.

3 – هكذا في الأصل: وهي أيضا "أساءني".

4 – السَّباسب: ج سبسب وهي الصحراء القفر. اللسان ج1، حرف الباء، فصل السين، ص459.

5 – المثالب: العيوب. اللسان ج1، حرف الباء، فصل الميم، ص757.

6 – القواضب: السيوف القاطعة. اللسان ج1، حرف الباء، فصل القاف، ص528.

089 وقَد أُشرِبُوا رِيـاسَةً في قُلـوبِهِـم وُحـبَّ ثَـناءٍ مَع وَلاءِ المَناصِـب

090 وهِمَّتُهُـم فُـرُوجُهم وبُطـونُهم ودُنياهُمُ الشَّنعاءُ ذاتُ المَـصائِـب[1]

091 أُولئِكَ كالأَنعَامِ بل هُم أَضَلُّهـا[2] سَبِيلاً فَيا وَيلاً لَهُم مِـن مَعاطِـب

092 لقد هَدَمُـوا مَعالِـمَ الدِّينِ كُلَّهَـا بَنَاهَـا أَئِـمَّـةٌ لنا كَالكَواكِـب

093 فَأَصبَـحَ دِينُـهُم يَتِيـمًا مُوزَّعًـا غَرِيبًا ذَلِيلاً في جِـبالِ المَـصَاعِـب

094 وأمسَى طَرِيدًا بَل وَضِيعًا لَدَى الوَرَى فَلَم يَبقَ مِنهُ غيرَ رَسـمِ المَناقِـب

095 أَهَنتُم طَرِيقَ الحقِّ يا آلَ مُـصعَـب وبِـعتُـم مَنَـارَهُ بِـأُمِّ المَعائِـب

096 فَوَيحًا لَـكُم إن لَم تَقُومُـوا بِحقِّـهِ ولَم تَنهَـلُوا دَمعًا لَهُ مِن سَواكِـب

097 كَما كانَتِ الأُولَى تَذُودُ بِـسَهـمِها عَلَيـهِ وَتَحمِيـهِ بِكُـلِّ القَواضِـبِ

098 وتَضرِبُ عَنـهُ هَامَ كُلِّ غَشَمـشَمٍ بِبِيضٍ مُهـنَّدٍ رَقِيـقِ المَـضَـارِب

099 وهِمَّتُهـا هَـزُّ السُّيوفِ وحَملُهَـا إلى كُلِّ جَحفَلٍ[3] شَـدِيدِ الغَياهِـب

100 ولاَ عَيـبَ فِيها غَيـرَ أنَّ سُـيُوفَها بِهِنَّ فُـلُولٌ مِن قِـرَاعِ الكَتَائِـب[4]

101 أَلاَ هُـمُ إخـوانٌ كِـرامٌ أَعِـزَّةٌ هُداةٌ ثِـقاتٌ فِي جَمِيـعِ المَـذَاهِب

102 عِفافُ النُّفوسِ هُم مَلاذُ الخَلائِـقِ حُمـاةُ الذِّمَـارِ، هُم شُراةُ المَناقِـب

103 نُجُوم الطَّرِيقِ، هُم كواكِـبُ ظُلمَةٍ شُمُوسُ الأنامِ هُم أُسُودُ الـسَّباسِـبِ

1 – إن المحن التي تعرض لها الشاعر في قومه دفعته لأن يصرّح بحقيقتهم، وكيف استشرى فيهم الجهل وغلبتهم أهواؤهم.

2 –اقتباس من قوله تعالى في سورة الأعراف، الآية 179 وتمامها: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون).

3 – الجحفل: الجيش الكثير العدد ولا يكون كذلك حتى يكون فيه خيل. اللسان ج11، حرف اللام، فصل الجيم، ص262.

4 – تضمين لبيت النابغة الذبياني الشهير، وقد مرّ معنا منذ قليل، كما وسيُكرّر تضمينه مرّات أخرى.

104 وَكَم من كَمِيءٍ[1] قد تَمنَّى لِقاءَهُم ... وكانَ لَدَى اللِّقاءِ أوَّلَ هارِب

105 وكم وَقعَةٍ قد أشبَعت بِنصالِهِم ... طُيُورَ الهَواءِ مَعْ ذَوات المَخَالِب

106 وهُم سَفَكُوا دِماءَ باغٍ مُخالِفٍ ... عَدُوٍّ لَهُم عِندَ الوغاءِ مُحارِب[2]

107 وهُم طلَّقُوا دُنياهُمُ وتَزوَّجُوا ... بَوائِقَها إذ هِي مُهرُ الكَواعِب

108 عَليهِم سَلامُ اللهِ ثُمَّ رِضاؤُهُ ... ورَحمَتُهُ ما حَنَّ قَلبِي لِصاحِب

109 فَخُذها كعِقدٍ مِن لآلٍ مُنظَّمٍ ... وشَذرٍ[3] ومرجانٍ فُويقَ التَّرائِب

110 تَميسُ بِحُسنِ لَفظِها وَبيانِها ... كَعَبهَرَةٍ[4] بَيضَاءَ ذَاتِ الذَّوائِب[5]

111 إذا ما شَداها ماهِرٌ ذُو تَرنُّمٍ ... تَصيحُ لها آذانُ قارٍ وكاتِب[6]

112 وما قُلتُها عُجبًا وَفخرًا وَسُمعَةً ... ولَكِن لِفقدِ الأُمِّ ذاتِ المَناقِب

113 وأختِمُ قَولِي بِالصَّلاةِ مُسلِّمًا ... عَلَى أحمدَ الهادِي لِخيرِ المَذاهِب

1 – الكميءُ: الشجاع.

2 – من بديع الوصف أن يجعلهم شجعانا وباسلين، أي يواجهون أعداءهم ولا يقاتلونهم غدرا.

3 – الشذر: قطع من الذهب يلقط من المعدن، يصاغ فرائد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر.

4 – العبهرة: الرقيقة البشرة، الناصعة البياض.

5 – الذوائب: ج ذؤابة، منبت الناصية من الرأس، وقيل الناصية مجازا للمرأة.

6 – الأبيات (109–111) تضمين لأبيات من حجازية الشيخ أبي يعقوب الوارجلاني.
ينظر: المخطوطة نفسها، دار إروان، العطف، غرداية، الجزائر، ق 14.

رسالة في مدح أعيان القَرارَة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

وَبَعدُ فَلَمَّا رَأيتُ إلَى بَنِي مُزَاب وَإلَى أحوالِهِم فَوَجَدتُهُم كُلَّمَا اتَّفَقُوا افتَرَقُوا، وَكُلَّمَا اجتَمَعُوا اختَلَفُوا، وَوَلَّوا عَلَى أعقَابِهِم مُدبِرِينَ، وَرَجَعُوا عَن آخِرِهِم مُنَكِّسِينَ، فَأَهَانُوا دِينَ اللهِ القَوِيمِ وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم، فَأَهَانَهُمُ اللهُ وَنَبَذَهُم فِي زَوَايَا الهُجرَان، فَاستَخَفَّ أَجلافُ الأعرَاب[2] وَاستَهزَؤُا بِهِم فِي كُلِّ جَانِبٍ وَمَكَان، وَكَثُر فِيهِمُ وفِي دِينِهِم السَّبُّ وَالشَّتمُ، وَحَقَّ عَلَيهِم مِن غَيرِهِم العَذلُ وَاللَّومُ، فَسَلَّط اللهُ عَلَى بَعضِهِم المَذَلَّةَ وَالهَوَانَ، وَعَلَى بَعضِهِم عَلامَاتِ النِّفَاق، مِن نَقضِ العَهدِ وَالافتِرَاءِ وَالبُهتَان، وَرَأيتُ إلَى أَهلِ القَرَارَةِ الطَّيِّبَة، وَإلَى أَحوَالِهِم المَرضِيَّة، عَلَى مَا سَمِعَهُ الصُّمُّ وَرَآهُ العُمِيُ وَنَطَقَ بِهِ البُكمُ فَوَجَدتُهُم قَد تَحَزَّبُوا عَلَى دِينِ اللهِ سُبحَانَهُ وَحَمَلُوهُ عَلَى عَوَاتِقِهِم فَنَصَرَهُمُ اللهُ وَأَعَانَهُم عَلَى أَعدَائِهِم، وَقَطَعُوا إلَى اللهِ فَكَفَاهُم مُؤنَةَ دُنيَاهُم وَآخِرَتِهِم، فَهَابَت أَجلافُ العُربَان، وَارتَعَدَت خَوفًا منهُم وَمِن مُنَاصَبَتِهِم[3]، فَأَعطَاهُمُ اللهُ سَمَاحَةً وَكَرَامَةً، وَبَسَالَةً وَشَجَاعَةً وَآرَاءً سَدِيدَةً وَأَموَالاً جَلِيلَةً، فَرَكِبُوا خَيلاً عُرَابًا لم يَركَبهَا الأَوَّلُونَ وَلاَ الآخِرُونَ، وَذَلِكَ مِنَّةً عَلَيهِم مِن المَولَى، فَسُبحَانَ الذِي لاَ يَبلُغُ كُنهَ شُكرِ مِنَّتِهِ الوَاصِفُونَ[4].

نَهنَهتُ[5] نَفسِي عَلَى أَن تُذَكِّرَنِي بَعضَمَا أَنسَانِيه الزَّمَانُ، فَأَتَيتُ بِقَصِيدَةٍ شَرِيفَةٍ عَلَى عَدَدِ عُمُرِ سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّدٍ[6] فِي حَقِّ المَذكُورِينَ، رَغبَةً فِيمَا عِندَ

1 – هذا العنوان من وضعي، أما القرارة فقد سبق التعريف بها.

2 – ذكرت ما وقع من فتن زمن الشيخ، ومن بينها حملات النهب المتواصلة والإغارة على القوافل القادمة من الشمال ونهب خيراتها، وربّما قُتل من فيها وهو يدافع عن نفسه وماله. ينظر: التقديم.

3 – مُناصبتهم: أي نَصب الكمائن لهم.

4 – لقد صدق الشيخ فيما وصف به أهل القرارة، وكأنّي بهم على عهده، قد خبرت منهم خلقًا كثيرًا فوجدتهم كما وصفهم، ذوي سماحة وكرامة، وبسالة وشجاعة وفوق ذلك هم ذوي أموال جليلة أيضًا.

5 – نَهنَهتُها: زجرتُهَا. اللسان، ج13، حرف الهاء، فصل النون، ص914.

6 – يعني 63 بيتًا، وهي المدة التي عاشها رسول الرّحمة ﷺ.

اللهِ مِنَ الثَّوابِ وَالغُفرَانِ وَمُسَاعَفَةً لِبَعضِ الإِخوَانِ[1]، فَقُلتُ: بَعدَ حَمدِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الكَرِيمِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ وَأَصحَابِهِ الطَّيِّبِينَ وَتَابِعِهِم بِإِحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ.

رِسَالَةٌ إِلَى الإِخوَانِ الكُرَمَاءِ الأَجِلَّةِ العُظَمَاءِ، الأَحِبَّةِ النُّبَلاَءِ، الأَئِمَّةِ الفُضَلاَءِ مِنهُم: الشَّيخ عَمُّنَا سُلَيمَان وَمِنهُم عَمُّنَا بَابَه بن الحَاج، وَمِنهُم عَمُّنَا عِيسَى بن دَاد، وَعَمُّنَا عِيسَى بن بُهُون، وَعَمُّنَا حَمُّو بن الشيخ كَاسِي، وَعَمُّنَا أبو بَكرٍ بن مُحَمَّد، وَعَمُّنَا سُلَيمَان بن أَبِي بَكرٍ[2]، وَعَمُّنَا الحاج مُحَمَّد بن بَالَّة، وَجُملَة العَزَابَة[3] وَالتَّلاَمِيذ وَالطَّلَبَة[4]، وَجُملَة العَوَامِ بَعدَ أَن نَخُصَّ مِنهُم أَهلَ الدَّائِرَة[5]، وَسَلاَمٌ عَلَيكُم وَعَلَى كَافَّةِ مَن تَحوِيهِ عِنَايَتُكُم، يَفُوقُ نَشرُهُ عَلَى المِسكِ الأَذفَرِ، غِبَّ تَحِيَّةٍ وَافِيَةٍ تَفُوحُ عَلَى الكَافُورِ وَالعَنبَرِ، مِن المُسَلِّمِ عَلَيكُم المُشتَاقِ إِلَى لِقَائِكُم، عُبيد رَبِّه لَطَفَ اللهُ بِكُم وَبِه الحَاج بن بحمَان بن أَبِي مُحَمَّدٍ المَنسُوبِ إِلَى دُرَّةِ الثَّمِينِيَّةِ اليَسجَنِي وَمِن بَعضِ الطَّلَبَةِ[6] شعر. (بحر الطويل)

1. تَأَوَّبَنِي وَجدٌ شَدِيدٌ بِمُصعَبٍ وَهَيَّجَ فِي حَشَاشَتِي[7] كُلَّ مَشغَبِ
2. وَأَوقَدَ فِي قَلبِي هَوًى وَصَبَابَةً وَأَسعَرَ لَوعَةً فِي جِسمٍ مُؤَصَّبِ

1 – لا ندري تفصيلا عن هؤلاء الإخوان، قلت لاشك أنهم زملاؤه من عزابة وادي مزاب، ولعلّهم شجّعوه طالما كان كاتبًا لتقارير الهيئة العليا للوادي، فهو يكتب باسمهم واسمه شوقًا إليهم، وعادة ما يُفتقد اللّبيب ويعجز المرءُ عن مكاتبته، حتى إذا حانت الفرصة فعل ذلك، كما وتكون فرصة للتنفيس عن هُموم الكاتب.

2 – للأسف لم أقف على أسماء هؤلاء الأعلام، ولا شكّ أنّ معظمهم من العزابة، وفيهم قلّة من أعيان البلد، أمّا مردّ عدم توصّلنا إلى معرفتهم والتعريف بهم فهو عدم توفر مراجع خاصة تتعلق بالأعلام، إلاّ ما ورد في معجم أعلام الإباضية "ممّن اشتُهر منهم" وتداولته الألسن، ذلك أنّه لا يخفى على أحد أنّ التاريخ الإباضي كما أسلفت كان "يحفظ ويورى ولا يُكتب".

3 – هي الهيئة الدينية العليا التي تتولّى شؤون المسلمين في كلّ قرية من مُزاب وهي إلى اليوم عرفية.

4 – التلاميذ والطلبة: مرتبة تحت منصب عزّابي، بالمزابية " إيرُو" ج. إروَان، أي الطلبة، وفي كل قرية من قرى مزاب دار للعلم تُعرف باسمهم إلى اليوم.

5 – الدّائرة: من طاف حولهم واهتمّ بشؤونهم.

6 – لعلّه ترأس حلقة العلم، لكني لم أجد فيما هو بين يدي دليلا على ذلك، ولعل أيدي الزمن قد عبثت به.

7 – الحُشَاشَةُ: بقية النّفس.

3. فَبِتُّ كَمَلدُوغٍ بِسُمٍّ ضَئِيلَةٍ[1] بِلَيلِ التَّمَامِ وَاجِفًا أَو بِعَقرَبِ
4. فَأَصبَحتُ بَعدَ أَن سَلِمتُ مِنَ الرَّدَى كَئِيبًا مُتَيَّمَ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ
5. وَمَا بِي عِشقٌ مِن خَرُودٍ تَزَيَّنَت بِشِذرٍ وَمُرجَانٍ وَخَزٍّ مُشَطَّبِ
6. وَعِقدٍ مُنَظَّمٍ وَحِلْيٍ مَصُوتٍ بِمعصَمِهَا مَعَ البَنَانِ المُخَضَّبِ
7. بَرَهرَهَةٍ بَيضَاءَ رَيَّ الرَّوَادِفِ مُنَعَّمَةَ الجِسمِ اللَّطِيفِ المُوَرَّبِ
8. خَدَلَّجَةٍ خَرعُوبَةٍ لاَ مُفَاضَةٍ غَضِيضَةِ طَرفٍ عَينُهَا مِثلَ رَبرَبِ[2]
9. تَهَادَى كَظَبيٍ إِذ تَجُرُّ وَرَاءَنَا عَلَى [إِثرِينَا][3] ذَيلَ مِرطٍ مُصَلَّبِ
10. إِذَا سَقَطَ النَّصِيفُ[4] مِنهَا تَنَاوَلَت بِأَيدٍ صَفِيٍّ كَالجُمَانِ المُثَقَّبِ
11. إِذَا تَرَاءَت بَينَ المَطَارِفِ حِلتُهَا بُرُوقًا تَلَمَّعَت عَلَى فَوقِ كَبكَبِ
12. إِذَا ذُقتُ فَاهَا قُلتُ: خَمرٌ تَمَازَجَتْ بِصَوبِ غَمَامٍ مِن عُلُوٍّ مُصَوَّبِ
13. إِذَا قَعَدَتْ فِي سُندُسٍ وَمَطَارِفٍ وَقَطفٍ وَعَبقَرٍ وخَزٍّ مُشَطَّبِ
14. تَبَلَّجَ مَاءُ حُسنِهَا وَجَمَالِهَا فَأَخفَى سَنَاهَا ضَوَّ نَجمٍ وَكَوكَبِ
15. إِذَا جِئتُهَا وَقَد تَضَوَّعَ[5] نَشرُهَا وَجَدتُ بِهَا نَشرًا وَإِن لَمْ تَطَيَّبِ
16. وَلَكِن بِيَ قَومًا كِرَامًا أَعِزَّةً زَكِيِّينَ مَرضِيِّينَ فِي كُلِّ مَذهَبِ
17. رِجَالٌ هُم نَشَوا بِحِلمٍ وَعِفَّةٍ وَجَاهٍ وَثَروَةٍ وَرَاءٍ[6] مُوَرَّبِ

1 – الضئيلة: الحيّةُ الرقيقة.

2 – الرَّبربُ: القطيع من بقر الوحش. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل الراء، ص396.

3 – هكذا في الأصل: لعلّه تصحيف، والمراد: إثرنا، أو " على أثر بنا "، لأن البيت غير مشكل.

4 – النَّصيفُ: الخمارُ. اللسان، ج9، حرف الفاء، فصل النون، ص328.

5 – تَضَوَّعَ: فَاحَ وانتشر.

6 – يريد وَرَأي.

18. رِجَالٌ هُم بَنَوا مَعَالِمَ دِينِهِم بِكُلِّ غُدُوٍ مَعْ رَوَاحٍ مُأوَّبِ[1]

19. سُرَاةٌ[3] حُمَاةٌ[4] للذِّمَارِ وَللهُدَى شُرَاةُ النُّفُوسِ هُم مَلاذٌ لِمُتْرَبِ[2]

20. ثِقَاتٌ مُطَاعِينَ، هُدَاتٌ فَوَارِسٌ طِوَالُ النِّجَادِ وَالرِّمَاحِ المُعَلَّبِ

21. وَهُم قَدَحُوا للدِّينِ زَندًا مُوقَّدًا وَهُم رَكِبُوا مِن أجلِهِ خَيرَ مَركَبِ

22. وَهُم فَتَكُوا يَومَ الوَغَى هَامَ زَائِغٍ بِعَضبٍ مُهَنَّدٍ رَقِيقٍ مُهَذَّبِ

23. وَسَارُوا بِرَكبٍ مِثلَ أَسوَدَ حَالِكٍ[5] إِلَى كُلِّ بَاغٍ عَنهُمُ مُتَجَنِّبِ

24. وَقَامُوا بِأخذِ الثَّأرِ للدِّينِ بَعدَمَا أَمَاتَهُ نَاسٌ هُم كَذِيبٍ وَثَعلَبِ

25. وَهِمَّتُهُم حَملُ السُّيُوفِ وَهَزُّهَا عَلَى هَامَةِ العَدُوِّ يَومَ التَرَعُّبِ

26. وَحملُهُمُ للسَّيفِ لله سَاعَةً كعُمرِ مُطِيعٍ عَابِدٍ مُتَرَهِّبِ

27. عَنَيتُ بِذَا أَهلاً بِنَجدٍ قَرَارَةٍ ـحَمَاهَا إِلَهُ العَرشِ مِن كُلِّ قرطَبِ ـ

28. وَلاَ عَيبَ فِيهَا غَيرَ أَنَّ لأَرضِهَا بَهَاءً وَعِزًّا وَاقتِنَاءً لِمَكسَبِ

29. وَرَغدًا وَمَعمَرًا وَأَرضًا أَرِيضَةً سُقِيَت غَمَامَ الرَّائِحِ المُتَحَلِّبِ[6]

30. سَأَنشُدُ أَبيَاتًا فِي أَهلِ الدَّوَائِرِ تَهَشُّ لَهَا آذَانُ كُلِّ مُطرِبِ

31. فَمِنهُم أَحمَدَ بن حَمُّو سَيِّدُهُم شُجَاعٌ مَرِيرٌ إِن عَلاَ فَوقَ مَركَبِ

32. وَابنُ أَدبَدَابَ كَذَلِكَ مِنهُمُ وَعَمرُ بنُ مَسعُودٍ رَبِيطُ كَعَسرَبِ[7]

1 – مُوَرَّب: مُوَفَّر. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل الواو، ص795.

2 – المُترب: الفقير الملتصق بالتراب. السان، ج1، حرف الباء، فصل التاء، ص189.

3 – 6– في الأصل سُرات حُمَات: وقد كان من عادة المغاربة كتابة التاء في آخر الاسم مفتوحة. والسّري: الشريف، وقيل: سخاءٌ في مُرُوءة. اللسان، ج14، حرف الياء، فصل السين، ص742.

5 – هنا كناية عن كثرة عددهم حتّى صار غبار النّقع لمّا ارتفع كليل أسود ولا يكون كثيفًا إلاّ بكثرة العدد والضراوة في القتال.

6 – المتحلّب : السائل، أو الكثير المطر.

7 – العَسرب: الأسد الشديد.

33. وَمِنهُم سَعِيدُ بنُ لبَابَه [سَمَيدَعٌ][1] وَمِنهُم مَسعُود لَكَرْوِي مُلَقَّبِ

34. وَمِنهُم بُرهَامٌ سَلِيلٌ لأَطرَشَ وَعَمرُ بن بُشَّنْ جَلِيٌّ كَكَوكَبِ

35. وَمِنهُم عُمَيرَةُ بن كَرِينْ بَعدَمَا ذَكَرتُ عُمَيرَة بن حَمُّ المُهَذَّبِ

36. وَمِنهُم سُلَيمَان بن حَمُّ[3] وَبَعدَهُ سَلِيلٌ لِبَعلِي بَسَيلٍ كَعَشْرَبِ[2]

37. وَحَمُّو بن إِسمَاعِيلَ قَد عُدَّ مِنهُم وابنٌ لِرَّيَانَ[4] كَذَلِكَ قَعضَبِ[5]

38. وَمِنهُم سَلمَانُ سَلِيلُ مُحَمَّدٍ مِن أَهلِ البَلاَتِ الزَّائِرِينَ لِيَثرِبِ[6]

39. وَمِن بَعدِ ابن بَابَ ثُمَّ ابن صَالِحٍ بُهُونَ بن حَمُّو قَد عَلاَ فَوقَ قَيْقَبِ[7]

40. وَابن البَسِيسِ ثُمَّ سَعدُ بن لَحْيَة كَذَلِكَ نَاصَرُ بنُ كَاسِ المُوَرَّبِ[8]

41. وَعُمر بن نَاصِرٍ وَبَكرُ بنُ خَالِدٍ وَبَابَ بنُ لَحْيَة جَرِيءٌ كعَسرَبِ

42. وَبَعلِ بنُ أَحمَدَ ذَكِيٌّ مُبَرَّعٌ وبَابَ بن بَسعِيد كَذَلِكَ عَصْلَبِ[9]

43. فَلِلَّهِ مِن قَومٍ نَشَوا بِقَرَارَةٍ[10] هُمُ القَومُ كُلُّ القَومِ يَا أُمَّ جُندُبِ

1 – هكذا في الأصل: إلا أن المشهور أنها تكتب بذال معجمة.

2 – العَشرب: الأسد الضاري كذلك.

3 – حَمُّ: هو نفسه اسم العلم "حَمُّو"، لا يزال متداولا عند بني مُزاب إلى اليوم.

4 – رَيَّان: هي برّيَّان أو "البئر الريَّان" تبعد عن وادي مُزاب بـ40 كلم شمالاً جاء تكوينها بعد قرى وادي مُزاب، وتقع على طريق القوافل من الشمال إلى مُزاب، أرض طيّبة بها وديان: باللوح، السودان...عامرة إلى اليوم.

5 – القَعضَبُ: الضَّخمُ: الشديد الجريءُ. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل القاف، ص658.

6 – لعل الوفد المرافق له إلى الحج ضم جمعا من أهل البَلاَت، وهي عشيرة كبيرة بالقرارة إلى اليوم.

7 – القَيقَبُ: سرج الفرس. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل القاف، ص672.

8 – المُوَرَّبُ: الكامل الوافي. سبق شرحه.

9 – العصلبُ: القويّ الشديد. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل العين، ص573.

10 – يقصد بلدة القرارة، موطن هؤلاء، سبق التعريف بها.

44. هُم بَهجَةُ الدُّنـــيَا وَلَـذَّةُ زَهرِهَـا وَنُورُ رَبِـيعِهَا وَنُـورٌ لِغَيهَـبِ[1][2]
45. وَهُم حِزبُ رَبِّنَـا بِكُـلِّ مَفَـازَةٍ وَنَجدٍ[3] وَغَيطَلٍ[4] وَسَهلٍ وَكَبكَـبِ
46. وَأَخلاقُهُم مِثـلَ الوَدِيلَـةِ[5] بَهجَـةً وَأَوجُهُهُم مِثلَ الكَبِيـسِ المُـلَوَّبِ
47. لَهُم شِيمَةٌ لَـم يُعطِهَـا اللهُ غَيرَهُـم مِنَ الجَاهِ وَالرَّأيِ البَـدِيعِ المُـوَرَّبِ
48. وَحَيَّاهُـمُ المَولَى بِأسـنَى تَحِـيَّةٍ غَذَاةَ غُـدُوٍّ أو رَوَاحٍ مُـأَوَّبِ
49. وَوَسَّدَهُم خَزَّ السَّمَاحَـةِ وَالنَّدَى وَتَوَّجَـهُم تَاجَ البَـهَاءِ المُطَيَّـبِ
50. وَأَيَّدَهُم بِالنَّصرِ وَالظَّفَـرِ والمُنَـى بِكُلِّ غَشَمشَمٍ مِن أولَادِ شَـعنَبِ[6]
51. أَلاَ رُبَّ غَـارَةٍ لَهُم مِـن قَـرَارَةٍ إِلَى زَائِغٍ عَـن دِيـنِهِم مُتَجَنِّـبِ
52. عَلَى كُـلِّ هَيـكَلٍ جوادٍ مسُـوَّمٍ سَرِيعٍ كَخُـدرُوفٍ عَتِيقٍ مُـشَرعَبِ
53. سَبُوجٍ[8] كَيَعبُوبٍ[9] أَمُونٍ[10] إِذَا جَرَى سَلِيمِ الشَّظَى نَهْدِ القَوَائِمِ دِعْلَـبِ[7]

1 – الغيهب: الظُّلمةُ الشديدةُ. سبق شرحها.
2 – والبيت اقتباس من حجازية الشيخ أبي يعقوب الوارجلاني وتمام البيت:
هم زهرة الدنيا وبهجة أهلها وسادة أهل الغرب بادٍ وحاضر
القصيدة الحجازية، الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني، المخطوطة، ق2.
3 – النَّجد: المرتفع من الأرض. اللسان، ج4، حرف الدال فصل النون، ص652.
4 – الغيطل: ما انخفض من الأرض. اللسان، حرف اللاّم، فصل الواو، ص718.
5 – الوديلة: السبيكة من الفضة، وهي من أسماء الشمس أيضًا. اللسان، ج11، ص641.
6 – هم الشعانبة: قبائل وفدوا إلى مناطق الواحات وتوطنوا جهات وارجلان منذ القرن 16 الميلادي ويتكوّنون من عشائر عديدة تربطهم علاقات نسب وصلة بأعراش مختلفة مع أعراش من البيض، المنيعة، وارجلان، مليكة... كونهم رحّلا، تبعد مدينتهم متليلي اليوم عن وادي مزاب بـ40كلم جنوبا.
ينظر: حمو عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر، ج1، ص128.
7 – في البيت اقتباس من شعر امرئ القيس، وتمام البيت:
سليم الشظى عبل الشّوى شَنَجَ النّسا لَهُ حَجَبَاتٌ مُشرفاتٌ على الفال
ديوان امرئ القيس، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص11.
8 – السَّبوج: السريع. اللسان، ج2، حرف الجيم، فصل السين، ص427.
9 – اليعبوب: طائر صغير لا يضمّ جناحيه خفيف الطيران. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل الباء، ص469.
10 – الأمُون: الذي لا يفتُر في سعيه. اللسان، ج13، حرف النون، فصل الألف، ص25.

54. مُمـرٍ، مِـسَحٌّ للعَـدُوِّ كَأَنَّـهُ إِذَا مَا سَعَى شَاوَينِ رِيـحٌ بِأَتْـأَبِ[1]
55. لَهُ أَيطَـلاَ ظَبيٍ وَإِرخَاءُ عَمَلَّـسٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَتَقرِيـبِ ثَـعلَبِ[2]
56. فخـذُها كَأَنَّهَا جُمَـانٌ مُفـصَّلٌ بِشَذرٍ وَمَرْجَـانٍ وَدُرٍّ مُثَـقَّـبِ
57. عَلَى نَحـرٍ غَيدَاءَ رَدَاحٍ إِذَا مَـشَت تَمِيسُ كَمُدمِنِ السُّلاَفِ[3] المُغَلَّـبِ
58. عَلَى مُرسَلٍ إِلَـى الخَلاَئِـقِ رَحمَـةً نَبِيءٍ مُمَـجَّدٍ كَـرِيمٍ مُـهَذَّبِ
59. عَظِيمِ شَرِيفِ النَّجرِ أَعنِـي مُحمَّـدا وَصَلاَتِي وَتَسلِيمِي لَدَى كُلِّ مَغـرِبِ
60. دَوَامُ زَمَانٍ مَـا خَـرُودٌ تَزَيَّنَـت بِصَوتٍ يُهِيجُ شَوقَ حَـادٍ مُطـرِبِ
61. وَغَنَّت بِكُـلِّ رَوضَـةٍ وَحَدِيقَـةٍ ذُبَابٌ، وَغَرَّدَت حَمَـامَةُ يَثـرِبِ
62. وَحَنَّت ضَمَائِرِي وَرَنَّـت بَلاَبِلِـي وَهَاج اشتِيَاقِي بِالفُـؤَادِ المُعَـذَّبِ
63. وَمَا نَشَدَ الصَّبُّ الحَبِيـبُ مَقَـالَتِي تأَوَّبَنِي[4] وُجدٌ[5] شَدِيـدٌ بِمُـصعَبِ

1 – اقتباس أيضًا من شعر امرئ القيس وتمام البيت:
بِسَحٍّ إذا ما السّابحاتُ على الونى أثرن الغبار بالكديد المركّل
ديوان امرئ القيس، ص15.
2 – كذلك اقتباس من شعر امرئ القيس وتمام البيت:
له أيطَلاَ ظبي وَسَاقَا نعامةٍ وإرخاءُ سرحان وتقريب تتفُل
ينظر: نفسه، ص15.
3 – السُّلاف: من أسماء الخمر.
4 – تأوّب: أتاهُ أوّل الليل. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل الألف، ص56.
5 – الوُجدُ: الحزنُ أو شدة الغرام. سبق شرحه.

أخرى في أهل القرارة أيضا (بحر المتقارب)

1. أَلاَ يَا صَاحِ أقبِل ثُمَّ أَسرِعِ ... أَعِنِي لِلكَآبَةِ بِالحَشَاء
2. فَقَالَ لِي: إِلَيكَ إِلَيكَ عَنِّي ... رَجَعْتُ عَلَى حُشَاشِي[1] بِالمِرَاء
3. فَدَع ذَا ثُمَّ دَع ذَا ثُمَّ ذَع ذَا ... وَسَلِّ هَمَّا بِنَبْذٍ لِلوَرَاء
4. وَذَا مِمَّا قَضَاهُ اللهُ فِينَا ... وَمَا أَرَادَ كَانَ بِلاَ مِرَاء
5. عَلَيكُم مِن أَفَاضِلِ كِرَامٍ ... تَحِيَّةً تَلُوحُ كَالسَّنَاء
6. وَتَسلِيمٌ صَفِيُّ الوُدِّ حَقًّا ... وتَمجِيدٌ وشُكرٌ مَعْ ثَنَاء
7. يُحَاكِي نَشرُهُ رِيحَ الذَّكِيِّ ... يُضَاهِي رَيُّهُ نَشرَ الكَبَاء
8. وَمِنْ ذَا مَاهِرٍ شَيخِ الجَمَاعَةِ ... عَظِيمُ القَدرِ رَافِعُ اللِّوَاء
9. عَنَيْتُ أحمدَ بن أَبِي مَحمد ... ضِيَاءُ الدِّينِ[2] مِن غَيرِ افتِرَاء
10. وَمِنهُم عَمُّنَا عِيسَى بن حَمُّو[3] ... فَقِيهٌ عالِمٌ بِلاَ خَفَاء
11. وَمِنهُم مَن جَدِيرٌ بِالعُلُومِ ... سَحَابٌ هَامِرٌ مِنَ السَّمَاءِ
12. أَبُو زَكْرٍ[4] الذِي خَضَعَت إِلَيهِ ... رِقَابُ كُلِّ علم باعتِنَاء
13. وَمِنهُم فَاضِلٌ وَرِعٌ ذَكِيٌّ ... سَمَيدَعٌ كَنَجمٍ فِي اهتِدَاء
14. وَذَا هُو شَيخُنَا عبدُ العزيزِ[5] ... أَعَزَّهُ الإِلاَهُ عَلَى السَّوَاء

1 – الحُشاش: بقية الروح في المرض. شُرح من قبل.

2 – يبدو أنّ اللقب "ضياء الدين" ليس خاصًّا بشخص معيّن، إذ أطلقه على عدّة أعلام مادحًا، وقد يلاحظ ذلك فيما سيأتي، ولو أنّه في الأصل اشتهر به خاله الشيخ عبد العزيز الثميني.

3 – للأسف لم أعثر على النسب الكامل له، على ما وصل بين يدي من المراجع.

4 – أبو زكر: هذا لن يكون إلاّ شيخ شيخه أي: "الشيخ عمي يحي" أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي، لأنّه سيذكر بعده شيخه وخاله "ضياء الدين" عبد العزيز الثميني، وعادة ما يتلازم ذكرهما في الحديث عنهما.

5 – لن يكون هذا العلمُ إلاّ شيخه وخاله عبد العزيز الثميني "ضياء الدين".

15. وَغَيرُهُم مِن أَصحَابٍ لَدَيَّ ... حُمَاةُ الدِّينِ مِن غَيرِ امتِرَاء
16. فَلَولاَ ذَا وَلَولاَ ذَاكَ وَلَولاَ ... لَمَا عَرَّضتُ نَفسِيَ للبَلاَء
17. بِتَكلِيفِي قَرِيضًا وَلَستُ أَهلاً ... لَهُ، لِجُمُودِ فِطنَةِ الحَشَاء[1]
18. فَسُقيَا ثُمَّ سُقيَا ثُمَّ رَعيًا ... لَكُم مِن وَابِلٍ صَوبِ السَّمَاء
19. فَأَهلاً ثُمَّ أَهلاً ثُمَّ سَهلاً ... بِكُم، وَلِغَيرِكُم سَقيُ الرَّدَاء[2]
20. سَلاَمُ اللهِ إِخوَانِي عَلَيكُم ... وَأَلفُ تَحِيَّةٍ مَعَ الثَّنَاء
21. تَفُوقُ عَلَى القُرُنفُلِ الذَّكِيِّ، ... تَلُوحُ مِثلَ بَدرٍ بِالدُّجَاء
22. دَوَامَ الوُرقِ تَسجَعُ بِالأَرَاكِ ... وَمَا هَبَّ النَّسِيمُ مِنَ الصَّبَاء
23. مِنَ العَبدِ الذَّلِيلِ وَالفَقِيرِ ... إِلَى عَفوِ الإِلاَهِ وَالغِنَاء
24. أَبِي عَبدٍ إِلَى العَزِيزِ يُعْزَى ... إِبَاضِيٌّ[3] حَقِيقٌ بِالذَّكَاء
25. فَيَا لَيتِي بِمَربَعِكُم نَحُلُّ[4] ... نُرَوِّ القَلبَ مِنكُم باللِّقَاء
26. فَيَا لَيتَ اللِّقَاءَ يَكُونُ يَومًا ... تُرِيحُ النَّفسَ مِن نَارِ الهَوَاء
27. فَإِن امتَدَّ عُمرِي مُدَّةً مَا ... لَزُرتُكُمُو وَإِنْ عَلَى النَّوَاء
28. وَكَانَ مِن أَجَلِ دِينُ الرَّبِّ أَمسَى ... زَهُوقًا رُوحَهُ مِنَ الوَهَاء
29. فَيَا لَهفِي وَيَا شَخوَتِي عَلَيهِ ... تَكَدَّرَ حَالُهُ بَعدَ الصَّفَاء
30. وَقَد دَرَسَت مَنَارَتُهُ وَصَارَت ... مَعَالِمُهُ خَرَابًا بِالعَفَاء
31. وَقَفتُ بِهَا أُسَائِلُها فَأَعيَت ... جَوَابًا مَا بِهَا غَيرُ المَهَاء[5]
32. وَغَيرُ النُّؤُ والأُوار لَمَّا ... دَعَوتُهَا وَإِنِّي ذُو ضَنَاء
33. فَهِمتُ عِندَ ذَاكَ يَا خَلِيلِي ... فَأَسبَلتُ الدُّمُوعَ كَالدِّمَاء

1 – هنا إقرار آخر بضعف ملكته الشعرية، وبتكلفه النظم.

2 – الرَّدَاء: الهلاكُ، في الأصل الرَّدى. اللسان، ج3، حرف الدال، فصل الراء، ص171.

3 – افتخار الشيخ بانتسابه إلى الإباضية الوهبية مذهب آبائه وأجداده، ولا يزال إلى يوم النّاس هذا بمُزاب، وجبل نفوسة بليبيا وجزيرة جربة بتونس، وزنجبار أو تنزانيا حاليا وبسلطنة عمان وغانا...

4 – نحلُّ: ننزلُ، يريد القرارة. ولو أنّ شيخيه ليسا قرارين ولكنّه ضمّنهما في مدحه لأهل العلم تشريفا لهما وتكريما.

5 – تلاحظ تكرار الألفاظ والمعاني بكثرة في شعره، وهي دليل فعلي على ضعف وجمود القريحة كما يعترف هو بذلك.

قصيدة في شكوى الزمان والحال[1]

وفي الشوق إلى الابن الغائب (بحر الطويل)

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلّم

وَلَمَّا كَانَت الأَحوَالُ مُتَبَدِّلَةً، وَالطَّبَائِعُ مُتَغَيِّرَةً، وَالشَّمَائِلُ مُتَحَوِّلَةً، وَالخَلاَئِقُ مُتَبَدِّدَةً، وَالأَزمَانُ مُتَقَلِّبَةً، وَالأَعمَارُ مُنعَكِسَةً، وَالدُّهُورُ مُتَفَاوِتَةً، وَالأَيَّامُ مُتَقَاصِرَةً، وَالأَمَاكِنُ مُختَلِفَةً، وَالمَوَاضِعُ مُشتَبِهَةً، قُلتُ فِي شَأنِ ذَلِكَ مِنَ الطَّوِيلِ.

1. أَكَامِلَةَ الحُسنِ البَدِيعِ تَجَلَّدِ ... بِصَبرٍ لَعَلَّ الوَصلَ يُوجَدُ فِي غَدِ
2. فَإِن كَانَ بُعدُ الدَّارِ قَد حَالَ بَيننَا ... وَإِنِّي عَلَى مَا تَعلَمِينَ بِمَوعِدِ
3. أَزَينَبُ إِمَّا أَن تَجُودِي بِرَشفَةٍ ... عَلَيَّ وَإِلاَّ فَاصرِمِي الوُدَّ وَازدَدِ
4. فَهَل جَازَ أَن يَضمَى خَلِيلُكِ زَينَبُ ... وَرِيقُكِ عَذبٌ يُذهِبُ العَطَشَ الصَّدِ
5. أَلَم تَعلَمِي أَنَّ الغَرَامَ وُجُودُهُ ... بِغَيرِ وِصَالٍ جَمرَةٌ تَتَوَقَّدُ
6. وَلاَ خَيرَ فِي وَصلٍ صَرِيمٍ لِلَذَّةٍ ... كَفَانِي كَفَانِي مِنهُ يَا بِنتَ مَعبَدِ[2]
7. أَيَا مَن بَنَاتُ العَصرِ فَاقَت بِحُسنِهَا، ... قَتِيلُكِ لاَ يَحيَ بِغَيرِ التَّلَدُّدِ
8. وِدَادِي صَحِيحٌ فِيكِ يَاغَايَةَ المُنَى ... وَقَلبِي مِن ذَاكَ الوِدَادِ مُقَدَّدُ
9. وَفِي القَلبِ وُجدٌ وَاشتِيَاقٌ وَلَوعَةٌ ... لِفَقدِ غَزَالٍ كَامِلِ القَدِّ أَغيَدِ

1 – هذا العنوان من وضعي، توجد القصيدة مخطوطة بمكتبة مؤسسة الشيخ عمّي سعيد بغرداية، رقمها: د.غ/130.

2 – هذه "ابنة معبد" تغنّى بها طرفة في داليته، ولعلّه اقتبسها منه. يقول طرفة بن العبد:

فإن متُّ فانعني بما أنا أهلُه ... وشُقّي عليّ الجيب يا ابنة معبد

ديوان طرفة بن العبد، كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص33.

10. وَمَا هِيَ إِلاَّ زَينَبُ مُستَعَارَةٌ ... سَوَادَ العُيُونِ النُّجلِ مِن أُمِّ فَرقَدِ
11. لَهَا شَعرُ فَحمٍ أَثِيتُ مرجل، ... وِردفٌ ثَقِيلٌ، ثُمَّ صدرٌ مُهَنَّدِ
12. لَهَا الخَدُّ نُعمَانٌ زَهَى بِحَدِيقَةٍ ... وَجِيدٍ طَوِيلٍ باللَّآلِي مُقَلَّدِ
13. وَكَشحٍ لَطِيفٍ طَيُّهُ كَمَطَارِفَ ... وَكَفٌّ مُخَضَّبِ البَنَانِ مُمَرَّدِ
14. بَرَهرَهَةٍ خَرعُوبَةٍ لاَ مُفَاضَةٍ ... غَضِيضَةِ طَرفٍ بَضَّةَ المُتَجَرِّدِ
15. وَقَدْ طَالَ مَا قَدْ بِتُّ مُنتَظِرًا لَهَا ... وطِفتُ لِتَفتِيشٍ لَهَا كُلَّ مَشهَدِ
16. ظَفِرتُ بِهَا مِن بُعدِ مَا قِيلَ إِنَّهَا ... لَقَد قَطَنَت بَيتًا رَفِيعًا مُصَمَّدِ
17. وَكَلَّفتُ نَفسِي طَالِبًا لِمَقِيلِهَا[2] ... فَأَلفَيتُهَا تَحتَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ[1]
18. وَحَيثُ القِبَابُ البِيضُ تلمَعُ بالدُّجَى ... عَلَى رَوضَةٍ زَهرَا تَرُوحُ وتَغتَدِ
19. تَحُومُ نُفُوسُ العَاشِقِينَ بِسُوحِهَا ... فَمَا ظَفِروا مِنهَا بِبَلَغَةِ مُجتَهِدِ
20. مُمَنَّعَةٍ لَم تَألَفِ النَّاسُ سُوحَهَا ... لِكَونِ قُرَاهَا جَوهَرًا وزَبَرجَدِ
21. وَقَالَت: أَمَا يَكفِيكَ يَا صَبُّ رُؤيَتِي ... بِعَينِكَ دُونَ النَّاسِ طُرًّا فَقُلْ قَدِ
22. فَقُلتُ لَهَا: وَاللهِ يَا غَايَةَ المُنَى ... فَمَا اللَّحظُ دُونَ الوَلِ يَشفِي مِن الصَّدِ
23. وَمَا القِيلُ لِلعُشَّاقِ وَالقَالُ مُغنِيًا ... بِشَيءٍ عَنِ الوِصَالِ يَا بِنتَ مُحَمَّدِ
24. وَقَالت: أَنَا البَدرُ المُنِيرُ عَلَى الوَرَى ... فَهَل أَنتَ يا ابنَ الأَرضِ تَبلُغُ مُحتَدِ
25. فَقُلتُ لَهَا: إِنْ كُنتِ بَدرًا فَإِنَّنِي ... لَشَمسٌ عَلَت عَن كُلِّ بَدرٍ يَصعَدِ
26. وَيَكفِي عُذُولِي أَنَّنِي وَلِعٌ بِهَا ... فَحُبِّي لَهَا طَبعًا بِغَيرِ تَرَدُّدِ

1 – اقتباس من دالية طرف بن العبد وتمام البيت:

وتقصير يوم الدّجن والدّجن مُعجبٌ ... ببهكنة تحت الطّراف المُمدّد

نفسه، ديوان طرفة، ص33.

2 – المَقيلُ: مكان الإقامة. اللسان، ج11، حرف اللاّم، فصل القاف، ص536.

27. فَلاَ رَمَدَت عَينٌ تَرَى زَينَبًا بِهَا وَلَو لَحظَةً عِندَ الخَيَالِ بِمَرقَدِ
28. سَقَى رَبعَهَا الوَسمِيُّ هَطلاَنَ وَابِلاً أَجَشَّ سِمَاكِيًّا مَنُوطًا بِالأَسعَدِ
29. فَدَع يَا لِسَانِي وَصفَ مَا لَيسَ فَمَا كُلُّ مَن يَهوَى التَّغَزُّلَ يُنشِدِ
30. فَدَع زَينَبًا وَأُمَّ هَانِيءٍ وَعَزَّةَ وسلمَى وَلَيلَى ثُمَّ أَسمَاءَ تَهتَدِ[1]
31. وَسَلْ رَبَّكَ الصَّبرَ الجَمِيلَ مجاهِدًا لِنَفسِكَ وَالشَّيطَانَ طُرًّا وَاجْهَدِ
32. إِلَى اللهِ نَشكُو فِعلَ أَهلِ زَمَانِنَا كَفَى عِلمُهُ شَكْوَى بِمَن كَانَ مُفسِدِ
33. لَقَد هَدَمُوا مَعَالِمَ الدِّينِ كُلَّهَا وَصَارَ زَهُوقَ الرُّوحِ بِالرَّمسِ مُلحَدِ
34. أَبَاحُوا مَحَارِمَ الإِلَهِ بِأَسرِهَا عَلَى أَيدِهِمْ مَاتَت شَرِيعَةُ أَحمَدِ
35. فَتَعسًا وَتَبًّا ثُمَّ سُحقًا يَلِيهِمَا لِقومٍ جَفُوا عَضبًا[2] حَدِيدًا مُجَرَّدِ
36. كَفَى شرفًا للقَومِ أنَّ جُفَاتَهُم تَوَلَّوا أُمُورَ الدِّينِ فِي كُلِّ مَرصَدِ
37. وَقَد قَصَرُوا الدِّينَ القَوِيمَ بِنَفسِهِمُ مُرتَدِ وَفِعلِهُمُ بِالظُّلمِ وَالكُفرِ
38. وَبَغْيِهِمُوا للخَلقِ فَاشٍ وَذَائِعُ عَلَى وَجهِ أَرضِ اللهِ فِي كُلِّ مَشهَدِ
39. فَوَاعَجَبًا مِن زَائِغٍ يَبتَغِي الرَّدَى وَينمِي لِدِينِ اللهِ مَا لَيسَ يُحمَدُ
40. هَلِ القَتلُ ثُمَّ السَّبيُ وَالغَنمُ للذَّرَى يَجُوزُ بِمَن للهِ كَانَ مُوحِّدِ[3]
41. فَكَيفَ بِمَن فِي الدِّينِ كَان مُوَافِقًا بَعِيدًا هَانَ أَنَّ ذَا الكُفرِ مُعتَدِ

1 – هؤلاء ممّن تغنّى بهنّ الشعراء كثيرًا خاصّة الجاهليون وما الغزل الذي ساقه في الثلاثين بيتا هذه إلاّ نظم على طريقة الأقدمين، فمعظم قصائدهم مطلعها طلليٌّ أو غزلي ثمّ يليه وصف الحبيبة وديارها والرّاحلة لينتهي إلى الغرض الذي يريده في الأصل من نظمه تلك القصيدة، وأضيف هنا إلى أنّ الغزل جاء عند الشيخ للتنفيس عن الهموم الكثيرة.

2 – العضبُ: السيف.

3 – هذا تأكيد على ما ذكرته في التقديم، في أثناء الحديث عن وادي مزاب خلال القرن الثامن عشر الميلادي، من التخلف الفكري الذي كان منشؤه الجهل ومغذيه العصبية والحمية، حتى جنى على أهله ودويه.

42. وَأَيَّدَهُم بالكُفرِ بِالنَّفسِ وَالمَالِ بَعدَ ذَا، أَئِمَّةُ قَومٍ نَارُهُم تَتَوَقَّدُ[1]
43. قَدِ اتَّفَقُوا عَلَى الضَّلاَلَةِ كُلِّهِم كَبِيرًا صَغِيرًا جَاهِلاً مُتَعَمِّدِ
44. وَلَم تَتَّفِق عَلَى الضَّلاَلَةِ أُمَّةٌ أَعَزَّت نَفسَهَا إِلَى الكَرِيمِ مُحَمَّدِ[2]
45. فَهَذَا الذِّي قَد زَادَ لِلرَّأسِ شَيبَةً فَصِرتُ كَئِيبًا باللَّيَالِي مُسَهَّدِ
46. لَعَمرِي لَشَرُّ القَومِ قَومٌ رَأَيتُهُم بِيَسْجَنَ أَهلِ الخَنَى وَالتَّمَرُّدِ
47. قَطِيعُونَ أَرحَامًا، سَلِيطُونَ أَلسُنًا جَرِيمُونَ [أَفَّكُونَ][3] فِي كلِّ مَسجِدِ
48. خُيُورُهُم عقَارِبٌ وَشُرُورُهُم أَمَاحِي[4] الفَيافِي للخَلاَئِقِ تَرصُدِ
49. فَلَو أَنَّ لِيَ حُكمًا لَمَا بِتُّ لَيلَةً بِيَسْجَنَ ذِي اشتِقَاقِ سَجنٍ مُسَرمَدِ
50. فَمَن مَات فِيهِ مُستَرِيحًا بِمَوتِهِ وَمن عَاشَ فِيهِ يَلقَ مَا لَيس يُحمَدِ
51. فَهَذَا الذِي عَنِّيَ أَبعَدَ بُعْدَةً وَلِيدًا مَجِيدًا باللَّآلِي مُقَلَّدِ[5]
52. وَصَيَّرَهُ نَحوَ الجَزَائِرِ[6] غَادِيًا بِغَيرِ عَوِينٍ ثُمَّ مِن غَيرِ مَوعِدِ

1 – إشارة إلى العصبيات الجاهلية التي كان يُذكي نارها ويمدّ فتيلها أصحاب المصالح ومن يهوى الصيد في المياه العكرة، وطالما نشب خلاف بسيط بين شخصين يجمع بعد ذلك عرشين كاملين، في صراعات قد تطول لسنوات، وقد يموت خلال موسم واحد خلق كثير غدرًا في نزاعات قبلية، وقد ذكر الأستاذ الحاج سعيد يوسف _ولا أدري صحّة ذلك_ خلافا نشب بين عرشين بسبب اختلافٍ بسيطٍ على تسمية نوع من البقول المحلية المعروفة.
ينظر: الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزاب، ص72.

2 – إشارة أو اقتباس من حديث المصطفى ﷺ وتمامه: «إنّ أمّتي لا تجتمع على الضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسّواد الأعظم» عن أنس بن مالك، سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، دار الفكر، بيروت، 1998 حديث رقم: 3940، ص655.

3 – هكذا في الأصل، وهي: أفّاكُون، أي كثيروا الإفك.

4 – الأماحي: الأفاعي. اللسان، ج15، حرف الألف المقصورة، فصل الميم، ص269.

5 – هذا سبب غيظ الشيخ وصبُّه جامّ غضبه على قومه، فقد تحركت العاطفة الأبوية فيه لتبدي هذا السخط عليهم من سوء تصرفهم، وبالتالي فإن المبالغة في الهجاء كان لها دوافعها النفسية، من فقدان الابن العزيز ثم وفاته مريضا بعيدا عنه في الجزائر، وقديما قال ابن الرومي في رثاء ابنه:
أولادنا كالجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البيّن الفَقدِ

6 – الجزائر: لا يقصد العاصمة اليوم، إذ المشهور عند أهل الصحراء أنّ كلّ مسافر بعد مدن الهضاب يُعد مُتّجها إلى الجزائر، والابن استقرّ بالبليدة كما سبق ذكره.

53. بُنُوا يَسجَنَ مَا بَالُكُم قد سَـدَلتُم عَلَيَّ سُدُولَ الهَمِّ في اليَومِ وَالغَـد

54. وَكَيفَ وَكَيفَ تَصنَعُونَ بِفِعلِكُـمُ تُلُومُونَ عَبـدًا ذَا نِيـاطٍ[1] مُقَـدَّد

55. وأبْقَيتُمُـوا صَـبًّا فَرِيـدًا مُمَزَّقًـا وَحِيشًا وَحِيشًا باللَّيَـالِي مُـسَهَّد

56. بُنُوا يَسْجَنَ أنتُم هَـلاَكٌ لِـوَادِكُم وأضرَمتُمُوا فِيهِ اللَّهِيـبَ يُوَقَّـد

57. بنوا يَسْجَنَ أنـتم وُلاَةُ خَلاَئِـهِ بِـبَغيٍ وَخُـسرَانٍ بِغَـيرِ تَـرَدُّد[2]

58. أَمَنتُم سَبِيلَ الخَيرِ وَالدِّينِ والهُـدَى وأحيَيتُمُوا نَهجَ الخَنَـى وَالتَّمَـرُّد

59. لقد كُنتُمُوا لِلدِّيـنِ نُورًا وَزِينَـةً وصِرتُمُ لَـدَيهِ كَالخَيَالِ بِمَرقَـد

60. لَقَد كُنتُمُوا للدِّينِ قُطبًـا وَبَهجَـةً وَصِرتُم عَوِينَ الظُّلمِ فِي كلِّ مَشهَد

61. وَلم تَترُكُوا بَعدًا إلى الـشَّرِّ مَطلَبًـا سَدَدتُم سَبِيلَ الخَيرِ عَن كُلِّ مَـورِد

62. فَلِلَّهِ مِـن قَـومٍ تغَـيَّرَ حَـالُهُم بِإِفـكٍ وَشتمٍ بِاللِّـسانِ وَبِاليَـدِ

63. إذا سَمِعُوا عَنِّي بَـسَاءً تَطَيَّـرُوا بِهِ فَرَحًـا مُستَبـشِرِينَ حُفَّلَـدِ

64. وَإن سَمِعُوا عَنِّـي مَـسَرَّةَ نِعمَـةٍ تَعَامَوا وَصَمَّمُوا وَآتَـوا بِمُؤَبَّـدِ[3]

65. أَلاَ إِنَّهُم قَومٌ تَحامَوا عَلَى الـرَّدَى وَكَانُوا لأَهلِ البَغيِ مَلجَـأً يُقـصَد

66. أَلاَ إِنَّ عصرًا قَـد شَـهِدنَا بِبَغيِـهِ وَعِشنَا بِهِ عَيشًا بِجُهـدٍ مُؤَيَّـد[4]

1 – النِّياط: عرق علّق به القلب من الوتين فإذا قُطع مات صاحبه. اللسان، ج7، حرف الطاء، فصل النون، ص472.

2 – لن تعدم هذه البلدة من الصّالحين وإلاّ لما أبصر العلم والحقّ طريقه بعد ذلك مع قطب الأئمّة الشيخ أطفيش. وإنّما كثرة الهمّ والغمّ وفقدِ الابن أثّرا سلبًا على نفسية الشيخ هذا مع عِظَم المسؤولية المُلقاة على عاتقه وتعنُّتِ الأشرار في سبُل الفساد، أضف إلى ذلك كِبر سنّه، وذكر لي الحاج سليمان بكاي قيّم مكتبة الاستقامة من جملة ما ذكر عن مسيرة الشيخ وما كان يلاقيه من الأذى والظُّلم مع كِبر سنّه قصصًا لا يسع المجال لذكرها هنا كلها... تدل على تجدّر الجهل.

مقابلة مع الحاج سليمان بكاي بمكتبة الاستقامة، بني يسجن بتاريخ: 23 مارس 2005م.

3 – هذان البيتان يدعمان قولي وما نسبته إليه من كدرِ الخاطرِ مع تقدُّم السنّ، وقلة المُناصِر والرَّفيق.

4 – لا شكّ في ذلك العصر وكيف تكالب النّاس على بعضهم البعض حين تمسّكوا بالدّنيا الفانية وتركوا سبيل الحقّ والعلم.

67. أَجَارَ عَلَينَا حِـينَ فَـرَّقَ بَينَنَـا وَبَينَ الوَلِيدِ، يَنـأَ عَنِّـي ويبعُـدِ

68. أَلاَ يَا غُـرَابَ البَينِ بِـاللهِ بَلِّغِـي سَلامِي وتَسلِيمِي لابْنِـي مُحمَّـد

69. أَسرِبَ القَطَى هَل فِيكُم مَن يُعِيرُ لِي جَنَاحًا لَعَلَّنِي نَـرُوحُ وَنَغـتَدِ

70. إِلَى سَاحَةِ الوِلـدَانِ نَحو جَزِيـرَةٍ نُرَوِّي عَلِيلَ النَّفسِ طَورًا وقُل قَـدِ

71. عَلَيكُم سَلامُ اللهِ يَا غَايَـةَ المُنَـى عَلَيكُم سلامُ اللهِ فِي اليَومِ وَالغَد[1]

72. عَلَيكُـم سَلامُ اللهِ فِي كُلِّ سَـاعَةٍ سَلامًا كَصَونٍ فِي صَـفَاءٍ مُمَـرَّد

73. عَلَيكُـم وَإِن طَالَ البِعَادُ سَـلاَمُنَا سَلاَمًا كَعَنبَرٍ وَسَـمطٍ وَزَبَرجَـد

74. صَلاَتِي وَتَسلِيمِي عَلَى خَيرِ مُرسَلٍ نبيٍّ مُفَضَّـلٍ شَـرِيفٍ مُمَجَّـد

75. وَآلٍ لَـهُ مِن بَعـدِهِ ثُمَّ صَـحبِهِ وَكُـلٍّ تَـقِيٍّ ذِي وِجَـاهٍ مُجَـرَّد

76. دَوامَ بَقَـاءِ النَّـاطِقِينَ بِقَولَنَـا أَكَامِلَةَ الحُسنِ البَـدِيعِ تَجَـلَّـدِ

1 – لا تعدو هذه القصيدة أن يَكون الباعث إلى كتابتها الشوق المبرّح إلى الابن الغائب، فكانت متنفّسًا لهمّ وكربٍ، والراجح أنها جاءت أيّامًا بعد رحيل الابن إلى البليدة.

قصيدة البُردة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وسلّم تسليمًا

الحَمْدُ لله الذي أَلْهَمَنَا اختزالَ النَّظمِ من الكَلِمِ المنثُورِ، وَأَفَاضَ عَلَينَا سجَالَ تركيبِ الألفاظِ منَ الرِّقِّ المنشُورِ، والصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ على من سَبَقَت عنايَتُهُ قبل الوجودِ في الكتابِ المسطُورِ، سيِّدنا وَمَولاَنَا ونَبيئنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ، مَا سَبَّحَ الفُلكُ في البَحْرِ المَسجُورِ، وبعد فقد هَمَمتُ بمُضيّ أن أسبِكَ في قالب البُردَة[1] السبيكة من الوديلة، وأن أنسج على منوالها قصيدة محويّة على الثناء للباري سبحانه ولخير البريّة، فعاقني عن ذلك أمرٌ بعد أمرٍ، حتّى طويتُ عنه كشفًا، ومنَعَني عنه شغلٌ بعد شغلٍ حتّى ضَربتُ عن أثرِه صفحًا، فاندرس منّي ما تعلّمته في صِغَرِي فصارَ شَجرة بلا ثمرٍ، وانطَمَسَ ذلكَ كلّ الانطماسِ، فعَادَ جَدالة[2] بلا أثرٍ، ثمّ إنّ الله سُبحانه قدّر لي بعد مُضيِّ مدّة طويلة في المنامِ خيالاً قد رأيتُهُ في شأن بيتِ الله الحرامِ، وألبسني به من الغرامِ سربلاً، وإنّ في رؤيتي له لعجبا، وَلِكُلِّ شيءٍ قد جعل الله له سببًا، فاختلست لِما همّني أوّلا من الزمان فرصة فانتهزتها وجدَّدتُ لعهدِهِ القديم من الليل آونةً، فأفرغتُ في قالب النظمِ اللؤلؤةَ المنظُومة، وأسكبت في خاتم الرَّصفِ الدُّرة المكنونةَ قصيدة قد اشتملت على ثناء الله تعالى ببعض أسمائه الجليلة، وصفاته الكريمة، وأفعاله الجميلة، وعلى سيدنا ومولانا محمد ذي النِّسمَة القُدسيَّة، وعلى آله ذوي النُّفوس الزَّكيَّة، وأصحابه ذوي الخصال الحميدة، رجاءً من الله سبحانه جزيل الأجرِ، وغفران ذُنوبِي وذُنوبَ من صلَحَ من والديَّ وأشيَاخِي وعامَّةِ المُسلمين والمسلمات ببركةِ

1 – يقصد نضمها على منوال بردة البوصيري.

2 – الجدلُ: الفَتلُ. اللسان، ج11، حرف اللاّم، فصل الجيم، ص102.

صاحبِ الكوثر، وقد صَدَرَ ذلك منّي مع كثرةِ الأشغالِ والدَّعَاوِي، وجُمُودِ فِطنتي وخُمُودِ قَريحَتِي، وقِلّةِ بضاعتي، وَلَمَّا أَنّي ما رأيت أحدًا من السَّلف الصالح ــرحمهم اللهــ حامَ حول هذا الشَّأن وأشار إليه إشارةً مَا وَلو بالبَنَان[1] فقلت بعد بسم الله الرحمن الرحيم: (بحر البسيط)

1. إِنِّي رَأَيتُ خَيَالَ البَيتِ وَالحَرَم ... في لَيلةٍ من لَيَالِ الأَشهُرِ الحُرُمِ
2. بِتُّ لِذَاكَ الخَيَالِ سَاهِرًا بِهَوًى ... والجسمُ في سقمٍ والقَلبُ في ضَرَمِ
3. فَفَاضَ عَينِي بِدَمعٍ وَابِلٍ سَجِمٍ ... حَرٌّ بِخَدِّي قد مَزَجتُهُ بِدَمِ
4. كَفَفتُ دَمعِي فَلم تَقلَع سَحَائِبُه ... دَويتُ قَلبِي فلم يَشفَ من السَّقَمِ
5. يا عَاذِلِي في الهَوَى للبيتِ مَعذِرَةً ... يكفيكَ مِنِّي بِمَا شَهِدتَ مِن أَلَمِ
6. أَخلَصْتَ نُصحًا إِلَيَّ لستُ أَسمَعُهُ ... هَيهَات هيهاتَ أن أَصغَى لِمُتَّهِمِ
7. فَظَنَّ مِنّي قَبُولَ النُّصحِ قُلتُ له: ... إِنِّي عن إِصغاءِ للوُشَاةِ فِي صَمَمِ
8. فَقَائِلٌ قَال لي: أَصبِر، قلتُ له: ... أَعُوذُ بالله ليس الصَّبرُ من شِيَمِ
9. وقائلٌ: كيف حالُ القلبِ؟ قلتُ: وقائلٌ: كيف حالُ الطَّرفِ؟ قلت:عَمِ!
10. وقائلٌ: كيف حال الوُجدِ؟ قلت له: إِنِّي شَغَفتُ بِبَيتِ الله والحَرَمِ
11. إن تُنكِرِ الحُبَّ للبيتِ فَقَد شَهِدَت ... عَلَيكَ مِنكَ عُدُولُ الدَّمعِ والسَّقَمِ
12. عَهدِي قريبٌ به إن مُدَّ فِي عُمُرِي ... وَحَقَّقَ الله ما فِي القَلبِ مِن هِمَمِ
13. فإنَّ لي هِمَّةٌ بالله عزَّ عَلا ... تَسمُو وَتَعلُو عُلُوَّ النَّجمِ والعَلَمِ[2]

1 – فعلاً لا يوجد فيما بين أيدينا إلى اليوم من أهل مذهب الشيخ (أعني الإباضية)، من نَظَم في فنّ البردة قبله أو سبقه إلى شرحها قبله، بل فعل مثله قطب الأئمة الشيخ بن يوسف أطفيش بعده بعقود.

2 – مثال رائع في علوّ الهمّة واليقين، وهو من خصال المؤمن الصادق.

14. صَرَفتُ تِلقَاءَ مَدِيَنَ[1] لَها فَرَسِي ... فَقُلتُ فِي حَقِّ رَبِّيَ الوَاحِدِ الحَكَم

15. إليكَ حمدٌ إلآهِي جلَّ عن مَثَلٍ، ... رَبُّ الخلائقِ ذُو العزَّةِ والحِكَم

16. اللهُ مولانا عَزَّ ذِكرُهُ وَسَمَى ... أحلَى على ألسِنَةٍ من عَسَل بِفَم

17. إلهُنا واجبُ الوُجودِ مُنفَرِدٌ ... مُخالفٌ للذَّوات ثابتُ القِدَم

18. بَاقٍ عزيزٌ حكيمٌ أوَّلٌ آخرٌ ... بَرٌّ رَؤُوفٌ لطيفٌ غافِرُ اللَّمَم

19. حقٌّ إلهٌ عليمٌ قادرٌ صمَدٌ ... حَيٌّ سميعٌ بصيرٌ بارئُ النَّسَم

20. مُهيمِنٌ مُومِنٌ مُقَدَّسٌ بَطِنٌ ... فَردٌ سلامٌ حكيمٌ باعثُ الرِّمَم

21. حقٌّ إلاهٌ عَلِيمٌ قادرٌ صَمَدٌ ... مُعطي وَدُودٌ كَرِيمٌ باسِطُ النِّعَم

22. عَدلٌ مُريدٌ جليلٌ شأنُهُ مَلِكٌ ... ربٌّ حميدٌ رَقِيبٌ رَازِقُ النِّعَم

23. نورٌ خَبِيرٌ حفيظٌ مانِعٌ أحَدٌ ... عالٍ ودُودٌ مُحيطٌ باسِطُ النِّعَم

24. والٍ كبيرٌ وكيلٌ خافضٌ مَجِدٌ ... هادٍ شكورٌ رفيعٌ واسعُ الكرمِ

25. مُعطِي قويٌّ عظيمٌ جامعٌ متِنٌ ... مُحصِي حَسيبٌ مُقيتٌ كاشِفُ الظُّلم

26. مُبدِي مُعيدٌ مُحِيطٌ نافعٌ رحِمٌ ... ضَارٌ شهيدٌ غنيٌّ خالقُ الأُمَم

27. مُحيِي مُميتٌ مُجِيبٌ مُقسطٌ وَرِثٌ ... مُصَوِّرٌ مُبدِعُ الكونِ من العَدَم

28. نِعمَ النَّصيرُ ونعمَ اللهُ خالقُنَا ... عزَّ وَجلَّ عن القَرِينِ في الحِكَم

29. رَبٌّ مُعِزٌّ عفُوٌّ قائمٌ ظهِرٌ ... جبَّارٌ حالِي وَهُوبٌ لِي بِلا نَدَم[2]

30. ربٌّ مُذِلٌّ عزيزًا، فاتحٌ سبُلاً ... وقَاهِرٌ للعباد، ساترًا حُرَم

1 – لاحظ تأثره بأسلوب القرآن الكريم، فهو تارة يقتبس وأخرى يُضمّن وهكذا..

2 – هذه الأبيات يُحصي فيها الشيخ أسماء الله الحسنى بوصف بديع، وهو ما دعاه بعد ذلك لشرحها في كتاب خاص، سماه: الجواهر الثُّمينيَّة على المنظومة الميميَّة.

31. حشاهُ ثم حشاهُ أن يَكون لهُ ... كُفُوٌّ شبيهٌ، تعالى اللهُ عن حُرَم

32. منزَّهٌ عن شريكٍ في عبَادتِهِ ... وفي كمَالاتِهِ وصُنعِهِ القَيِّم

33. فَذَاتُ مولايَ لا يُدركُها بَصَرٌ ... دُنيًا وأُخرَى ولم تَرَ ولم تُرَم

34. فكيفَ يبلُغُ كُنهَ ذَاتِهِ أحَدٌ ... قد حارَ في نَفسِهِ الوَسِيمِ باللِّمَم

35. أم كَيف تُدرَكُ وهوَ لا نَظيرَ لهُ ... سُبحانهُ جَلَّ عن مَقالَةِ الخَصِم[1]

36. لا تخفى عن علمه بعوضةٌ صغُرَت ... كَحَبَّةٍ خردلاً في حَالكِ الظُّلَم

37. بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ أزلاً أبدًا ... بِكُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ خَالِقُ الأُمَم

38. بِمُطلَقِ المُمكِنَاتِ كلِّها صلُحَت ... تَعلُّقًا قُدرَةُ المُصوِّرِ النَّسَم

39. فَقُدرَةُ اللهِ بالمُحدَثِ صالِحَةٌ ... وفقَ إرادَتِهِ للجِلِّ واللَّمَم

40. مدبِّرٌ لأُمورٍ لا مَرَدَّ لها ... سُبحانَهُ من إلهٍ مُولِي النِّعَم

41. فَلَن تَجِد أبدًا في مُلكِهِ خلَلاً ... فانظُر بِعَقلِكَ ما في الخلقِ من حِكَم

42. لَهُ التَّصرُّفُ كَيفَ شاءَ في خَلقِهِ ... تَعالى عن سِنَةٍ فَضلاً عَن أن يَنَم[2]

43. وَكُلُّ شَيءٍ على الإطلاقِ فهُو لهُ ... حقيقةً، شاهدٌ بالواحِدِ الحَكَم

44. قَد أبدَعَ الخلقَ وَالسَّمَاءَ زيَّنَهُ ... بِنَيِّرٍ ثاقِبٍ غَيَاهِبِ الظُّلَم

45. أسقى مَهَامِهَ غُبرًا مَيتًا بَلَدًا ... بالجَوْنِ دانٍ ربابُهُ وبالدِّيَم

1 – تأكيد وإشارة من الشيخ إلى اعتقاد مذهبه الإباضي الذي ينفي رؤية الله في الدنيا والآخرة.
ينظر بتفصيل أكثر: عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية. نشر جمعية التراث، القرارة، ط1، 1989، ص68.

2 – تضمين لقوله تعالى في آية الكرسي . ﴿لا تأخذه سنةٌ ولا نوم...﴾ البقرة: 255.

46. من هيكلٍ مشرفٍ مَاءً قَد أنزَلَهُ عَذبًا فُراتًا لِكُلِّ شَارِبٍ بِفَم
47. أخرَجَ بِالمَاءِ أثمَارًا قَد اختَلَفَت أَلوَانُهَا كاختِلاَفِ الزَّهرِ بِالأَكَم
48. يُنشِي الثِّمَارَ بِهِ، وَالبَعضُ فَضَّلَهُ منهَا عَلَى البَعضِ عِندَ الأَكلِ للنَّهَم[1]
49. يُرسِي الجِبَالَ وَيُبدِي دَائِمًا شَأنًا بِكُلِّ يَومٍ، ويُحيِي دَارِسَ الرِّمَم
50. يُغنِي الذِّي قَد أَرَادَ فَقرَهُ وَكَذَا مَن شَاءَ يُغنِي، وَيُعطِيهِ بِلاَ نَدَم
51. مَا بِالسَّمَاءِ العُلَى للخَلقِ سَخَّرَهُ مِنَ النُّجُومِ، وَمَا فِي الأَرضِ مِن نَعَم
52. مَن شاءَ يَغفِر لَهُ بِفَضلِهِ وَكَذَا مَن شَاءَ عذَّبَهُ، بِعَدلِهِ القَيِمِ
53. يَكفِيكَ مِنكَ عَلَيكَ ءايَةٌ شَهِدَت بِالانفِرَادِ لِذِي الجَلاَلِ وَالكَرَم
54. هَذَا وَإِنَّ صَنِيعَ اللهِ لَيسَ لَهُ حَدٌّ فيُفصِحَ عَنهُ نَاطِقٌ بِفَم
55. رَبِّي عَلَيكَ اعتِمَادِي لاَ عَلَى أَحَدٍ فِي مَدحِ أَحمَدَ خَيرِ العُربِ وَالعَجَم
56. مُحَمَّدٌ ابنُ عَبدِ اللهِ خَيرُ نَبِيٍّ عَدنَانَ جَدِّ قُرَيشٍ سَادَةِ الحَرَم
57. مُحَمَّدٌ سَيِّدٌ فَاللَّهُ شَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ سَمِيًّا يَسمُو عَلَى العَلَم
58. مُحَمَّدٌ حامِدٌ وَفَضلُهُ انتَشَرَا فِي سُورَةِ الحِجرِ وَالأَحزَابِ وَالقَلَم
59. مُحَمَّدٌ خِيرَةُ اللَّهِ عِنَايَتُهُ قَبلَ الوُجُودِ جَرَت فِي اللَّوحِ بِالقَلَم
60. مُحَمَّدٌ صَفوَةُ اللهِ وَحَبَّ بِهِ مُحَمَّدٌ قَائِدٌ للخَيرِ ذُو الكَرَم
61. مُحَمَّدٌ زِينَةُ الدُّنيَا وَضَرَّتُها مُحَمَّدٌ خَيرُ خَلقِ اللهِ كُلِّهِم
62. أعلَى الوَرَى حَسَبًا أفضَلُهُم نَسَبًا مُحَمَّدٌ هُوَ أوفَى النَّاسِ فِي الشِّيَم

1 – اقتباس من الآية الكريمة من سورة الرعد. ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنّات من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل، إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾. الرعد: 4.

63. بِالفَضلِ مُنتَظِمٍ بِالصِّدقِ مُلتَزِمٍ بِالحَقِّ مُنتَصِرٍ، بِالبِشرِ مُتَّسِم
64. بِالدِّينِ مُستَبشِرٍ، بِالحُسنِ مُشتَمِلٍ بِالسَّيفِ مُعتَصِمٌ لِلحَربِ مُحتَزِم
65. كَالوَردِ فِي تَرَفٍ، وَالدُّرِّ فِي صَدَفٍ وَالبَدرِ فِي شَرَفٍ وَالبَحرِ فِي كَرَمِ
66. كَالنَّجمِ فِي غَسَقٍ، وَالشَّمسِ فِي أُفُقٍ وَالزَّهرِ فِي بُرعُمٍ، وَالدَّهرِ فِي هِمَم
67. فَاقَ النَّبِيئِينَ فِي عِلمٍ وَفِي كَرَمٍ وَلَم يُدانُوهُ فِي حِلمٍ وَفِي حِكَم
68. وَكُلُّهُم مِن بُحُورِ عِلمِهِ اغتَرَفُوا غُرفًا أوِ ارتَشَفُوا رَشفًا مِن الدِّيَم
69. فَإِنَّهُ قُطبُ فَضلٍ هُم دَوَائِرُهُ وَبَدرُ تَمٍّ وَهُم كَوَاكِبُ الظُّلَم
70. لَكِنَّهُم خِيرَةُ اللهِ العَزِيزِ فَمَا فَضلُ النَّبِيءِ عَلَيهِمُ ضَائِرًا بِهِمُ
71. كَالدُّرِّ يَزدَادُ حُسنًا وهو مُبتَهِجٌ إن كَانَ مُنتَظِمًا أو غَيرَ مُنتَظِم
72. نَعَم وَقَلبِي شَدِيدُ الوُجدِ ذَا شَغَفٍ بِذِكرِ مَن هُوَ أوفَى الخَلقِ فِي الذِّمَم
73. السَّيِّدِ المُصطَفَى الطَّاهِرُ الشِّيَم المُفَخَّمُ المُجتَبَى الطَّيِّبِ النِّسَم
74. هُوَ السَّفِيطُ وكُلُّ الفَضلِ حَازَ عَلَى كُلِّ نَبِيءٍ وَفَازَ بِأَوضَحِ اللُّقَم
75. هُوَ الذِّي هُوَ فَردٌ فِي جَلاَلَتِهِ هُوَ الذِّي لَيسَ بِالغَيبِ بِمُتَّهَم
76. مُزَمِّلٌ كَرَمًا، مُدَثِّرٌ شَرَفًا مُسَربَلٌ رِفعَةً، مُقَدَّسُ الهِمَم
77. مُتَمَّمٌ صُورَةً، مُطَهَّرٌ شِيَمًا حَتَّى غَدَا فِي الوَرَى كَالمُفرَدِ العَلَم
78. سَمحُ الخَلاَئِقِ، جُودُ الكَفِّ بَاسِطُهُ سَهلُ المَكَارِمِ، طَيِّبُ الفِعلِ وَالشِّيَم
79. فَقَد فَشَى ذِكرُهُ فِي الخَلقِ وَانتَشَرَا وَقَدرُهُ قَد عَلاَ فِي الأَرضِ كَالعَلَم
80. قَد كَانَ أخوَفَ خَلقِ اللهِ وَأكمَلَهُم بِهِ، وَأعلَمَهُم بِاللهِ ذِي النِّعَمِ
81. فَانسُب إِلَى مَجدِهِ ما شِئتَ مِن كَرَمٍ كَالبَحرِ مَا شِئتَ قُل فِيهِ بِلاَ سَأَمِ

82. فَعَدُّ قَدرِهِ لاَ يُحصَى لوَاصِفِه ... وَنَيلُ جودِهِ فِي نِهَايَةِ العِظَم
83. أرسَلَهُ رَبُّنَا رُحمًا لأُمَّتِه ... بالحَقِّ ثُمَّ الهُدَى وَدِينِهِ القَيِم
84. نِعمَ الرَّسُولُ وَنِعمَ اللهُ مُرسِلُهُ ... نِعمَ النَّبِيُّ نَبِيءُ الخَيرِ وَالكَرَم
85. أَتَاهُ جبرِيلُ مِن عِندِ الرَّحِيمِ بِنَا ... بِمُحكَمِ الذِّكرِ وَالآيَاتِ وَالحِكَمِ
86. آيَةُ صِدقٍ مِنَ الرَّحمَانِ مُعجِزَةٌ ... مَوصُوفَةٌ بِحُدُوثِ المَعنَى وَالكَلِمِ
87. مَقرُونَةٌ بِزَمَانٍ قَد تَحَدَّ بِهَا ... إلآهُنا فُصَحَاءَ الحِلِّ وَالحَرَم
88. قَد حدَّهُم ربُّنا بمثلِ سُورِها ... فَعجَزوا عَمَهًا عُميًا بِلا خَصَم
89. رَدَّت فَصاحَتُها دَعوَى مُعَارِضِها ... مِن مِصقَعِ النَّاسِ مِن عُربٍ وَمِن عَجَم
90. فَلِجزَالَتِهَا وَلِبَلاَغَتِهَا ... تُعطِي لِقَارِئِهَا مَعنًى بِلاَ سَدَمِ
91. وَكُلُّهَا لِنَبِيءِ اللَّهِ مُعجِزَةٌ ... فَاقَت عَلَى مُعجِزَاتِ الرُّسلِ لِلأُمَمِ
92. هُوَ النَّبِيءُ الذِي قَد كَانَ مَولِدُهُ ... بِبَطنِ مَكَّةَ عَامَ الفِيلِ[1] فِي الحَرَم
93. عَامَ أَتَى الحَبَشِيُّ فِيهِ أَبرَهَةٌ[2] ... يُرِيدُ هَدمًا لِبَيتِ اللهِ ذِي الحُرَمِ
94. دمَّرهُ اللهُ حَيثُ عَادَ مُنهزِمًا ... بِالطِينِ قَد طُبِخَت بِالنَّارِ حِينَ رُمِي
95. فِي يَومِ الاثنَينِ قَد جَاءَت بِشَارَتُهُ ... بِطَيبِ عُنصُرِ بَدئِهِ وَمُختَتَمِ
96. كَهَانَةٌ أَخبَرَت بِنُورِ مَولِدِهِ ... قَومًا ذَوِي عَمَهٍ وهُم ذَوُوا صَمَمِ
97. لفَارِسِ فُرسِ آيَاتُهُ ظَهَرَت ... حَقًّا قد ارتَجفُوا البُؤسِ وَالنِّقَمِ
98. وَبَاتَ كِسرَاهُمُو لِصَدعِ دَولَتِهِ ... وَهَدمِ إِيوَانِهِ فِي الغَمِّ وَالسَّقَمِ

1 – هكذا في السيرة، كان مولد رسول الله عام الفيل، حين أقدم أبرهة الأشرم من اليمن بالفيل "محمود" ليهدم الكعبة المشرفة، والقصّة مبثوثة في كتب السيرة، وقد نزل في شأنها قرآن يُتلى في سورة الفيل.

2 – أبرهة الأشرم ملك اليمن الحبشي، حاول هدم الكعبة عام 571م مستخدمًا الفيلة في القتال، وسمّي ذلك العام بعام الفيل، وبه يؤرّخ لمولد الرسول.

99. وَنَهرُهُ سَكَنت وَنَارُهُ خَمَدت ... من بَعدِ ألفِ سنينَ وَهيَ فِي ضَرَم
100. وَأَهلُ سَاوَةَ إِذ غَارَت بُحيرَتُهَا ... بَاتُوا بِجَهلِهِمُ فِي الغَيظِ وَالسَّدَم
101. وَالجِنُّ تَزعَقُ رُعبًا كُلُّ نَاحِيَةٍ ... وَالشُّهبُ تَنقَضُّ غِبَّ كُلِّ مُنهَزِم
102. وَكُلُّ ذَلِكَ تَحقِيقٌ لِنُبُوَّتِهِ ... وَنُورِ مِيلادِهِ الثَّاقِبِ كَالعَلَم
103. قَد فُضَّ مِنه بِغَيرِ الاختِلاَلِ بِهِ ... صَدرٌ زَكِيٌّ عَنِ المَعبُودِ لَم يَنَم
104. فَغَسَلَ القَلبَ مِنهُ وَهوَ فِي صِغَرٍ ... ثَلاَثَةٌ قَبلَ أَن مُلِّأَ بِالحِكَم
105. أَتَت لِتَصدِيقِهِ الأَشجَارُ حِينَ دَعَى ... لَهَا ذُلُولاً عَلَى سَاقٍ بِلا قَدَمِ
106. تَسعَى لِحَاجَتِهِ فِي الاستِتَارِ بِهَا ... سَعيَ الحَجِيجِ بِبَيتِ اللهِ وَالحَرَمِ
107. قَد نَسَجَ العَنكَبُوتُ وَالحَمَامُ عَلَى ... غَارٍ وَطَرفٌ مِنَ الكُفَّارِ عنهُ عَمِ
108. وَأَنبَتَ اللهُ بِالغَارِ لَهُ شَجَرًا ... كَأَنَّهُ لَم يَكُن بِالغَارِ مِن إِرَمِ[1]
109. بِبَطنِ رَاحَتِهِ قَد تَسَبَّحَت، وَرَمَى ... حَصًى بِيَومِ حُنَينٍ[2] طَرفَ مُنهَزِم
110. كَذَا بِبَدرٍ[3] وَفِيهِ ثَمَّ فِي أَمكِنَةٍ ... أَمَدَّهُ اللهُ بِأَملاَكٍ ذَوِي كَرَم
111. أَحيَ المَوَاتَ، وَبَعضُ الطَّيرِ كَلَّمَهُ ... وَالجِدعُ حَنَّ وَلاَنَ الصَّخرُ لِلقَدَمِ
112. الظَّبيُ صَدَّقَهُ وَالطَّيرُ كَلَّمَهُ ... كَذِرعٍ مَسمُومَةٍ فِي أَكلِهِ بِفَمِ
113. وَفِي كَلاَمِ الحِمَارِ وَالبَعِيرِ لَهُ ... ءايَةُ حَقٍّ مِنَ الرَّحمَنِ ذِي النِّعَمِ
114. أَروَى الأَنَامَ بِمَاءٍ مِن أَصَابِعِهِ ... فِي غَيرِ مَا مَرَّةٍ كَالصَّوبِ بِالعَرِمِ

1 – يريد كأن لم يكن قد نبت منذ حقبٍ طويلة كعهد إرَمَ ذاتُ العِمَادِ. وهي كناية عن القِدم.

2 – حنين: واد قرب مكّة، يريد غزوة حنين وما شاهد فيه الصحابة من كرمات نبينا عليه السلام.

3 – بدر: موضع ماء مشهور بين مكّة والمدينة. منه إلى المدينة سبع بُرُدٍ، حيث شهد يوم الفرقان والغزوة الكبرى. ينظر: معجم البلدان، ج1،ص284. ويقصد الغزوات وليس الأماكن. إذ قوله اليوم هو الموقعة.

115. كَم أبرَأت يدُهُ باللَّمسِ من وَصَبٍ ... وَدَعوَةٍ أحيَت الشَّهبَاءَ بالدِّيَم

116. وَكَمْ وَكَمْ مِنَ آيَاتِ السَّمَاءِ لَهُ ... قَد أخرَقَت عَادَةً لِلعُربِ وَالعَجَمِ

117. فَلاَ تُعَدُّ وَلاَ تُفنَى خَلاَئِقُهُ ... وَلاَ عَجَائِبُهُ فِي الحُكمِ وَالحِكَمِ

118. مُحَمَّدٌ ضَيغَمٌ مُحَمَّدٌ أَسَدٌ ... لَيثٌ تُهَابُ لَهُ أُسَامَةُ الحَرَمِ

119. غَضنَفَرٌ لِبِدٌ مُقَذَّفٌ بَطَلٌ ... ذِمرٌ بِسَهمٍ رَمَى جَمَاجِمَ البُهَمِ

120. بِالسَّيفِ يَومَ الوَغَى أَبَانَ هَامَ عِدًى ... بِالبِيضِ قَد قَامَ فَتكًا سَاحَةَ القِمَمِ

121. لَيثٌ، لُيُوثُ الصَّفَى إن تَلقَهُ بَسِلاً ... فِي كُلِّ حَربٍ وَفِي آجَامِهَا تَجِمِ

122. أَزَالَ بِالرُّمحِ كُفرَ الكَافِرِينَ بِهِ ... مِن كُلِّ قَومٍ يُرِيدُ نُصرَةَ الصَّنَمِ

123. فَقَد غَزَى سَبعَةً وَعَشرَةً وكَذَا ... عَشرًا بِذَاتِهِ ذَاتِ المَجدِ وَالكَرَمِ

124. فَسأَل بِهِ خَندَقًا[1] وَاسأَل بِهِ أُحُدًا[2] ... وَاسأَل حُنَينًا وَبَدرَ البُوسِ وَالنِّقَمِ

125. وَاسأَل بِهِ خَيبَرًا[3] وَاسأَل حُدَيبِيَةً[4] ... بِالفَتحِ أَسقَى قُرَيشًا أَلَمَ الوَغَمِ

126. فَاثنَتَا عَشرَةٌ كَانَت لَهُ امرَأَةً[5] ... خَدِيجَةُ، عَيشَةٌ، أُمُّ ذَوِي السَّلَمِ

127. فَحَفصَةٌ زَينَبَانِ سَودَةٌ وَكَذَا ... صَفِيَّةُ بِنتُ حُيَيٍّ سَيِّدِ العَجَمِ

128. رَيحَانَةٌ، رَملَةٌ، وَمَيمُونَةٌ وَكَذَا ... هِندٌ جُوَيرِيَةُ طَيِّبَةُ الشِّيَمِ

129. فَقَاسِمٌ، زَينَبٌ، فَبَعدُ أُرقَيَةٌ ... فَاطِمَةٌ طَيِّبٌ وَطَاهِرُ النَّسَمِ

1 – الخندق: الذي حفر حول المدينة، برأي من سلمان الفارسي لصدّ هجوم الأحزاب. معجم البلدان، ج2، ص250.

2 – أحد: الجبل حيث وقعت الغزوة، جبل أحمر بينه والمدينة قرابة الميل شمالا. معجم البلدان، ج1، ص95.

3 – خيبر: حصن على ثلاث بُرُدٍ من المدينة في الطريق إلى الشام تحوي ثمان حُصون ومعناها بالعبرية الحِصن، معجم البلدان، ج2، ص263.

4 – الحديبية: قرية صغيرة، سمّيت ببئر هنالك عند مسجد الشجرة، بينها ومكّة مرحلة، وبينهما والمدينة تسعة مراحل. معجم البلدان، ج2، ص126.

5 – يقصد من هنّ في عصمته أي زوجاته.

130. وَأُمُّ كَلثُومٍ مِن خَدِيجَةٍ وَلَهُ ... بُرَيهِمٌ سَيِّدًا مِن أَحسَنِ الخَدَمِ

131. خَلِيفَةٌ بَعدَهُ خَيرُ صَحَابَتِهِ ... ثَانِيهِ[1] بِالغَارِ حَقًّا وَافِيَ الذِّمَمِ

132. وَبَعدَهُ عُمَرُ الفَارُوقُ قَد ثَبَتَت ... لَهُ مُوَافَقَةُ القُرآنِ فِي الحِكَمِ

133. فَالصَّحبُ بَعدُهُما، إنَّ مَعَارِكُهُم ... سُودٌ وحُمرٌ نِصَالُهُم مِنَ النِّقَمِ

134. للَّهِ هُم ما هُمُ وهُم بِيَومِ الوَغَى ... لُيُوثُ حَربٍ، وَأَبطَالٌ ذَوُوا قَشَمِ

135. فِي اللهِ قَد جَاهَدُوا للحَربِ مَا جَمَعُوا ... بِالبِيضِ قَد فَتَكُوا جُمَّةَ كُلِّ كَمِ

136. كَأَنَّهُم زَهرُ رَوضَةٍ عَلَى فَرَسٍ ... يومَ قِرَاعِ العِدَى بِالسُّمرِ فِي القِمَمِ

137. عَالِيهِمُ حُلَلُ القَنَى مُطَرَّزَةٌ ... بِحُمرَةٍ من دَمٍ كَحُمرَةِ العَنَمِ[2]

138. فَكَم وَكَم وَقعَةٍ عَاشَت بِلَحمِهِمُ ... فِيهَا الضَّوَارِي مِن السِّبَاعِ وَالرُّخَمِ

139. فَلاَ يَخَافُونَ فِي سَبِيلِ رَبِّهِمُ ... ملامَةً مِن لَئِيمٍ مِن ذَوِي الرَّحِمِ

140. لاَ يَفخَرُونَ بِمَالٍ لاَ وَلاَ ... بَل يَفخَرُونَ بِتَقوَى اللهِ ذِي النِّعَمِ

141. جُفُونُهُم قَد تَجَافَت عَن مَضَاجِعِهِم[3] ... فِي طَاعَةِ اللهِ ذِي الجَلاَلِ وَالكَرَمِ

142. مِنهُم عَلَيهِم لَهُم سِيَمٌ تُمَيِّزُهُم ... تَمِيزَ وَردٍ وَصَندَلٍ مِنَ السَّلَمِ

143. فَلَم يَزَالُوا بِعَينِ اللهِ حِينَ مَضَوا ... مُقَدَّسِينَ مِنَ الآثَامِ وَاللَّمَمِ

144. وَذَاكَ مِن طَلعَةِ المُختَارِ مِن مُضَرٍ ... مُحَمَّدٍ قَد أَتَى بِالذِّكرِ وَالحِكَمِ

145. يَا نَفسِ لاَ تَقنَطِي وَجَدِّدِي عَمَلاً ... وَلاَزِمِي تَوبَةً للهِ وَالتَزِمِ

1 – اقتباس من قوله تعالى، وتمام الآية. ﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه﴾ التوبة: 40.

2 – العَنَمُ: شجر أحمر الأغصان ليّنُها.

3 – اقتباس من قوله تعالى في سورة السُّجدة، وتمام الآية. ﴿تتجافى جُنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفًا وطمعًا، ومِمّا رزقناهم يُنفقون﴾ [السجدة 16].

146. وَبَـادِرِي وَاقْبِلِـي لله وَاعتَـصِمِي وَاستَغفِرِي الله مِن ذَنبٍ وَمِن جُـرَم

147. وَلِي عُيوبٌ بِثَوبِ العَفوِ قَد سُـتِرَت فَلَو بَدَت كُنتُ مَذمُومًا بِكُلِّ فَـم

148. فَلَيسَ لِي مَلجَـأٌ أَرجُو النَّجَاةَ بِـهِ سِوَى رَجَاءِي لِعفـوِ الله ذِي الـنِّعَم

149. فَعَفو رَبِّي إِلَـى ذَنبِـي أَجَـلُّ وَإِن كَانَت ذُنُوبِي فِي نِهَايَـةِ العِظَـم

150. إِن لَم تَكُن يَا إِلهِيَ آخِـذًا بِيَـدِي فَضلاً ضَلَلتُ عَـن الـسُّبلِ وَاللُّقَـم

151. فَاصفَح إِلهِي عَمَّا أَنـتَ تَعلَمُـهُ مِنِّي وَجاوِز فَمَـا سِـرِّي بِمُكتَـتِم

152. بِفَضلِ مَن ثَبَتَ المَجدُ الأَصِـيلُ لَـهُ مُحَـمَّدٌ صَاحِبُ المِنبَـرِ وَالعَلَـم

153. لَه التَّـقدُّمُ قَبـلَ الكَونِ ثُـمَّ لَـهُ عَدلٌ يُؤَلِّفُ بَـينَ الـذِّيبِ وَالغَـنَم

154. لَهُ الشَّفَاعَةُ وَالكَوثَرُ[1] خُـصَّ لَـهُ يَومَ القِيَامَـةِ وَالحَـسرَةِ وَالنَّـدَم

155. كَفَـى بِهِ رِفعَةً كَفَـى بِـهِ شَـرَفًا مَا قَالَهُ رَبُّنَا فِـي النُّـونِ وَالقَلَـم

156. كَفَـى اعتِرَافًا بِحَالِي أَنَّنِـي عَجِـزٌ عَن مَدحِـهِ وَمُقَـصِّرٌ عَـن الخِـدَمِ

157. مِنِّي صَلاَةٌ عَلَى المُختَارِ مِـن مُـضَرٍ خَيرِ البَرِيَّـةِ مِن عُربٍ وَمِـن عَجَـم

158. يَا رَبِّ صلِّ وسلِّم دَائِمًـا أَبَـدًا عَلَى النَّبِيءِ نَبِـيءِ الخَـيرِ وَالكَـرَم

159. وَضَـاعِفَنَّ صَلاَةً مِنـكَ طَيِّبَـةً عَلَى النَّبِيءِ خِتَامُ الرُّسْـلِ وَالأُمَـم[2]

160. فَاخْصُصْ بِأَسنَى سَلاَمٍ طَيِّبٍ عَطِـرٍ رَسُولَكَ المُجتَبَى يَا خَـالِقَ النَّـسَم

161. مُحَمَّـدٌ صَلَـوَاتُ اللهِ دَائِمَـةٌ عَلَيهِ مَا لاَحَ بَرقٌ فِي دُجَـى الظُّلَـم

1 – إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكوثر وتمام الآية. ﴿إِنَّا أَعطَينَاكَ الكَوثَر﴾ الكوثر: 1.

2 – في القصيدة اقتباسات كثيرة مختلفة من بردة البوصيري، ولعله يكفي شرفًا كونه أوّل من نظم من مشايخ الإباضية بالمغرب الإسلامي في هذا الباب –على ما أعلم ووصل إليه وإليّ–، إلاّ أن كثرة الكسور العروضية أثّرت كثيرا على مستواه الشعري.

162. وَالصَّحبِ وَالآلِ وَأَهلَ البَيتِ وَالخَدَمِ وَكُلَّ بَـارٍّ تَقِـيٍّ وَافِـيَ الـذِّمَم

163. مَا لاَحَ بَدرٌ وَمَا غَـنَّت مُطَوَّقَـةٌ وَحَنَّ صَبٌّ إِلَـى الطَّـوَافِ بـالحَرَم

164. وَسَحَّ ودقٌ غَزِيرٌ سَـاجِمٌ بِـصَفًى وَهَزَّ رِيـحُ الـصَّبَا زَهـرَةَ الأَكَـم

165. وَرَنَّ قَلبِي بِمَا قَد قُـلتُهُ وَجِمًـا إِنِّي رَأَيتُ خَيَالَ البَيـتِ ذِي الحُـرَمِ

كَمُلت بِفَضلِ الله سُبحانَهُ وعونِه، وفيها مائةٌ وخَمسَةٌ وستُّون بيتًا، في أواسط المحرَّم من سنة 1196 بعد هجرة سيِّدنا ومولانا محمد المعظَّم المكرَّم، وقد اشتملت على نُكتٍ وأنواعٍ من البديعِ، ليث من كشَفَ القِناعَ عن وَجهِهَا، لا سِيَمَا ما فيها من التِّسعَةِ والتِّسعِينَ اسمًا لمولانا جَلَّ وعَلاَ، إمَّا تصريحًا أو تلويحًا[1].

1 – تجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ ابن بحمان قد تصدى لشرح هذه البردة البديعة، بعد عودته من أداء مناسك الحج، وذلك بعد إلحاحٍ شديد من الطلبة (إرْوَانْ) وهم درجة دون حلقة العزّابة، وقد سمّاه "الجواهر الثمينيّة على المنظومة الميمية" منها نسخة مخطوطة بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، ولعلي أوفّق لدراستها –إن شاء الله تعالى–.

قصيدة في رثاء الشَّيخ أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

لَكَ الحَمدُ الجَزيلُ يَا رَبَّنَا عَلَى مَا أَفَضتَهُ عَلَينَا من بَديعِ النِّعَمِ، وَالشُّكرِ الجَميلِ يَا مَولاَنَا عَلَى مَا أَزَحتَهُ من فَظيعِ النِّقَمِ، وَالعَظَمَةِ وَالكبرِيَاءِ، وَالعِزَّةِ وَالقِدَمِ وَالبَقَاءِ، فَسُبحَانَ مَن لاَ يَتَبَاطَىءُ شَيءٌ عَن إِرَادَتِه، وَلاَ يَتَعَاصَى مُمكِنٌ طرفَةَ عَينٍ عَن قُدرَتِه، المتَعَزِّزِ في عَظَمَتِه، القَاهِرِ عِبَادَهُ [بمَوتِه][2]، القَاضِي عَلَى الدُّنيَا بالإِعدَامِ[3]، الحَاكِمِ عَلَى الآخِرَةِ بالدَّوَامِ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، عَلَى سَيِّدِ الأَنَامِ، البَشِيرِ النَّذِيرِ، السِّرَاجِ المُنِيرِ، سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد بن عَبدِ اللهِ الأَمِين، خَاتِمِ الأَنبِيَاءِ إِمَامِ المُرسَلِينَ رَسُولِ رَبِّ العَالَمِين، وَصَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِه البَرَرَةِ الكِرَامِ وَأَصحَابِه السَّفَرَةِ العِظَامِ، وَبعدُ: فَإِنَّ التَحَدُّثَ بنِعَمِ اللهِ سُبحَانَهُ شُكرٌ، وَجُحُودهَا بَعدَ ظُهُورِهَا كُفرٌ، وَمِن جُملَتِهَا مَا أَنعَمَ المَولَى عَلَينَا بحَيَاةِ إِقليمِنَا[4] ببدرِ الدِّينِ العَالِمِ العَلاَّمَةِ أَبِي زَكَرِيَاءَ يَحيَ بن صَالِحٍ ضِيَاءُ العَالَمِين، الذِّي كَانَ مُنَوِّرًا فِي أَيَّامِه حَنَادِيسَ الجَهلِ، وَبَحرًا زَاخِرًا للوِردِ وَالصَّدرِ، وَمَنهَلاً صَافِيًا للعِلِّ وَالنَّهلِ، فَانيًا عُمرًا قَصِيرًا فِي تَعَلُّمِ العُلُومِ وَتَعلِيمِهَا، وَسَاهِرًا اللَّيَالِي الطِّوَالِ عَلَى تَحصِيلِهَا، وَقَاصِرًا هِمَّتَهُ العُلَيَا عَلَيهَا، حَتَّى نَالَ مَا نَالَهُ منهَا، فَلمثلِ هَذَا فَليَعمَلِ العَامِلُونَ، وَفِي ذَلِكَ فَليَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ[5]، وَلَعَمرِي إِنَّ ذَلِكَ البَحرَ المُبِينَ مِنَ العُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ المُخلِصِينَ، فَيَا لَيتَهُ كَانَ فِيمَا ذُكِرَ مِنَ المُعَمَّرِين[6]، لَكِنَّ القَضَاءَ المَحتُومَ،

1 – هذا العنوان من وضعي، أما الشيخ عمي يحي فقد سبق التعريف به في التقديم.

2 – هكذا في الأصل. ولعله تصحيف، ولدفع الالتباس يصح أن نقول: بموتهم.

3 – المقصود بالإعدام هنا ليس إزهاق الروح بل الإفناء من الوجود تمامًا كأن لم تكن من قبل.

4 – لعلّ المقصود من قوله إقليمنا هو وطننا.

5 – اقتباس من قوله تعالى في سورة المطففين، وتمام الآية: ﴿ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [المطففين: 4].

6 – يعني ليته كان ممّن أطال الله في عمره أكثر حتّى يُنتفع من علمه أكثر، فقد عمّر 76 عاما فقط.

السَّابِقَ من ذي الجَلاَلِ وَالإِكرَامِ، قَصَرَ عُمرَهُ عَلَى ستَّةٍ وَسَبعِين مِنَ الأَعوَامِ، ثَلاثَةٌ منهَا قَد لَبِثَهَا بدَورِه مُقعَدًا بعِلَّةٍ مُزمِنَةٍ فِي رُكبَتِه، حَتَّى لَم يَبقَ إِلاَّ صُورَةَ الدَّمِ وَاللَّحمِ فِي مُهجَتِه، إِلاَّ أَنَّ حَوَاسَّهُ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ سَالِمَةٌ مِنَ الخَبَلِ فِي جِسمِه[1]، فَلَمَّا كَادَ ذَلِكَ البَدرُ عَلَى الأُفُولِ، بَعدَ أَن قَضَى وَطَرَهُ وَنَالَ مُرَادَهُ مِن فُنُونِ المَعقُولِ وَالمَنقُولِ نُعِينَا بمَوتِه، وَفِرَاقِ رُوحِه من بَدَنِه، يَومَ الخَمِيسِ وَقتَ الأَصِيلِ، فَنَاحَت عَلَيهِ بَنَاتُ علمِه بالبُكَاءِ وَالعَوِيلِ، وَضَجَّت لِذَلِكَ حَمَامُ وُجدُ قَلبِي، فَرَفَعتُ إِلَى اللهِ تَعَالَى شَأنِي وَأَمرِي وَشَكَوتُ إِلَيهِ بَثِّي وَحُزنِي[2]، فَقُلتُ فِي مَرثِيَّتِه، قَضَاءً لِمَا عَلَيَّ من بَعضِ حُقُوقِه، مِنَ البَسِيطِ ثَالِثِ البُحُورِ الكَثِيرِ الاستعمَالِ المُثَمَّنِ الأَجزَاءِ السُّبَاعِيَةِ التِي هِيَ مستفعلن المُرَكَّبَة من سَبَبَين خَفِيفَين وَوَتَد مَجمُوعٍ وَالخُمَاسِيةِ التِي هِي فَاعِلُن المُرَكَّبَة من سَبَب وَوَتَد كَذَلِكَ المُكَرَّرِ كُلٌّ منهُمَا بكُلِّ بَيتٍ أَربَعَ مَرَّات، وَلَهُ أَعَارِيضُ ثَلاَثَةٌ وَستَّةٌ أَضرُبٍ فَالأَوَّلاَنِ من الكُلِّ مَخبُونَانِ كَمَا فِي مَقُولِي إِلَى آخِرِه:[3] (بحر البسيط)

1. حَمدًا جَلِيلاً لِذِي العِزَّةِ وَالكَرَمِ شُكرًا جَمِيلاً لِذِي الآلاءِ وَالنِّعَمِ
2. اللهُ رَبِّي إِلاَهِي سَيِّدِي سَنَدِي فِي كُلِّ أَمرٍ، مُزِيحِ الضُّرِّ وَالنِّقَمِ
3. ثُمَّ الصَّلاَةُ عَلَى خَيرِ البَرِيَّةِ مِن بَدوٍ وَمِن حَضَرٍ وَالعُربِ وَالعَجَمِ
4. مُحَمَّدٌ أَزلَفُ الأَنَامِ مَنزِلَةً عِندَ الإِلاَهِ بِيَومِ الهَولِ وَالنَّدَمِ

1 – قال لي الباحث الحاج سعيد محمد بن سليمان البويري، إن هذه الظاهرة موجودة عند كثير من المشايخ الأتقياء إذ يحفظ الله لهم سلامة حواسهم الداخلية من عقل وقلب.. بحيث يموتون دون أن يُحدثوا أو ينال منهم الخَرَفُ مع تقدّم سنّهم..، وأضاف "لقد عاينت ذلك في كثير من المشايخ من خلال بحثي وقراءتي لهذه الظاهرة ولأخرى غيرها".
لقاء مع الباحث حاج سعيد محمد بن سليمان في منزله بالعطف، غرداية في 30 مارس 2005.

2 – اقتباس من قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ الآية 86.

3 – تلاحظ في كثير من القصائد إلمام الشيخ بعلم العروض حتّى أنّه يفصّل فيه كثيرا ولا يكتفي بذكر البحر الذي نظم قصيدته فيه فقط بل يحدّد في دقائقه كالأعاريض والأضرُب وما يطرأ على البحر من تغييرات، وكلّ هذا دليل على حسن إلمام وطول باع.

5. وَصَحبِهِ بَعدَ آلِهِ وَزَوجَتِهِ ... وَكُلِّ بَارٍّ تَقِيٍّ طَاهِرِ الشِّيَمِ
6. هَذَا وَإِنَّ جُنودَ الوُجدِ قَد كَمُنَت ... بِمُهجَتِي بَعدَ كَونِ الجِسمِ فِي ضَرَمِ
7. وَدَمعُ عَينِي عَلَى خَدِّي مُنسكِبٌ ... كَوَابِلٍ سَحَّ فِي الهِضَابِ مُنسَجِمِ
8. دَلاَلَةُ الحَالِ قَد دَلَّت بِمَا كَتَمَتْ ... لَوَاعِجُ القَلبِ ذِي الضَّرَّاءِ وَالسَّقَمِ
9. إِنِّي أَبُوحُ بِمَا فِي النَّفسِ مُستَتِرٌ ... عِندَ الدَّوَاعِي فَمَا سِرِّي بِمُكتَتِمِ
10. صَلَى فُؤَادِيَ نِيرَانَ الجَوَاءِ كَمَا ... تُصلَى بِنَارِ الغَضَاءِ كَبِدَةُ الغَنَمِ
11. أَشكُو إِلَى اللهِ بَثِّي لاَ إِلَى أَحَدٍ ... مِن فَقدِ بَحرٍ عَظِيمِ المَوجِ مُلتَطِمِ
12. شَيخُ الشُّيُوخِ فَرِيدُ العَصرِ مُنفَرِدٌ ... دُونَ الأَنَامِ كَمِثلِ النَّارِ بالعَلَمِ[1]
13. قَاضِي القُضَاةِ وَحِيدُ الدَّهرِ مُقتَبَسٌ ... مِن نُورِ عِلمِهِ، نُورُ البَدرِ فِي الظُّلَمِ
14. أَعنِي بِذَاكَ أَبَا زَكرٍ[2] الذِي حَبَيَت ... بِهِ البِلادُ، بِلاَدُ العُربِ وَالعَجَمِ
15. مَن اسمُهُ يَحيَ أَحيَ اللهُ رَوضَتَهُ ... رَوضَةَ قَبرٍ لَهُ مُندَرِسُ الرَّجَمِ
16. تَزَاحَمَ النَّاسُ فِيهِ عِندَ مَدفَنِهِ[3] ... تَزَاحُمُ الخَلقِ حَولَ البَيتِ وَالحَرَمِ
17. طُوبَى لِرَمسٍ لَهُ قَد طَابَ مَسكَنُهُ ... وَغَابَ فِيهِ جَلِيلُ القَدرِ وَالهِمَمِ
18. كَيفَ الحَيَاةُ وَبَدرُ الدِّينِ فِي جَدَثٍ ... قَد صَارَ مُنغَلِقًا بِمَدَرِ الأُكَمِ؟
19. نَعَى النُّعَاةُ لَنَا يَومَ الخَمِيسِ[4] بِهِ ... عِندَ الأَصِيلِ فَبِتنَا كَذَوِي سَقَمِ
20. أَمسَت عَلَيهِ بَنَاتُ العِلمِ بَاكِيَةً ... بِكُلِّ دَمعٍ جَرَى مُمتَزِجٍ بِدَمِ

1 – العَلَمُ: الجبل المرتفع.
2 – هو أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي "عمّي يحي" سبق التعريف به.
3 – هذه شهادة تاريخية مهمّة تدلّ على أثر الشيخ "عمّي يحي" في مجتمعه الذي أحياه كما تحيي الأمطار موات الأرض، وإنّ تزاحم الخلق عند مدفنه دليل قاطع على المكانة التي صار يحظى بها هذا العالم الجليل.
4 – لقد توفي –رحمه الله– يوم الخميس وهو يوم فضل عظيم، إذ فيه ليلة الجمعة عيد في الأرض وعيد في السّماء، كما وتعد من البشارات الطيّبة على حسن خاتمته.

21. فَكَم بِيَسجَنَ مِن بَاكٍ وَبَاكِيَةٍ ... لَيلَةَ فَقدِي لِذَاكَ الطَّاهِرِ النَّسَمِ
22. أَحرَى لِعَينِي أَن تَبكِي الدِّمَاءَ عَلَى ... مَن وُسِّدَ الطِّينَ حَقًّا غَيرَ متَّهَمِ
23. قَد أَصبَحَت صُحُفُ العُلومِ حَازِنَةً ... وَالنَّفسُ تَبكِي بُكَاءً غَيرَ مُنحَسِمِ
24. قَد فَاقَ فِي العِلمِ أَهلَ العَصرِ كُلِّهِمِ ... وَحَازَ فِي نَفسِهِ مَحَاسِنَ الشِّيَمِ
25. فَالنَّحوُ حِرفَتُهُ وَالفِقهُ هِمَّتُهُ ... وَعُشُّهُ المَنطِقُ المَوضُوعُ للحِكَمِ
26. وَإِنَّهُ فِي المَعَانِي بَحرٌ مُلتَطِمٌ ... وَإِنَّهُ فِي البَيَانِ السَّعدُ فِي العَجَمِ
27. وَفِي الأُصُولَينِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... وَفِي التَّفَاسِيرِ كَالمَحمُودِ[1] فِي العِظَمِ[2]
28. فَمِنهُ تُلتَقَطُ الدُّرُّ المَصُونُ بِهِ ... فِي كُلِّ فَنٍّ فَنِيلَ غَايَةَ الكَرَمِ
29. يَدٌ طَوِيلٌ لَهُ فِي كُلِّ مَسأَلَةٍ ... عَوِيصَةٍ لِمَرَامِ المَاهِرِ الفَهِمِ
30. بِعِلمِهِ قَد أَنَارَ وَجهَ مَغرِبِنَا[3] ... رَبُّ السَّمَاءِ إِلاَهُ العَرشِ وَالقَلَمِ
31. وَيُمنُ عِلمِهِ فِي الآفَاقِ مُنتَشِرٌ ... وَصَفوُ وُدِّهِ يُعطِيهِ بِلاَ نَدَمِ
32. قَد كَانَ نَهلاً لأَرمَلٍ وَأَرمَلَةٍ[4] ... وَمَوردًا صَافِيًا لِشَارِبٍ بِفَمِ
33. شَابَت مَذَابِحُهُ فِي مَطلَعِ الكُتُبِ ... تَنَافُسًا فِي ثَوابِ الوَاحِدِ الحَكَمِ
34. أَفنَى حَقِيقًا وَأَفنَت كُلُّ مَحمَدَةٍ ... مِن بَعدِهِ حِينَ صَارَ دَارِسَ الرِّمَمِ
35. لَكِنَّهُ لَم يَمُت حَتَّى قَضَى وَطَرًا ... مِنَ الفُنُونِ لِوَجهِ اللهِ ذِي النِّعَمِ
36. أَبذَلَهَا قَاصِدًا لِشُكرِ خَالِقِهِ ... كَمِثلِ شُكرِ نَبَاتِ الأَرضِ لِلدِّيَمِ
37. أَفخَر بِهِ فَاضِلاً أَعظِمْ بِهِ زَخرًا ... أَكرِم بِهِ حَاتِمًا فِي العِلمِ وَالشِّيَمِ
38. أَقَامَ فِي دَارِهِ بِعِلَّةٍ زَمَنًا ... ثَلاَثَةً مِن سِنِينَ لاَزِمَ الهَرَمِ[5]

1 – المحمُود: الجبل العالي.
2 – هذه الجملة من العلوم اشتغل بها رائد الإصلاح بوادي مزاب الشيخ "عمّي يحي" –رحمه الله–.
3 – لا نعلم فيما وصل إلينا آثارا للشيخ "عمّي يحي" بلغت آفاق المغرب كلّه، ولعلّه قصد بلوغ مراسلاته جربة ونفوسة، وانتشار دعوته في مزاب إلى العلم والصّلاح، فقد كانت لجهود هذا الأخير الأثر الكبير.
4 – هنا أيضا إشادة جميلة بمناقب المرحوم وعطفه على الضعفاء والأرامل.
5 – لقد ألزم المرض الشيخ ثلاث سنين في منزله مقعدًا لكنّه لم ينقطع عن طلب العلم والتعليم، فقد كان منزله مدرسة حتى توفي، ولا تزال تعرف إلى اليوم بمحضرة الشيخ عمي يحي.

39. قَد مَاتَ حَقًّا وَهَائَت بَعدَ مَدفَنِه غَوَائِلُ الدَّهرِ بِالفُؤادِ ذِي أَلَمِ
40. هَذَا الذِي تَرَكَ الأَشجَانَ عَاكِفَةً فِي قَلبِ عَبدٍ قَلِيلِ الصَّبرِ لَم يَنَمِ
41. إِرسَالُ دَمعِي عَلَى خَدِّي دَلَّ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الأَوصَابِ وَالسَّقَمِ
42. إِنِّي سَأَلتُ رَئِيسَ الوُجدِ عَن خَبَرِي وَكَيفَ لِي بِدَوَا قَلبِيَ مِن ضَرَمِ؟
43. وَيحَكَ يَا وُجدُ كَمْ قَضَيتَ مِن وَطَرٍ فَمَا قَضَيتَ لَنَا شَيئًا وَلَم تَقُمِ؟
44. فَقَالَ لِي: إِنَّنِي لاَ عِلمَ لِي بِدَوًا أَنَا الغَرِيقُ بِبَحرِ الهَمِّ مُلتَطِمِ
45. فَقُلتُ: يَا رَبِّ، يَا مَن لاَ شَرِيكَ لَهُ رَبٌّ كَرِيمٌ عَظِيمُ العَفوِ عَن جُرَمِ
46. إِنِّي امرؤٌ لاَزِبٌ للذَّنبِ مُلتَزِمٌ فَاغفِر لَه مَا جَنَى فِي حُندُسِ الظُّلَمِ[1]
47. إِنِّي امرؤٌ تَائِبٌ بِالعَيبِ مُعتَرِفٌ ذُو زِلَّةٍ مُغرَقٌ فِي البَحرِ مِن أَثَمِ
48. يَدِي بِمَا كَسَبَت، عَينِي بِمَا نَظَرَت أُذُنِي بِمَا سَمِعَت نَازِلَةُ القَدَمِ
49. يَا رَبِّ يَا سَيِّدِي، مَولاَيَ يَا سَنَدِي يَا أَرحَمَ الخَلقِ بِالإِيجَادِ مِن عَدَمِ
50. أَنتَ الوَلِيُّ لَنَا أَنتَ النَّصِيرُ بِنَا أَنتَ المُعِينُ لَنَا فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ
51. اِرحَم وَجَاوِز وَاستُر كُلَّ خَاطِئَةٍ وَاغفِر ذُنُوبًا، بِقَلبٍ غَيرِ مُنهَزِمِ
52. بِفَضلِ مَن ثَبَتَ المَجدُ العَمِيمُ لَهُ مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الأَنَامِ كُلِّهِم
53. صَلِّ وَسَلِّم عَلَى خَيرِ الوَرَى وَعَلَى الآلِ وَالصَّحبِ وَالأَزوَاجِ وَالخَدَمِ
54. مَا هَبَّ رِيحُ الصَّبَا وَلاَحَ بَرقٌ سَمَا وَنَاحَ وُرقُ الهَوَى فِي القَلبِ بِالنَّغَمِ

وَقَد تَمَّت المَرثِيَةُ المَبَارَكَةُ بِحَمدِ اللهِ سُبحَانَهُ فِي أَوَاخِرِ رَجَبِ الأَصَمِّ مِن سَنَةِ 1202هـ/1787م.[2]

1 – هذه الخاصية من الإقرار بالذنب والضعف، نلمسها في كثير من الشعراء الموقنين، تدل على إيمان عميق عند أصحابها، وهي هنا عند شيخنا تشير بوضوح إلى ورعه وتقواه، كما نجدها كذلك في جلّ قصائده بأسلوب الحوار الداخلي، حتّى ينتهي إلى التوحيد والرجاء الكبير وحسن الظنّ بالله تعالى، وفي هذا معنى عظيم أيضا.

2 – لقد كتبها يوم وفاة شيخه الخميس 25 رجب 1202هـ.

في رثاء شيخه "ضياء الدين" عبد العزيز الثَّميني[1]

ثُمَّ بَدَا لِي أَنَّ غَيرَ الطَّوِيلِ وَهُو الخَفِيفُ أَحلَى ذَوقًا وَأَحرَى شَوقًا، وَأَصغَى سَمعًا وَأَولَى طَبعًا، وَأَوقَعُ فِي النَّفسِ وُقُوعًا وَأَمِيلُ وُلُوعًا، وَأَسرَعُ فَهمًا وَأَفِيدُ عِلمًا، فَوَجَّهتُ عِنَانَ حَزمِي إِلَى سَاحَتِه وصَرَفتُ زِمَامَ عَزمِي تِلقَاءَ مَدِينَ نَاحِيَتِه، واستَنهَضتُ جُيُوشَ الجِدِّ وَالنَّشَاطِ وَاستَنفَرتُ جُنُودَ الأَسبَابِ وَالارتِبَاطِ حَتَّى أَتيتُ مَرثِيَةً أُخرَى فِي شَأنِ ذَلِكَ الشَّيخِ المُبِينِ تَأسِيسًا لِلأُولَى، فَقُلتُ فِيهِ مِن البَحرِ الحَادِي عَشَرَ وَهُو الخَفِيفُ المُسَدَّسُ الأَجزَاءِ الَّتِي هِي فَاعِلاتُن مُستَفعِلُن فَاعِلاتُن ثَلاَثَ مَرَّات، وَلَهُ ثَلاَثَةُ أَعَارِيضَ وَخَمسَةُ أَضرُبٍ فَالعَرُوضُ الأُولَى صَحِيحَةٌ وَالضَّربُ الأَوَّلُ مِثلُهَا كَمَا فِي قَولِي إِلَى آخِرِه. (بحر الخفيف)

1. إِنَّ خطبًا بِمُصعَبَ قَد شَجَانِي وَآذَانِي فَلَيتَهُ مَا شَجَانِي
2. إِذ رُمِيتُ بِفَقدِ شَيخٍ جَلِيلٍ قَد رَمَانِي نَعِيُهُ مِن زَمَانِ
3. قَد ثَوَى يَومَ سَبتٍ وَقتَ أَصِيلٍ فَقَضَى نَحبَهُ بِأَمرِ الدِّيَان[2]
4. كَادت النَّفسُ أَن تَفِيضَ عَلَيهِ إِذ غَدَا حَشوًا وَمَاتَ بِبَنَانِي[3]
5. فَبَكَيتُ لِمَبكَى شَمسٍ عَلَيهِ وَنُجُومٍ، وَأَهلِ ذَاكَ الزَّمَان
6. وَلِمَبكَى بَنَاتِ حَرٍّ[4] عَلَيهِ سَحَّ دَمعِي كَمِثلِ دُرِّ اليَمَان
7. وَلِمَبكَى بَنَاتِ عِلمٍ عَلَيهِ نَاحَ قَلبِي بِلَوعَةٍ مِثلُ آن[5]

1 – هذا العنوان من وضعي.

2 – في نسخة حجرية: بأمر العديان.

3 – في النسخة نفسها: إذ غدا بين تربة والأوان، وفي أخرى: إذ غدا بين تربة وأوان.

4 – الحَرَى: جَنابُ الرجل وما حوله، يقال: لا تَقْرَبَنَّ حَرَانا. ويقال: نزل بحَراهُ وعَرَاهُ إذا نزل بساحته.

5 – أَنْ: يَئِنُّ أَنًّا وأَنِيناً وأُنَاناً وأَنَّةً تأوَّه. التهذيب: أَنَّ الرجلُ يَئِنُّ أنيناً وأَنَتَ يأْنِتُ أَنِيتاً نَأَتَ يَنْئِتُ نَئِيتاً بمعنى واحد.

8. إِنَّـــهُ سَـــيِّدٌ كَـــرِيمٌ مَجِيـــدٌ مَـــاهِرٌ ذَكِـــيٌّ صَـــفِيُّ الجَنَـــانِ
9. إِنَّـــهُ طَـــاهِرٌ حَلِـــيمٌ وَقُـــورٌ حَـــازِمٌ عَـــازِمٌ رَفِيـــعُ المَكَـــانِ
10. إِنَّـــهُ طَيِّـــبٌ عَظِـــيمٌ نَجِيـــبٌ صَـــابِرٌ لِـــلأَذَى فَـــصِيحُ اللِّـــسَانِ
11. إِنَّـــهُ فَخرٌ فِـــي عِلـــمِ الأُصُـــولِ[1] إِنَّـــهُ سَـــعدٌ فِـــي عُلُـــومِ البَيَـــانِ
12. إِنَّـــهُ بَحـــرٌ فِـــي جَمِيـــعِ العُلُـــومِ طَـــابَ نَفـــسًا وَأَنَـــالَ الأَمَـــانِي
13. هُو بَدرُ الـــدُّجَى وَنُـــورُ الظَّـــلاَمِ هو شَمسُ الضُّحَى سِرَاجُ المَعَـــانِي
14. هُو نَجمُ الهُـــدَى وَظِـــلُّ الأَمَـــانِي هُو قُطبٌ حَـــوَى بُـــرُوجَ المَبَـــانِي
15. هُـــو عَـــينٌ مِزَاجُـــهُ سَلـــسَبِيلٌ[3] هُـــو زَهـــرٌ مِزَاجُـــهُ عَـــذبُ آنٍ[2]
16. كَـــانَ بَرًّا لِكُـــلِّ يَتِـــيمٍ وَأَيِـــمٍ كَـــانَ حِصنًا عَظِيمًا فِي كُلِّ شَـــانِ
17. كَـــانَ كَهلاً لِكُـــلِّ حُـــرٍّ وَعَبـــدٍ عَائِمًا لُجَّـــةً فِـــي حَـــرِّ الأَوَانِـــي
18. كَانَ غَوثًـــا لِلمُـــسلِمِينَ جَمِيعًـــا نَافِعًـــا لِلـــوَرَى كَـــزَرعِ الجِنَـــانِ
19. لَم يَـــزَل رَاقِيًـــا مَـــدَارِجَ فَـــضلٍ لَم يَزَل سَابِحًا فِـــي بَحـــرِ البَيَـــانِ
20. لَم يَـــزَل صَـــاعِدًا مَرَاقِـــيَ عِـــزٍّ لَم يَزَل عَالِيًـــا فِـــي كُـــلِّ زَمَـــانِ
21. لَم يَزَل فِي رِيـــاضِ عِلـــمٍ رَفِيعًـــا لَم يَزَل سَامِيًا فِـــي كُـــلِّ مَكَـــانِ
22. قَد رَقَـــى وَسَـــمَا وَسَـــادَ وَحَـــازَ كُـــلَّ فَـــضلٍ بَـــدَا بِكُـــلِّ الأَوَانِ
23. لَـــم تَلِـــد أُنثَـــى مِثلَـــهُ بِمَثِيـــلٍ فِي بُلُـــوغِ المُنَـــى وَنَيـــلِ الأَمَـــانِي

1 – هذه إشار إلى كتابه الجليل "كتاب النيل"، أضخم موسوعة فقهية إباضية حديثة، شرحها قطب الأئمة امحمد بن يوسف أطفيش في 18 مجلدًا ضخمًا، وهي عمدة المذهب في التشريع.

2 – في النسخة الحجرية: عود بآن.

3 – اقتباس من قوله تعالى في سورة الإنسان وتمامه: ﴿ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلا، عينًا فيها تسمى سلسبيلا﴾ الإنسان. 17، 18.

24. فَهَذَا قَـــد عَنِيـــتُ عَبـــدَ العَزِيـــزِ يَـــا إِلَهِـــي أَجِـــرهُ مِـــن حَـــرِّ آنِ
25. كَانَ لِي عُمدَتِي وَشَيخِي وَخَالِي[1] وَفُـــؤَادِي وَنَـــاظِرِي وَلِـــسَانِي
26. كَان لِـــي جُنَّـــةً وَدِرعًـــا قَمِيـــصًا وَعُيونًـــا وَحَاجِبًـــا وَبَنَـــانِي
27. يَـــا خَلِيلِـــيَّ عَرِّجَـــا بِأَصِـــيلٍ لِـــأَرَى الرَّسـمَ رَوضَـــهُ بِعِيَـــانِ[2]
28. وَقِفَا بِـــي عَلَـــى الطِّـــلاَلِ قَلِـــيلاً نَتَفَكَّر بِفَقـــدِ مَـــن قَـــد شَـــجَانِي
29. وَإِذَا بَلَغتُمَـــا القَـــبرَ حُطَّـــا تُسعِدَانِي عَلَـــى البُكَـــا تُـــسعِدَانِي
30. وَاذكُرَا لِي حَـــدِيثَ نَعـــيِ خَلِيـــلٍ قَـــد تَـــوَارَى بِرَوضَـــةٍ بِبَنَـــانِي
31. كَيفَ مَوتٌ أَتَـــاهُ وَقـــتَ أَصِـــيلٍ قَابِـــضًا رُوحَـــهُ بِغَـــيرِ تَـــوَانِي
32. كَيفَ يومٌ تَـــوَارَى فِيـــهِ حَبِيـــبٌ بِبُـــرُودٍ وَتُربَـــةٍ بِمَكَـــانِي
33. كَيفَ لَحدٌ حَوَى عِظَـــامَ أَنِيـــسِي كَانَ لِي مَلجَـــأً فِـــي كُـــلِّ أَوَانِ
34. أَفـــسِحَن رَوضَـــهُ اللهُ وَاغفِـــر ذَنبَـــهُ وَاســـقِهِ شَـــرَابَ الجِنَـــانِ
35. وَارفَعَن شَـــأنَهُ كَرَفـــعِ الوَذِيـــلِ[3] وَاجعَلَن قَـــبرَهُ رِيَـــاضَ الأَمَـــانِي
36. فَعَلَيـــهِ مِـــن رَبِّنَـــا كُـــلَّ خَـــيرٍ وَسُـــرُورٍ وَرَحمَـــةٍ وَرَيحَـــانِ
37. وَسَـــلاَمٌ عَلَيـــهِ ذِكـــرٌ جَمِيـــلٌ وَثَنَـــاءٌ عَظِـــيمٌ كُـــلَّ زَمَـــانِي
38. وَسَلاَمٌ عَلَيـــهِ فِـــي كُـــلِّ نَجـــدٍ وَسُـــهُولٍ تَحِيَّـــةٌ مِـــن لِـــسَانِي
39. وَسَـــلاَمٌ عَلَيـــهِ أَيُّ سَـــلاَمٍ وَسَلاَمِي عَلَيـــهِ نَـــشرَ الأَمَـــانِ[4]

1 – لقد تكرر هذا التصريح من الشيخ ابن بحمان بصلة القرابة التي تجمعه بشيخه وأستاذه "ضياء الدين" عبد العزيز الثميني، في أكثر من مرة في الديوان، فأعظم بها من صلة.

2 – لعله يريد الوقوف على قبره.

3 – الوَذيلة السِّبيكة من الفِضَّة؛ عن أبي عمرو، والوَذِيلةُ القطعة من الفضّة، وقيل: من الفضّة المَجْلُوَّة خاصّة، والجمع وَذِيلٌ ووَذائِل.

4 – في النسخة الحجرية: نشر لُبان.

40. مَا زَهَت رَوضَةٌ وَتَاحَت حَمَامٌ ... وَرَنَت شِطبَةٌ[1] رَنِينَ الغَوَانِي

41. وَأَجَادَ فِكرِي بِنَظمٍ عَجِيبٍ ... وبشعرٍ حوى بديع المثاني

42. إنَّ لِي سَيِّدِي ذُنُوبًا عِظَامًا ... أورَثَتنِي حُزنًا بِكُلِّ مَكَانِ

43. ضِقتُ ذَرعًا بِمَا جَنَيتُ بِأَيدِي ... وَلِسَانِي وَنَاظِرِي وَجَنَانِي

44. رَبِّ إِنِّي إِلَيكَ عَبدٌ ذَلِيلٌ ... كَيفَ حُزنِي بِمَا قَد دَهَانِي

45. أَجِب لِي دَعوَتِي وَكُن لِي سَمِيعًا ... وَبَصِيرًا بِحَالَتِي وَبَيَانِي

46. وَأَقِلنِي عَثرَتِي وَكُن لِي غَفُورًا ... سَاتِرًا لِلعُيُوبِ يَومَ الدِّيَانِ

47. ثُمَّ اغفِر لِلمُسلِمِينَ جَمِيعًا ... وَلِلشَّيخِ الرَّمِيمِ بَينَ الأَوَانِي

48. فَبِفَضلِ الرَّسُولِ لِلخَلقِ طُرًّا ... أَحمَدَ الأُمِّيِّ صَفِيِّ الجَنَانِ

49. نَبِيًّا طَاهِرًا سِرَاجًا مُنِيرًا ... سَيِّدًا مَاجِدًا شَرِيفَ المَبَانِي

50. سَرِيًّا مُجتَبًى رَسُولاً كَرِيمًا ... زَكِيًّا قَد أَتَى بَدِيعَ المَعَانِي

51. فَعَلَيهِ مِن رَبِّنَا كُلَّ وَقتٍ ... أَلفُ أَلفُ تَحِيَّةٍ عَذبُ آنِ[2]

52. صَلِّ يَا رَبِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَيهِ ... مَا سَعَى البَدرُ فِي بُرُوجِ الزَّمَانِي

53. صَلِّ يَا رَبِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَيهِ ... مَا زَهَى الزَّهرُ فِي رِيَاضِ المَكَانِ

54. صَلِّ يَا رَبِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَيهِ ... مَا ذَلَّت[3] طِفلَةٌ أَمَامَ الغَوَانِي

55. وَأَجَادَ فِكرِي وَفُهتُ بِنُطقِي ... إِنَّ خَطبًا بِمُصعَبَ قَد شَجَانِي

1 – جارِيَةٌ شِطْبَةٌ وشَطْبَةٌ: طَوِيلَةٌ، حَسَنَةٌ، تارَةٌ، غَضَّةٌ.

2 – في النسخة الحجرية: عُود بان.

3 – الذُّلُّ بالكسر: اللِّين وهو ضد الصعوبة. والذُّلُّ والذَّلُّ. ضدُّ الصعوبة. ذَلَّ يَذِلُّ ذُلاً، وذِلاً فهو ذَلُولٌ.

قصيدة في مدح سُليمان بن ناصر الإسماعِيلي[1] العُمانِي[2]

بسم الله الرحمن الرحيم صلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد آله وصحبه وسلّم تسليما

إنَّ أَحسَنَ زِينَةٍ تَحَلَّت بِهَا عَرَائِسُ الطُّروسِ، وَأَنفَسَ شِيمَةٍ تَخَلَّقَت بِهَا عَزَائِمُ النُّفُوسِ وَأَشرَقَ مِن بُدُورِ التَّمِّ وَنُجُومِ اللَّيَالِي، وَأَبهَى مِن سُمُوطِ الدُّرِ وَعُقُودِ اللَّآلِيء وَأَزهَى مِن شَذرٍ وَمَرجَانٍ يُتَقَلَّدُ بِجِيدٍ غَيدَاءَ، وَأَحرَى مِن جُمَانٍ وَتَمِيمَةٍ تَتَعَلَّقُ بِنَحرٍ عَذرَاءَ، وَأَزهَرَ مِن نُورِ حَدِيقَةٍ هَزَّهَا رِيحُ النَّسِيمِ، وَأَطرَى مِن زَهرِ رَوضَةٍ هَبَّ عَلَيهَا رِيحُ الصَّبَاءِ، بَعدَ سَقيِهَا مِنَ التَّسنِيمِ، وَأَذكَى مِن رِيحِ مِسكٍ وَعَنبَرٍ وَأُقحُوَانٍ، وَأَغلَى مِن غَالِيَةٍ وَكَبَاءٍ وَرَيحَانٍ بَعدَ حَمدِ اللهِ سُبحَانَهُ المَلِكِ الدَّيَّانِ، وَشُكرِ مَولاَنَا جَلَّ وَعَلاَ العَظِيمِ الشَّأنِ، الذِّي خَلَقَ الإِنسَانَ، وَحَلاَّهُ بِحِلِيَةِ النُّطقِ وَالبَيَانِ، وَفَضلِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِن خَلقِهِ، وَخَصَّهُ بِمَعرِفَةِ أَوضَاعِ المَبَانِي وَتَرَاكِيبِ المَعَانِي دُونَ غَيرِهِ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَن أَنَامَ الأَنَامَ فِي ظِلِّ الأَمَانِ وَعَبقَرِيِّ الإِسلاَمِ وَسُندُسِ الإِحسَانِ سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الهَاشِمِيِّ القُرَيشِي الرَّسُولِ العَرَبِيِّ، المَنعُوتِ بِالخِصَالِ الحَمِيدَةِ، المَبعُوثِ بِالدَّلاَئِلِ الجَمِيلَةِ، المَنظُومِ مَعَ كُلِّ خَصلَةٍ جَلِيلَةٍ نَظمَ اللَّآلِي، المُصَاحِبِ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُصَاحَبَةَ الأَيَّامِ لِلَّيَالِي، المُقَدَّمِ عَلَى الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، المؤخَّرِ عَلَى الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ الذِّينَ هُم شُمُّ الأُنُوفِ، المُبذِلِينَ أَموَالاً جَلِيلَةً وَنُفُوسًا عَزِيزَةً فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى المُجَالِدِينَ فِي سَبِيلِهِ بِالسُّيُوفِ، وَعَلَى أَصحَابِهِ الأَئِمَّةِ الأَعلاَمِ الأَحِبَّةِ الكِرَامِ الأَجِلَّةِ العِظَامِ، الحَائِزِينَ قَصَبَ السَّبقِ فِي مِضمَارِ الإِسلاَمِ.

1 – للأسف لم أستطع الحصول على ترجمة لهذا الشيخ الجليل بعد طول بحث وعناء ومراسلات إلى إخواننا العُمانيين والجزائريين المقيمين بالسّلطنة، ومنها مراسلة للأستاذ الدكتور بحاز إبراهيم.

بتاريخ 10 مارس 2005م، وأخرى إلى بعض العُمانيين بتاريخ 07 مارس 2005م.

2 – هذا العنوان من وضعي، أمّا القصيدة فهي جواب لقصيدة بعث بها الشيخ سليمان بن ناصر بن سليمان بن عبد الله بن علي بن محمد بن إسماعيل الإسماعيلي النزوي العماني لمشايخ وأئمة جربة ونفوسة ومُزاب.

سَلاَمٌ بَعدَ أَلف ثَنَاءٍ مَوَارِدُهُ صَافِيَةٌ، وَمَصَادِرُهُ غَالِيَةٌ، وَأَلفُ تَحِيَّة مُبَارَكَة طَيِّبَة مَلاَبِسُهَا مِن حُلَلِ البَهَاءِ وَافِية، مُرَصَّعَة بِتِيجَانِ المَحَبَّة، مُكَلَّلَة بِوِشَاحِ المَوَدَّة، خِتَامُهَا مسكٌ وَمِزَاجُهَا زَنجَبِيلٌ، وَعَسَلٌ مُصَفًّى وَسَلسَبِيلٌ، مَهدِيَّةٌ إِلَى الإِخوَانِ العُظَمَاءِ الأَئِمَّة الكُرَمَاء، الثِّقَاة النُّجَبَاء الهُدَاة النُّقَبَاء، الجَهَابِذَة النُّبَلاَء، السَّادَات الآجِلَة، السُّرَات الأَحِبَّة، ذَوِي الجَادَّة النَّيِّرَة وَالنِّحلَة[1] المَرضِيَّة، وَالطَّرِيقَة القَوِيمَة، وَالشَّرِيعَة المُستَقِيمَة، وَالمَآثِر الحَمِيدَة، وَالمَفَاخِر الجَمِيلَة، الَّذِينَ بِهِم تَتَلاَلأُ غُرَّةُ وَجه الإِسلاَم، وَعَلَى عَوَاتِقِهِم رَفَعُوا مَنَارَ الأَعلاَمِ وَلِحُسنِ أَخبَارِهِم تَنشَرِحُ صُدُورُنَا، وَلِذِكرِ آثَارِهِم تَنفَتِحُ عُيُونُنَا، وَإِلَى مُلاَقَاتِهِم وَزَورَتِهِم تَشتَاقُ نُفُوسُنَا، إِخوَانَنَا وَسَادَتَنَا وَقَادَاتَنَا مَشَايِخَ عُمَان[2] الأَكرَمِينَ المُنتَخَبِينَ عَلَى مَمَرِّ الأَزمَان، المُفَضَّلِينَ عَلَى سَائِرِ البَرَايَا، المَخصُوصِينَ بِأَعظَمِ السَّجَايَا وَأَجمَلِ المَزَايَا، بِنَصِّ صَاحِبِ العَطَايَا، يَعُمُّ ذَلِكَ التَّسلِيمُ المَختُومِ بِالمِسكِ المَمزُوجِ بِالنَّسِيمِ خَاصَّتَهُم وَعَامَّتَهُم وَصَغِيرَهُم وَكَبِيرَهُم وَأَحرَارَهُم وَعَبِيدَهُم، وَيَخُصُّ مِنهُم الإِمَامَ المَلِكَ الهُمَامَ، السُّلطَانَ الأَسعَدَ القَهرَمَانَ الأَمجَدَ، سَيفَ اللهِ القَاطِعِ فِي أَرضِه، وَنُورَهُ اللاَّمِعَ عَلَى خَلقِه، المُقَدَّمَ عَلَى سَائِرِ الجُمُوعِ وَالوُفُود، المَقبُولِ الكَلاَمِ النَّافِذِ الأَحكَامِ المُتَّصِلِ الأَيَّامِ بِمَنَازِلِ السُّعُود، سُلطَانُ الإِسلاَمِ وَالمُسلِمِينَ، ظِلُّ اللهِ سُبحَانَهُ عَلَى جَمِيعِ العَالَمِينَ وَرُكنٌ شَدِيدٌ يَلجَؤُونَ إِلَيهِ لَدَى المُلِمَّات وَحِصنٌ مَنِيعٌ يَأوُون لَدَيهِ عِندَ المُهِمَّات، المُؤَسِّسِ قَوَاعِدَ المِلَّة الرَّبَّانِيَة، المُشَيِّدِ مَدَارِجَ الدَّولَة السُّلطَانِية، الحَائِزِ قَصَبَ السَّبقِ فِي مِضمَارِ الأَمَان، المُمتَثِلِ لِنَصِّ ﴿إِنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالعَدلِ وَالإِحسَانِ﴾[3]، لاَ زَالَت أَقطَارُ الأَرضِ مُزهِرَةً بِأَنوَارِ

1 – النِّحلة: الطريقة، انتحل النهج أي سلك النهج.

2 – هي عُمان الحاضرة اليوم، معقل المذهب الإباضي منذ القرن الأوّل الهجري، يربطها بإباضية المغرب علاقات متّصلة بحكم المذهب، ولاتزال تستقبل وفود الطلبة الإباضية من الجزائر وتونس وليبيا وزنجبار.

3 – وتمام الآية: ﴿إنّ الله يامر بالعدل والإحسان وإيتآء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكرون﴾ النحل: 90.

عَدلِه، وَأَغصَانُ الخَيرَاتِ مُورِقَةٌ بِسَحَائِبِ فَضلِه، وَلاَ بَرِحَت مَحَاسِنُهُ الجَمِيلَةَ مُنتَظِمَةً فِي جِيدِ الأَيَّامِ عُقُودًا، وَمَكَارِمُهُ الجَلِيلَةُ مَحوِيَّةً عَلَيهِ وَلاَبِسَةً لَهُ مِنَ الثَّنَاءِ رِيطَةً وَبُرُودًا، وَمَسَاعِيهِ فِي نُصرَةِ الدِّينِ مَحمُودَةً، وَمَحَامِدُهُ عَلَى مَمَرِّ الأَيَّامِ مَذكُورَةً، وَمَا انفَكَّت العَاهَاتُ تُبَاعِدُهُ، وَالخَيرَاتُ تُبَاشِرُهُ، وَعَسَاكِرُهُ مُؤَيِّدَةً بِصَوَارِمِه[1]، وَجُنُودُهُ مُؤَسَّسَةً بِعَزَائِمِه، فَهُوَ الَّذِي صَرَفَ عِنَانَ تَدبِيرِه إِلَى جِهَةِ حِمَايَةِ الإِسلاَمِ، وَشَيَّدَ بُنيَانَ عَزَائِمِه إِلَى رِعَايَةِ جَمِيعِ الأَنَامِ، حَتَّى أَسبَلَ عَلَيهِم ذَيلَ العِزِّ وَأَمطَرَ سَحَائِبَ الإِنعَامِ، وَخَصَّ مِن بَينِهِم الفُضَلاَءَ العَارِفِينَ بِمَزِيدِ الإِكرَامِ، مِن مُحِبٍّ مُتَيَّمٍ سَقِيمِ الفُؤَادِ بِتَبَارِيحِ الجَوَى، عَمِيدِ القَلبِ قَد أَضنَاهُ الغَرَامُ وَلَوعَةُ الهَوَى، المُشتَاقِ إِلَى لِقَائِكُم، المُتَمَنِّي زَورَتَكُم وَرُؤيَةَ خَيَالِكُم، العَبدُ الحَقِيرُ الذَّلِيلُ، المُحتَاجُ إِلَى مَولاَهُ الغَنِيُّ الجَلِيلُ، إِبرَاهِيم بن عبد الرَّحمَان بن أَبِي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني المُحَمَّدي[2] اليَسْجَنِي المُصعَبِي الوَهبِي[3]، هَذَا وَلَمَّا اهتَمَّ بِشَأنِ الإِسلاَمِ وَالمُسلِمِينَ، نُورُ الدِّينِ وَضِيَاءُ العَالَمِينَ العَالِمُ الفَاضِلُ العَلاَمَةُ الكَامِلُ الأَمجَدُ السَرِيُّ الأَسعَدُ، الذَكِيُّ، النَقِيُّ الوَجِيه، الذَّكِيِّ، النَّبِيه، المُبَرَّع المُكَرَّم، السَّمِيدَعِ المُعَظَّم، المَاهِرِ اللَّبِيب، الحَاذِقِ الأَدِيبِ الشَيخِ سُلَيمَان بن نَاصِرِ بن سُلَيمَان بن عَبد الله الإِسماعِيلِي، العُمَانِي الوَهبِي الإِبَاضِي، شَيخِ أَهلِ الطَّرِيقَةِ المُستَقِيمَة، وَقُدوَةِ المِلَّة المُستَبِينَة، الَّذِي سَادَ وَفَازَ، وَعَمَّ أَهلَ زَمَانِه وَحَازَ، بَعثٌ فِي شَأنِ ذَلِكَ لإِخوَانِه مِن نَفُوسَة[4]

1 – الصّوارم: ج. صارم، من أسماء السيف.

2 – لعل المراد بالنسبة إلى المُحمّدي، عشيرته المشهورة بـ "آتْ بامحمد"، من العشائر الكبيرة ببني يسجن.

3 – الوهبي: نسبة إلى عبد الله بن وهب الرّاسبي، سبق التعريف به، وإليه تنتسب الإباضية الوهبيّة، ليفرّق بينها وبين الفرق الإباضية الأخرى كالنّكارية والنّفاثية وغيرها..

4 – نفوسة: من أعظم معاقل الإباضية في الماضي، وهي جبال بالمغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك، وفيه منبران في مدينتين إحداهما شروس والأخرى جادوا من ناحية نفزاوة، وطول هذا الجبل مسيرة ستّة أيام من الشرق إلى الغرب. أهلها كلّهم إباضية وهبية، بينها وطرابلس ثلاثة أيام، وإلى القيروان ستّة أيام، وفيه نحو ثلاثمائة قبيلة. معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج4، ص396.

وَجربَةَ[1] وَالمُصعَبِيِّينَ، طرسًا مُحتوِيًا عَلَى نَظمٍ عَجيبٍ وَثَنَاءٍ وَتمجيدٍ وَالتَّمسُّكِ بالدِّينِ، فَوافَى بِمَكَّةَ المَحرُوسَةِ أَخًا مِن إِخوَانِنَا، وَسَيِّدًا مِن سَادَتِنَا، الطِّبِّ الماهر، العَلاَّمَةِ البَاهِرِ، الشَّيخُ يُوسُف بن مُحَمَّدِ بن سَعِيد[2] أَسعَدَ اللهُ مَولاَنَا أَيَّامَهُ، وَأَطَالَ عُمُرَهُ وَأَعلَى مَقَامَهُ، فَرَدَّ إِلَيهِ جَوَاب نَظمِهِ البَدِيعِ فَكَفَانَا مَؤُونَتَهُ، وَتَمثَّلتُ بِقَولِ مَن قَالَ:

1. فَلَو قَبلَ مَبكَاهَا بَكَيتُ صَبَابَةً بِسُعدَى شَفَيتُ النَّفسَ قَبلَ التَّنَدُّمِ[3]

2. وَلَكِن بَكَت قَبلِي فَهَيَّجَ لِي البُكَا بُكَاهَا، فَقُلتُ: الفَضلُ للمُتَقَدِّمِ

ثُمَّ لَمَّا وَقَع بَينَ أَيدِينَا، أَخَذَ بِمَجَامِعِ أَسمَاعِنَا، وأَثَّرَ فِي القَلبِ تَأثِيرًا عَجِيبًا، وَهَيَّجَ دَوَاعِيَ النَّفسِ هَيَجَانًا غَرِيبًا، حَتَّى تَوَجَّهَت عَسَاكِرُ الشَّوقِ عَلَيَّ مِن كُلِّ جَانِبٍ وَمَكَانٍ، وَجُنُودُ الوُجدِ وَلَوَاعِجُ الهَوَى إِلَيَّ دُونَ غَيرِي، وَانفَرَدتُ بِذَلِكَ مِن بَينِ الإِخوَانِ[4]، فَلَم أَتَمَالَك حِينَئِذٍ نَفسِي وَلَم أَجِد لَهَا طَبِيبًا يُبرِي، وَلاَ شِفَاءً يَشفِي، فَصَرَفتُ عِنَانَ مَطِيَّتِي إِلَى استِخرَاجِ مَا كَانَ خَفِيًّا بِمُهجَتِي مِنَ اللُّؤلُؤِ المَكنُونِ وَاستِبرَازِ مَا كَان مُدَبدَبًا فِي قَلبِي بِمُضِيِّ زَمَانٍ مِن الدُّرِّ المَصُونِ، فَقُلتُ فِي شَأنِ أُولَئِكَ الإِخوَانِ السَّادَاتِ الأَعيَانِ المُتَمَسِّكِينَ بِالحَبلِ المَتِينِ، القَائِمِينَ بِأُمُورِ الدِّينِ المُبِينِ شِعرًا أَوَّلِيًّا مِنَ الطَّوِيلِ وَهُوَ أَوَّلُ البُحُورِ المُثَمَّنِ الأَجزَاءِ الكَثِيرِ الاستِعمَالِ بِعَرُوضِهِ المَقبُوضَةِ اللاَّزِمَةِ وَضَربِهَا المُمَاثِلِ لَهَا: (بحر الطويل)

1 – جربة: جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر. معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج2، ص42، وهي الحاضرة إلى اليوم بالجمهورية التونسية.

2 – هو الشيخ يوسف بن محمّد بن سعيد (حي في: 1205هـ/1790م) لا أدري له تأريخًا غير هذا، وورد في معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب) بهذا الاسم وعُرّف انطلاقا من ردّه على رسالة الإسماعيلي العماني، ولا أحسبه نزيل جربة. قال لي الأستاذ يحي بوراس: هو من النسّاخ، ولقد رأيت فعلاً بعض المخطوطات المنسوخة بخطّ يده، والملاحظ في عصر الشيخ ابن بحمان هو انتشار حركة التدوين والنسخ والتي حفظت لنا الكثير من الآثار.

3 – للأسف لم أتوصل إلى بيان صاحب البيتين المقتبسين هنا.

4 – دليل آخر على تفرّده بين أقرانه بالحسّ الأدبي المرهف، وحبه للمراسلات الإخوانية.

1. تأوَّبَنِي وُجدٌ أَلِيمٌ بِمُصعَبِ فَبِتُّ كَمَلدُوغٍ بِأفعَى وَعَقرَبِ

2. وَمَا بِيَ عِشقٌ مِن خُرُودٍ تَزَيَّنَت بِشذرٍ وَمَرجَانٍ وَدُرٍّ مُثَقَّبِ

3. بَرَهرَهَةٍ خُودٍ تَمِيسُ كَأَنَّهَا حَمَامَةُ طُوقٍ فَوقَ غُصنٍ بِأثأَبِ[1]

4. رَهِيدَةَ[2] نَهدَةٍ رَخِيمَةٍ سَمحَةٍ قَطُوفٍ تَهَادَى فِي بُرُودٍ مُشَطَّبِ

5. لَهَا مَنظَرٌ يُلهِي وَيَشفِي صَبَابَةً عَجِيبٌ وَيُبرِئُ كُلَّ دَاءٍ مُوَصَّبِ

6. قَد استَعَرَت قَدًّا جَمِيلاً وَمُقلَةً وَجِيدًا طَوِيلاً مِن ظِبَاءٍ وَرَبرَبِ

7. وَمِن قِنوِ نَخلَةٍ أُتِيتَا كَفَاحِمٍ وَكَشحًا أَنِيقًا مِن خَزُوزٍ مُهَذَّبِ

8. إِذَا استَقبَلَتنَا وَاتَّقَتنَا تَمَايَلَت بِوَجهٍ مُقَسَّمٍ وَكَفٍّ مُخَضَّبِ

9. إِذَا ابتَسَمَت ضِحكًا بَدَا مِنهَا جَوهَرٌ كَبَرقٍ أَضَاءَ بَينَ دَاجٍ وَغَيهَبِ

10. كَأَنَّ مُجَاجَ[3] الثَّغرِ مِنهَا مُدَامَةٌ رَحِيقٍ، وَمَختُومٍ بِمِسكٍ وَزُرنُبِ

11. كَأَنَّ جَبِينَ عَينِهَا بَينَ حَالِكٍ هِلاَلُ تَمَامٍ أَو ضِيَاءٌ لِكَوكَبِ

12. كَأَنَّ اصطِفَافَ حِلِيِهَا فَوقَ نَحرِهَا تَرَنُّمُ غِزلاَنٍ بِنَجدٍ وَكَبكَبِ

13. لَهِيَ وَمَاهِيه مَا أَدرَاكَ مَاهِيَه لَنَعمَت فَتَاةٌ كَالكَبِيسِ[4] المُلَوَّبِ[5]

14. فَلَو تَرَاءَت يَومًا لأَشمَطَ رَاهِبٍ لَظَلَّ مُقِيمًا عَاكِفًا بِتَطَرُّبِ

15. وَلَكِن لِتَبرِيحِ الجَوَى قَدَّ مُهجَتِي وَوَجدٍ أَلِيمٍ بِالفُؤَادِ المُعَذَّبِ

16. وَشَوقٍ فَظِيعٍ وَالغَرَامُ يَمُدُّه إِلَى بَحرِ لَوعَةِ الهَوَاءِ المُغَلَّبِ

17. غَرَامِيَ نَارٌ لاَ يُقَاسُ بِغَيرِهِ وَشَوقِيَ سَعِيرٌ لِلشَّوَاءِ المُهَضَّبِ

1 – الأثأب: شجر ينبت في بطون الأودية بالبادية. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل الثاء المثلثة، ص234.

2 – الرَّهِيدَةُ: الشَّابَّةُ الرَّخْصَةُ النَّاعِمَةُ.

3 – مُجاجُ فمِ الجارية: رِيقُها. ومُجاجُ العنب: ما سالَ من عصيره.

4 – الكبيسُ: حلي يصاغُ مجوّفا ثمّ يحشى بطيب ثمّ يُكبسُ. اللسان، ج6، حرف السين، فصل الكاف، ص190.

5 – نلاحظ جمال التشبيهات ورونق تصويرها، فهي تعبّر عن نفسها وتدلّ على سلامة ذوق صاحبها.

18. فَكَم لاَئِمٍ أنهَى النَّحيزَةَ وَالحَشَى عَلَى سَدَكِ الهَوَى وَلَم يَتَجَنَّب
19. إذَا صَدَحَت وُرقٌ عَلَى غُصنِ بَانَةٍ وَجَاوَبَها ورقِي عَلَى حَرفٍ مُذرَب
20. فَأُذني لَم تَسمَع سِوَى نَغمَةِ الهُدَى وَعيني لَم تُبصِر سِوى الدِّينِ مَذهَب
21. فَدِينُ الهُدَى دِيني وَالإسلاَمُ مَنهَجِي هُوَ الدِّينُ عِندَ اللهِ فِي كُلِّ مَشعَب
22. فَدِيني هُوَ الإسلاَمُ وَالحَقُّ الهُدى هُوَ الدِّينُ من عِندِ النَّبِيءِ المُحَبَّبِ[1]
23. دَلاَئِلُهُ كَالشَّمسِ زَهرٌ مُضِيئَةٌ مَعَالِمُهُ كَالبَدرِ لَيلَةَ غيهَب
24. لَقَد شَيَّدَهَا وَأَسَّسَهَا أئِمَّةٌ كِرَامٌ بِنُعمَانِ[2] ذِي بَانٍ وَزُرنُب
25. هُدَاةٌ أَعِزَّةٌ ثِقَاةٌ أَجِلَّةٌ سُرَاةٌ ذَوُوا جَاهٍ وَرَاءٍ[3] مُوَرَّب
26. نُجُومُ الهُدى أُولُوا المَكَارِمِ وَالعُلَى مَلاَذُ التُّقَى بُذُورُ سَهلٍ وَمُصعَب
27. شُرَاةُ النُّفُوسِ للحَقِيقَةِ قَد حَمَوا زَكِيُّونَ مَرضِيُّون فِي كُلِّ مَذهَبِ
28. نَقِيُّون مَعصُورُون نَفسًا وَشِيمَةً ذَكِيُّون ضَرَّابُون هَامَ مُحَبِّب
29. هُم العُروَةُ الوُثقَى هُم العَدلُ وَالنُّهى هُمُ الغَايَةُ القُصوَى كَدُرٌّ مُثَقَّب
30. هُمُ الظِّلُّ للأَنَامِ وَالبَدرَ بِالدُّجَى هُمُ الحُجَّةُ الغَرَّا كَنَجمٍ وَكَوكَبِ
31. هُمُ الفلكُ الأَعلَى هُمُ القُطبُ لِلرَّحَى هُمُ المَنظَرُ الأسنَى إِلَى كُلِّ مَكسَب
32. هُمُ الوَجهُ للنَّهجِ القَوِيمِ هُمُ الحَشَى هُمُ القلبُ للدِّينِ المُبِينِ المُهَذَّب
33. لَهُم شِيمَةٌ لَم يُعطِهَا اللهُ غَيرَهُم مِنَ الجَاهِ وَالرَّأيِ البَدِيعِ المُوَرَّب
34. وَهِمَّتُهُم حَملُ البَوَاتِرِ وَالقَنَى عَلَى هَامَةِ الأَعدَاءِ يَومَ التَّرغُّب

1 – لعلّك تلمس صدق التعبير وحرارته في الأبيات الثلاثة وتعلّقه بدينه عن يقين وإيمان صادق.
2 – المقصود بنعُمان: عُمان (السلطنة).
3 – يَعني: ورَأي.

35. وَحَملُهُم للبِيضِ للهِ سَاعَةً كَعُمرِ مُطِيعٍ عَابِدٍ مُتَرهِّب
36. أَقَامُوا مَنَارَ الدِّينِ بَعدَ اندِرَاسِهِ وَقَد رَكِبُوا فِي شَأنِهِ خَيرَ مَركَب
37. أُولَئِكَ حِزبُ اللهِ سِرًّا وَجَهرَةً أَلاَ إِنَّ حِزبَ اللهِ أَعظَمُ مَطلَب[1]
38. حَمَى اللهُ ذَاكَ الحِزبَ مِن كُلِّ عَاهَةٍ وَتَوَّجَهُ تَاجَ البَهَاءِ المُطَيَّب
39. وَأَلبَسَهُ خَزَّ السَّمَاحَةِ وَالنَّدَى وَطَوَّقَهُ مَجدَ الحَمَامِ بِيَثرِب
40. رَعَى اللهُ بَدرًا قَد بَدَى لِي بِمشرِقٍ مُضِيئًا كَبَرقٍ فَوقَ قُنَّةِ مُصعَب
41. عَنَيتُ بِذَا إِمَامَ سَيفٍ مُهَنَّدٍ شَهِيرًا بِهَذَا الاِسمِ شُهرَةَ كَوكَب
42. أَدِيبًا نَجِيبًا لِلمَحَاسِنِ جَامِعًا رَحِيبًا رَبِيطَ الجَأشِ غَيرَ مُذبَذَب
43. كَثِيرُ الرَّمَادِ مَعدِنُ الجُودِ وَالعَطَى طَوِيلُ النِّجَادِ وَالرِّمَاحِ المُعَلَّب[2]
44. صَبُورًا عَلَى رَيبِ الزَّمَانِ وَبَأسِهِ شَدِيدًا عَلَى الكُفَّارِ مِن كُلِّ سَقلَب[3]
45. عَظِيمًا كَرِيمًا مَاجِدًا ذَا مَهَابَةٍ سَلاَلَةَ دِينِ اللهِ دِينِي وَمَذهَبِي
46. أَدَامَهُ مَولاَنَا وَأَعلَى مَقَامَهُ وَأَرفَعَ شَأنَهُ عَلَى كُلِّ كَبكَب
47. وَأَكمَلَ نُورَهُ وَخَلَّدَ مُلكَهُ وَأَسعَدَ بُرجَهُ سَعَادَةَ يَثرِب
48. وَتَوَّجَهُ تَاجًا جَلِيلاً مُكَلَّلاً جَمِيلاً مُرصَّعًا بِدُرٍّ مُثَقَّب
49. أَيَا سُلطَانَ الإِسلاَمِ وَالحَقِّ وَالهُدَى أَيَا مَالِكَ البَرَّينِ جُدْ لِي بِمَطلَب
50. أَيَا هُمَامَ البَحرَينِ بَلِّغ لِيَ المُنَى وَكُن لِي مُجِيبًا سَامِعًا غَيرَ مُكَذِّب

1 – في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون﴾ المجادلة: 22.
2 – اقتباس من بيت الخنساء الشهير في أخيها صخر:
طويل النجاد رفيع العما دٍ، ساد عشيرته أمردا
ديوان الخنساء، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص42.
3 – السقلب: الجيل من الناس. اللسان، ج1، حرف الباء، فصل السين، ص469.

51. مَنَابِي وَمَقصَدِي وَسُؤلِي وَبُغيَتِي إِعَانَةَ أَهلِ الحَقِّ فِي كُلِّ مَشعَبِ
52. وَمِمَّا دَهَانِي وَاعتَرَانِي وَهَزَّنِي وَهَيَّجَ شَوقِي بِالفُؤَادِ المُعَذَّب
53. وَجَدَّدَ تَبرِيحِي وَزَادَ صَبَابَتِي إِلى وَصلِ مَحبُوبٍ وَجَمعِ مُحَبَّب
54. مقالَةَ أُستاذِي وسُؤلِي وقُدوَتِي إِمامٍ عظيمٍ ماجدِ الأُمِّ والأب
55. حَدِيدِ الفُؤَادِ مَاهِرٍ مُتَبَرِّعٍ ذَكِيٍّ رَبِيطِ الجَأشِ أسدٍ مُعنَدَب
56. عَزِيزٍ سُلَيمَانُ سُلاَلَةُ نَاصِرٍ[1] خَبِيرٍ سَمِيدَعٍ فَصِيحٍ لِمذرَب
57. لَقَد زَادَ شَوقِي نَحوَكُمُ يَا أَحِبَّتِي وَيَا إِخوَتِي وَالطَّيفُ غَيرُ مُكَذَّب
58. لَكُم فِي سُوَيدَاءِ الفُؤَادِ مَسَاكِنٌ فَوَدُّكُم فِي القَلبِ غَيرُ مُنَصَّب
59. عَلَيكُم سَلاَمُ اللهِ ثُمَّ رِضَاؤُه وَرَحمَتُه مَا رَنَّ قَلبِي بِمُصعَب
60. عَلَيكُم سَلاَمٌ مِن مَشُوقٍ إِلَيكُمُ ذَلِيلٍ مُتَيَّمٍ ذِي صَبٍّ بِمَغرِبِ
61. عَلَيكُم سَلاَمٌ كُلَّ يَومٍ وَلَيلَةٍ غَدَاةَ غُدُوٍّ مَع رَوَاحٍ مُؤَوَّب
62. عَلَيكُم سَلاَمٌ كُلَّ سَهلٍ وَبُقعَةٍ بِنَجدٍ وخِيفٍ ثُمَّ حَزنٍ وَكَبكَب
63. عَلَيكُم سَلاَمٌ كَالرَّحِيقِ خِتَامُه مَشُوبًا بِأَتجُوجٍ[2] وَمِسكٍ وَكَركَب
64. عَلَيكُم سَلاَمٌ زَنجَبِيلٌ مِزَاجُهُ مَرِيجًا بِكَافُورٍ وَرَندٍ وَزُرنُب[3]
65. يُجَلِّلُ مِنكُم كُلَّ شَيخٍ وَيَافِعٍ وَعَبدٍ وَحُرٍّ ذِي أَصِيلٍ مُهَذَّب
66. دَوَامَ زَمَانٍ مَا النَّسِيمُ تَنَسَّمت وَنَاحَت حَمَام فَوقَ غُصنٍ بِأَثأَب
67. وَمَا رَنَّت خُودٌ وَغَنَّت ذُبَابَةٌ وَمَا لاَحَ بَرقٌ فَوقَ قُنَّةِ مُصعَب

1 – هو سليمان بن ناصر العماني.
2 – الأتجوج: الصّبُّ الكثير من المطر أو غيره. اللسان، ج2، حرف الجيم، فصل الثاء، ص221.
3 – لاحظ التكرار البديع في قوله: "عليكم سلام".

68. وَحَنَّت ضَمَائِرِي لِصَبٍّ حَبِيبَهَا وَهَاجَ اشتِيَاقِي بِالفُؤَادِ المُعَذَّب
69. فَهَذَا الذِي هَاجَ الغَرَامَ بِمُهجَتِي وَبَدَّدَ شَملِي بَعدَ أَن قَدَّ مَطلَب
70. فَبِتُّ عَلَى طُولِ اللَّيَالِي مُسَهَّدًا سَلِيمًا[1] كَمَلذُوعٍ بِسُمٍّ لِشَوشَب
71. فَدُونَكُم مِنِّي إِلَيكُم قَصِيدَةً وَفِي جِيدِهَا عِقدُ اللآلِي المُثَقَّب
72. تَجُرُّ ذُيُولُ العَبقَرِيِّ أَمَامَكُم وَتَرفُلُ فِي ثَوبِ الخُزُوزِ المُشطَّب
73. إِذَا مَا شَادَهَا مَاهِرٌ ذُو تَرَنُّمٍ تَصِيخُ لَهَا آذَانُ كُلِّ مُطرِبِ
74. فَخُذهَا عَلَى رَغمِ الأُنُوفِ لِحَاسِدٍ وَلاَ تُنصِتَنَّ أَخِي لِقَولِ المُخَبِّبِ
75. فَمَا قُلتُهَا فَخرًا وعُجبًا وَسُمعَةً وَلَكِن عَلَى شَوقِ الحَبِيبِ المُحَبَّبِ
76. فَفِي قَالَبِ البَحرِ الطَّوِيلِ سَبَكتُهَا بِحُسنِ مَعَانٍ بَعدَ لَفظٍ مُورَّب
77. أَفِق وَأَقبِلَن قَلبِي هَلُمَّنَّ أَسرِعَن إِلَى سَيِّدٍ يُعطِي جَزِيلاً فَاطلُب
78. رَأَيتَ ذَوِي الحَاجَاتِ حَولَ بُيُوتِه قَطِينِينَ يَسئَلُون أَفضَلَ مَطلَب[2]
79. فَأَعطَى لَهُم مُنَاهُم وَقَضَى لَهُم مَآرِبَهُم كَمَا اشتَهَوا غَيرَ خُيَّب
80. أَنَا وَاحِدٌ مِنهُم إِلهِي وَسَيِّدِي فَاغفِر ذُنُوبًا فِي فُؤَادٍ مُذَبذَب
81. قَد أَوقَدَ ذَاكَ الذَّنبُ فِي القَلبِ وَأَسعَرَ نِيرَانًا فِي جِسمٍ مُوصَّب
82. تَيَقَّنتُ أَنَّ عفوَ رَبِّي أَجَلُّ مِن ذُنُوبِي وَإِنْ جَلَّت عَلَى كُلِّ كَبكَب
83. لَعَلَّ جَمِيلَ العفوِ يَعفُو بِفَضلِه وَيَصفَحُ عَنِّي مَا جَنَت يَدُ مَثلَب

1 – السليم: اللّديغ، وإنّما سمّي اللديغ سليما لأنّهم تطيّروا من اللديغ فقلبُوا المعنى، كما قالوا للحبشيّ أبو البيضاء، وكما قالوا للفلاة مفازة فتفاءلوا بالفوز وهي مهلكة، فتفاءلوا لذلك بالسلامة. اللسان، ج12، حرف الميم، فصل السين، ص292.
2 – اقتباس من بيت الشاعر زهير بن أبي سلمى ولقد تقدّم استعماله وتوظيفه في قصيدة غير هذه، كما وسبق الإحالة عليه في مظانه من الديوان.

84. سَأَلتُكَ يَا مَولاي غُفـرَانَ زَلَّتـي وَمَحـوَ خَطِيئَتِـي يَـومٍ مُشَـرعَب
85. بِحُرمَةِ مَن صلَّى وَنَـادَى إلآهَـهُ نِـداءً خَفِيًّـا بَـينَ دَاجٍ وَغَيهَـب
86. وَصَامَ وَقَـامَ ثُـمَّ حَـجَّ بَيتَـهُ وَزَارَ مُمَجَّـدًا نَبِيًّـا بِـيَثرَب
87. عَلَيـهِ سَلاَمُ اللهِ مَـا لاَحَ بَـارِقٌ وَمَا نَاحَ قُمرِيٌّ عَلَى غُـصنِ أَثـأَب
88. وَمَا نَشدَ الصَّبُّ الحَبِيبُ مَقَـالَتِي تَـأَوَّبَنِي وُجـدٌ أَلِيـمٌ بِمُـصعَب

قصيدة أخرى في مدح سليمان بن ناصر العُماني

فَبعدَ ذَلك كُلِّه تَرَاكَمَ عَليَّ شَوقٌ عَن شَوقٍ، وَتَزَاحَمَ وُجدٌ عَن عِشقٍ، حَتَّى قُلتُ عَلَى جِهَةِ التَّوليدِ وَالتَّجريدِ فِي حَقِّ سَادَتِي وَأَحِبَّتِي، وَقَادَتِي وَإِخوَتِي، شِعرًا ثَانِيًا مِن الخَفِيفِ وَهُو الحَادِي عَشَرَ مِن البُحُورِ، المُسدَّسِ الأَجزَاءِ، وَقَد خبنتُ بَعضهَا لِحُسنٍ وَكَففتُ بَعضَهَا لِصُلُوحِيتِهِ وَشَكَّلتُ القَلِيلَ مِنهَا وَأَدرَجتُ البَيتَ الوَاجِدَ مِنهُ لِقُبحِهِ وَثِقلِهِ:

(بحر الخفيف)

1. إِنَّ قَـلبِي بِيَـسْجَنَ ذُو البَـسَـاء كَئِـبٌ حَزِنٌ كَثِـيرٌ البَـلاَء
2. مَسَّ جِسمِيَ ضُرٌّ فَـصِرتُ نَحِـيلا وَجَـنًا مُـدنِفًا كَوَهيِّ الـسِّقَـاء
3. فَكَأَيِّن مِـن سَاعَـةٍ وَلَيَـالٍ بِتُّ فِيـهَا أَرعَى نُجُـومَ الـسَّمَاء
4. ثُـمَّ بِـتُّ مُـسهَّدًا كَـسَلِيمٍ بِـسُمُومٍ للعَقـرَبِ العَوجَـاء
5. لَيسَ بِي شَـغَفٌ وَعِـشقُ خَـرُودٍ غَضَّةٍ بضَّـةٍ قَطُـوفِ الخطَـاء
6. شِـطبَةٍ نَهـدَةٍ كَطُـوقِ الحَمَـامِ قَد تَهَادَت فِي رِيطَـةٍ وَمَـلاَء
7. ذَاتَ عَـينٍ مُمَاثِـلٍ لِمَهَـاةٍ ذَاتَ جِيـدٍ مُمَاثِـلٍ لِـرَشَاء
8. ذَاتَ فَـرعٍ مُمَـاثِلٍ لِغُـرَابٍ مِثلَ قِنـوٍ لِنَخلَـةٍ حَمـرَاء[1]
9. ذَاتَ كِـشحٍ كَـسُندُسٍ عَبقَـرِيٍّ ذَاتَ حِلمٍ مَـصُوتٍ كَالقَطَـاء
10. ذَاتَ ثَـغرٍ مُجَاجُـهُ زَنجَبِيـلٌ ذَاتَ كَفٍّ مُخـضَّبٍ ذِي سَـنَاء
11. ذَاتَ وجـهٍ مُقسَّـمٍ كَـصبَـاحٍ ذَاتَ نَـحرٍ يُـضِـيءُ كَـالآلاَء
12. فَبِمَنظَـرِها تَلِـيـنُ وَتُلهِـي ثُـمَّ تَشفِـي حَـرارَةً مِن ظَمَـاء
13. فَـإِذَا شَامَهَا رَهِـيبٌ شَمِيـطٌ لَبِـسَـتهُ مَطَـارِفَ الحِربَـاء

1 – لاحظ استعمال الشاعر لعناصر من بيئته، وذلك قصد تنويع التشبيه في الوصف.

14. وَلَـكِن بِي صَبَابَـةٌ وَغَـرَامٌ وَاشـتِيَاقٌ وَلَوعَـةٌ وَهَـوَائي[1]
15. وَصُداحُ حَمَـامَةٍ فَوقَ غُـصنٍ بَدَّدَت مُهجتِـي وَقَدَّدَت حَـشَائِي
16. عَلى دِيـنِي وَمَذهَبِي وَسَبِيـلي قَـد تَمَـزَّقَ لَحمُـهُ بالعَـرَاء
17. مَجَّـهُ أهـلُـهُ وقـد نَبَـذُوهُ بَعدَ أن وَزَّعُـوهُ كَالأنـصِبَـاء
18. ثُم أَلقَوهُ فِي غَيَابَـاتِ جُـبٍّ[2] مُوحِشًا مُطرَدًا كَطَـردِ الدُّبَـاء
19. ولِفَـقـدِ أَحِبَّـةٍ بِعُـمَـانٍ عُظَـمَـاءٍ أئـمَّـةٍ عُلَـمَـاءِ
20. كُـرَمَـاءَ سَمَـاحَةً، فُـضَـلاَءَ أَغنِيَـاءَ نَـزَاهَـةً، أُمَـرَاء
21. ذَوِي عَـدلٍ وَثَـروةٍ وزَكَـاءٍ ذَوِي جَـاهٍ وَقُـوَّةٍ وَذَكَـاءِ
22. نُـجَـبَاءَ أجِـلَّـةٍ أَصفِيَـاءَ صُلَحَـاءَ، وَهُم مَنَـارُ الهُـدَاء
23. حَـبَّذا حَـبَّذا مَفَـاخِرُ مِنهُـمُ مِن المُـحدَثِـيـن وَالقُـدَمَـاء
24. أَنـتُـم سَـادَةٌ وَأَنـتُـم وُلاةٌ أَنتُـم حِلـيَـةٌ لأهـلِ الوَفَـاء
25. أَنتُـم فِي السَّبِيـلِ خَـيرُ رَفِيـقٍ أَنتُـم قِدوةٌ وَنُـورُ الـدُّجَـاء
26. أَنتُـم للأَنَـامِ رُكـنٌ شَدِيـدٌ أَنتُـم مَلجَأٌ لأَهـلِ الـرَّجَـاء
27. فَلأَنتُم فِـي كُلِّ أَمـرٍ مُهِـمٍّ أُسوَةٌ لِذَوِي السَّـنِّ وَالحِجَـاءِ
28. فَلأَنتُم فِي سُـلوَةٍ مِـن حَيَـاةٍ وَلأنتُم فِي بُقعَـةٍ مِـن إِثَـاء[3]
29. كُلُّ حُسنٍ وَإِن تَعَـاظَمَ حُـسنًا فَهوَ مِن حُسنِهِـمُ بِغَـيرِ امتِـرَاء
30. كُلُّ فَضلٍ وَإِن تَـعَاظَمَ فَـضلاً فَهوَ مِن فَيضِهِـم بِغَـيرِ افتِـرَاء[4]

1 – لاحظ أيضًا التنويع البديع في استعمال المترادف.
2 – اقتباس من الآية الكريمة في سورة يوسف وتمامها: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ يوسف: 10.
3 – لاحظ مرّة أخرى التكرار البديع من خلال التوكيد اللفظي "لأنتم".
4 – كذلك التوكيد في البيتين وكيف استعمل القصر فيه.

31. فَفَـرِحنا بِما سَـمِعنَا عَلَيكُـم أَنَّكُم قَاصِمُون ظَهْـرَ العِـدَاء
32. وَرَغَمتُم أُنُـوفَ كُـلِّ حَقُـودٍ قَالِـيًا لكُم، بِـرَمي القَـنَاء[1]
33. فَأَبَنتُم بِالـبِيضِ[2] هَـامَ غَـشُـومٍ مَزَّقَـت لَحمَهُ سِبَـاعُ العَـرَاء
34. وَبِطَعنِ القَنَـاة حُـزتُم مَقَامًـا لَم تَـنَلـهُ سِيَـادَةُ الآبَـاء
35. وَبِنصلِ السُّيُوفِ نِلـتُم مَرامًـا مِن عَدُوٍّ لَكُـم كَمِثـلِ الدُّبَـاء
36. فَلأَنتُم أَشَـدُّ رَهـبًا مِـن اللَّـ ـهِ، بِمَا فِي الصُّدورِ عِندَ اللِّقَـاء
37. لَم تَلِـد أُنثَـى مِثلَـهُم بِولِيـدٍ عَارِفٍ طَعنَـةً بِيَـومِ الوَغَـاء
38. يَا لِقَومِي هُـم بِمَـتنِ عِـرَابٍ وَبِظَهرِ هِجَـانٍ نَبـتُ الرُّبَـاء
39. يَا لِقَومِي هُـم لُيـوثُ عَرِيـنٍ وَكُـمَـاةٌ وَصُـبَّـرٌ لـلأَدَاء
40. وَغَرَامي بِهِـم غَـرَامٌ فَـضِيـعٌ وَاشتِيَاقِي بِهِم كَجَمـرِ الغَـضَاء
41. سَحَّ دَمعِي بِالخَدِّ شَوقًـا إِلَـيهِم إِذ بَكَيتُ دَمًا كَقَطـرِ السَّمَـاء
42. فَبِـذِكرِكُمُ تَـسَلَّيـتُ صَبـرًا بَعـدَ وُجـدٍ وَلَوعَـةٍ وجَـوَاء
43. وَبِذِكرِ الإِمَـامِ[3] إِمَـامِ سَيـفٍ زِدتُ حُـبًّا وَعَبرَةً مِـن بُكَـاء
44. سَـيِّـدًا مَاجِدًا لَبِـيبًا نَجِـيبًا مُنتَبَ المَجـدِ مُحكِمًا للجَـشَـاء
45. رَحِـمًا مُكـرِمًا ذَا برٍّ مُهابًـا مَعدِنُ الجُودِ صَابِـرًا للبَـسَـاء
46. خِـلِّـدَن رَبِّ مُلكَـهُ وَأَدِمَـهُ وَارفَعَن شَأنَهُ كَرَفـعِ اللِّـوَاء
47. وَأَكـلِـمِن نُـورهُ وَزِدهُ بَهـاءً وَأَسعِدَنـهُ سَعَـادَةَ الجَـوزَاءِ

1 – القناء: ج. قناة، وهي الرماح.
2 – البيض: السيوف.
3 – الإمام: هو الممدوح طبعًا، سليمان بن ناصر العماني.

48. وَبِـنَظْـمِ شَيـخٍ إِمَـامٍ[1] خَـبِيرٍ فَاضِلٍ عَالِـمٍ عَظِيـمِ الدُّهَـاء
49. مَاهِـرٍ مَاجِـدٍ عَزِيـزٍ عَزِيـزٍ ذَكِـيٍّ نَـقِيٍّ كَرِيـمِ الآبَـاء
50. ذَاكَ شَيـخُ سُلَيمَان نَجلُ نَاصِـرٍ[2] أَنجَلَى عَنِّي بَعـضَ ذَاكَ البَـلاَء
51. فَسَـلامٌ مِنِّـي عَلَيـكُم وَأَلـفٌ مِن ثَنَـاءٍ يَفُـوقُ نَشرَ الكَبَـاء
52. وَسَلاَمِي كَـزُرنُبٍ فِي رِيَـاضٍ وَسَلاَمِـي كَعَـنبَرٍ ذِي ذُكَـاء
53. وَسَلاَمِي كَـوَسمِيٍّ فِي رَبِـيعٍ وَسَلاَمِـي كَأَقحُـوَانِ الرُّبَـاء
54. وَسَلاَمِي كَـرَيحَانٍ فِي غِـلاَفٍ وَسَلاَمِـي كَصَنـدَلٍ فِي وِعَـاء
55. وَسَلامِي كَـجَوهَرٍ فِي صَـدَافٍ وَسَلاَمِـي كَسُنـدُسٍ فِـي بَهَـاء
56. وَسَلاَمِي يَـعُـمُّ كُـلَّ عَـبِيدٍ وَشُـيُـوخٍ وَيَـافِـعٍ وَإِمَـاء
57. وَسَلاَمِي يَحُـلُّ فِي كُـلِّ سَهـلٍ وَجَـبَالٍ وَبُقـعَةٍ وَكُـدَاء[3]
58. وَسَـلاَمٌ مِنِّي عَلَيـكُم بِـصُبحٍ وَغُـروبٍ وَغُـدوةٍ وَعِـشَاء
59. وَسَـلاَمٌ مِـنَ السَّـلاَمِ عَلَيكُـم وَسَـلاَمٌ مِـنَ العَظِيـمِ الآلاءِ
60. وَسَـلاَمٌ مِـنَ الكَرِيـمِ عَلَيكُـم وَسَـلاَمٌ مِـنَ الكَـثِيرِ العَطَـاء
61. أَنـتَ لِي سَيِّدِي وَأَنتَ إِلآهِـي حَافِظٌ لِي مِن كُلِّ ضَرِّ الأَسَـاء
62. أَنـتَ تَعلَمُ مَا تَمَـرَّضَ قَلبِـي لَيسَ يَخفَى عَلَـيكَ فِي القَلبِ دَاء
63. إِنَّ لِي سَيِّـدِي، ذُنُوبًـا عِظَامًـا أَورَثَنِي ضِـيقًا وَسَـحَّ البُكَـاء
64. لَيسَ لِي مِن خَلاَصِـهَا قُـوَّةٌ أَو حِيلَةٌ يَا مَـولاَيَ غَـيرُ الدُّعَـاء

1 – يقصد العُماني دائما لأنّه أوّل من بادر بالكتابة إلى مزاب فردّ عليه مادحًا وشاكرا صنيعه.
2 – هو سليمان بن ناصر العماني.
3 – الكداء: ج. كدية، المرتفع الصغير. اللسان، ج15، حرف الياء، فصل الكاف، ص229.

65. ضِقتُ ذَرعًـا مِمَّا جَنَيتُ بِأَيـدِي وَلِسَـانِي وَنَـاظِـرِي وَحَشَـاء
66. رَبِّ إِنِّـي ذُو زِلَّـةٍ وَأَثِيـمٌ كَئِيبٌ حَـزِينٌ كَثِيـرُ الخَطَـاء[1]
67. رَبِّ إِنِّـي إِلَيكَ عَبـدٌ ذَلِيـلٌ آئِـبٌ تَائِـبٌ مَـدِيدُ الرَّجَـاء
68. فَقِـنِي عَثرَتِي وَكُن لِـي وَلِيًّـا وَنَـصِـيرًا وَسَامِعًـا لِنِـدَاء
69. أَجِب لِي دَعوَتِي وَكُن لِي غَفُـورًا سَاتِرًا لِلعُيُـوبِ يَـومَ الجَـزَاء
70. وَلِـصَالِـحِ وَالِـدَيَّ وَلِجَمـعٍ مِنَ الـمُسلِمِيـنَ وَالـفُـضَـلاَء
71. فَبِفَضلِ الرَّسُولِ لِلخَـلقِ طُـرًّا أَحـمَـدَ الأُمِيِّ الكَرِيـمِ الآبَـاء
72. سَرِيًّـا مُجتَـبًى سِرَاجًا مُنِيـرًا نَقِيًّـا مُصـطَفَى رَفِـيعِ اللِّـوَاء
73. سَيِّـدًا مَاجِدًا رَؤُوفًـا رَحِيمًـا زَكِيًّـا نَبِـيًّـا كَثِيـرَ العَطَـاء
74. أَكمَـلُ العَالَمِينَ خَلقًـا وَخُلقًـا أَعـلَـمُ الـعُلَمَـاءِ وَالحُكَمَـاء
75. فَعَلَيهِ مِـن رَبِّنَـا كُـلَّ وَقـتٍ بَعدَ أَزكَى السَّلاَمِ أَزكَى الـسَّنَـاء
76. صَلِّ يَا رَبِّ ثُـمَّ سَلِّـم عَلَيـهِ عَدَدَ الرَّمـلِ وَالحَـصَى وَالكُـدَاء
77. صَلِّ يَا رَبِّ ثُـمَّ سَلِّـم عَلَيـهِ مَا سَعَى البَدرُ فِي بُـرُوجِ الـسَّمَاء
78. مَا أَجَادَ فِكرِي وَفُهـتُ بِنُطقِـي .إِنَّ قَلبِـي بِيَسجَـنَ ذُو البَسَـاء

هَذَا وَعَلَيكُمُ السَّلاَمُ التَّامُ، وَالرَّحمَةُ وَالبَرَكَةُ وَالإِكرَامِ، مِن الجَمِّ الغَفِيرِ، وَالجَمعِ الكَثِيرِ وَالكِرَامِ الأَعيَانِ، ذَوِي الحَلِّ وَالعَقدِ عَلَى مَمرِّ الأَزمَانِ الجَمَاعَةِ العَزَّابِيَّة[2]، القَائِمَةِ بِأَمرِ الدِّينِ فِي السِّرِّ وَالعَلاَنِيَة، نَخُصُّ مِن بَلَدِنَا بَنِي يَسجَنَ قُطبَ رَحَاهَا وَشَمسَ ضُحَاهَا عُمدَةُ المُتَصَدِّرِين فِي المَعقُولِ وَالمَنقُولِ، وَقُدوَةُ المُدرِّسِين فِي الفُرُوعِ وَالأُصُولِ، ذَا التَّوَالِيفِ العَدِيدَةِ وَالتَّصَانِيفِ الحَمِيدَةِ، وَالمَآثِرِ الجَلِيلَةِ وَالمَفَاخِرِ الجَمِيلَةِ، العَالِمِ العَلاَّمَةِ الفَاضِلِ، النَّدبِ الأَرِيبِ الكَامِلِ، ضِيَاءً

1 – إعتراف الشيخ بضعفه وقلّة حيلته يتكرّر بكثرة في قصائده.
2 – يقصد أعضاء حلقة العزّابة.

الدِّينِ وَنُورُ العَالَمِينَ، شَيخِي وَأُستَاذِي وَقُدوَتِي، وَنُورُ مَذهَبِي وَجِلدَةُ مَا بَينَ عَينِي عَبدُ العَزِيزِ بن الحَاج بن إبرَاهِيم بنُ عبد الله بنُ عبد العزيز الثميني الذي هُوَ أَخٌ لأُمِّي[1]، أَعَزَّهُ الله مَولاَنَا وَأَطَالَ بَقَاءَهُ، وَأَعلَى شَأنَهُ، وَمِنهَا ذَا المَحَاسِنِ الكَرِيمَةِ وَالآرَاءِ السَّدِيدَةِ، إِمَامُ الأَنَامِ وَقُدوَةُ الإِسلاَمِ عَمُّنَا سَعِيد بنُ قَاسِم بنُ زكرياء[2]، وَالنَّجِيبُ الذَّكِي النَّبِيهُ الزَّكِيُّ، العَالِمُ المَشهُورُ، يُوسُفُ بنُ احمد[3] المَذكُورِ وَالفَاضِلِ الفَقِيه، الشَّيخ الوَجِيهُ، عَمُّنَا مُوسَى بن يَعقُوب بن موسى[4] وَالعَلاَّمَةِ المَرفُوعُ المُقَدَّم عَلَى سَائِرِ الجُمُوعِ، فِي جَمِيعِ الأُصُولِ وَالفُرُوعِ، الشَّيخ مُوسَى بن الشَّيخ يَحيَ بن صالح[5] أَصلَحَ الله مَولاَنَا حَالَه، وَأَعَزَّ مَقَامَهُ، وَالفَاضِلُ الرَّفِيقُ، العَالِمُ الصَّدِيقُ، عَمُّنَا صَالِح بنُ يَحمَد بنُ سُلَيمَان[6] وَسَائِرِ الفُضَلاَءِ الصُّلَحَاءِ الفُقَهَاءِ الكُرَمَاءِ وَغَيرِهِم مِمَّن كَانَ مَعَهم وَيَطُولُ تعدَادُهُم، وَمِن غَردَايَةَ[7] شَيخُ الطَّرِيقَةِ المُستَقِيمَة، الحَامِي لِلذِّمَارِ وَالحَقِيقَة، العَالِمُ العَلاَّمَةُ الفَاضِلُ الفَهَّامَة، الأَعَزُّ الأَمجَد، الأَكمَلِ الأَسعَد، كَهفِ الأَنَامِ وَبَدرِ التَّمَامِ نُورُ الدِّينِ، الشَّيخُ إِبرَاهِيم[8] بن

1 – هذا هو التصريح الذي أكد فيه صلته بالشيخ "ضياء الدين" بأنه خال الشاعر ابن بحمان.

2 – سعيد بن قاسم بن زكرياء: أحد أعيان بني يسجن، له مراسلات مع بعض علماء عمان مثل سليمان بن ناصر العماني. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص382.

3 – يوسف بن امحمّد: هو أيضا من العزّابة وممّن راسل أهل عمان، ولا شكّ أنّه ذو مكانة علمية، قلت لعله الشيخ يوسف بن حمو بن عدون صاحب التقييدات التاريخية. ينظر: نفسه، ج4، ص1034.

4 – موسى بن يعقوب بن موسى: لعلّه ابن عمر بن يعقوب بن موسى بن عيسى (ق.12هـ/18م) منشئ مكتبة آل افضل ببني يسجن، عاصر الشيخ "عمّي يحي"، وفي المكتبة أزيد من ثلاثين كتابا بخطّ يده. توفي حوالي 1208هـ/1794م.
ينظر: فهرس مخطوطات خزانة عشيرة آل فضل ببني يسجن. جمعية التراث، 1996م، التقديم، ص5.

5 – موسى بن الشيخ يحي بن صالح: عالم في الأصول والفروع، وهو من النساخ، اطلعت على بعض منها مخطوطة بخزانة آل فضل تحت رقم [خ.غ.104/هـ74] بها فوائد ورُخص، ولا بدّ أنّه اشتغل فعلا كما وصفه صاحب الديوان بالفروع والأصول، وله مراسلات، كما كان مهتما بالكتب جمعًا ونسخًا.
ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص903.

6 – صالح بن يحمد بن سليمان: قال لي الأستاذ يحي بوراس إنّه صاحب مخطوطات حبسها للأجر، وفي معجم الإباضية صالح بن يحمد اليسجني (حي 1192هـ/1781م).
ينظر: فهرس مخطوطات الخزانة العامّة مؤسّسة الشيخ عمّي سعيد غرداية، ط1، 2002، ص153.

7 – يقصد قصر غرداية، أسس عام: 477هـ/1085م، ولا يزال عامرا بأهله إلى اليوم.

8 – الشيخ إبراهيم: هو الشيخ بابه، وقد سبق ذِكره كما رثاه الشيخ بعد وفاته، عاصر الشيخ وجالسه.

الشَّيخِ مُحَمَّد بن أبي القَاسِم[1] الأَكرَمِين المُنتَخَبِين، وَمِن الشَّجَرَةِ المُبَارَكَةِ المَغرُوسَة، وَالعَارِف النَّقدُ البصير بِالأَحكَامِ، النَّافِذ الأُمُورِ المَقبُولِ الكَلاَمِ، الفَاضِلِ القَاضِي، الوَالِي لِكُلِّ مِنَ الدَّانِي وَالقَاصِي، عَمُّنَا عُمَر بن صالح[2]، وَاللَّبِيب الحاذق الأَدِيبِ الصَّادِق، الرَّفِيعِ المُحتَذَى، الكَرِيمِ المُجتَبَى، أَبَا بَكر بنُ يُوسُف[3]، وَجُمَلَةُ الأَتقِيَاءِ الأَبرَارِ، الكُرَمَاءِ الأَخيَارِ، الدَّأَبِين عَنِ الدِّينِ، آنَاءِ اللَّيلِ وَأَطرَافَ النَّهَارِ، المُسَبِّحِينَ بِالعَشِيِّ وَالإِبكَارِ، وَمِن مَليكة[4] العَلِيِّ الشَّأن، المُشَارِ إِلَيه بِالبَنَان، الشَّيخ عَمُّنَا عَبدُ العَزِيزِ بن صَالِحِ بن امحمَّد[5] وَالفَاضِلِ المُكَرَّمُ عَمُّنَا يَحيَ بن إبراهيم بن امحمَّد[6]، وَالرَّحِيمُ لِلأَبرَارِ، الشَّدِيدُ عَلَى الكُفَّارِ، أَبَاعَمُّور بن أَحمَدَ بن إبرَاهِيم[7] وَغَيرُهُم مِن أَهلِ الصَّلاَحِ وَالرُّشدِ وَالفَلاَحِ، وَمِن بُنُورَه[8] الشَّيخ الحَلِيم التقي

1 – الشيخ محمّد بن أبي القاسم الغرداوي المصعبي: هو ابن الشيخ "حمو والحاج" أشهر علماء غرداية.
يُعدّ من النُّسّاخ هو الآخر، وهو سليل عائلة مشهورة بالعلم، سبق التعريف به،

2 – عمر بن صالح: من أعيان غرداية، اشتهر بقاضي القضاة، تلميذ الشيخ عبد العزيز الثميني، له وثائق عديدة بخطّ يده لمجلس عمّي سعيد، منها وثيقة باسم علماء مزاب مؤرخة في 1834م في الفصل في فتنة وقعت بين أهالي القرارة. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص644.

3 – أبو بكر بن يوسف: عضو حلقة عزابة بغرداية، من النُّسّاخ المشهورين، كان ضمن الوفد الذي حضر الفصل في فتنة القرارة الأولى سنة 1200هـ. وكان مع وفد الشيخ عبد العزيز الثميني،
ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص180.

4 – مليكة: من آواخر قصور وادي مزاب في التأسيس، حوالي عام 786هـ/1355م، هي بالبربرية "آت مليشت" قال عنها القطب أطفيش "يمكن أن تكون سمّيت لرجال عمروها من بلاد تسمّى مليكش، قبيلة بربرية منتشرة شرق في الجزائر". ينظر: حاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص23.

5 – عبد العزيز بن صالح بن امحمّد: في معجم أعلام الإباضية ورد حمّ وليس بن أحمد ولعلّه نفسه، من مليكة، عالم جليل وعزّابي من الأشياخ، توجد اتّفاقات بخطّ يده مؤرّخة بالسنوات: 1180هـ، 1196هـ، 1199هـ كما شغل منصب رئيس مجلس عمّي سعيد.
ينظر: أعلام الإباضية، ج3، ص537.

6 – يحي بن إبراهيم بن امحمّد: من مليكة، شيخ عزّابتها، له مراسلات مع الإمام سليمان بن ناصر العماني في قضايا تهمّ المجتمع والمذهب. ينظر: نفسه، ج4، ص956.

7 – باعمور بن أحمد بن إبراهيم: مؤرخ من مليكة، وجدت اتفاقيات بخط يده، وهو جد قاضي مليكة الحاج أحمد بن داود امعيز. ينظر: اتفاقيات العزابة، ص51.

8 – بنورة: آت بنور، أصلها بُنور اسم قبيلة بربرية أسّست عام 457هـ/1065م وهي على جبل صغير منقطع عن باقي الهضبة الثانية في الوادي. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص22.

الكَرِيمُ، ذَا بِشرٍ وَبَشَاشَة، وَمَجد وَسَمَاحَة، الشَّيخ عَمُّنَا مُوسَى بن إسمَاعِيل[1] وَالفَقِيهُ النَّاصِحُ، الصَّادِقُ الصَّالِحُ، يَحيَ بن عيسى بن إبرَاهِيم بن يَحيَ[2] وَمَن كَانَ مَعَهُما مُقتَفِيًا بِأَثَرِهِمَا، وَمِن تَجْنِينْت[3] الشَّيخُ الحَدِيثُ العَهد، صَاحِبُ النَّبَاهَة وَالمَجد، أَبَا بَكرِ بن الشَّيخ دَاود بن يُوسف[4] وَالفَقِيه الذَكِيُّ الفَاضِلُ السَّرِيُّ أَبَا عيسى بن إبرَاهِيم بن إبراهيم[5] وَمَن سَلَك سَبِيلَهُمَا، وَاحتَذَى حَدوَهُمَا، وَمن بَلَد القَرَارَة، العَالِمُ العَلاَّمَةُ، ذَا حَظٍّ عَظِيمٍ فِي العُلُومِ، وَممَّن يُستَودَعُ عِندَهُ كُلُّ سِرٍّ مَكتُومٍ، الشَّيخُ البَارِعُ الأَمجَدُ الوارِعُ عَمُّنَا الحاج بن القَاسِم[6] وَأَخَاه الإِمَام المُقتَدَى بِه أَهلِ الإِسلاَم محمّد بن القـــاسم[7] وَالفَقِيه الشَّهِير، سُلَيمان بن يوسف[8] وَغَيرِهِم من الجَمِّ الغَفِير، وَمِن أَهلِ بَرَّيان إبرَاهِيم بن سُلَيمَان[9] وَعَمُّنَا أَحمَد بن قاسم[10] الفَقِيه، وَمَن تَبِعَهُمَا، وَهَؤلاَء كُلُّهُم مُسَلِّمُونَ عَلَيكُم غَايَةَ سَلاَم، مَعَ نِهَايَة تَحيَّة مُبَارَكَة طَيِّبَة وَإِكرَام، مَا دَامَ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَسَائِلُونَ عَنكُم وَعَن أَحوَالِكُم المَرضِيَّة وَحَالِ الإِسلاَم، اللهُ اللهُ إخوَانَنَا سَادَاتَنَا فِيمَا أَنتُم عَلَيه مِنَ الزِّيَادَة فِي كُلِّ

1 – موسى بن إسماعيل: للأسف لم أقف على اسمه بعد طول بحث، وهو لا شكّ من فضلاء مدينة بنورة وأعيانها البارزين على غرار من جاء ذكرهم في الرسالة.

2 – يحي بن عيسى بن إبراهيم بن يحي: من النساخ المشهورين قال عنه قطب الأئمة: «إنّه نسخ مالم ينسخه أحد من المصعبيين». ولقد وقفت على أزيد من عشر كتب مخطوطة بيده بخزانة المكتبة العامّة بغرداية.

3 – تجنينت: أقدم مدن مزاب، أسّسها خليفة بن أبغور عام 402هـ/1012م أصل التسمية "تجنينيت" بجيم قاهرية، إناء لشرب الماء يصنع من سَعَفِ النخيل، ولمّا كانت منخفضة أسفل وادي مزاب بحيث تجتمع فيها مياه السيول سمّيت بذلك الوعاء تشبيها.

4 – أبو بكر بن الشيخ داود بن يوسف: شيخ مدينة العطف، تعلّم على يد والده، كان مدرّسا وواعظا خلف والده بإجماع المشائخ قدّمته العطف ممثّلا لها في مجلس عمّي سعيد، فكان كاتب جلساتها مع صغر سنّه، وقد عاصر الشيخ صاحب الديوان. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص176.

5 – أبا عيسى بن إبراهيم: للأسف لم أعثر على ترجمة له هو الآخر، لكني أثبت هنا شهادة الشيخ صاحب الديوان عنه بأنّه كان فقيها ذكيّا، وفاضلا سريًّا.

6 – الحاج بن أبي القاسم: هو بالحاج بن كاسي الشهير بـ"الشيخ بالحاج"، سبق التعريف به.

7 – محمّد بن القاسم: لم أعثر له على تعريف آخر فيما وصلت إليه يداي من المراجع والمصادر، غير أنّه كان إماما وقدوةً في الهدى والاستقامة وهو أخو "الشيخ بالحاج".

8 – سليمان بن يوسف: لم أجد تعريفًا له إلاّ ما وصفه به الشيخ هنا من أنّه فقيه شهير.

9 – إبراهيم بن سليمان: لم أقف على ترجمته مع طول بحث.

10 – أحمد بن قاسم: فقيه كما وصفه الشيخ، ليس أكثر، مغمور لم أجد ترجمته هو الآخر.

خَيرٍ وَالنُّقصَان لِكُلِّ شَرٍّ، وَمِن بِنَاءِ مَعَالِمِ الهُدَى وَالصَّلاَحِ، وَتَشييد مَرَاقِي الرُّشد وَالفَلاَحِ، وَالتَمَسُّك بِالعُروَة الوُثقَى من غَيرِ الانفصَام[1]، وَتَثبُّت الأَقدَام وَرُسُوخ البَنَان فِي كَفِّ الإِسلاَم، وَالأَمرِ بِالمَعرُوف بُكرَةً وَعَشِيَّةً، وَالنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً، كَيفَ لاَ يَكُونُ منكُم ذَلِكَ وَقَد خُوِّلتُـــم رَغَدًا وَاسِعًا، وَعَيشًا جَامِعًا، وَلَذَّةً جَيِّدَةً وَحَيَاةً طَيِّبَةً من جَنَّات عَالِيَة، ذَات قُطُوف دَانِيَة[2]، وَعُيُونٍ سَاهِرَة، وَأَنهَارٍ جَارِيَة، بِخلاَف بَنِي مُصعَب[3] فَإِنَّهُم فِي ضَنَك عَيشٍ، وَطَوشٍ وَطَيشٍ وَدَغَشٍ وَطَهشٍ وَفِي أُنَاسٍ ضِعَاف، وَسَبعِ بَقَرَاتٍ عِجَاف يَأكُلنَ مَا قُدِّمَ لَهُنَّ[4]، وَيَرغَبنَ عَمَّا فِيه صَلاَحُهُنَّ، وَقَد أَعرَضُوا عَن مُوجِبِ السَّعَادَة العُلَيَا، وَجَنَحُوا إِلَى عَرَضِ الحَيَاة الدُّنيَا، وَرَفَعُوا الطِينَ وَوَضَعُوا الدِّينَ، "وَنَبَذُوهُ فِي زَاوِيَة الهُجرَان"[5] فَصَارَ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فِي أَوَّلِ الزَّمَان، فَسُدَّت حِينَئِذ مَصَادِرُهُ، وَاندَرَسَت مَوَارِدُهُ، وَعَفَت أَطلاَلُهُ، وَانطَمَسَت مَعَالِمُه، حَتَّى ظَلَّ فِيهَا السَّالِكُونَ وَهَلَكَ بِهَا الدَّاخِلُونَ، وَلَقَد جَرَّدَ الدَّهرُ عَلَى أَهلِهَا سَيفَ العُدوَان، وَأَبَادَ مَن كَانَ فِيهَا مِنَ السُّكَّان وَلَم يَبقَ فِيها حِسٌّ وَلاَ أَنِيسٌ وَلاَ كَصٌّ[6] وَلاَ جَلِيسٌ.

كَأَنْ لَم يَكُن بَينَ الحُجُون إِلى الصَّفَا أَنِيسٌ وَلَم يَسمُر بِمَكَّةَ سَامِـــرُ[7]

وَإِنَّنَا فِي زَمَانٍ عَبُوسٍ قَمطَرِيرِ الحَوَاجِبِ جَسُوسٍ، قَد تَلاَطَمَت فِيه أَموَاجُ الفِتَـــنِ[1]، وَتَزَاحَمَت فِيه عَسَاكِرُ المِحَنِ، أَهلُهُ ذِيَابٌ لاَبِسُونَ الثِّيَاب، غَالِبُهُم

1 – اقتباس من قوله تعالى من البقرة وتمامها: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويومن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ البقرة: 256.

2 – اقتباس من قوله تعالى من سورة الحاقة وتمامه: ﴿فهو في عيشة راضية في جنّة عالية قطوفها دانية﴾ الحاقة: 21-23.

3 – بني مصعب: هم بنو مزاب.

4 – اقتباس أيضا من قوله تعالى وتمام الآية: ﴿وقال الملك إنّي أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ يوسف: 43.

5 – هذه العبارة ممّا ورد في كتاب "مختصر المناسك ومهذّب المسالك" المنسوب إلى إبراهيم المصعبي، وقد اعتمدتها فيما اعتمدته في تصحيح نسبة الكتاب إلى الشيخ إبراهيم بن بحمان.

6 – الكصُّ: كأص الرجل: صَبَرَ، الكؤص: الصَّبُور. اللسان، حرف الصّاد، فصل الكاف، ج7، ص84.

7 – لم أتوصل إلى نسبة البيت إلى صاحبه مع طول بحث وتنقيب.

عَقَارِبٌ، وَجَمَاهِيرُهُم ثَعَالِبٌ، فَالجَهلُ عِندَهُم مَشهُورٌ، وَالعِلمُ لَدَيهِم مَهجُورٌ، لاَ يَعرِفُونَ لَهُ قِيمَةً، وَلاَ لأربَابِه شِيمَة، وَلاَ قُوَّةَ لَنَا عَلَى ذَلك وَلاَ حِيلَة؛ وَعَلَيكُم أَيُّهَا الإِخوَان، بِاستِحضَارِنَا فِي قُلُوبِكُم كُلَّ وَقت وَأَوَان, وَفِي مَظَان الإِجَابَة العَظِيمَة الشَّان، وَالدُّعَاءِ الصَّالِحِ بِجَمِيعِ الأَركَان، أَن يُسَدِّدَنَا رَبُّنَا المَلِك الدَّيَّان، وَيُوَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرضَاهُ مِن قَوَاعِدِ الإِيمَان، وَيَمُنَّ عَلَينَا وَعَلَيكُم بِحُسنِ الخَاتِمَة وَالإِنَابَة إِلَيه وَالعَافِيَة، وَبَردِّ الجَوَاب إِلَينَا عَن أَحوَالِكُم السَّنِيَّة، وَمَا أَنتُم عَلَيه مِنَ الشُّؤُونِ المَرضِيَّة، فَإِنَّهُ لَو قَدَرنَا عَلَى الإِتيَان إِلَيكُم، وَالتَّوَجُّهَ إِلَى سَاحَتِكُم، وَالوُصُولَ إِلَى بِلاَدِكُم، لأَتَينَاكُم وَلَو حَبوَةً، وَزُرنَاكُم وَلَو لَحظَةً، وَلَكِن صَرَفَنَا عَن ذَلِكَ وَمَنَعَنَا مِن رُؤيَةِ مَا هُنَالِكَ، بُعدُ المَسَافَة وَطُولُ المَشَقَّة، وَتَغَيُّرُ الزَّمَان وَقِلَّةُ الأَمَان، وَضُعفُ الأَبدَان وَشَحطُ المَكَان وَبُنُوُّ الأَوطَان، وَقِلَّةُ الرَّفِيقِ وَعَدَمُ الصَّدِيقِ وَالقَولُ كَمَا قَالَ صَاحِبُ التَّحقِيق:

1 زُر من هَوَيتَ وإن شَطَّ بِكَ الدَّارُ وَحَالَ مِن دُونِه حُجبٌ وَأَستَارُ

2 لاَ يَمنَعَنَّكَ بُعدٌ مِن زِيَارَتِه إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يَهوَاهُ زَوَّارُ[2]

وَلْيَكُن هَذَا آخِرَ مَا قَصَدتُه، وَالحَمدُ للهِ سُبحَانَهُ عَلَى إِتمَامِ مَا طَلَبتُهُ وَأَردتُه، وَتَارِيخُ هَذَا المَكتُوبِ المَبعُوثِ إِلَى المَحبُوب، زَوَالَ يَومِ الإِثنَين ثَالِث عَشَر من شَوَّال سَنَة ستَّة وَمَائَتَين وَأَلف من بَعد هِجرَة سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّدِ بن عَبد الله صَلَّى الله عَلَيه وَسَلَّمَ.

1 – إشارة إلى الفتن التي عصفت بهم في ذلك العصر، وقد ذكرت بعضها في التقديم، وكان من أسبابها الجهل والتخلف والانحطاط الثقافي عمومًا، وغياب السلطة النظامية كالجيش أو الشرطة، وانتشار العصبية القبلية ينظر بتفصيل: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ط1، ص 70، 71.

2 – للأسف لم أتوصل إلى نسبة البيتين لقائلهما مع طول البحث.

فِي مَدح بَعض عُلَمَاءِ بَنِي يَسجَن[1]

وَفِي شَأن الكِرَام البَرَرَة العِظَام السَّفَرَة، الشَّيخ امحمَّد بن الشيخ العلامة يُوسُف[2] [وَتَلاَمِيذَته][3] الفَاضِلِينَ أَبِي بَكرِ بن يُوسف[4] وَمُوسَى بن عَمِّنَا يحي بن صَالِح[5].

الحَمدُ للهِ الذي خَصَّ الإِنسَانَ بِمَعرِفَة أَوضَاعِ المَبَانِي، وَأَلهَمَهُ كَيفِيَة تَرَاكِيبِ المَعَانِي، وَجَعَلَ قُلُوبَ العَارِفِينَ مِرآةً لإِدرَاكِ صُوَرِ المَحسُوسَات، وَصَيَّرَ أَفئِدَةَ العَالَمِينَ طَابَعًا لارتِسَامِ المَعقُولاَت، وأَقدَرَهُم على استِنبَاطِ الدَّقَائِق، وأَلهَمَهُم عَلَى استِخرَاجِ الحَقَائِق، فَسُبحَانَ مَن لَهُ المُلكُ وَالتَّدبِيرُ، ﴿أَلاَ لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير﴾[6] فَمَن أَحَبَّهُ من عَبِيدِه مَسَكَهُ بِيَدِه وَهَدَاهُ إِلَى السَّبِيلِ، وَمَن لَم يُحِبَّهُ خَلاَّهُ هُوَ وَنَفسَه فَصَارَ تَائِهًا فِي أَودِيَةٍ مُضِلَّةٍ من غَيرِ دَلِيلٍ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى البَشِيرِ النَّذِير، سَيِّدَنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد بن عَبد الله السِّرَاجِ المُنِيرِ المُضِيءِ مَشَارِقَ الأَرضِ وَمَغَارِبَهَا، المُنَوِّرِ حَنَادِيسَ الكُفرِ، المُشَيِّدِ قَوَاعِدَ الدِّينِ وَمَدَارِجَهَا، وَعَلَى آلِه الذِينَ بِمَنظَرِه السَّنِيِّ صَارُوا، وَأَصحَابَهُ الذِينَ بِمُلاَحَظَةِ مُحَيَّاهُ البَهِيِّ سَادُوا، وَلِلمَعَالِي أَحَازُوا، وَبَعدُ:

فَلَو رَأَيتَ إِلَى دِينِنَا، وَنَظَرتَ إِلَى مَذهَبِنَا، لَوَجَدتَهُ ظِلاًّ زَائِلاً، وَسَرَابًا بِقِيعَةً[7] آفِلاً، مَنبُوذًا وَرَاءَ الظَّهرِ، مَطرُوحًا فِي زَاوِيَةِ الهَجرِ، مُنطَمِسَ الأَرجَامِ مُندَرِسَ الأَعلاَمِ، غَرِيبَ الاسمِ، طَرِيدَ الوَسمِ، بِذَا نَقصُهُ من أَطرَافِ الأَرضِ، وَرَجَعَ بَعدَ

1 – العنوان من وضعي.

2 – هو الشيخ امحمد بن الشيخ يوسف "نزيل جربة" سبق التعريف به.

3 – هكذا في الأصل، ولعله يقصد تلميذيه.

4 – أبو بكر بن يوسف "قاضي القضاة" سبق التعريف به أيضا.

5 – موسى بن يحي بن صالح الأفضلي، سبق التعريف به أيضا.

6 – اقتباس من قوله تعالى في سورة الأعراف وتمامه: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف، 54].

7 – اقتباس من قوله تعالى في سورة النور وتمامه: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ النور: 39.

الإبرَامِ إِلَى النَّقضِ، كَادَ أَن تُزهَقَ رُوحَه وَيَذهَبَ اسمُهُ، وَلَم يَبقَ فِي تَرَاقِيه إِلاَّ رَمَقُهُ وَرَسمُهُ، وَقَرُبَت شُمُوسُهُ عَلَى الأُفُولِ، وَتُرِكَ فِي زَوَايَا الخُمُولِ، وَلاَ أَلبَسَ فِي مَصَادِرِه، وَلاَ جَاسَ[1] فِي مَوَارِدِه؛ وَرَأَيتُ إِلَى عَصرِنَا، وَتَوَجَّهتُ بِفِكرِي إِلَى دَهرِنَا، فَلَقِيتُهُ دَهرًا مَنكُوسًا، وَعَصرًا مَعكُوسًا، أَهلُهُ ذِئَابٌ وَثَعَالِبٌ، وَأَمَاحِيُ وَعَقَارِبٌ، ظَاهِرُهُم مَلِيحٌ، وَبَاطِنُهُم قَبِيحٌ، "وُجُوهُهُم كَاشَّة، وَقُلُوبُهُم عَاشَّة"[2]، مَملُوءَةٌ بِحَسَدٍ وَكِبرٍ، وَغِشٍّ وَخِدعٍ وَمَكرٍ، فَلاَ أَنِيسَ فِيهِم تُجَالِسُهُ، وَلاَ جَلِيسَ تُسَارِرُهُ، وَلاَ وَزِيرَ تُجَاوِرُهُ، وَلاَ أَحَدَ تُشَاوِرُهُ، وَأَمَّا بَنُوا مُصعَبَ اليَومَ وَإِن كَانُوا فَأُنَاسٌ ضِعَافٌ، وَسَبعُ بَقَرَاتٍ عِجَافٌ[3]، فَقَد اشتَغَلُوا فِي إِذَاقَةِ الضَّرَّاءِ وَالبَسَاءِ بَعضُهُم لِبَعضٍ، وَنَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِه مِنَ الاشتِغَالِ بِنَفلٍ وَفَرضٍ، وَأَلبَسُوا لِدِينِ اللهِ سُبحَانَهُ مَندِيلاً، وَاتَّخَذُوهُ مَسخَرَةً، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا، وَلَم يَجِدُوا حِينَئِذٍ دَلِيلاً، وَأَعلَنُوا بِأَكلِ الحَرَامِ جِهَارًا[4]، وَأَصَرُّوا عَلَيه استِكبَارًا[5]، وَأَبَاحُوا حُرَمَ اللهِ تَعَالَى سِرًّا وَعَلاَنِيَةً[6]، وابتَدَعُوا بِدَعًا مُضِلَّةً وَاتَّخَذُوهَا رَهبَانِيَةً[7]، وَاستَغَاثُوا المَولَى فَلَم يُغَاثُوا[8]، وَسَأَلُوهُ فَلَم يُجَابُوا، وَاستَنصَرُوهُ فَلَم يُنصَرُوا، وَاستَخصَبُوهُ فَلَم

1 – هكذا في الأصل ولعل المقصود أيضا: داس، لأن الخط غير واضح هنا.

2 – هذه العبارة ذكرها لي الحاج سليمان بكاي، ورويت عن الشيخ عبد العزيز الثميني، قيل أنه خرج من منزله لإصلاح فتنة بغرداية، بعد أن مكث في عزلته على ما يروى خمس عشرة سنة، ولما مرّ بباب البلدة خارجا من بني يسجن وجد جماعة من الأشرار متربصة هناك، فدعا الله وسأله السلامة ومن جملة ما ذكره في دعائه هذه العبارة الأخيرة متعوّذا بها من شرورهم، ويروى أنها كانت آخر أيام عزلته، حيث عاد بعدها إلى الحياة العامة وإلى مجالسة العامة.

مقابلة مع الحاج سليمان بكاي بمكتبة الاستقامة ببني يسجن بتاريخ 27 مارس 2005م.

3 – اقتباس من سورة يوسف الآية 43، وقد مرت معنا منذ قليل.

4 – سبق شرحها في التقديم لعصر الشيخ، وهنا تأكيد لما أسلفت من تعاطي بعض المحرّمات جهارًا.

5 – اقتباس من قوله تعالى، وتمام الآية: ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا﴾ نوح: 07.

6 – تأكيد آخر على التجاوزات الخطيرة التي أقضت مضجعه.

7 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ الحديد: 27.

8 – إشارة فعلية إلى الوبال الذي أصابهم ببغيهم، وفعلا كما أشرت من قبل، فقد انتشرت الأمراض الفتّاكة كالطاعون وسنوات الجفاف والقحط وكلّها ابتلاءات من الله حتّى ينيبوا إليه.

ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص81.

يُخصِبُوا، وَأَذَاقَهُم لِبَاسَ المَذَلَّةِ وَالهَوَانِ، وَسِروَالَ الجُبنِ وَالخُسرَانِ، فَصَارُوا أُسُودًا عَلَينَا، وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةً، وَلُيُوثًا لَدَينَا وَفِي الوَغَى دَجَاجَةً، وَسَلَّطَ اللهُ مَولاَنَا عَلَيهِم نُقصَانًا فِي ثَمَرَاتِهِم بِجَمِيعِ الآوَانِ، وَأَجلاَفَ العَرَبِ يَذبَحُونَهُم وَيَقتُلُونَهُم فِي كُلِّ مَكَانٍ[1]، وَاتَّبَعُوا مَن لَم يَزِدهُم إِلاَّ خَسَارًا، وَلَم يَجِدُوا مِن دُونِ اللهِ أَنصَارًا[2]، ثُمَّ إِنِّي أَجَلتُ قِدَاحَ نَظَرِي، وَأَدَرتُ سِهَامَ فِكرِي، فَرَأَيتُ أَنَّ الدُّنيَا أَشفَت عَلَى الانقِرَاضِ، وَأَنَّ سَبَبَ مَا جَرَى فِي الدِّينِ مِنَ الانقِبَاضِ، هُوَ مَوتُ العُلَمَاءِ الأَخيَارِ، الفُضَلاَءِ الأَبرَارِ، كَمَا هُو مُشَاهَدٌ فِي جِربَةَ المَحرُوسَةِ وَغَردَايَةَ المَعلُومَةِ، وَبَنِي يَسجَنَ المَوسُومَةِ، فَإِنَّ الأُولَى كَانَت فِيهَا دَارُ الشَّيخِ العَلاَّمَةِ ضِيَاءُ الدِّينِ الفَهَّامَةِ يُوسُف بن احمد[3] وَأَولاَدُهُ[4] دَارُ بَرَكَةٍ وَعِلمٍ، وَعَظَمَةٍ وَحِلمٍ، فَتَفَانُوا بِجَمِيعِهِم، وَأُهلِكُوا عَن آخِرِهِم، وَلَم يَبقَ فِيهَا مِن بَعدِ عَلاَّمَتِهَا طَودٌ مِن أَطوَادِهَا ـ شَيخُنَا مُحَمَّد بن يُوسُف رَحِمَهُمُ اللهُ ـ مَن يَنسِفُ فِيهَا نَارًا لَيلاً وَلاَ نَهَارًا، حَتَّى التَحَقَت بِمَدَائِنِ إِخوَانِنَا النَّفُوسِيِينَ حِينَ صَارُوا فِي أَودِيَةِ الجَهلِ غَائِصِينَ[5]، وَالثَّانِيَةُ[6] كَانَت مَدِينَةً بِعُلَمَائِهَا، غَيرَ مُحتَاجَةٍ إِلَى غَيرِهَا، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِم بِأَن أَهلَكَ مَن كَانَ فِيهَا عَالِمًا كَشَيخِهَا العَلاَّمَةِ بَابَ[7] بن احمد[8]

1 –إشارة فعلية تأريخية لما كانت قوافل بني مزاب تلاقيه إلى عهد قريب من أهوال النهب والسلب من طرف الأعراب على طول الطريق بين مُزاب والجزائر. وفي الديوان قصيدة ورسالة إلى داي الجزائر في شان أعراب أولاد صالح الذين طالما تربصوا الدوائر بقوافل المزابيين في مناطق الشفة قصد نهبها.

2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿قال نوح ربّ إنّهم عصوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خسارا...ممّا خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ نوح: 21، 25.

3 –هو "نزيلُ جربة" وقد سبق التعريف به.

4 – أبناؤه: أبو عبد الله محمد، وأبو الحسن علي، والحاج أمهني وأبو الربيع، هكذا وجدتهم دون تفصيل عن حياتهم ومنجزاتهم، وللأسف لم أصل إلاّ إلى بيان أسمائهم فقط مع طول البحث.

ينظر: سالم بن يعقوب، تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، تونس 1986 ص123–138.

5 – معلومة تاريخية مهمّة على عهده، حيث باتت نفوسة بالفعل بعد قرون من الازدهار في أودية الجهل حتّى قدوم العائلة البارونية الذين تصدّوا للفتن والجهل وقد اشتهر منهم سليمان الباروني تلميذ القطب أطفيش.

6 – يريد: مدينة غرداية.

7 – هكذا ورد في الأصل: وهي بابه أيضا لقب لاسم إبراهيم بالبربرية لا يزال متداولا إلى اليوم بمزاب.

8 – هو بابه بن محمد بن الحاج أبي القاسم الغرداوي المصعبي (1716–1792) ابن الشيخ حمو والحاج.

وَالعَالِم أَبي بكر بن يُوسُف[1] وَغَيرِهِمَا، فَبَقِيَت كَبِير[2] مُعَطَّلَة، وَآنِيَة من غَير عُرُوَة[3]، لاَ مَن يُفتي فِيهَا مَسأَلَة، وَلاَ يَقضِي فِيهَا حُكُومَة، وَاستَولَى عَلَيهَا عَسَاكِرُ الجَهلِ، فِي حَالَة القَولِ وَالفِعلِ، وَالثَّالِثَةُ هِي مَدِينَتُنَا فَحَالُهَا يَؤُولُ إِلَى التَّلاَشِي وَالذَّهَاب، وَالتَّغَيُّر وَالخَرَاب، لِكَون مَشيهِم عَلَى غَير الصَّوَاب، وَقَد طَفَقُوا فِي الأَخذ بفنَاء دَار كَانَت فيها بَيتَ العُلُوم، وَرُكنًا شَديدًا فِي جَمِيع المُلمَّات وَالقَضَاء المَحتُوم، إِذ منهَا قَد استَنَارَت بمَن فيهَا، وَأَضَاءَت شَرقَهَا وَغَربَهَا، وَهِيَ دَارُ الشَّيخ العَلاَّمَة الأَكمَل، عَمُّنَا يَحيَ بنُ صَالِح[4] وابنه الحاج مُوسى[5] الفَهَّامَة الأَمثَل، فَقُلتُ عَلَى إِثرِ ذَلِكَ الأَشيَاخِ فِي شَأن الشَّيخ مُحَمَّد بن يُوسُف[6] وَتلميذَيه الأَفضَلَين أَبي بَكر بنُ يُوسُف[7] وَالحَاج مُوسى ابن عَمِّنَا يَحيَ[8] لِتَقَدُّمِ الذِّكرِ عَلَى غَيرِهِم، من بَحرِ الوَافِرِ رَابِعِ البُحُورِ:

1. فَيَا مَولاَيَ بِالسَّبعِ الطِّوَالِ سَأَلتُكَ دَاعِيًا حُسنَ المَآلِ
2. إِلَيكَ أَلتَجِي فِي كُلِّ أَمرٍ وَغَفرَ زَلَّتِي يومَ النِّكَالِ
3. فَيَا رَبِّي قَد استَندتُ ظَهرِي إِلَيكَ طَالِبًا حُسنَ المَعَالِ
4. فَيَا مَولاَيَ هَب لِي مِن لَدُنكَ نَجاةً من مَسَالِكِ الضَّلاَلِ
5. فَإِنِّي سَائِلٌ إِيَّاكَ رَبِّي أَمَنْ يُحبُّ كَثرَةَ السُّؤَالِ
6. فَاغفِر مَا جَنَت يَدِي وَعَينِي وَقَلبِي لاَ يَعِي قُربَ الزَّوَالِ

1 – هو أبو بكر بن يوسف بن أبي بكر المصعبي: من أعيان غرداية وعزّابتها ومن النسّاخ سبق التعريف به.
2 – يريد: كبئر، لكن البربر من عادتهم تخفيف الكسرة وفيها اقتباس أيضا من قوله تعالى ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبير معطلة وقصر مشيّد﴾ الحج: 45.
3 – كناية عن غياب من تسند إليه الأمور ومن يستعان به على معضلات الحياة بعد ربّ العباد.
4 – يحي بن صالح الأفضلي "عمي يحي" أشهر من نار على علم، سبق التعريف به.
5 – ابنه الحاج موسى بن يحي مات عائدا من الحجّ ولا تشير المصادر إلى زمان ومكان وفاته بالضبط.
6 – نزيل جربة، سبق التعريف به.
7 – أبو بكر بن يوسف: من غرداية.
8 – الحاج موسى بن يحي بن صالح الأفضلي: فقيد طريق الحج.

7. وَلاَ أَحَدٌ يُخلِّصُنِي سِوَاكَ مِنَ الزِّلاَّتِ فَاسمَع لِلمَقَالِ
8. فَمَا أَرَّقَنِي وَأَشجَانِي مِرَارًا ذُنُوبًا أَورَثَت[1] ضَيقًا بِبَالِ
9. تُمَرِّضُنِي وَتُؤذِينِي كَثِيرًا تَكَاد أَن تَدُكَّ ذُرَى الجِبَالِ
10. بَكَيتُ مِنَ الجُفُونِ بُكَاءَ ثَكلَى دُمُوعًا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ
11. فَلَو كَانَ البُكَى يُغنِي فَتِيلاً بَكَيتُ دَمًا عَلَى طُولِ اللَّيَالِ
12. وَلِيَ قَلبٌ مِنَ الهُمُومِ يُمسِي وَيُصبِحُ وَاجِفًا مِثلَ الغَوَالِ
13. وَفِي جَنبَيَّ تَبَارِيحٌ وَوَجدٌ وَفِي عَينَيَّ دَمعٌ كَالسِّجَالِ
14. فَلَم يَكُ ذَاكَ مِن بَرقٍ وَمِيضٍ وَلاَ هُبُوبِ رِيحٍ مِن شَمَالِ
15. وَلاَ رَبعٌ وَجِيرَتِهِ استَقَلُّوا عَشِيَّةَ بَينِهِمُ عَلَى الرِّحَالِ
16. ولا من تَغرِيدِ الحَمَامِ شَوقًا ولا صَبِّ الغَمَامِ بِالتِّلاَلِ
17. وَلاَ مِنَ الرَّهِيدَةِ ذَاتِ خِدرٍ عَلَى لَبَّاتِهَا[2] عِقدُ اللِّئَالِ
18. مُهَفهَفَةٍ بَرَهرَهَةٍ رَدَاحٍ قَطُوفُ المَشيِ بَارِعَةُ الجَمَالِ
19. خَبَرنَجَةٍ خَدَلَّجَةٍ تَهَادَى بِمِرطِهَا وَجِيدٍ مِن غَزَالِ
20. لَهَا عَينٌ كَرَبرَبِ سَوَادًا لَهَا قَدٌّ كَغُصنٍ فِي اعتِدَالِ
21. وَلَكِن كَانَ ذَا لِلدِّينِ أَمسَى خَرَابًا بَلقَعًا مِثلَ الخَيَالِ
22. فَيَا لَهفِي عَلَى الإِسلاَمِ حَقًّا ثَوَى وَصَارَ مَسخَرَةَ العِيَالِ
23. وَعَادَ مجدِّلاً فَلاًّ وَحِيشًا غَرِيبَ الاسمِ مُنقَطِعَ الوِصَالِ
24. وَقَفتُ بِرَبعِهِ عِندَ الأَصِيلِ أُسَائِلُهُ فَأَعيَى عَن مَقَالِ
25. وَقَد عَفَت مَعَالِمُهُ وَسُدَّت مَصَادِرُهُ أَيَا عَمِّي[3] وَخَالِ[4]

1 – أورثت: بمعنى خلّفت وتركت.
2 – اللّبة، موضع العقد من الحبيبة، سبق شرحها.
3 – لعلّه قصد هنا أستاذيه: الشيخين "عمّي يحي" وخاله "ضياء الدين عبد العزيز الثميني".
4 – خاله ضياء الدين الشيخ عبد العزيز الثميني.

26. وَضَلَّ السَّالِكُونَ بِهَا وَضَلُّوا عَنِ الهُدَى إِلَى نَيلِ الآمَال
27. وَعَادَ كَمَا بَدأ ينما طَرِيدًا[1] عَلَى مَا قَالَ سَيِّدُ الرِّجَال
28. وَظَلَّ وَجهُهُ مُلقًى بِعَقرٍ لِفَقدِ أَئِمَّةٍ ذَوِي الجَلاَل
29. أَبرَارِ البَحرِ أَسمَاجٍ ثِقَاتٍ هُدَاتِ الدِّينِ نِبرَاسِ اللَّيَال
30. عَلَى فَضلٍ وَبِرٍّ ثُمَّ هَدي ذَوِي عِلمٍ وَحِلمٍ وَاعْتِدَال
31. ذَوِي مَجدٍ ذَوِي فَخرٍ وَعِزٍّ ذَوِي لُبٍّ ذَوِي أَيدٍ طِوَال
32. عَمِيدُهَا ضِيَاءُ الدِّينِ حَقًّا سُلاَلَةُ يُوسفَ[2] بَدرِ الكَمَال
33. مُحَمَّدٌ أَزكَى النَّفسِ شَيخًا بِجربَةَ قَد تَسَامَى فِي الفَعَال
34. نَجِيبًا طَاهِرًا مِن كُلِ رِجسٍ ذَكِيًّا فَاضِلاً طَيِّبَ النَّوال
35. لَبِيبًا مَاهِرًا نَقِيًّا مَجِيدًا كَرِيمًا حَاذِقًا نُورِ اللَّيَال
36. إِلَيهِ يُلتَجَى فِي كُلِّ أَمرٍ مُهِمٍّ شَأنُهُ فِي كُلِّ حَال
37. وَقَد كَانَ لِلوَرَى رُكنًا شَدِيدًا وَحِصنًا مَانِعًا مِنَ العَوَال
38. وَقَد كَانَ لِلهُدَى طَودًا عَظِيمًا وَمَثوَى مُنقِذًا مِنَ الضَّلاَل
39. لَهُ مَجدٌ فَنِيعٌ بعدَ عِزٍّ لَهُ فَخرٌ سَمَى فَوقَ التِّلاَل
40. لَهُ فَضلٌ لَهُ شَرَفٌ أَصِيلٌ لَهُ بَاعٌ طَوِيلٌ فِي المَعَال
41. فَطُوبَى تُربَةٌ ضَمَّت حَشَاءً لِذَاكَ الشَّهمِ ذِي حُسنِ المَآل
42. وَصَارَ الرَّمسُ مُنغَلِقًا عَلَيهِ بِحَبسٍ ثُمَّ جَندَلِ الجِبَال

1 – اقتباس وإشارة إلى حديث الرسول ﷺ، «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ» صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحديث رقم 209، ص114.

2 – هو محمّد بن يوسف "نزيل جربة".

43. سَلاَمُ اللهِ بَعدَهُ رِضَاءٌ عَلَيهِ بِالغُدوِّ وَالآصَال
44. وَنَذكُرُ بَعدَهُ خِلاًّ جَلِيلاً حَبِيبًا قَد ثَوَى قُربَ الزَّوَال
45. عَنَيتُ بِذَا أَبَا بَكرٍ[1] مُسَمًّى بِنَجلِ يُوسُفَ الفَصِيحَ المَقَال
46. جَمَالُ الدِّينِ حَقًّا قَد أَقَامَ بِغرداَيَةَ البَدِيعَةِ الجَمَال
47. وَكَانَ بِهَا بِلا رَيبٍ وَجِيهًا وَذَا عَزمٍ وَحَزمٍ وَذَا وِصَال
48. وَكَانَ مَفزَعًا لِكُلِّ خَلقٍ لَدى خَطبٍ فَظِيعٍ يَا ابنَ خَال
49. وَكَانَ لَدَيهِ سَيفًا صَقِيلاً وَحَبلاً وَاثِقًا بِلاَ انفِصَال
50. لَهُ يَدٌ طَوِيلٌ فِي العُلُوم لَهُ مَجدٌ سَنِيعٌ فِي التَّعَال
51. إِلَى كُفُؤٍ لَهُ يُوطِي جَنَاحًا مِنَ الذُّلِّ، وَيَرفَعُ لِلجُهَّال
52. لَئِن بُسِطَت يَدٌ إِلَيهِ يَومًا تَنَل مِنهُ مَحَاسِنَ النَّوَال
53. لَقَد أَضحَى وَحِيشًا تَحتَ لَحدٍ وَقَد أَمسَى مُوسَّدَ التِّلاَل
54. سَقَاهُ رَبُّنَا مِن سَلسَبِيلٍ وَمِن تَسنِيمِ جَنَّةِ الجَلاَل
55. نُعقِّبُ نَعيَتِي بَعد هَذَا بِذِكرِ مَاهِرٍ طَيِّبِ الفِعَال
56. لَبِيبٍ فَاضِلٍ دِمرٍ ذَكِيٍّ رَحِيبِ الجَيبِ ذِي حُسنِ المَآل
57. حَفِيدٍ صَالِحٍ سَلِيلٍ يَحيَ بَهَاءُ الدِّينِ نِبرَاسُ اللَّيَال
58. عَظِيمُ الشَّأنِ مُوسَى[2] قَد تَسَامَى سُمُوَّ النَّجمِ فِي ذُرَى الجِبَال
59. وَكَانَ بِيَسجَنَ مَوردًا عَظِيمًا وَمَنهَلاً صَفِيًّا مِن زُلاَل
60. وَكَانَ لِكُلِّ مُعضِلٍ مُهِمٍّ إِمَامًا مُنقِذًا مِنَ الضَّلاَل

1 – أبو بكر بن يوسف المصعبي الغرداوي، سبق التعريف به.

2 – موسى بن يحي بن صالح الأفضلي "الغريق" سبق التعريف به.

61. أَتَانَا نَعيُهُ أَودَى بِبَحرٍ وَصَارَ قَبرَهُ بِلاَ جِدَال

62. وَقَد ثَوَى وَمَاتَ طَرِيقَ حَجٍّ وَذَلِكَ بَعدَ زَورِهِ لِلمَعَال[1]

63. وَفِيمَن مَات بِذَلِك المَقَامِ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةُ المَقَال

64. مِن أَنَّه قَد أَودَى فِي طَرِيقٍ طَرِيقِ جَنَّةِ دَارِ الكَمَال

65. أُلاَكَ شُيُوخُ بِرٍّ قَد تَسَامَوا وَصَارُوا فِي القُبُورِ كَالخَيَال

66. يَدًا بِيدٍ تَنَاسَقُوا جَمِيعًا رِمامًا مُوحِشِين بِكُلِّ حَال

67. فَحَقَّ لِعَينِي أَن تَبكِي عَلَيهِم بُكَاءً دَائِمًا مُدَّةَ اللَّيَال

68. وَتَسكُبَ عَنهُم دَمعًا طَوِيلاً وَتَندُبَهُم غُدوًا مَعْ أَصَال

69. وَلأَجلِهِم تَسُحُّ سَحَّ ثَكلَى وَفِيهِم عِبرَةٌ بِلا انفِصَال

70. وَقَد بَقِيتُ بَعدَهُم فَرِيدًا وَحِيشًا مِثلَ تَيسٍ فِي الجِبَال[2]

71. فَيَا مَولاَيَ هَبْ إِلَيَّ صَبرًا جَمِيلاً غَيرَ مُنقَطِعَ الوِصَال

72. عَلَيهِم فِيهِم وَبِهِم وَعَنهُم حُمَاةُ الدِّينِ سَادَاتُ الرِّجَال

73. فَلَولاَهُم وَلَولاَهُم وَلَولاَ لَتَاهَ الدِّينُ فِي وَادِ الضَّلاَل[3]

74. فَيَا مَولاَيَ صَلِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَى الرَّسُولِ طَيِّبِ الفِعَال

75. مُحَمَّدٌ بن عَبدِ اللهِ يُدعَى عَظِيمُ الشَّأنِ نَاصِرُ كُلِّ وَالِ

76. نَبِيًّا طَاهِرًا حَقًّا رَسُولاً كَرِيمًا مَاجِدًا حَسَنَ المَآل

1 – هذه المعلومة التاريخية لم ترد في تعريف الشيخ موسى إلاّ في هذا المكان وبذلك يكون صاحب الديوان أوّل من أرّخ للشيخ موسى وأورد بشيء من التفصيل خبرا عن وفاته، وهو الموت غرقا بعد عودته من أداء مناسك الحجّ.

2 – لقد شدّني هذا التشبيه البديع من بيئة الشيخ ولازالت أقلب فيه حتّى قال لي الشيخ حاج سليمان بكاي: هو نعت كان يطلقه السفهاء على خال الشيخ صاحب الديوان الشيخ ضياء الدين، ذلك لأنّ لحيته لم تستو على عارضيه وكانت على ذقنه فقط، ولعلّه وظفها هنا للإشارة إلى ذلك.
مقابلة معه في مكتبة الاستقامة ببني يسجن بتاريخ 03 أفريل 2005م.

3 – فعلاً لقد كان للنهضة الإصلاحية الأولى زمن الشيخ "عمّي يحي"، وبعده الأثر الكبير على مزاب، فقد حاربوا البدع وانتصروا على الظلم، وأحيوا بالعلم ما قد مات واندرس بالجهل والتعصّب.

77. حَبِيبًا كَامِلاً نُورًا دَلِيلاً صَدِيقًا بانِيًا دُرَجَ المَعَال

78. لَهُ مَجدٌ مَنِيعٌ بَعدَ عِزٍّ لَهُ فَخرٌ جَمِيلٌ كَاللَّئَال

79. فُرُتبَةُ قَدرِهِ عَلَت تَسَامَت فُوِيقَ كُلِّ نَجمٍ فِي التَّعَال

80. فَمَدحِي لَهُ تَعُسُّفٌ وَمَيلٌ بُعَيدَ ثَنَاءِ بَرِّبِّي ذِي الجَلاَل

81. وَمِنِّي كُلَّ لَحظَةٍ صَلاَةٌ عَلَيهِ بِالغُدُوِّ وَالآصَال

82. وَصَحبٍ لَهُ وَأَنصَارٍ وَزَوجٍ وَأَحزَابٍ إِلَيهِ وَكُلِّ آلِ

83. دَوَامَ النَّظمِ مَرسُومًا بِطِرسٍ وَمَا هبَّ الصَّبَاءُ مِن شَمَال

إِلَى هُنَا انتهى بِتَارِيخِ تِسعٍ وَعِشرِينَ خَلَت مِن شَهرِ رَمضَانَ مِن سنة 1208هـ (1793م).

رِحلَةُ المُصعَبِي[1]

بسم الله الرحمان الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحَمدُ لله الذي بَلَّغَ مُرَادَنَا من زَورَةِ بَيتِه الحَرَامِ، وَمَنَّ عَلَينَا برَوَاءِ نَزعَةِ سَيِّدِنَا وَمَولانَا مُحَمَّد عَلَيه الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَأَفَاضَ عَلَينَا سِجَالَ زِيَارَةِ غَالِبِ مَشَاعِرِ البَيتِ الجَمِيلَةِ قَبلَ انسِدَادِهَا، وَأَورَدَنَا من مَنَاهِلِ رُؤيَةِ مَشَاهِدِه الجَلِيلَةِ وَمِمَّا حَولَهَا مِنَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ قَبلَ انغلاَقِهَا، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى المَولُودِ في أَعَزِّ البِقَاعِ وَأَشرَفِهَا عَلَى الإطلاَقِ، مَولاَنَا مُحَمَّد النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الطَّيِّبِ المُبَارَكِ المَنعُوتِ عَلَى الدَّوَامِ بِجَمِيعِ مَكَارِمِ الأَخلاَقِ، المَبعُوثِ بِالنِّيرَةِ اللاَّمِعَةِ رَحمَةً للعَالَمِينَ، وَبِالأَنوَارِ السَّاطِعَةِ نَذِيرًا لِقَومٍ وَبَشِيرًا لآخَرِينَ، وَرَؤُوفًا بِالمُؤمِنِينَ، وَعَلَى آلِه الفَائِزِينَ بِتَصدِيقِه حَتَّى احتَوَوا جَمِيعَ الكَمَالاَتِ، وَأَصحَابِه الحَائِزِينَ قَصَبَ السَّبقِ في مَيدَانِ الإِسلاَمِ حَتَّى ارتَقَوا أَعَالِيَ المَقَامَاتِ وَبَعد:

فَلَمَّا رَأَيتُ بَعضَ مَشَارِقِ الأَرضِ من بعد مَغَارِبِهَا، وَجَلَوتُ فكري في شَطرٍ مِنَ الغَبرَاءِ وَفي قُطرٍ من أَقطَارِهَا، وَذَلكَ في شَأنِ الفِرَقِ الضَّالَّةِ المُضِلَّةِ المُخَالِفِينَ، وَتَأَمَّلتُ فيمَا هُم فِيه مِنَ الدِّينِ فَوَجَدتُهُ أَسَاطِيرَ الأَوَّلِينَ، وَقَد بَدَّلُوا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ وَأَحكَامَهَا، وَهَدَمُوا بُنيَانَهَا وَأَسَاسَهَا، وَجَعَلُوا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَقَلَبُوا لِبَاطِنِهَا ظَاهِرَهَا، فَلَيسَ لَهُم حِينَئِذٍ نَصِيبٌ مِنَ الإِيمَانِ وَلاَحَظٌّ في الإِسلاَمِ إِلاَّ مُجَرَّدَ التَّلَفُّظِ بِاللِّسَانِ، ازدَدتُ في مَذهَبِي تَبصِرَةً وَيَقِينًا، وَتَرَحَّمتُ عَلَى أَسلاَفِنَا بُكرَةً

1 – هذا العنوان من وضعي، اقترحته ليشجعني على إقامة دراسة في بعض الرحلات الحجازية على غرار "رحلة الوارجلاني" أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم (500–570هـ)، و"رحلة القطب" الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش (المتوفى: 1914م)، وقد أخرجت مؤخرًا رحلتي الوارجلاني والمصعبي ابن بحمان لوحدهما.

وَعَشِيًّا، حَيثُ سَلَكُوا بِنَا طَرِيقَةً جَادَّةً وَاضِحَةً وَمَسلَكًا مُستَبِينًا[1]، وَقَد أَسَّسُوا حَقِيقَةَ بُنيَانِهِم عَلَى التَّقوَى تَأسِيسًا جَالِيًّا عَلَى الطَّرِيقَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَسَبِيلِ الصَّحَابَةِ المُرتَضَى، وَأَحَازُوا عَلَى غَيرِهِم الشَّرِيعَةَ المُحَمَّدِيَّةَ، وَجَمِيعَ أَسبَابِ الهُدَى، بِحَيثُ لاَ يُنكِرُهَا إِلاَّ مَن كَانَ جَاحِدًا نَاكِرًا أَو مُعَانِدًا مُكَابِرًا، وَلِنِعَمِ اللهِ سُبحَانَهُ كَافِرًا، وَإِنَّمَا كَانَت تِلكَ الأَسبَابُ مُستَقِيمَةً كَمَا ذُكِرَ في الزَّمَانِ المَاضِي، وَأَمَّا حَالُهَا اليَومَ وَفي الزَّمَانِ الآتِي، فَقَد طَارَت بَقِيَّتُهَا أَدرَاجَ الرِّيَاحِ، وَلَم يُوجَد لَهَا حَدٌّ وَلاَ رَسمٌ في خِيفِ الأَرضِ وَنَجدِهَا وَلاَ في بَطحَةِ مِنَ البِطَاحِ، بِأَن استَولَى عَلَى الدُّنيَا سُلطَانُ الظُّلمِ وَالفَسَادِ فَلَم يَترُك مُحَرَّمَةً منهَا تَنفَلِتُ كَظُلمِ الحِكمَةِ وَخَفضِ العَالِي وَرَفعِ الدَّانِي مِنَ العِبَادِ، وَإِنِّي لَمَّا دَخَلتُ مِصرَ التِي هِيَ اليَومَ أُمُّ المَعَاصِي وَأَسَاسُ ذَلكَ الظُّلمِ للدَّانِي وَالقَاصِي، النَّاشِيءِ عَن تَعدَادِ الحُكَّامِ فِيهَا وَالسَّلاَطِينِ لاَسِيَّمَا إِبرَاهِيم بِيك[2] وَأَمرَد بِيك[3] عَلَيهِمَا لَعنَةُ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ فَإِنَّهُمَا المُوقِدَانِ نِيرَانَ الأَخذِ وَالانتِهَابِ لِمَتَاعِ الخَلاَئِقِ كُلِّهِم وَلَو بِغَيرِ سَبَبٍ مِنَ الأَسبَابِ[4]، وَقَصدُهُمَا بِذَلكَ إِهَانَةُ الإِسلاَمِ وَالمُسلِمِينَ لِكَونِهِمَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الأُولَى مِنَ النَّصرَانِيَّةِ[5] في كُلِّ وَقتٍ وَحِينٍ، فَأَتَيتُ إِخوَانَنَا المُجَاوِرِينَ[6]

1 – مذهب الإباضية الوهبية أقدم المذاهب الإسلامية على الإطلاق، ويسمّي أصحابه أنفسهم أيضا أهل الدعوة والاستقامة، ولا يزال أنصاره على طريقتهم الأولى من الاستقامة والصلاح.

2 – هو إبراهيم بك الكبير: (1735–1816) من مماليك مصر، حاكم القاهرة. اشترك في الدفاع عن القاهرة إبّان الحملة الفرنسية 1798م نجا من مذبحة القلعة.

ينظر: القاموس في الأعلام، دار المشرق، بيروت، ط28، 1986، ص7.

3 – أمرد بك: لعلّه يقصد "مُرَاد" والأمردُ: هنا المتطاول والمتكبر. أمّا مُراد إن كان المقصود به كذلك فلم أعثر عليه، ولعلّه كاتب السرّ أو الوزير الأوّل لإبراهيم بيك.

4 – يقصد هنا انتشار المكوس والجبايات على الحجيج خاصّة، ناهيك عن قطاع الطرق. وفي هذا الموضوع كلام كثير، فصّل فيه الرحالة القاصدون البيت المعمور ذهابا وإيّابا.

5 – لعلّ الحاكم ومساعده من الأقباط المسيحيين، ويشكلون نسبة معتبرة من سكان مصر.

6 – المجاورين: المقيمين.

بطَلَيُون[1] فِي وَكَالَة الجَامُوس[2] _زَادَهُمُ الله فَهمًا فِي عُلُومِ الضَّرُورِيَّة وَالنَّظَرِيَّة وَوَقَاهُم مِن شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ وَمِن شَرِّ الدَّاموس_[3] فَاشكُوا إِلَينَا مَا نَزَلَ وَأَلَمَّ بِجَمَاعَتِهِم مِن بَلِيَّاتِ الزَّمَانِ باستخفافِهِم بِهِم وَإِهَانَتِهِم وَلَمزِهِم باللِّسَان فَهَذَا السَّبَبُ هُو البَاطِنُ الخَفِيُّ، وَأَمَّا السَّبَبُ الظَّاهِرُ الجَلِيُّ فَقَد نَشَأَ مِن جِهَة العَدُوِّ المُبِين أَحسَن النُوَيري[4] كَان بِمُستَر[5] حِذَاء تُونُسَ مَلجَأً للمُجرِمِينَ فَإِنَّهُ عَرَفَ حَقِيقَةَ أَهلِ الجَزِيرَة مِن بَلَدِه، وَأَدّى بِه ذَلِكَ لِمَقتِهِم وَمَكرِهِم وَخَدِيعَتِهِم حَتَّى بَدَت البَغضَاءُ لَهُم مِن أَفوَاهِه[6]، فَوَشَى بِهِم وَبِدِينِهِم المُستَقِيمِ إِلَى قَائِد تَحتَ أَمرَد بيك الكَخيَّة اللَّئِيم، وَأَسَرَّ مَعَهُ النَّجوَى فِي الشَّتمِ وَالسَّبِّ فِي الدِّينِ، وَالطَّعنِ فِي الإِسلَامِ وَالمُسلِمِينَ _عَلَيهِمَا لَعنَةُ الله وَالخِزيِ وَالهَوَان وَالمَذَلَّة وَالخُسرَان_ فَأَرسَلَ الكَخيَّةُ المَلعُونُ إِلَى شَيخِ الجَمَاعَة[7] عَلَى أَنَّهُ يُرِيدُ مِنهُ قَضَاءَ حَاجَة، فَأَسجَنَهُ عِندَ وُصُولِه إِلَيه فِي السَّاعَة وَالحِين وَلَم يُبَيِّن لَهُ سَبَبَ ذَلِكَ وَلاَ وَجهَهُ،

1 – طليون: هكذا في الأصل، والمقصود طولون، وهذه الخاصية من قلب الأسماء شهيرة عند بعض العلماء مع الشخصيات التي لم تستقم سيرتها على الحق، أو عُرفت بالظلم والانحراف، فإنّ الشيوخ يتورّعون عن ذكرهم بألقابهم المعروفة، وطولون يقصد به جامع ابن طولون بالقاهرة، حيث كان صاحبه ينكّل بالمسلمين ويعذّبهم خاصّة من يعاتبه على تسلطه، ومثاله أيضا: عند القطب الشيخ أطفيش الذي كان يكتفي بذكر هارون الرشيد باسمه دون لقبه الشهير بقوله: "هارون الذي يقال له الرشيد..".

2 – هي محلّ إقامة الطلبة الباحثين والمزاولين دروسهم بالأزهر من الإباضية، من إيواء الطلبة القاصدين البيت الحرام، وآخر من نزل بها كان الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج امحمد اطفيش (1886–1965م). ينظر: سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني، عمرو النامي، مسيرة عطاء في درب الخير، بحث مرقون، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان، ص32.

3 – الدّاموس: الظُّلمة، والسجن. اللسان ج6، حرف السين فصل الدال، ص88.

4 – لم أستطع أن أتبيّن شخصه للأسف، وهو من تونس يعرف أحوال إباضيتها، كما يتبيّن من تعريف الشيخ له ووصفه هنا، ويبدو أنّه من المتحاملين على إباضية الجزيرة.

5 – موضع قرب العاصمة تونس.

6 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا، ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ [آل عمران، 118].

7 – لم أصل إلى بيان شخصه، إلاّ أنّه سيذكر بعد هذا الموضع باسم "سلمان".

عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَم يَقَع إِلاَّ بِمَشُورَة أَمرد بيك _خَان السَّلاطِين_ حَتَّى لَبِثَ الشَّيخُ خَمسَةَ عَشَرَ يَومًا فِي السِّجنِ، وَالجَمَاعَةُ فِي أَثنَاءِ ذَلِكَ مُستَخفُون فَطَبَعَت بُيُوتُهُم وَحَوَاصِلُهُم عَن آخِرِهَا فَصَارَت مُنغَلِقَةَ الرَّهنِ، فَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ مُتَلَطِّفِينَ فِي الكَلَامِ إِلَى ذَلِكَ الأَمِيرِ الحَاكِمِ فِي الأُمَرَاءِ وَالحُكَّامِ، فَقَالَ لَهُم فُكُّوا شَيخَكُم بِستَّة وَعِشرِينَ أَلفَ رِيَالٍ مِن أَبِي طَاقَة فَلَم يَزَالُوا مَعَهُ مُرَاوِدِينَ لَهُ حَتَّى رَدَّهَا إِلَى ثَلاَثَةَ عَشَرَ أَلفًا فَقُسِمَت بَينَ جَمَاعَة وَذَلِكَ عَلَى المُوسِعِ قَدرُهُ وَعَلَى المُقتِرِ قَدرُهُ، فَدَفَعتَهَا إِلَيه بَينَ أَيَّامٍ قَلِيلَة بِأَسرِهَا بِإِعَانَة مِنَ الله سُبحَانَهُ وَبِبَرَكَة مَذهَبِهَا فَرَجَعَت إِلَى الأَمِيرِ بِالوَشيِ وَالشَّتمِ عَلَى ذَلِكَ العَدُوِّ المُبِينِ صَاحِبِ المَكرِ وَالخَدِيعَة[1] وَالظُّلمِ فَحِيقَ مَكرُهُ بِعُنُقِه وَأُحِيطَ بِه، وَرَدَّ كَيدَهُ فِي نَحرِه فَأَخَذَهُ المَلِكُ أَخذًا نَكِيدًا وَضَرَبَهُ ضَربًا أَلِيمًا وَأَوجَعَهُ شَدِيدًا، حَتَّى كَادَت نَفسُهُ تَفِيضُ وَلَم يَجِد لَهَا دَلِيلاً، فَأَسلَبَهُ مِن جَمِيعِ مُلكِه بَعدَ أَن مَكَثَ فِي السِّجنِ مَكثًا طَوِيلاً، فَأُطلِقَ مِنهُ مَذمُومًا مَطرُودًا، بَعدَ أَن كَانَ عَزِيزًا مَمدُوحًا مَحمُودًا، فَبَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله تَائِهًا فِي قُطرٍ قَاتِمِ الأَرجَاءِ، حَتَّى سَمِعنَا عَلَيه أَنَّهُ جُنَّ فِي نَاحِيَة مَهمَه مِنَ الغَبرَاءِ، ذَلِكَ نِعمَةٌ وَفَضلٌ مِنَ المَولَى وَلَهُ الحَمدُ فِي جَمِيعِ الأَزمِنَة وَالأَمكِنَة مِن الآخِرَة وَالأُولَى.

بَعَثَنِي صِدقُ الهِمَّة إِلَى نَظمِ بَعضِ مَا لَقِيتُهُ فِي سَفَرِي لِيَكُونَ تَذكِرَةً لِي وَلِمَن يُرِيدُ سُلُوكَ هَذِهِ الطَّرِيقَة مِن بَعدِي[2]، فَلَمَّا انتَهَيتُ بِعَونِ الله المَلِكِ الدَّيَّانِ إِلَى كَعبَتِه العَظِيمَة الشَّأنِ المُنِيفَة المَكَانِ، أَصَابَنِي بِمَا رَأَيتُهُ فِيهَا وَفِيمَا حَولَهَا أَمرٌ مُهِمٌّ، «فَغَشِيَنِي مَا غَشِيَنِي»[3] شَأنٌ مُلِمٌّ، وَهُو استِبَاحَةُ حُرَمِ الله وَمَنَاهِيهِ فِي حَرَمِه وَمَسعَاهُ وَارتِكَابِ مَعَاصِيهِ وَكَانَ أَشَدُّهَا عَلَيَّ مُصِيبَةً وَأَعظَمُهَا وُقُوعًا وَبَلِيَّةً مَا مُلِأَ

1 – يقصد، أحسن النويري الواشي.

2 – كان هذا هو السبب المباشر أو الرئيسي وراء قيام الشيخ بنظم حجازيته.

3 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم﴾ طه: 78.

به المَسعَى وَأَبوَاب الحَرَامِ بِأَسرِهَا مِن أَرجَاسِ بَنِي آدَمَ القَبِيحَةِ النَّاشِئَةِ مِن تَرَاكُمِ الأَركَابِ وَقُوَّتِهَا فَصَارَا لأَقبَحِ المَزَابِلِ وَالمَجَازِرِ مُسَاوِينَ وَلِمحرَاضِ[1] الدِّيَارِ مُمَاثِلِينَ حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ فِي دَاخِلِ الحَرَامِ، وَشُوهِدَ بَينَ المَسجِدِ وَالمَقَامِ، وَغَالِبُهُ مِنَ الفَلَّاحِينَ[2] الذِينَ لاَ يَعرِفُونَ قَابِلَهُم مِن دَابِرِهِم وَكَانُوا كَالبَهَائِمِ مُستَوِينَ فَبَلَغَ ذَلِكَ الأَمرُ وَالشَّأنُ فِي هَذَا المَكَانِ إِلَى أَن صَارَ لاَ يَقدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَعدِيَتِهِ وَالمُرُورِ فِيهِ إِلاَّ إِن تَلَثَّمَ عَلَى الأَنفِ وَاللِّسَانِ، فَبَقِيتُ مُتَحيِّرًا مِنهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، وَمُتَفكِّرًا فِيمَا إِلَيهِ أُولَئِكَ العَاصُونَ صَائِرُونَ مِنَ المَذَلَّةِ وَالهَوَانِ، فَرَجَعتُ عَلَى نَفسِي بِاللَّومِ وَالعِتَابِ، وَبِالتَّسلِيمِ لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِ المَلِكِ الوَهَّابِ فَإِنَّ هَذَا سِرٌّ مِن أَسرَارِهِ، وَعِلمٌ مِن مَكنُونَاتِهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَعِبَادِهِ، فَزَادَنِي ذَلِكَ شَغَفًا وَغَرَامًا إِلَى نَظمِ اللَّآلِئِ فِي عِقدٍ مِنَ الفَرَائِدِ مُوَشَّحًا بِهِ نَحرَ غَانِيَةِ بَعضِ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، فَقُلتُ بَعدَ التَّبَرُّكِ بِبِسمِ اللهِ الرَّحمَانِ الرَّحِيمِ فِي نَظمِي حِجَازِيَّةً مَوضُوعَةً لِطَرِيقِ الحَجِّ الكَرِيمِ.

(بحر الطويل)

1. فَنَحمَدُكَ اللَّهُمَّ حَمدًا مُوافِيَا ... عَلَى نِعَمٍ مِنهَا بُلُوغِي مُرادِيَا
2. وَنَشكُرُ مَولَانَا كَثِيرًا مُسَلِّمًا ... عَلَى سَيِّدِ خَيرِ الخَلَائِقِ هَادِيَا
3. نَبِيًّا مُمَجَّدًا شَرِيفًا مُحَمَّدًا ... رَسُولاً مُكَرَّمًا إِلَى الرُّشدِ دَاعِيَا
4. نَذِيرًا مُبَشِّرًا شَهِيدًا مُصَدِّقًا ... سِرَاجًا مُنِيرًا لِلفَلَاحِ مُنَادِيَا
5. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ لِلخَيرِ قَائِدًا ... وَلِلبِرِّ فَاتِحًا وَلِلكُفرِ مَاحِيَا
6. فَبِالسَّيفِ مُرسَلاً وَلِلزَّيغِ مُبطِلا ... وَلِلشَّرِّ زَائِلاً وَلِلبَغيِ آبِيَا
7. فَأَرسَلَهُ المَولَى إِلَى النَّاسِ رَحمَةً ... عَلَى رَغمِ أَنفِ مَن قَلَاهُ مُعَادِيَا

1 – هكذا في الأصل: والواضح هو المرحاض.

2 – الفلاحين: لم يذكر من أيّ جنسية هم ولا شكّ أنّهم أعراب وبدو.

8. وَصَلَّى عَلَيهِ اللهُ بَعدَ تَحيَّةٍ ... وَمَن كَانَ بِعَهدِ المُهَيمِنِ وَافِيَا
9. وَأَزوَاجِهِ مِن بَعدِهِ ثُمَّ صَحبِهِ ... وَكُلِّ تَقِيٍّ صَالِحٍ لِي مُسَاوِيَا
10. وَبَعدُ فَقَد خَرَجتُ لِلحجِّ قَاصِدًا ... إِلَى الكَعبَةِ البَيتِ المُحَرَّمِ عَالِيَا
11. فَفَارَقتُ فِي حَقِّ الرَّحِيمِ قَرَابَتِي ... وَشَيخِي وَوِلدَانًا عَزِيزًا وَمَالِيَا
12. فَأَبكَى فِرَاقِي إِخوَةً لِي أَعِزَّةً ... وَمَن كَانَ دَانِيًا وَمَن كَانَ قَاصِيَا[1]
13. فَلَم أَرَ يَومًا مُنذُ أَن كُنتُ عَاقِلاً ... مَرَّ كَمِثلِ يَومٍ بَينِي لِخَالِيَا[2]
14. وَلَكِنَّهُ إِن غَابَ عَنِّي وَنَاظِرِي ... فَمَا غَابَ يَومًا عَن جَنَانِي وَبَالِيَا
15. وَقَد كَانَ فِي يَومِ الخَمِيسِ خُرُوجُنَا ... لَدَى نِصفِ رَجَبٍ مِن شُهُورِ الإِلاهِيَا
16. وَشَيَّعَنَا القَومُ الكِرَامُ أَحِبَّةً ... إِلَى مِحرَابِ الشَّيخِ الرَّفِيعِ المَعَالِيَا
17. هُوَ العَالِمُ النِّحرِيرُ حَمُو بنُ قَاسِمٍ[3] ... بِغَرْدَايَةَ، قَد كَانَ لِلحَقِّ حَامِيَا
18. هُنَالِكَ قَد دَعَت شُيُوخٌ جَلِيلَةٌ ... إِلَهَهُمُ سَلَامَتِي ثُمَّ عَافِيَا
19. بِإِثرِهِم ضَجَّت ثِقَاتٌ أَئِمَّةٌ ... كَذَلِكَ كُلُّ مَن بِذَا الجَمعِ دَاعِيَا
20. صَحِبتُ أَخًا مُشَارِكًا لِي صَالِحًا ... سُلَالَةُ أَحمَدَ[4] كَرِيمًا مُوَاتِيَا
21. رَفِيقًا عَفِيفًا حَبِيبًا مُسَاعِفًا ... عَدِيمَ النَّظِيرِ لِلحُقُوقِ مُرَاعِيَا
22. وَشَارَكَنَا مِن أَهلِ غَرْدَايَةَ أَحمَدٌ[5] ... سَلِيلُ أَبِي بَكرٍ كَرِيمِ الشَّمَالِيَا

1 – عادة ما يودِّعُ الحاجُّ بالدموع، ذلك أنّه لا يدري المودّعون أي يرجع لهم سالمًا أم يتوفّاه الله إليه، لطول الطريق وصعوبتها وهولها.

2 – خاله: هو "ضياء الدين" الشيخ عبد العزيز الثميني كما صرّح بذلك مرارًا.

3 – هو الشيخ "حمو والحاج" العالم النحرير كما يصفه المؤرخون، وقد توفي (1129هـ/1716م) واسمه كذلك حمو والحاج أبي القاسم بن يحي بن أبي القاسم الغرداوي المصعبي.

4 – لم يفصل الشيخ في تعريف مرافقه إلاّ ما أورده هنا.

5 – أحمد بن أبي بكر: من غرداية دون تفصيل.

23. كَذَلِكَ بُرهُم بن عِيسَى[1] مُشَمِّرًا ... عَنِ السَّاقِ جَاهِدًا حَدِيدَ الفُؤَادِيَا

24. وَكَانَ لَنَا فِي كُلِّ بِئرٍ وَمَنهَلٍ ... وَوَادٍ لِوِردٍ ثُمَّ مَلا مُكَافِيَا

25. وَمَعنَا جَمَاعَةٌ كِرَامٍ أَعِزَّةٍ ... مِنَ العَطفِ[2] بَلدَةٌ بِأَسفَلِ وَادِيَا

26. وَإِخوان صدق من مَلِيكَةَ[3] إِنَّهُم ... هدات ثقاةٌ في بناءِ المَعَالِيَا

27. لدى عصر سبتٍ قد دخلنا ببلدةٍ ... تسمى بِأَغوَاطِن[4] كثيرِ المعاصيا

28. نزلنا بحوشٍ كان مُلكًا لِطاهِرٍ[5] ... سُلالَةَ بُراسٍ كَبِيرِ أحلافِيا

29. أقمنا به يوما ويومين بعده ... رحلنا أصيلَ رابعٍ للبَرَارِيا

30. أَوَينَا لِشَيخِ الرَّكبِ لَيلَةَ خَامِسٍ ... شَرِيفًا عَلِيًّا ذَا وِجَاهٍ، فَلالَيَا[6]

31. وَقَد كَانَ ذَا صَبرٍ وَحِلمٍ وَرَحمَةٍ ... عَلَينَا وَمِنهَا رَدُّهُ لِلطَّوَاغِيَا

32. كَأَولادِ عُكَّازٍ[7] وَأَولادِ صَولَةٍ[8] ... وَغَيرُهُم مِن كُلِّ طَاغٍ مُعَادِيَا

33. فَبِتنَا بِحَمدِ اللهِ فِي أَحسَنِ رَاحَةٍ ... وَصِحَّةِ جِسمٍ بَعدَ أَمنٍ وَعَافِيَا

34. فَجُزنَا عَلَى فَجٍّ عَشِيَّةَ جُمعَةٍ ... قَوِيًّا سَرِيعًا بَارِدًا بِفُؤَادِيَا

35. فَدَمَّدَ[9] وَادُهُ زُلالٌ مُسَلسَلٌ ... فَبَعدَ المَجِيءِ علقَمٍ بِلسَانِيَا

1 – بُرهم بن عيسى: يقال لإبراهيم "بُرهم" إلى اليوم في مزاب، كذلك لا توجد تفاصيل أخرى عنه.

2 – العطف: هي تَجْنِينْتْ بالأمازيغية، أدنى بلدة بوادي مزاب إليها ينحدر الواد عند سيلانه، وقد سبق التعريف بها.

3 – مليكة: القصر، سبق التعريف بها هي الأخرى.

4 – هي الأغواط الحاضرة إلى اليوم: مائتين كيلومتر شمال وادي مزاب، سكنها بعض المزابيين ردحًا من الزمن قبل تشييد مدينتي بريان والقرارة. ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ط1، ص61.

5 – طَاهر بُراس: كبير أحلاف الأغواط، هكذا وصفه الشيخ.

6 – الشيخ الفلالي: أيضا لم أجد له تعريفا غير ما ورد هنا من أنّه كان رحيما بهم وردّ عنهم كيد الأعداء من أجلاف الأعراب، ولا شكّ أنّه كان زعيم عرش مهم بالصحراء.

7 – أولاد عكاز: من القبائل التي تقطن الصحراء، تعيش بالرعي متبعة الكلأ ومساقط الغيث.

8 – أولاد صولة: من القبائل التي تقطن الصحراء أيضا.

9 – قرية بنواحي الجلفة، 300كم شمال شرق وادي مزاب.

36. أَتَينَا بِوادِ خَالِدٍ[1] يَومَ سَابِعٍ ... أَقَمنَا بِهِ لِلوِردِ يَومَ الثَّمَانِيَا

37. رِجَالُ بَنِي جَلاَّل[2] غَارَت بِخَيلِهِم ... طَلِيعَةَ شَمسٍ إِثرَ رَكبٍ فَلالَيَا

38. دَخَلنَا بِثَانِ الشَّهرِ شَعبَانَ بَلدَةً ... تُسمَّى بِبَسكَرَى[3] كَثِيرِ الطَّوَاغِيَا

39. لَبِثنَا بِهَا يَومًا وَيَومًا بِنِعمَةٍ ... مِنَ اللهِ مِنهَا نَصرُهُ لِلأَعَادِيَا

40. فَعُقبَى الجَرِيدِ[4] فالزَّرَائِبِ[5] بَعدَها ... بِلادٌ لِغَرسِ النَّخلِ عَرضُ المَكَانِيَا

41. نَزَلنَا عَلَى وَادٍ بِغَسرانَ[7] مَالِحٍ ... فَعَينِ الشَّبِيكَةِ[6] أَمَرَّ فُؤَادِيَا

42. عَلَى حَامَةِ الجَرِيدِ كَانَ طَرِيقُنَا ... إِلَى وَادِهِ[8] قَد صَارَ كَالبَحرِ طَامِيَا

43. وَجَدنَا بِهِ جَمَاعَةً مِن قَرَارَةٍ[9] ... كِرَامًا أَحِبَّةً تُرِيدُ الحِجَازِيَا

44. هُنَالِكَ قَد لَبِثنَا يوما بِنِعمَةٍ ... مِن أَكلٍ وَشُربٍ ثُمَّ غَسلِي كِسَائِيَا

45. فَلَمَّا قَضَى سَلمَانُ[10] مِن يَومٍ نَحبَهُ ... تَسَربَلَ سِروَالَ المَمَاتِ نَهارِيَا

46. بِثَالِثِ عَشرٍ قُربَ حامَةِ قابِسٍ[11] ... وَرَينَاهُ عِندَ الغَربِ فِي الأَرضِ خَافِيَا

47. فَمِن بَعدِ أَن أَقَمنَا يَومًا بِقَابِسَ ... فَبِتنَا عَلَى وَادٍ زُلالٍ فُرَاتِيَا

1 – واد خالد: بلدة قريبة من بسكرة، معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج1، ص334.

2 – أولاد جلال: حاضرة قريبة من بسكرة أيضا، نفسه، ج1، ص334.

3 – بسكرة: بلدة بالمغرب من نواحي الزّاب، مدينة مسوّرة بها أسواق وحمامات، نفسه، ج1، ص334. وهي الحاضرة إلى اليوم، ولسنا بعيدين عن عصر الشيخ حتّى تتغيّر الخريطة كثيرًا.

4 – لعلّه يقصد: سيدي عقبة من نواحي بسكرة، حيث قبر عقبة بن نافع الفهري.

5 – الزرائب: موضع من أعمال بسكرة كطولقة اليوم كثيف النخيل.

6 – موضع لم أستطع تحديده.

7 – كذلك موضع لم أعثر على تعريف له، قريب من شطّ الجريد المالح

8 – واد بالجريد: لعلّه يصبّ بشطّ الجريد لم أجده.

9 – لم يفصّل الشيخ فيهم أكثر، عن سنّهم وعددهم.

10 – لم يفصّل في من يكون ومن أيّ قوم أو وفد هو.

11 – مدينة بتونس إلى اليوم.

48. فَمِن سُوءِ تَدبيرٍ تَرَكنَا قِرَابَنَا ... لأجلِ قَضَاءٍ سَابِقٍ مِن إِلهِيَا

49. فَكَانَ عَلَى غَيرِ الطَّرِيقِ سَبِيلُنا ... لأَبيَارِ مِلحٍ عَلقَمٍ بِفُؤَادِيَا

50. هُنالك قَد مَاتَت لِشيخٍ سَرِيَّةٌ[1] ... فظَلَّ بِتَجهِيزٍ إِلَى الشَّمسِ ضَاحِيَا

51. فَعَمَّا قَلِيلٍ فَرَّجَ اللهُ مَا بِنَا ... بِبِيرِ نَعِيمٍ طَيِّبٍ بِلِسَانِيَا

52. فَجُزنَا علَى زُوَارَةٍ[2] مُستَوِيةٍ ... مُخَالِفَةً حقًّا إمامًا إِباضِيا

53. وَكَم فَوقَهَا مِن قَريَةٍ بَعدَ قَريَةٍ[3] ... ذَوَاتِ السَّوَانِي وَالنَّخِيلِ الحِسَانِيَا

54. فَفِي نَيِّفِ العِشرِينَ مِن شَهرِ أَحمَدَ[5] ... نزلنَا طَرَابُلسًا[4] صَبَاحًا نَهَارِيَا

55. فَألقَت إِلَينَا بِالسَّلامَةِ وَالهَنَاء ... كِرَامٍ أَعِزَّةٍ سَلامًا مُبَاهِيَا

56. هُدَاةٍ ثِقَاةٍ مِن جَمَاعَةِ جربَةٍ ... عِفافِ النُّفُوسِ بالِغِينَ الأَمَانِيَا

57. فأَوَّلُها بدرُ الوَكَالَةِ يُوسُفُ[6] ... سُلالَةُ عَمرو للمَكَارِمِ حَاوِيَا

58. ظَرِيفًا لَبِيبًا كَيِّسًا ذا نَبَاهَةٍ ... عَفِيفًا أَدِيبًا بالشَّجَاعَةِ كَاسِيَا

59. كَرِيمًا صَبُورًا عَالِمًا مُتَبَرِّعًا ... عَدِيمُ النَّظِيرِ فِي بِنَاءِ المَعالِيَا

60. بِبَذلٍ وَحِلمٍ سَادَ فِي القَومِ يُوسُفُ ... فَلا مِثلُهُ يُلفَى لِنَيلِ المُرادِيَا

61. فَلاَ زَالَ مَرفُوعًا وَلاَزَالَ رَافِعًا ... وَلاَزَالَ فِي دَارِ الكَرَامَةِ عَالِيَا

1 – السَّرية: المختارة، ولعلّها يريد الزوجة. اللسان، ج14، حرف الياء، فصل السين، ص382.

2 – زوارة: مدينة تقع في ليبيا قريبة من الحدود التونسية.

3 – هذه القرى لم يفصل فيها حتّى صاحب معجم البلدان حين قال بين قابس وطرابلس منازل...معجم البلدان، ج4، ص5.

4 – شهر أحمد: هو شهر شعبان.

5 – طرابلس: مدينة كبيرة على شاطئ البحر، على أعمال إفريقية، افتتحها ابن العاص سنة 23هـ، بينها ونفوسة 3 أيام. معجم البلدان، ج3، ص254. وهي اليوم عاصمة الجماهيرية الليبية.

6 – يوسف بن عمرو الجربي: لم أتبيّن نسبه الكامل، لكن الشيخ بالغ في مدحه ووصفه، وهو ربّما دليل على رقيّ مركزه وعلوّ شأنه.

62. وَلاَزَالَ فِي بَحرِ السَّمَاحَةِ سَابِحًا ... وَلاَزَالَ فِي دُرَى الفَضَائِلِ رَاقِيَا

63. أَوَينَا إِلَيهِ فِي أُمُورٍ مُهِمَّةٍ ... وَقَد كَانَ بِكُلِّ الحَوَائِجِ قَاضِيَا

64. وَعَمُّهُ صَالِحٌ[1] وَابنُهُ قَاسِمٌ ... كِرَامٌ وَأَبنَاءُ الكِرَامِ الأَعَالِيَا

65. فَلاَ تَعجَبَنَّ بِجُودِهِم لاَ وَلاَ بِهِم ... لِكونِهِم من نَسلِ بَارُونَ[2] سَاخِيَا

66. فَلاَ دَارَ إِلاَّ دَارَ بَارُونَ فِي النَّدَى ... وَفِي العِلمِ فَاسمَع يَا أَخِي لِكَلامِيَا

67. فَعَجَبٌ بَلِيغٌ مِن طَرَابُلسَ حَاصِلٌ ... إِلَيَّ فَيَا لَهفِي بِعَهدٍ أَمَامِيَا

68. وَفِيهَا مِنَ الدَّلاَّعِ[3] مَا لَو وَصَفتُهُ ... لأَكذَبَنِي الوُجُودُ كُن لِي مُسَاوِيَا

69. لَبِثنَا بِهَا فِي رَاحَةٍ وَسَلامَةٍ ... وخيرٍ مِنَ الرَّحمَانِ سَبعَ لَيَالِيَا

70. بِأَوَّلِ شَهرِ أُمَّةٍ[5] كَانَ رَفعُنَا ... لِمَصرَةَ[4] بلدَةٍ قَصيرِ السَّوَانِيَا

71. أَقَمنَا عَلَى سُوقٍ بِهَا كَانَ عَامِرًا ... بأنواعِ خيرٍ كالبُقُولِ الحِسَانِيَا

72. سَلَكنَا سَبِيلاً مِن هُنَاك لِبرقَةَ[6] ... عَلَى سَاحِلِ البَحرِ الأُجَاجِ يَسَارِيَا

73. فَعَرعَرَهَا فالزَّعفَرَانِ وَبعدَهَا ... نَعِيمُ، نَعِيلٌ طَيِّبٌ، فَالجَوابِيَا[7]

74. فَلَمَّا وَصَلتُ للسُّلُوكِ[8] ظَهِيرَةً ... تَحَيَّرتُ مِن وِردٍ ومِلءِ قِرابِيَا

1 – للأسف كثير من الأعلام مثل هؤلاء لا يستطيع جلّ الباحثين بيان نسبهم طالما لم يأت ذكرهم مرّة أخرى في الديوان، أو لم يتركوا آثارًا فيُعرفوا بها.

2 – آل بارون: عائلة عريقة بليبيا مشهورة إلى اليوم، ومنها المجاهد والشاعر النبيه سليمان باشا الباروني، شارك في تحرير ليبيا من الاستعمار الإيطالي، وصاحب جريدة الأسد الإسلامي التي كان يصدرها بمصر.

3 – من فواكه الصّيف، من فصيلة البطيخيات، منتشر بشمال إفريقيا.

4 – شهر أمّة الرسول: هو شهر رمضان.

5 – مصرة: هي مصراته اليوم، بينها وطرابلس إلى الغرب مرحلة.

6 – برقه: مدينة من أعمال إفريقية، بينها والإسكندرية مسيرة شهر. معجم البلدان، ج1، ص308.

7 – لعله موضع لم نجده.

8 – السلوك: موضع أيضا.

75. لَبِثنَا بِهِ يَومًا وَقَد قَلَّ مَاؤُهُ عَشِيَّةَ ذَاكَ اليَومِ نِلتُ مُرادِيَا

76. فَيُمنُ طَرِيقِ الحَجِّ ثَمَّةَ قَد بَدَت إِلَيَّ كَمَا بَدَت بِأَوَّلِ حَالِيَا

77. فَسَهَّلَ رَبُّنَا إِلَينَا مَفَازَةً تُعدُّ مِنَ السِّروَالِ صَعبَ المَرامِيَا

78. فَصَلَّى صَلاَةَ العِيدِ بَعدَ إِقَامَةٍ بِوَادِ التَّمِيمِ[1] رَكبُ شَيخٍ فِلاَلِيَا

79. فَمِنهُ أَخَذنَا لأَطرَفَاوِي[2] مَسلَكًا زُلالاً مُسلسَلاً لَذِيذًا فُراتِيَا

80. فأحذَرَ مقربًا فَجَرجُوبُ[3] شَهدَةً وَكُن من مَدارِ شَارِبًا مُتوانِيَا

81. وَإِيَّاكَ وَالشَّمَامُ[5] فاحذَر شَرَابَهُ فَعَفُّونُ[4] للرُّهبَان قَد كَانَ وَادِيَا

82. فَمِفتَاحَ بَرقَةَ الطَّوِيلِ خَبِيرَهَا يَفتَحُ أَغلاَقَ الفَضَاءِ وَالفَيَافِيَا

83. فَفِي آخِرِ العِشرِينَ مِن شَهرِ شُوَّالٍ شَرَبنَا بِكُردَاسَ[6] مِنَ النِّيلِ طَامِيَا

84. فَلَمَّا وَجَدتُ النِّيلَ من مِصرَ فَائِضًا توجَّهتُ منهَا فِي السَّفِينةِ غَادِيَا

85. فَأَرسَلتُ مِن بُلاقَ[7] فُلكًا لإِخوَةٍ أَقَامُوا بِكُردَاسَ ثَلاَثَ لَيَالِيَا

86. دَخَلتُ إِلَى المُجاوِرِينَ وَكَالَةً [بِطَيلُون][8] مِصرَ عُصَيرَ ثَلاَثِيَا

87. عَنَيتُ بِهِم شُيُوخَ جِربَةٍ سَادَةً ذَوِي العِلمِ وَالهُدَى كِرَامِ المَعَالِيَا

88. مَدَات ثِقَاتٍ هُم ضِيَاءُ جَمَاعَةٍ كَذَا شَيخُهُم سَلمَانُ[1] طِبًّا فُراتِيَا

89. فَقَامُوا وَسَلَّمُوا عَلَينَا وَرَحَّبُوا فَأَشكُوا لَنَا مَا حَلَّ بِهِم أَمَامِيَا

90. وَذَاكَ مِن أَحسَنِ[2] اللَّعِينِ بِمُستَرٍ عَدُوًّا مُبِينًا لِلجَمَاعَةِ قَالِيَا

91. فَلَمَّا أَتَى بِمِصرَ لِلحَجِّ قَاصِدًا أَسَرَّ مَلِيكُهَا وَكَانَ مُنَاجِيَا

92. لأَمرَدَ بِيكْ قَد وَشَى بِجَمَاعَةٍ وَبِالطَّعنِ فِي دِينِ الرَّحِيمِ إِلهِيَا

93. فَتَبًّا وَتَعسًا ثُمَّ لَعنًا وَخِزيَةً عَلَيهِ وَخُسرانًا صَبَاحِي مَسائِيَا

94. فَأَرسَلَ أَمرَدُ إِلَى الشَّيخِ خِفيَةً فَأَسجَنَهُ نِصفًا مِنَ الشَّهرِ ثَاوِيَا

95. فَقَامَت لِفَكِّ الشَّيخِ مِنهُ جَمَاعَةٌ بِحِلمٍ فَقَالَ: مِن أُلُوفٍ بِطَاقِيَا

96. فَأَعطَوا لَهُ عَشرًا وَزَادُوا ثَلاَثَةً عَلَى دِينِهِم مُمَزَّقًا مُتَلاَشِيَا

97. وَقَد فُرِّقَت مِن قَبلُ بَينَ جَمَاعَةٍ عَلَى مُقتِرٍ وَمُوسِعٍ[3] كَانَ غَانِيَا

98. فَلِلَّهِ مِن قَومٍ لِجِربَةَ أَبذَلُوا عَلَى دِينِهِم مَالاً جَلِيلاً بِلاَ رِيَا

99. وقد جاهدوا في الله حقّض جهاده عَلَى دِينِهِم أَنفَ مِن قَلاَهُم مُعَادِيَا

100 فَعَمَّا قَلِيلٍ فَرَّجَ اللهُ مَا بِهِم بِحُرمَةِ مَذهَبٍ لَنَا كَانَ صَافِيَا

101 فَرَدَّ مَكِيدَةَ العَدُوِّ بِنَحرِهِ بِوَشْيِ جَمَاعَةٍ لأَمرَدَ ثَانِيَا

102 فَأَوجَعَهُ بِالضَّربِ حَتَّى تَأَلَّمَا وَكَادَت تَسِيلُ مِنهُ نَفسُ دِمَائِيَا

103 فَأَسلَبَهُ مِن مُلكِهِ بَعدَ سَجنِهِ شُهُورًا فَصَارَ مِثلَ كَفِّهِ خَالِيَا

104 فَلَيسَ لِذَا المَأخُوذِ مِنهُ نِهَايَةٌ وَلاَ غَايَةٌ فَالحَمدُ للهِ وَافِيَا

---

1 – موضع لم أستطع تحديده.
2 – موضع أيضا به ماء عذب.
3 – موضع أيضا.
4 – موضع يسكنه الرهبان به واد.
5 – فاكهة صيفية، من فصيلة البطيخات كروية الشكل صغيرة.
6 – كرداس: موضع على نهر النيل هكذا.
7 – بلاق: قصبة صغيرة كانت ميناء القاهرة على النيل في عهد المماليك والعثمانيين هي اليوم حي من أحياء العاصمة المصرية، اشتهرت بمطبعتها التي جاء بها نابليون إبّان حملته على مصر سنة 1789م.
ينظر: معجم البلدان ج1، ص151.
8 – هكذا في الأصل: وهي طولون.

1 – هكذا ورد دون تفصيل.
2 – هو أحسن النويري سبق ذكره.
3 – اقتباس من قوله تعالى في سورة البقرة وتمامها: ﴿لا جناح عليكم إن طلّقتم النساء ما لم تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعًا بالمعروف حقًا على المحسنين﴾ البقرة: 236.

105 أَوَيتُ بِمصرَ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِي وَخَزنِ مَتَاعِي لِلكَرِيمِ الشِّمَالِيَا

106 أَصِيلاً حَلِيمًا مَلجَأً ذَا بَشَاشَةٍ عَلِيٍّ بن عَمرو[1] لِلحَقِيقَةِ حَامِيَا

107 فَأُبدَى إِلَينَا نَيلُ مِصرَ عَجَائِبًا بِهَا، وَبِمَشرِقٍ وَكُلِّ النَّوَاحِيَا

108 فَمِن بَعدِ أَن لَبِثنَا فِي مِصرَ تِسعَةً عَزَمنَا مَعَ الرَّكبِ الحَدِيدِ الفُؤَادِيَا

109 بِيَومِ الخَمِيسِ ثَانِ شَهرٍ ذِي قِعدَةٍ خَرَجنَا إِلَى الدَّربِ البَعِيدِ المَرَامِيَا

110 فَبِرَكَةَ دَربٍ[2] ثُمَّ حَمرَاءَ[3] بَعدَهَا وَلَكِنَّهَا كَانَت مِنَ المَاءِ خَالِيَا

111 وَإِيَّاكَ أَن تَطُوفَ سَاحَةَ عَجرَدٍ[5] فَنَابِعَةَ[4] عَذبًا زُلَالاً فُرَاتِيَا

112 فَبِتنَا بِوَادِ التِّيهِ[7] بَعدَ إِقَامَةٍ بِنَابِعَةَ[6] يَومًا لِأَجلِ كِرَائِيَا

113 وَرَدنَا مِنَ النَّخِيلِ[9] فِي يَومِ سَابِعٍ فَجُزنَا عَلَى الزَّعلُوكِ[8] يَومَ الثَّمَانِيَا

1 – هو علي بن عياد الجربي، سيأتي تعريفه في مكانه، ينظر: الديوان، ص 221.
2 – موضع: لم أجده.
3 – موضع: بفسطاط مصر، من قُراها، تعرف بحمراء السنبلاوين، من كور الشرقية. معجم البلدان، ج2، ص180.
4 – موضع: قريب من الأوّل هكذا.
5 – موضع: لم أجده.
6 – أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم، الغالب على أرضها الرمال، وبها عيون ونخيل. معجم البلدان، ج1، ص473.
7 – موضع: لم أجده لعلّ به ينبوع.
8 – موضع: لم أجده أيضا، لعلّه كثير النخيل.
9 – موضع: لم أجده.

114 فَرُحنَا لِسَطحِ عُقبَةَ[1] يَومَ تَاسِعٍ لِرِحلَتِنَا مِن مِصرَ ذَاتِ الحِسَانِيَا

115 فَأَشرَقَ قَرنُ الشَّمسِ بُكرَةَ عَاشِرٍ عَلَينَا بِرَأسِ عُقبَةَ[2] الدَّربِ عَالِيَا

116 أَوَينَا لِقَلعَةٍ بِقِيعَانِ عُقبَةَ[3] وَكَانَت بِسُوقِ عَامِرٍ كَبُلاَقِيَا

117 وَكَانَ إِلَى ظَهرِ الحِمَارِ[4] سَبِيلُنَا عَلَى سَاحِلِ البَحرِ الأُجَاجِ يَمَانِيَا

118 قَصَدنَا إِلَى أُمِّ العِظَامِ[5] الرَّمِيمَةِ وَقَد كَانَ مَوضِعًا عَنِ المَاءِ عَارِيَا

119 فَأَمغَرَةَ الرَّسُولِ[6] سَيِّدِ مَدِينَ عَلَيهِ صَلاَتِي ثُمَّ أَزكَى سَلاَمِيَا

120 أَلاَهِيَّ مَنهَلٌ جَلِيلٌ وَمَورِدٌ نَعِيمٍ كَثِيرِ النَّخلِ عَذبًا وَوَادِيَا

121 وَقَد زَادَ مَاءُ بَعضِنَا فِي قِرَابِهِ لَدَى عَينِ قَصبٍ سَائِغًا فِي شَرَابِيَا[7]

122 فَعِندَ أُمَيلِحٍ[8] [خيرنا][9] بِبَعضِ مَا لَنَا مِن عَوِينٍ خِفَّةً لِجِمَالِيَا

123 فَمِن ذَاكَ قَد رَحَلنَا بَعدَ إِقَامَةٍ لِأَبيَارِ سُلطَانٍ[10] غَزِيرًا فُرَاتِيَا

124 وَكُن حَذِرًا مِن شُربِ لِزَلِمٍ[12] بَعدَهَا وَاصطَبِلٍ لِعَنتَرٍ[11] كَانَ خَالِيَا

1 – سطح الجبل الطويل، يعرض للطريق فيأخذ فيه، وهو طويل صعب الصعود.
ينظر: السابق، ج3، ص383.
2 – رأس الجبل، السابق إلى جهة الجنوب. نفسه، ج3، ص383.
3 – قلعة بقاع الجبل من جنوبه، لم تذكرها المصادر. نفسه، ج3، ص383.
4 – موضع لم أجده، وهو على ساحل البحر يمينا إلى الجنوب، هكذا في القصيدة.
5 – موضع لم أجده، قال عنه الشيخ موضع من دون ماء، لعلّه اندثر بعده طالما لا حياة به.
6 – مواضع أيضا لم أجدها.
7 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج ومن كلّ تاكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون﴾ فاطر: 12.
8 – موضع لم أجده.
9 – هكذا في الأصل: والمراد في المعنى تخفيف الحمل عن الجمال.
10 – ج. بئر، مواضع مختلفة في الطريق إلى مكة. معجم البلدان، ج1، ص71.
11 – موضع لم أجده.
12 – موضع به ماء غير صالح للشرب.

125 عَلَيكَ بوش[2] قَد مَـلَّت قِرَابَـنَا ... مِن أَبـيَارِه[1] فَلاَ تَكُن مُتَـوَانِيَـا

126 وَلاَ مَاءَ فِي حَنَكٍ فَدَع عَنكَ عَكرَةً[3] ... وَلَو لِبَعِيرٍ كُنَّ مِنَ الشُّربِ وَاقِـيَـا

127 فَلاَ تَنسَ مِن حَورَاءَ[5] حَظَّكَ وَافِـرًا ... كَزَيدٍ عَوِينًا ثُمَّ عَلفٍ وَمَـائِيَـا[4]

128 فَبِقُربِ نَبطًا[7] مَاتَ مِن غَيرِ تَوبَـةٍ ... لِسُـلاَلَةَ تُـومِي[6] زَوَالاً نَهَارِيَـا

129 لَدَى سَـابِعِ العِشرِيـنَ لُفَّ بِثَوبِـهِ ... وَنَحنُ عَلَى بِيـرٍ نُـرَوِّي جِمَالِيَـا

130 فَحَضِـيرَةٌ خَالِـيَةٌ ثُـمَّ يَـنبُـعُ[8] ... بِلادُ نَعِـيمٍ كَانَ فِي السُّوقِ حَامِيَـا

131 فَأَوقَعَ بَعضُ الرَّكبِ فِي السُّوقِ نَفـرَةً ... يُرِيـدُونَ سَلبَ مَا رَأَوهُ عَـلاَنِيَـا

132 فَأُلقِيَ فِي ذَا الرَّكبِ رُعبٌ فَأَجفَـلُوا ... كَجَفلِ نَعَـامَةِ الفَضَاءِ وَالفَـيَافِيَـا

133 فَفَرُّوا بِأَركَابٍ غَفِـيرٍ شَجُّـوا بِهِم ... عَلَى إِثرِ وَقعَةِ كَركَـبٍ فِلاَلِيَـا[9]

134 وَرَكبِ جَزِيرِي[10] وَرَكبٍ لِتُونسَ[11] ... وَغَيرِهِم وَكُلُّهُم صَـارُوا وَاهِـيَـا

135 أَلاَ إِنَّ بِالبَـدرِ الكَـرِيمِ لَبَـدَرًا[13] ... وَعَينًا تُسَمَّى عَينَ زَرقَاءَ[12] شَافِيَـا

1 – هكذا في الأصل، ولعلّه موضع.
2 – أبيار للماء، أيضا في ذات الموضع لم أجدها.
3 – العكرة: الماء العكر الآسن، ولعلّه موضع.
4 – قال القضاعي: هي من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز، وهي على البحر في شرقي القلزم، وقيل مرفأ سفن مصر إلى المدينة. معجم البلدان، ج4، ص192.
5 – تلاحظ كثرة حديثه عن الماء، ذلك راجع ولا شكّ لأهميّته الشديدة إذ طالما صادف الركب آبارا جافّة، وأخرى آسنة المياه...فصار بذلك عزيزا مطلبه.
6 – علم لم أصل إلى تعريف له، ويبدو أنّه من أعراب صحراء الجزائر، وقد رافق قافلة الشيخ إلى الحجاز.
7 – عدّة مواضع مختلفة. معجم البلدان، ج4، ص366، والنبط: استخراج الماء بالحفر.
8 – مدينة على الساحل تقابل المدينة، على سبع مراحل منها، بها عيون غزيرة، وهي قريبة من طريق الحاج القادم من الشام. معجم البلدان، ج4، ص511.
9 – يقصد الركب الفلالي الذي صاحبهم من أوّل الرحلة، وهم من نواحي بسكرة، منطقة الزيبان جنوب شرق الجزائر.
10 – المصاحبين لهم من جزيرة جربة وتونس.
11 – المصاحبين للشيخ في الرحلة من تونس.
12 – هكذا في الأصل، لعلّه موضع أو علم، لم أجده.
13 – موضع لم أجده.

136 فَمِن قَـاعِ بَزوَةَ[2] قَدِمنا إِلَى رُبَى[3] ... فَلَبَّـيتُ[1] مِنهَا سَـيِّدِي وَإِلَهِـيَـا

137 فَأَفرَدتُ عُمرَتِي عَنِ الحَـجِّ قَاصِـدًا ... ثَوَابَ أَتبَـاعِي الحَـائِزِينَ المَعَالِيَـا

138 تَرَكنَـا قَدِيـدًا[5] خَلفَنَـا وَيَسَارَنَـا ... فَرُحنَا لِبِركَةِ الخَلِـيصِ[4] عِـشَائِيَـا

139 أَلاَ حَبَّـذَاهَا مِـثلَ بَحرَةِ سَـاوَةَ[6] ... نَعِـيمَةُ مَـاءٍ بَـارِدٍ فِي فُـؤَادِيَـا

140 فَجُزنَا عَلَى عَسفَانَ[8] أَبيَارَ دَفلَـةٍ ... إِلَى الوَادِ فَالتَّـنعِيمِ[7] هَذَا مُرَادِيَـا

141 أَلاَ إِنَّ دُورَ الـدَّربِ كَانَت صَـعِيبَةً ... عَلَى كُلِّ ذِي بَسـطٍ جَسِيمًا وَغَانِيَـا

142 أَذَابَت جَـزِيلَ جِسـمِ كُلِّ ذُوِيبَـةٍ ... وَأَفنَت كَثِيرَ خَلـقٍ بَعـدُ وَمَالِيَـا[9]

143 دَخَلتُ إِلَى البَيتِ العَتِيقِ[10] بِـسَابِـعٍ ... مِنَ الشَّهرِ، ثُـمَّ طُفتُ سَبعَ طَوَافِيَـا

144 سَعَيتُ بُعَيدَ الشُّربِ مِـن بِـيرِ زَمـزَمٍ ... فَأَحلَلـتُ بَعـدَ أَن قَـضَيتُ

145 فَأَحرَمتُ مِن تَحتِ المِيزَابِ[12] لِحَجَّتِي ... بِيَومِ الخَمِيسِ كَـانَ يَـومَ الثَّمَانِيَـا

146 فَبِتُّ مَعَ الأَركَـابِ لَيلَـةَ تَاسِـعٍ ... بِمَرمَـى الجِمَـارِ[13] مَنحَرٍ لِدِمَائِيَـا

1 – التلبية: من مناسك الحج والعمرة: لبّيك اللهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبّيك....
2 – موضع في طريق مكة قريب من الجحفة، وقيل البزواء في بلدة بيضاء مرتفعة من الساحل بين الجار ووذّان وغيقة. معجم البلدان، ج1، ص325.
3 – ربى: ج. ربوة، موضع بين الأبواء والسقيا من طريق الجادة بين مكّة والمدينة. نفسه، ج3، ص387.
4 – حصن بين مكة والمدينة. نفسه، ج2، ص246.
5 – قديد: اسم موضع شمال مكة قريب منها. نفسه، ج4، ص23.
6 – هي مدينة حسنة بين الرّي وهمذان، بينهما ثلاثون فرسخًا، أمّا بحيرتها، فعن سطيح في أعلام النبوّة أنّها غارت كما انطفأت نار فارس، وهي هنا للتشبيه. نفسه، ج3، ص15.
7 – عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. نفسه، ج3، ص327.
8 – على مرحلتين من مكة من طريق المدينة والجحفة على ثلاث مراحل. نفسه، ج3، ص327.
9 – إشارة إلى المرافقين الذين توفوا في الطريق بقابس وتونس...كما أذابت سمين وغليظ كلّ دابّة كانت تقلّهم في تلك الرحلة الطويلة والشاقة من وادي مزاب إلى الحجاز.
10 – هو بيت الله الحرام وكعبته المشرفة.
11 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿ثمّ ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾ الحج: 29.
12 – هو الميزاب الذي تسيل منه مياه الأمطار التي تتجمّع فوق سطح الكعبة، يحرم منه حجاج أهل المغرب.
13 – من مناسك الحج رمي جمرات على نصب إبليس، ومنه إلى نحر الهدي من المناسك أيضا.

147 وَقَفتُ بِيَومِ جُمعَةٍ مُتَعَجِّبًا ... بِكَثرَةِ خَلقِ اللهِ فِي عَرَفَاتِيَا[1]

148 دَعَوتُ هُنَا بِدَعوَةٍ بَعدَ دَعوَةٍ ... إِلهِي فَكُن لِي وَاقِيًا وَمُعَافِيَا

149 فَنِعمَ النَّصِيرُ اللهُ رَبِّي وَخَالِقِي ... فَبِحُسنِ ظَنِّي فِيهِ نِلتُ مُرادِيَا[2]

150 فَلَمَّا قَضَيتُ مِن مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... قَدِمتُ إِلَى سُوقٍ بِمَكَّةَ[3] حَامِيَا

151 فَزُرتُ بِهَا مِيلادَ سَيِّدِ بَطحَةٍ ... نَبِيًّا مُمَجَّدًا عَلَيهِ سَلَامِيَا

152 كَذَا مَولِدَ الزَّهرَاءِ بِنتِ مُحَمَّدٍ ... وَمِيلَادَ خِلٍّ كَانَ بِالغَارِ ثَانِيَا

153 وَدَارَ أَبِي بَكرٍ[4] وَقَبرَ خَدِيجَةٍ[5] ... سَيُسكِنُهَا رَبِّي قُصُورًا حِسَانِيَا

154 فَكَم مَشعَرٍ هُنَاكَ لَو اشتَرَيتُهُ ... بِنفسِي لَم أُغبَن فَكَيفَ بِمَالِيَا

155 وَكَم مَشهَدٍ شَهِدتُهُ بَعدَ مَشهَدٍ ... يُظَنُّ بِهِ إِجَابَةً لِدُعَائِيَا[6]

156 وَمِمَّا شَجَانِي مَا رَأَيتُهُ وَاقِعًا ... مِن أَنجَاسِ أَركَابٍ بِمَسعَى إِلهِيَا

157 كَذَلِكَ أَبوَابُ الحَرَامِ جَمِيعِهَا ... فَصَارَ [لِمحرَاضٍ][7] الدِّيارِ مُساوِيَا

158 وَأَعظَمُ مِن هَذَا عَلَيَّ مُصِيبَةٌ ... وُقُوعَهُ دَاخِلَ الحَرَامِ عَلَانِيَا

1 – عرفات: حدّها من الجبل المشرف على بطن عرفة إلى جبال عرفة، وقيل في سبب تسميتها بذلك قول كثير وأشهر الأقوال: اعتراف النّاس بذنوبهم في ذلك الموقف. السابق، ج3، ص314.

2 – لا شكّ أنّ الشيخ قد ألحّ في الدعاء وأطال في ذلك الموقف المهيب، ولم يشأ التطويل هنا طالما كان القصد من النظم بيان الطريق لمن يريد الحجّ، ثمّ كيف لا وقد وضع كتابا بديعًا خاصّا بمناسك الحج.

3 – سوق بمكة: كثيرة أسواق مكة، تلاحظ دقّة الوصف بأنّ السوق حامية أسعارها، وتلك في الشيخ سجية امتاز بها، مع دقة الملاحظة ورهافة الحسّ.

4 – مواضع مشهورة تزار إلى اليوم بمكة للدعاء والموعظة.

5 – أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

6 – معظم الحجاج لا يتأخرون عن زيارة مثل هذه الأماكن لما يظنّ بها من إجابة الدعاء.

7 – هكذا في الأصل: وهو يريد التنزه في استعمال هذه الكلمة لذلك غير بعض مواضع حروفها.

159 أَبَاحُوا بِبَيتِ اللهِ كُلَّ مُحَرَّمٍ ... بِمَا لَم يَقَع مِنَ القُرُونِ الخَوَالِيَا[1]

160 وَصَارَ بِهِ مَا كَانَ فِيهِ مُحَرَّمًا ... حَلَالاً فَحَسبِي المُهيمِنُ رَائِيَا

161 فَهَذَا الذِي قَد زَادَ لِلرَّأسِ شَيبَةً ... وَغَيَّرَ شِيمَتِي وَبَدَّلَ حَالِيَا

162 وَأَورَثَنِي شَجوًا طَوِيلاً وَحَسرَةً ... وَأَحزَنَنِي حَتَّى بَكَيتُ دِمائِيَا

163 وَصَيَّرَنِي ذَا حَيرَةٍ مُتَعَجِّبًا ... بِسِرِّ الحَكِيمِ الفِعلِ قَد كَانَ خَافِيَا

164 فَهَذَا مِن أَسرَارِ الخَبِيرِ بِخَلقِهِ ... فَدَعهُ وَكُن بِعَهدِ رَبِّكَ وَافِيَا

165 رَجَعتُ عَلَى نَفسِي مُلِيمًا وَقَائِلاً ... لَهَا سَلِّمِيهِ لِلَّذِي كَانَ قَاضِيَا

166 دَعِي الخَوضَ فِيهِ وَاترُكِيهِ فَإِنَّهُ ... كَنَاظِرِ عَينَ الشَّمسِ يُصبِحُ عَامِيَا

167 تَسَلَّيتُ هَمَّ القَلبِ مِنِّي بِكَعبَةٍ ... وَمَنظَرِهَا المُنِيفِ قَد كَانَ زَاهِيَا

168 لَقَد كُسِيت ثَوبَ حَرِيرٍ مُذَهَّبٍ ... يُهَيِّجُ لَوعَةَ الغَرَامِ بِبَالِيَا

169 كَذَا بَابُهَا مُذَهَّبٌ بَعدَ فِضَّةٍ ... مُوالٍ لِمَشرِقٍ وَبَابِ سَلَامِيَا

170 بِمَيمَنَةٍ مِنِّي مُقَامٌ لِسَيِّدِي ... أَبِي بُرهُمٍ[2] صَلَّى عَلَيهِ إِلهِيَا

171 مَقَامٌ عَجِيبٌ مَكسُوًّا بِمُذَهَّبٍ ... لِبَابِ مُحَمَّدٍ نَبِيًّا مُوَالِيَا

172 وَمَا بِيرُ إِسمَاعِيلَ[3] إِلاَّ كَقُبَّةٍ ... بِمَيسَرَةِ المُقَامِ وَالبَابِ رَاسِيَا

173 إِلَى جِهَةِ المِيزَابِ[4] كَانَت صَلاتُنَا ... كَمَا أَنَّ نَحوَ الغَربِ بَابُ وَدَاعِيَا

1 – لم يشر معظم ناظمي الحجازيات إلى مثل هذه القضايا التي لا يمكن التغاضي عنها للمسلم الطاهر النقيّ، وممّا يحسب من المزايا والحسنات للشيخ هذه الملاحظة الدقيقة التي غفل عنها أو تغافل عنها أصحاب الحجازيات، وهي تقع داخل الحرم علانية، وإن تعجب فاعجب من غياب أولي النهى، وتدهور العناية بالمقدسات، هذا إن لم يكن لمسؤولي ذاك الزمان شغل غير ضرب المكوس؟!

2 – يريد: إبراهيم الخليل عليه وعلى نبيّنا أفضل الصّلاة والتسليم.

3 – هو بئر زمزم مشهور إلى اليوم.

4 – ميزاب الكعبة: ميزاب ينحدر منه ماء المطر، حين يجتمع فوق سطحها.

174 فَمِن بَينِ رُكنِ لِليَماني[2] وَأَسوَدَ[3] خَرَجنَا إِلَى الصَّفَا[1] نُرِيدُ المَسَاعِيَا

175 وَكَم آيَةٍ لِذي الهُدَى حَولَ كَعبَةٍ مُنيرةٍ كَالشَّمسِ بِالأُفُقِ عَالِيَا

176 وَمَا كَانَ دَاخِلاً بِهَا لَيسَ وَصفُهُ يَجُوزُ لِمَن يُرِيدُ نَيلَ المَعَالِيَا

177 لَبِثنَا بِهَا نَطُوفُ طَاقَةَ وُسعِنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَعَشرِ لَيَالِيَا

178 فَفِي نَيِّفِ العِشرِينَ مِن شَهرِ حِجَّتِي رَحَلتُ إِلَى زُورِ المَدِينَةِ[4] غَادِيَا

179 فَبِقُربِهَا قَد مَاتَ عِيسَى بنُ أَحمَدَ[5] بِسَابِعِ شَهرٍ قَد وَرَيتُهُ خَافِيَا

180 أَتَيتُ بِيَومِ السَّبتِ قَبرَ مُحَمَّدٍ نَبِيًّا كَرِيمًا سَيِّدَ الخَلقِ هَادِيَا

181 فَسَلَّمتُ تَسلِيمَ المَزُورِ بِزَائِرٍ عَلَيهِ وَكُنتُ لِلشَّفَاعَةِ رَاجِيَا

182 فَكُن لِي شَفِيعًا يَومَ لاذٍ وَشَفَاعَةٍ بِمُغنٍ نَقِيرًا عَنِّي يَا ابنَ تُهَامِيَا

183 وَكُن لِي وَلِيًّا يَومَ لاَذٍ وَوَلاَيَةٍ بِمُغنٍ فَتِيلاً عَن كَثِيرِ المَسَاوِيَا

184 بِجَاهِكَ عِندَ خَالِقِي قَد رَجَوتُهُ بِسترِ مَعِيبِي وَانحِطَاطِ خَطَائِيَا

185 فَسَلَّمتُ بَعدَهُ عَلَى خَيرِ أُمَّةٍ بُعَيدَ نَبِيٍّ صَاحِبِ الغَارِ ثَانِيَا[6]

186 كَذَا عُمرَ الفَارُوقِ[7] قَد كَانَ مَلجَأً إِلَى كُلِّ مَخلُوقٍ وَلِلدِّينِ حَامِيَا

187 فُطُوبَى لِرَوضَةٍ حَوَت بِعِظَامِهِم عَلَى نَزعَةٍ مِن جَنَّةِ الخُلدِ عَالِيَا

188 أَلاَ هِيَ رَوضَةٌ جَلِيلٌ[9]، نَعِيمُهُ بِمَسجِدِ[8] سَيِّدِ الخَلاَئِقِ بَاهِيَا

1 – الركن اليماني: ركن من الكعبة، يقال أنّه من الجنّة، معروف.
2 – هو الحجر الأسود بجدار الكعبة، يقال أنّه من الجنّة، معروف أيضا.
3 – الصفا من شعائر الحج، حيث سعت هاجر تبحث عن الماء لابنها إسماعيل قبل انبجاس زمزم.
4 – هي يثرب: مدينة الرسول ﷺ.
5 – عيسى بن أحمد: هكذا ورد من دون تفصيل.
6 – يريد: أبا بكر الصديق ﷺ. وقد سبق الإشارة إلى الاقتباس في مظانه من الآية في عدّة مواضع سابقة.
7 – هو عمر بن الخطاب ﷺ.
8 – هكذا في الأصل..
9 – هو مسجد الرسول ﷺ، وروضته الشريفة.

189 تَعَشَّرتُ عَاشُورَاءَ فِيهِ مُسَلِّمًا عَلَى فَاتِحِ أَبوَابِ رُحمٍ عَلاَنِيَا

190 فَكَم مَشهَدٍ جَلَّ بِطِيبَةَ زُرتُهُ وَكُنتُ بِهِ مِنَ المُهَيمِنِ دَاعِيَا

191 فَمَادَ، هُنَاكَ المُسَمَّى سُلاَلَةً لِعِيسَى بن سَلمَانَ[1] إِمَامًا قَرَارِيَّا

192 فَصَلَّيتُ بَعدَ غَسلِهِ ثُمَّ كَفنِهِ عَلَيهِ بِمَسجِدِ النَّبِيِّ نَهَارِيَا

193 فَفِي يَومِ الأَربِعَاءِ بَعدَ زَوَالِهِ رَحَلتُ كَئِيبًا مِنهُ مَا كُنتُ شَاهِيَا

194 فَدَارَت بِنَا أَشيَاخُ رَكبٍ لِرشوَةٍ[2] طَرِيقًا وَحِيشًا مِن أُنَاسِيَ خَالِيَا

195 [فَقُوا][3] بِهَا حَكِيمَ مِصرَ[4] فِي أَكلِهِ ثَمَانِينَ أَلفًا مِن رِيَالٍ بِطَاقِيَا

196 وَذَلِكَ غَفرُ شَيخِ صَفرَى[5] جَدِيدَةٍ وَمَن كَانَ فِيمَا قَد ذَكَرنَا مُسَاوِيَا

197 فَبِتنَا بِبَعضِ نَهجِهَا[7] تَحتَ قَلعَةٍ[8] عَلَى الوَادِ[6] طَالِبِينَ وِردَ جِمَالِيَا

198 شَرَعنَا بِحَفرِ البِيرِ مِن غَيرِ مَهمَلَةٍ فَنِلنَا قُبَيلَ الصُّبحِ مِنهُ الأَمَانِيَا

199 فَعَمَّا قَلِيلٍ مِن زَمَانِ إِقَامَةٍ سُقِينَا بِصَوبٍ مُفعَمٍ جَرعِ وَادِيَا

200 فَجَرَّ ذُيُولَ السَّيلِ بَعدَ صَبِيحَةٍ عَلَينَا فَصِرنَا هَارِبِينَ بِلاَ رِيَا

201 فَكَم لَوِيَةٍ قَطَعتُهَا بَعدَ لَوِيَةٍ مِنَ الوَادِ كُنتُ قَبلَهَا غَيرَ رَاضِيَا

1 – هكذا ذكر الشيخ دون تفصيل إمام من بلدة القرارة.
2 – كذلك لم يفصّل هنا في نسبة أولئك الأشخاص ولا غرو أنّهم من الأعراب الذين يعيشون على السلب طوال العام وعلى المكوس في واسم الحجّ والعمرة.
ينظر: الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، ص490.
3 – هكذا في الأصل، ولعله تصحيف، والأصوب عندي: فاقوا، أي: تجاوزوا الحدّ.
4 – يريد: إبراهيم بيك الذي فرض عليهم الغرامة الباهضة.
5 – هكذا في الأصل، والأرجح أنّه موضع لم أجده.
6 – أماكن في الموضع السابق لم أجدها.
7 – أماكن في الموضع السابق، لم أجدها كذلك.
8 – أماكن في الموضع السابق، لم أجدها أيضا.

202 نَجَونَا وَرَبِّ البَيتِ مِن بَأسِ شَرِّهِ بِعَونٍ عَظِيمِ الفَضلِ للخَلقِ بَارِيَا

203 فَمن سَابِقِ القَضَاءِ أَغرَقَ سَيلُهُ مِنَ الرَّكبِ بَعضَ النَّاسِ نَفسًا وَمَالِيَا[1]

204 فَعِندَ أَصِيلِ يَومِنَا بَاتَ رَكبُنَا، مَلأنَا قِرَابَنَا مِنَ السَّيلِ صَافِيَا

205 فَمِن بَعدِ ذَاكَ السَّيلِ سِرنَا بِنِعمَةٍ مِنَ اللهِ لَولاَ قِلَّةُ الزَّادِ وَافِيَا

206 نَعَينَا بِابنِ قَاسِمٍ[2] فِي أُمِيلِحٍ سَعِيدٍ، مُؤَذِّنًا وَكَانَ قَرَارِيَا

207 فَفِي إِحدَى عَشرَ بَعدَ شَهرِ المُحَرَّمِ دَخَلنَا بِمِصرَ بَالِغِينَ الأَمَانِيَا[3]

208 فَضَرْبٌ بِأَرضٍ قِطعَةٌ مِن جَهَنَّمٍ[4] عَلَى كُلِّ مُوسِعٍ وَلَو كَانَ دَانِيَا

209 فَكَيفَ بِمُقتِرٍ ذِي ضَنكِ مَعِيشَةٍ عَلِيلاً ضَعِيفَ الجِسمِ بِالهَمِّ كَاسِيَا

210 جَلَوتُ بِنَاظِرِي البِلاَدَ فَلَم أَجِد لِعِلَّتِهِ شَيءً سِوَى الصَّبرِ دَاوِيَا

211 فَصَبرٌ جَمِيلٌ وَالرِّضَى بِقَضَاءِ مَن عَلَى يَدِهِ فَتحُ الأُمُورِ كَمَا هِيَا

212 هُمَا زِينَةٌ لِلمَرءِ مَهمَى اكتَسَى بِهَا يَعِش دَائِمًا عَنِ الكَآبَةِ خَالِيَا

213 فَنَسأَلُكَ اللَّهُمَّ سَترَ مَعَائِبِي وَغَفرَ ذُنُوبٍ أَورَثَت ضِيقَ بَالِيَا

214 كَذَا ذَنبُ أَشيَاخِي وَصَالِحِ وَالِدِي وَغَفرَ ذُنُوبَ المُسلِمِينَ الأَعَالِيَا

215 بِحُرمَةِ قُرآنٍ وَفَضلِ مُحَمَّدٍ رَسُولاً مُعَظَّمًا عَلَيهِ سَلاَمِيَا

216 فَدُونَكَهَا غَرَّا تَلُوحُ كَدُرَّةٍ ثَمِينِيَةٍ[5] مَفصُولَةٍ بِلَئَالِيَا

1 – كذلك لم يفصّل الشيخ هنا في الغرقى ولم يرثهم حتّى ولا أدري لماذا لم يفعل ذلك.

2 – سعيد بن قاسم، مؤذن من بلدة القرارة، هكذا.

3 – تلاحظ هنا أنّ الشيخ لم يفصّل في مراحل العودة من المدينة إلى مصر. ولعلّ الشوق إلى الوطن من جهة والكارثة التي ألّمت بهم في الطوفان، وشوقه وولهه بيثرب التي فارقها كئيبًا غير راغب في وداعها، ثمّ المكوس والأرجاس في مكّة..كلّها عوامل وأسباب قد يكون بعضها سببًا في عدم ذكر منازل العودة والتفصيل فيها، واستغرقت الرحلة حوالي شهر أو تزيد قليلا من يثرب إلى مصر.

4 – هنا يقصد دون شكّ المناوئين من حكام مصر، الذين ضربوا لهم الغرامات ظلمًا وجورًا.

5 – نسبة إليه، وإلى عائلته "الثميني" الشهيرة ببني يسجن إلى اليوم.

217 تَميسُ كَخُودٍ غَضَّةٍ فِي سُطُورِهَا كَشَذرٍ وَمَرجَانٍ بِنَحرِ غَوَانِيَا

218 وَيُلهِي صِماخَ السَّامِعِينَ سَمَاعُهَا عَنِ اللَّهوِ وَالرَّوَاءِ مَن كَانَ رَائِيَا

219 وَنَاظِمُهَا عَبدٌ فَقِيرٌ لِرَبِّهِ أَسِيرُ الذُّنُوبِ إِبرَاهِيمُ مُزَابِيَا[1]

220 وَمِنِّي صَلاَةٌ بَعدَ أَلفٍ تَحِيَّةٌ عَلَى سَيِّدٍ خَيرِ الخَلاَئِقِ هَادِيَا

221 دَوَامَ الَّذِي قَد قُلتُ حَمدًا مُوافِيًا عَلَى نِعمٍ مِنهَا بُلُوغِي مُرَادِيَا

هَذَا وَلَمَّا وَصَلنَا وَدَخَلنَا مِصرَ سَالِمِينَ مَكَّنَا فِيهَا أَيَّامًا قَلِيلَةً غَيرَ مُبدِّلِينَ وَلاَ مُغيِّرِينَ، ثُمَّ جَرَّدَ الدَّهرُ عَلَى الجَمَاعَةِ[2] ثَانِيًا سَيفَ العُدوَانِ حَتَّى كَادَ أَن يَستَأصِلَهُم وَيُبِيدَ مَن كَانَ فِيهَا مِنَ السُّكَّانِ، فَأَلَمَّ بِهِم مَا أَلَمَّ مِن صَرفِ النَّكَبَاتِ، وَغَشِيَهُم مَا غَشِيَهُم مِن صَرصَرِ البَلِيَّاتِ، وَذَلِكَ مِن جِهَةِ بَيكٍ خَانَ إِبرَاهِيمَ[3] _عَلَيهِ لَعنَةُ اللهِ وَصَبَّ فَوقَ رَأسِهِ مِن عَذَابِ الحَمِيمِ_ فَإِنَّهُ بَعَثَ إِلَيهِم مِن جِهَةِ الاستِهزَاءِ وَالسُّخرِيَةِ أَن يُسَلِّفُوا لَهُ أُلُوفًا مِن أَبِي طَاقَةٍ مِنَ الفِضَّةِ، فَاحتَالُوا فِي دَفعِ هَذِهِ المَكِيدَةِ مِنهُ بِالسِّيَاسَةِ وَالتَّأَنِّي فِي أَمرِهِم وَاستِعمَالِ الحَذَاقَةِ فَرَدَّت عَلَى أَربَعَةِ آلاَفٍ وَمِائَتَينِ رِيَالاً فَقُسِّمَت بَينَهُم كَالأُولَى، فَأُخِذَت مِنهُم مِن غَيرِ نَصَبٍ وَلاَ تَعَبٍ وَمِن غَيرِ وَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ وَلاَ سَبَبٍ، فَقَالَ لَهُم: مَن قَعَدَ فِي هَذَا البَلَدِ بَعدَ الأَمرِ وَالشَّأنِ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفسَهُ، انتَهَى مَا قُلتُهُ وَالسَّلاَمُ.

مِن عُبَيدِ رَبِّهِ كَاتِبُهُ إِبرَاهِيم بن عبد الرَّحمَان بن أَبِي مُحَمَّد الثَّمِيني اليَسجَنِي المُصعَبِي لاَ صَعَّبَ اللهُ عَلَيهِ المَرَامَ بِجَاهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِتَارِيخِ أَوَائِلِ رَبِيعٍ بَعدَ رَبِيعٍ النَّبَوِيِّ[4] مِن سَنَةِ 1197 هـ (1782م) وَتَأَخَّرَ نَقلُهَا إِلَى ذِي الحِجَّةِ مِن سَنَةِ 1217 هـ (1802م)[5].

1 – نسبة إلى بني مزاب أو مصعب، ومن هنا أخذت العنوان الذي اقترحته أي: "رحلة المصعبي".

2 – لا شكّ أنّه يقصد الجماعة المقيمة بوكالة الجاموس.

3 – حاكم مصر، سبق التعريف به.

4 – يعني ربيع الثاني.

5 – لم يذكر الشيخ سبب تأخّر نقل الحجازية أو تبييضها طول هذه المدّة التي تقارب العشرين سنة.

مدح واستعطاف حَسَن بَاشَا الدُّولاتْلي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما (بحر المتقارب)

1. أَقُـولُ وَأَعنِـي بِهَذَا الخِطَـابِ هُـمَامَ الإِسلامِ حُـسْـنَ المَـآب
2. أَبَـانَا وَسَـيِّدَنَا حَـسَنًا جَمِيلَ المُحيَّا عَظِيمًا مُهَـاب
3. كَرِيمًـا ظَرِيفًـا أَدِيبًـا نَجِيبًـا رَحِيبَ الصُّـدُورِ رَبِيطَ الحِجَـاب
4. طَوِيلَ النِّجَـادِ كَـثِيرَ الرَّمَـادِ فَصِيحَ اللِّسَانِ بِغَـيرِ ارتِـيَاب[2]
5. مَلِيـكَ الأَنَامِ كَبَـدرِ الظَّـلاَمِ إِذَا لاَحَ فَوق الـكُدَى وَالهِـضَاب
6. رَؤُوفًـا رَحِيمًـا لِمَـن جَـاءَهُ مُزِيلاً عَنِ النَّـفسِ هَمَّ الـعَذَاب
7. بَـسِـيلاً غَـضَنفَرَ ذَا قُـوَّةٍ بِجيشِ النَّصارى كَمِثلِ التُّـرَاب[3]
8. وَقُـبَّةُ مَجـدٍ لَقَـد ضُرِبَـت عَـلَيهِ فَمَالَـت إِلَيـهِ الرِّقَـاب
9. فَمَـاذَا عَلَيـكَ أَيَـا سَـيِّدِي إِذَا جُدتَ عَفوًا لأَهـلِ مُـزَاب
10. قَد أَذهَلَـهُم عَنكَ مَا سَـمِعُوا وَحَيَّرَهُم مَا أَتَـى فِـي الكِـتَاب
11. أَتَـتكَ تُـرِيدُ شِـرَائَهُم إِلَى بَاءِي[4] صَـالِحٍ ذِي الاضـطِرَاب
12. فَكَيفَ تَطِـيبُ لَهُـم عِيـشَةٌ وَأَنتَ تُـسَـاوِمُهُم بِالعَـذَاب[5]

1 – هو داي الجزائر (1790م–1797م)، سبق التعريف به، والعنوان هنا من وضعي.

2 – اقتباس من بيت الخنساء الشهير في رثاء أخيها صخر، وقد سبق إخراجه في أكثر من موضع.

3 – لعلّها إشارة إلى بطولات الداي من خلال تصدّيه ومقاومته لهجومات الإسبان على الجزائر.
ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا داي الجزائر، المطبعة العربية بالجزائر، 1356هـ، ص147.

4 – هكذا في الأصل، والمقصود معلوم هو الباي، ومنه الباءي المتكبّر. اللسان، ص28.

5 – يقصد الاتفاقية أو الوعد الذي أعطاه للباي صالح من تمكينه مُزاب ليضمّها إلى ولايته الشرقية.

13. فَكَيفَ وَكَيفَ وَكَيـفَ يَكُـونُ هَـذَا، وَإِنَّ هَـذَا مِـن عُجَـاب
14. فَـدَع مَـا هَوَيتَ فَإِنَّ الهَـوى يَقُودُ النُّفُوسَ إِلَى مَا يُـعَاب[1]
15. أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ أُمُـورَهُـم وَأَمرَ عَـسَـاكِرَ تُـرك يُـهَاب
16. فَـلاَ فَرقَ حِينَئِـذٍ بَينَهُـم وَشَـأنُهُم لَيسَ فِيـهِ ارتِـيَاب[2]
17. فَإِن كَانَ بَابٌ لَـكُم مُغلَـقًـا سَيُفتَحُ بَـابٌ إِذَا سُـدَّ بَـاب
18. وَإِن لَم يَكُن جَاهُنَـا مُنفِـقًـا إِلَيكُم فَيُقضَى الذِي فِي الكِتَـاب[3]
19. وَيَتَّـسِعُ الحَـالُ مِـن بَعـدِمَا تَضِـيقُ المَذَاهِبُ عِندَ الذَّهَـاب
20. إِذَا ضِيـقَ أَمرٌ دَنَـى يُـسرُهُ كَمَا يَنجَلِي عَن سَمَاءٍ سَـحَاب[4]
21. فَـإِن قُلـتَ إِنَّ هَذَا مُمـكِنٌ فَسَرِّح عَبِيدًا[5] مِـن أَهـلِ مُـزَاب
22. وَقَـد دَخلُوا بَلـدَةً آمِنًـا جَـزَائِـرَ يَا سَـيِّدِي بِالـصَّواب
23. يَـرُوحُـوا إِلى أَيِّ نَاحِيَـةٍ أَرَادُوا وَشَـاءُوا بِغَـيرِ انقِـلاَب[6]
24. فَـإِنَّ الأَرَاضِـيَ وَاسِعَـةٌ وَحَمدِي لِرَبِّي جَزِيـلِ الثَّـوَاب
25. وَصَلَّى الإِلـهُ عَلَـى المُـصطَفَى شَفِـيعِ الخَلاَئِقِ يَـومَ الحِسَـاب
26. وَمِنِّي صَـلاَةٌ عَلَـى أَحـمَدَا نَبِيًّـا كَرِيمًـا بِغَـيرِ ارتِيَـاب
27. دَوَامَ زَمَـانٍ لِمَـا قُلـتُـهُ أَقُـولُ وَأَعنِي بِهَـذَا الخِطَـاب

1 – إنّ عزّة النّفس هذه ليس وراءها جيش أو مال بل إيمان راسخ بالله تعالى.

2 – إشارة إلى الاتفاقية المبرمة بين الشيخ بحيو موسى العطفاوي وخير الدين بربروس، بعد الانتصار على الأسبان بالسواحل الجزائرية حوالي 1515م، والتي بموجبها استفاد المزابيون من امتيازات نظير جهادهم المُستميت...
ينظر: تاريخ بني مزاب، الحاج سعيد يوسف، ص63. ينظر أيضا: حمو عيسى النوري، ج1، ص208.

3 – لعله يعني أن ينفذ الباي صالح ما عزم عليه، وذلك بعد إذنكم له، بأن يضمّ وادي مزاب لولايته الشرقية، فينتقم منهم.

4 – هذه الشهادة الأخرى على اليقين بالله، وتدلّ على رجاحة في العقل وقوّة في الشخصية.

5 – ليس المقصود هنا: بالعبيد المماليك، بل أرباب الصنائع والحرف، والعبيد هنا تواضع من المواطن للحاكم أو السلطان.

6 – إنّ هذه العزّة وهذا الخطاب الصريح يكمن وراءه إيمان ويقين بنصر الله وبمشروعية الدعوى، كذلك فيه رسوخ فكرة مفادها أنّ أرباب الصنائع والحرف في الجزائر هم بنو مزاب، كذلك الأمر بالنسبة للمراتب السامية في الجيش التركي، وقد سبق الحديث في هذا فعُد إليه إن شئت.
ينظر: الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزاب، ص63.
ينظر أيضا: حمو عيسى النوري، دور المزابيين، ج1، ص208.

مدحُ إبراهيم الشَّمَّاخي[1]

1. حَمَى الله بَدرًا زَاهِيًا نُورًا زَهرا ... لَبِيبًا نَجِيبًا بَاسِلاً كَغَضنفَرا
2. أَدِيبًا ظَرِيفًا بِالمَحَاسِنِ سَامِيا ... وَجِيهًا حَلِيمًا لِلنَّوازِلِ أَصبَرا
3. حَبِيبًا كَرِيمًا مَاجِدًا مُتَبَرِّعًا ... حقِيقًا بِنَيلِ المجدِ أَكبَرَ أَكبَرا
4. فَتًى لَم تَلِد أُنثى لَهُ بِمُمَاثِلٍ ... أَبَرَّ بِمِيثاقٍ وَأَوفَى وَأَحذَرا
5. فَمُذ كَان صَاحِبًا إِلَيَّ رَضِيتُهُ ... وَقَرَّت بِه العَينانِ لِي مَا تَغَيَّرا
6. هُو الشَّيخُ إبراهِيمُ[2] مِن طَيِّبِ عُنصُرٍ ... لشَمَّاخَةٍ يُدعَى فَيَا نِعمَ عُنصُرا
7. لَئِن كُنتَ يَا أَخِي عَنِ العَينِ غَائِبًا ... فَمَا غِبتَ عَن قَلبِي يَا خَيرَ مَنظَرا
8. عَلَيكَ سَلامٌ بَعدَ أَلفِ تَحِيَّةٍ ... سَلامًا يَفُوقُ المِسكَ نَشرًا وَعَنبَرا
9. وَرَندًا وَأَلوِيًا مِنَ الهِندِ ذَاكِيا ... وَبَانًا وَصَندَلاً وَلُبنًا مُقَشَّرا
10. سلامٌ وتفسِيرُ السَّلامِ سَلامَةٌ ... سلامًا من اليَعجُوجِ أسنَى وأذفَرا
11. وَأَطيبُ رَيحَانٍ وَأَذكَى قُرُنفُلٍ ... وَأَنفَسُ وَردَةِ الرِّياضِ وَأَزهَرَا
12. عَلَيكَ سَلامٌ أَينَمَا كُنتَ قَاطِنًا ... بِنجدٍ وَخَيفٍ وَالسُّهُولِ وَأَوعَرا

1 – هذا العنوان من وضعي.

2 – للأسف لم أعثر على النسب الكامل لهذا الشيخ إلاّ ما ورد هنا في القصيدة، والأكيد أنّه من نفوسة للقبه العائلي، وقد كانت بينهما مراسلات غير هذه القصيدة بدليل المدح البديع، وما جاء في البيت الخامس...

أُخرى في مدحِ عَليِّ بن عِيادٍ الجِربي[1] (بحر الطويل)

1. حَمَى الله بَدرًا فِي بُلاقَ[2] تَسَامِيَا ... ونَالَ بِبُرجِ السَّعدِ حُسنَ المَعالِيا
2. لَبِيبًا كَرِيمًا مَعدِنَ الجُودِ وَالنَّدَى ... ظَرِيفًا بَسِيلاً بِالشَّجَاعَةِ كَاسِيَا
3. رَحِيبًا رَبِيطَ الجَأشِ طِبًّا سَمَيدَعا ... أَصِيلاً فَصِيحًا لِلحَوَائِجِ قَاضِيَا
4. عَلِيٌّ بن عِيادٍ[3] لِجربَةَ يَنتَمِي ... ضِيَاءً وَمَلجَأً، حَدِيد الفُؤادِيَا
5. أَدَامَهُ مَولاَنَا وَأَخلَدَ مُلكَهُ ... خُلُودَ الجِبالِ الشَّامِخاتِ الرَّوَاسِيَا
6. وَأَسعَدَ بُرجَهُ وَأَكمَلَ نُورَهُ ... وَأَعلَى مَقَامَهُ عُلُوًّا سَمَاوِيَا
7. وأرفَعَ قَدرَهُ وأوفَى بُدُورَهُ ... لَدَى الحَضرَةِ العَلياءِ حَظًّا مُساوِيا
8. وَأَلبَسَهُ ثَوبَ السَّمَاحَةِ وَالعَطَى ... وَتَوَّجَهُ تَاجَ الكَرَامَةِ وَافِيَا
9. عَلَيكَ سَلامٌ أَينَمَا كُنتَ نَازِلاً ... سَلامًا بِزَهرِ الرَّوضِ كَانَ مُحاكِيَا
10. وَألفُ ثَنَاءٍ بَعدَ أَلفِ تَحِيَّةٍ ... وَألفِ وِدَادٍ مِن كَثِيرِ المَسَاوِيَا
11. بِمِسكٍ وَعَنبَرٍ مَشُوبٍ وَزُرنُبٍ ... وَبَانٍ وَكَافُورٍ وَزَهرٍ يَمانِيَا
12. دَوَامَ زمانٍ مَا حَمَامٌ تَنَوَّحَت ... وَمَا غَرَّدَت وُرقُ الغَرامِ بِبالِيَا
13. وَمَا طَرِبَت خُودٌ وَهَاجَت بَلاَبِلٌ ... بِصَبٍّ عَمِيدٍ مُدنَفٍ صَارَ وَاهِيَا
14. وَمَا رنَّحَت رِيحُ الصَّبَا غُصنَ بَانَةٍ ... وأطرَبَ عِيسًا ذُو التَّرنُّمِ حَادِيَا
15. وَمَا قَالَ إبرَاهِيمُ ذُو الوُجدِ وَالأَسَى ... حَمَى الله بَدرًا فِي بُلاَقٍ تَسَامِيَا

1 – العنوان من وضعي هنا أيضا.

2 – بلاق: هكذا في الأصل، وهي بولاق ولقد سبق شرحها في رحلة المصعبي.

3 – علي بن عياد: أحد حكّام عائلة ابن عياد من مؤسّسة القائد بجربة تولى الحُكم سنة (1177هـ/1763-1764م) وقد أقام بمصر، ونزل عنده الشيخ صاحب الديوان عند مروره بمصر قاصدًا الحجاز لأداء مناسك الحجّ، فأكرمه وأحسن ضيافته. وقد سبق ذكره في الحجازية الأبيات: 105، 106.

ينظر: علماء جربة، تحقيق محمّد قوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص123.

وله أيضا في مدحِ واستعطاف الحَسَن الدُّولاتلي[1] (بحر الطويل)

1. رَعَـى اللهُ سُلطانًـا كَرِيمَ المَفاخِرِ جَمِيلاً لَبِيبًا قَاطِنًـا بالجَزَائِـرِ[2]
2. أَدِيبًـا نَجِيبًا جَامِعًا للمَحاسِـنِ بَسِيلاً غَـضَنفَرًا هزَبـرَ الهَزَابِـرِ
3. كَثِيرَ الرَّمادِ مَعدِنَ الجُودِ وَالنَّـدَى طَوِيلَ النِّجَادِ، مَنبَتًـا للجَوَاهِـرِ
4. عَظِيـمًا كَرِيمًا مَاجِدًا ذَا مَهابَـةٍ حَلِيمًا رَءُوفًا نَاهِيًـا للمَنَاكِـرِ
5. صَبُورًا عَلَى رَيبِ الزَّمانِ وَبَأسِـهِ شَدِيدًا عَلَى الكُفَّارِ مِن كُلِّ سَـاكِرِ
6. أَبُـونَا وَمَولاَنَا وَسَـيِّدنَا الَّـذي بِهِ دمَّـرَ اللهُ غِـلاظَ المَـشَافِـرِ[3]
7. لَهُ هِـمَّةٌ تَسمُو عَلَى كُلِّ هِمَّـةٍ لَهُ شِيمَةٌ مِثلَ النُّجـومِ الزَّوَاهِـرِ
8. لَهُ خَيمَةٌ مَجدًا وَفَخـرًا وَعِـزَّةً وَأَيدٍ طَوِيلٌ فِـي اقتِنَـاءِ المَآثِـرِ
9. أَدَامَـهُ مَـوْلاَنَا وَأَعظَمَ شَأنَـهُ وَأَعـلَى مَقَامَـهُ عُلُـوَّ المَنَابِـرِ
10. وَأَسـعَدَ بُرجَهُ وَخَلَّدَ مُلكَـهُ خُلودَ الجِبالِ وَالبُحُورِ الزَّواخِـرِ
11. وَتَـوَّجَهُ تَـاجًا جَلِيلاً مُكَلَّـلاً من الدُّرِّ عِندَ كُلِّ بَادٍ وَحَاضِـرِ
12. وَأَلـبَسَهُ خِزَّ الكَرامَـةِ وَالنُّهَـى وَطَوَّقَـهُ طَوقَ الحَمَامِ الهَـوادِرِ
13. أَيَا سُلطانَ الإسلاَمِ وَالدِّينِ وَالهُدى أَيَا مَالِكَ البَرَّينِ نُـورَ الدَّيَاجِـرِ
14. أَيَا هُمَامَ البَحرَينِ بَلِّغ لِـيَ المُنَـى وَكُن لِمقَالِي سَامِعًا غَيرَ فَاتِـرِ[4]

1 – العنوان من وضعي، ولقد جاءت القصائد مجموعة بهذا التسلسل فتركتها كما هي واكتفيت بوضع ما يحتاج منها إلى العناوين والتعليق عليها.

2 – دون شك يدلّ هذا البيت وباقي أبيات القصيدة على أنّ المقصود بالمدح والاستعطاف هو الداي حسن باشا الدولاتلي.

3 – إنّ مجموع الأبيات 6 إلى 15، تدلّ دون شكّ على أنّ المقصود بالاستعطاف هو داي الجزائر الحسن باشا الدولاتلي، لأنّ هذه العبارة ستتكرر بكثرة في مراسلاته معه.

4 – فاتر: أي غير حاد البصر، وطَرْف فاترٌ: فيه فُتور وسُجُوّ ليس بحادّ النظر. قال ابن الأعرابي: أَفْتَرَ الرجلُ، فهو مُفْترٌ إذا ضعفت جفونه فانكسر طَرْفه. الجوهري: طَرْف فاتر إذا لم يكن حديداً.

15. وَجُد بِقضَاءِ حَاجَةٍ قَد تَلَجلَجَت بِصَدرِ عُبيدٍ ضَـيِّقٍ لِلحَنَاجِـرِ
16. عَلَيكَ سَـلاَمٌ أَينَمَا كُنتَ قَاطِنًـا سَلاَمًا يُحَاكِـي عَبقَرِيَّ العَبَاقِـرِ
17. عَلَيكَ سَـلاَمٌ أَينَمَا كُنتَ ظَاعِنًا سَلاَمًا كَمِسكِ الهِندِ بَل وَالعَنَابِـرِ
18. مَشُوبًا بِصَندَلٍ وَبَـانٍ وزُرنُـبٍ وَلُبْنٍ وَكَافُورٍ وَزَهـرِ الزَّواهِـرِ
19. دَوَامَ زَمَانٍ مَا حَمَـامٌ تَنَوَّحَـت وَمَا غَرَّدَت وُرقُ الهَوَى بِـالبَواكِرِ
20. وَمَا طَرِبَت خُودٌ وَمَا لاَحَ بَـارِقٌ وَهَاجَت بَلاَبِلُ الصَّبَا بِالخَواطِـرِ
21. وَمَا قَالَ إبرَاهِيمُ ذُو الوُجدِ وَالأَسَى رَعَى اللهُ سُلطانًا كَـرِيمَ المَفـاخِرِ

مَدح الحاج ابن أبي القاسم القراري

الشهير بـ "الشيخ بلحاج"[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

صَلَّى الله عَلَى سَيِّدنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد وَآله وَصَحبه وَسَلَّمَ تَسليمًا

إنَّ أَبهَى مَا تَتَحَلَّى به سُطُور الطُّرُوس وَأَحْرَى مَا تَتَخَلَّقُ به عَزَائمُ النُّفُوس، وَأَزهَرَ من بُدُور التَّمِّ، وَنُجُوم اللَّيَالي، وَأَنفَسَ من سُمُوط الدُّر وَعُقُود اللَّآلي، وَأَحسَن مَا يَتَعَلَّق بجيد غيداء وَأَبدَعُ مَا يُتَقَلَّدُ بنَحر عَذرَاء، وَأَزهَى مَا تَتَزَيَّنُ به عَرَائس المَبَاني، وَأَذكَى مَا تَستَنشقُهُ رياض المَعَاني، بَعدَ حَمد الله سُبحَانَه ذي المَنَن الوَافيَة، وَشُكر مَوْلاَنَا ذي العَطَايَا الوَافرَة، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى خَير الأَنَـــام، سَيدَنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد الأَمين، صَلَّى الله عَلَيه وَعَلَى آله وَأَصحَابه أَجمَعينَ، سَلاَمٌ مُتَّصلٌ وَثَنَاءٌ مُشتَملٌ، وَرضوَانٌ عَامٌ وَتَبجيلٌ تَامٌّ، وَبَرَكَةٌ وَإكـــرَامٌ، وَرَحمَةٌ وَإنعَامٌ، وَتَمجيدٌ وَتَعظيمٌ، وَتَشريفٌ وَتَكريمٌ، وتَسليمَاتٌ وَافيَة، وَتَحيَّاتٌ صَافيَة، مُتَعَطِّرَةٌ بأَزهَار المَوَدَّة، مُرَصَّعَةٌ بوشَاح المَحَبَّة، مَشُوبَة بمسك وَكَافُور وَزَنجَبيل، مَختُومَة بغَاليَة وَعَنبَر وَسَلسَبيل، من مُحبٍّ قَد أَضنَاهُ تَبَاريح الغَرَام، وَمُدنف قَد أَنحَلَهُ لَوعَةُ الأَسقَام، المُتَيَّم الحَقير، الذَّليل الفَقير، إلَى عَفو الغَفَّار وَستر القَهَّار، عَبدهُ إبرَاهيم بن عَبد الرحمان، المُحتَاج إلَى رَحمَة الرَّحيم الرَّحمَان، إلَى الأَخ الحَبيب النَّاصح اللَّبيب الأَمجَد الأَريب، الأَسعَد النَّجيب، العَالم الذَّكيِّ الفَاضل السَّريِّ، السَّمَيدَع النَّقيِّ، المُبَرَّع السَّميِّ، الكَامل الزَّكيِّ، العَلاَّمَة المُجتَبَى، الفَهَّامَة المُصطَفَى، المُقَدَّم عَلَى سَائر الجُمُوع وَالوُفُود، المُتَّصل الأَيَّام بمَنَازل السُّعُود، الشَّيخ عَمُّنَا الحَاج بن أَبي القاسم، الذي لاَ يَخَافُ في الله تَعَالَى لَومَةَ لاَئم، ضيَاءُ المِلَّة وَعزُّ الدِّين، أَعلَى الله مَقَامَهُ في

1 – العنوان من وضعي، والممدوح هو الحاج بن أبي القاسم القراري، المعروف بـ"الشيخ بالحاج" دفين العطف، وقد سبق التعريف به، أما هذه المراسلة فقد جاءت ردًّا عَلَى رِسَالَةٍ له بالمُنَاسَبَة.

أَعلَى عِلِّيِّين، وَأَعَانَهُ عَلَى تَشييد قَوَاعد الإسلاَم وَسَخَّرَ لَهُ قُلُوبَ الأَنَام، وَأَلبَسَهُ جُبَّةَ الكَمَال، وَتَوَّجَهُ تَاجَ الجَمَال، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ، وَأَعلَى مَقَامَهُ وَأَمَدَّ عُمُرَهُ، وَأَبَادَ عَدُوَّهُ، لاَزَالَت سَحَائبُ الخَير عَلَيه مُمطرةً، وَأَغصَانُ الفَضل إلَيه مُمتَدَّةً، وَلاَ بَرحَت الآفَاتُ تُبَاعدُهُ، وَالخَيرَات تُبَاشرُهُ، وَالفَضَائلُ تُصَاحبُهُ، وَالفَوَاضل تُجَاورُهُ[1].

هَذَا وَإنَّ مَكتُوبَكَ البَديع[2]، وَخطَابَك الرَّفيعَ، قَد تَوَجَّهَ إلَينَا، وَوَصَلَ بَينَ أَيدينَا وَفَهمنَا مَنظُومَهُ وَمَنثُورَهُ، وَمَنقُولَهُ وَمَعقُولَهُ، فَاستَحسَنَتهُ الطِّبَاع، وَمَالَت إلَيه الأَسمَاعُ، وَانشَرَحَت به الأَفكَارُ، وَانفَتَحَت لرُؤيَته الأَنظَارُ، وَإنَّهُ لَكتَابٌ مُبينٌ، وَخَطٌّ بمُستَبين، عَزيزُ المَبَاني غَزيرُ المَعَاني، قَد ارتَقَى في ذُروَة الكَمَال، وَسَمَى في قُنَّة الجَلاَل وَالجَمَال، لكَونه مُحتَويًا عَلَى أَنوَاع من بَلاَغَة، وَمُحيطًا بفُنُون من فَصَاحَة، وَمَشحُونًا بضُرُوب من بَرَاعَة، وَمَملوءًا بصُنُوف من سَمَاحَة، فَللَّه من كتَاب صَادر من أَخ مَاهر، وَخَليل صَادق، وَحَبيب حَاذق، يُجَلي عَن النُّفُوس كُلَّ مُهمٍّ، وَيَكشفُ عَنهَا كُلَّ مُلمٍّ، وَيُزيلُ عَن الحَشَاشَة الكَلَّ وَالنَّصَبَ، وَعَن الحَشَاء الغَمَّ وَالتَّعَبَ، وَيُهيجُ في الفُؤَاد صَبَابَةً وَغَرَامًا، وَفي السُّوَيدَاء اشتيَاقًا وَلَوعَةً وَأُوَامًا، وَلَكن وَافَى القَافلَة صَارمَةً وَإلَى سَبيلهَا قَادمَةً وَمَاضيَةً، وَتَرَاني نُجدِّدُهُ ــ إن شاء الله ــ مَعَ الأُخرَى، بَعدَ نَسخه وَإصلاَح بَيتَين أَو ثَلاَثَة من مَنظُومه الأَسنَى، أَعني من جهَة الوَزن العَرُوضيِّ[3]، وَأَمَّا مَكتُوبَنَا فَقَد سَبَقَ مَعَ

1 – تلاحظ بديع المدح والوصف أنّ الصداقة الحميمة التي تربطهما ببعضهما هي الدافع لمثل هذه الأوصاف، ذلك أنّه ليست من عادة الشيخ المبالغة في الوصف مدحًا أو ذمًّا إلاّ إذا أحسّ بضرورة ذلك، وهو صادق مع نفسه، وقد ذكر لي الشيخ الحاج سليمان بكاي الباحث في التراث الإباضي بأنّ هذه الصفة كانت ملازمة لمعظم الشيوخ إلى عهد قريب، إذ لا يمدحون ولا يذمّون أحدا إلاّ بما فيه ويقفون عند الذي لا يعرفونه حتّى تتّضح لهم أحواله، وفي المذهب الإباضي باب في العقيدة شهير بـ: "الولاية والبراءة والوقوف" فيه تفصيل ذلك.
ينظر: عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، جمعية التراث القرارة، الجزائر، ص56.
أيضا: مقابلة مع الحاج سليمان بكاي، بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، بتاريخ 03 أفريل 2005م.

2 – ينظر: مجموع مؤلفات ابن بحمان، مكتبة الشيخ حاج صالح لعلي، ببني يسجن، مخ، كله.

3 – تراه فعلا حريصا على إتقان كلّ حرفة، فهو مقرّ بضعف شعره وهو مع ذلك يحاول إصلاحه.

أَهلِ التَّلِّ الغَربي[1]، فإنَّ رَبّنا بِبَرَكَة مَذهَبنَا قَد قَيَّضَ لَه رَجُلا بذَاته قَادمًا لإخوَاننَا العُمَانيِّين به[2]، وَيُوصلُه إلَيهم بيَده، وَهُو عَمُّنَا الحاج مُحَمَّد سُوفَغْ أَلَمْ[3] الشَّهير بهَذَا الاسم، وَقَد عَقَدَ نيَّةً، وَأَخلَصَ طَوِيَّةً، حَتَّى وُسمَ بهَذَا الوَسم، وَوَافَقَ مَا سَنَحَ عَلَى البَال، فَللَّه الحَمدُ وَالشُّكرُ عَلَى كُلِّ حَال، وَإلَيه نَرغَبُ، وَإلَى مَا يَرضَاهُ نُحبُّ، فَقُلتُ فِي شَأن ذَلكَ السَّيِّد العَالي، مُكَافَةً لنَظمه الغَالي، من بَحر الطَّويل.

1. رَعَى اللهُ بَدرًا زَاهِـيًا بِقَـرَارَة ... أَديبًا نَجيبًا مَاجِدًا ذَا بَرَاعَـة
2. كَرِيمًا ظَرِيفًـا بالمَحَاسِـن كَاسِيًا ... لَبِيبًا جَميلاً بَاسِلاً ذَا مَهابَـة
3. صَـدِيقًا خَـبِيرًا فَاضِلاً مُتبَرِّعًـا ... ذَكِيًّا نَقِيًّا زَاكِيًـا ذَا فَـصَاحَة
4. رَبِيطًا رَحِيبَ الصَّدرِ طِبًّا سَـمَيدَعًا ... حَدِيدَ الفُؤَاد، مِصقَعًا ذَا بَـلاَغَة
5. حَبِيبًا تَقِيًّا عَالِمًـا مُتعلِّمًـا ... أَرِيبًا وَجِيهًا نَاصِحًا بِخُلاَصَـة
6. هُوَ الشَّيخُ نَجلُ قَاسِمِ بن مُحَمَّد[4] ... ضِيَـاءٌ لدِيـنِ اللهِ نُور ضَـلاَلَة
7. فَتًى لَم تلِـد أُنـثَى لَـهُ بِمُمَاثِـلٍ ... أَبَـرُّ بِمِيثَاقٍ وَأَوفَـى هِدَايَـة
8. لَقَد كَانَ ذَا حَزمٍ وَعَـزمٍ وَقُـوَّة ... حَقِيقًا بنيلِ كُلِّ إِربٍ وَحَاجَـة
9. رَحِيمًا ذَوِي الإسلاَمِ مَعْ كُلِّ أَيِّـمٍ ... شَدِيدًا عَلَى الكُـفَّارِ أَهلِ عِمَايَـة
10. لَهُ هِمَّـةٌ لَـم يُعطِهَـا اللهُ غَـيرَهُ ... لَهُ شِيمَةٌ تَعلُو عَلَى كُـلِّ رَايَـة

1 – لعلّه يقصد من بني مزاب تجار الغرب الجزائري، حيث يوجدون هناك بكثرة منذ عقود إلى اليوم.
ينظر: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص46، 47.

2 – لعلّ هذا الرجل أراد الرحلة إلى عمان قاصدًا الحجاز وهو الغالب. بحيث يلتقي الحجاج المزابيون مع العمانيين في البقاع المقدّسة، لأنّ الرحلة من الحجاز إلى عمان عبر الربع الخالي شاقّة جدًّا، دون أن ننسى الرحلة من مزاب إلى الحجاز ومالها من صعاب لا تُطاق.

3 – للأسف لم أصل إلى تعريف هذا الرجل، لعله من سكان غرداية أو بني يسجن.

4 – هو الشهير "بالشيخ بالحاج" دفين العطف.

11. عَليكُـم عَلَيكُم بِاقتِفَاءِ سَبِيـلِه ... أَآلَ قَـرَارٍ كَي تَفُـوزُوا بِرَاحَـة
12. فَإِيَّاكُـم مِن أَن تُخَـالِفُوا أَمـرَهُ ... وَلَـو لَحظَـةً، وَإِن بِـردِّ مَقَالَـة
13. سَلاَمٌ عَلَى نِـبرَاسِ دَهـرٍ وَآلِـه ... سَلاَمًا يُحَاكِي نَسجَ خُودٍ وَغَـادَة
14. عَلَيـكَ سَـلاَمُ اللهِ بَعـدَ تَحيَّـة ... وَأَلـفُ ثَـنَاءٍ من شَدِيدِ كَآبَـة
15. عَلَيـكَ سَـلاَمٌ من مشوقٍ لِزَورَة ... وَأَلـفُ وِدَادٍ بَعدَ أَلفِ سَلاَمَـة
16. تُشَابُ بِمِسـكٍ أَذفَـرٍ ثُمَّ عَنبَـرٍ ... وَرَنـدٍ وَصَـندَلٍ وَلُبنٍ وَبَانَـة
17. وَأَطيَـبِ رَيحَانٍ وَأَذكَـى قَرنفُـلٍ ... وَأَنفَسَ زَهرِ الرَّوضِ ذَاتِ مَلاَحَـة
18. تَـدُومُ زَمَانًـا مَا حَمَامٌ تَنَوَّحَـت ... وَمَا صَدَحَت وُرقُ الهَوَى بِـصَبَابَة
19. وَمَا طَرِبَت خُودٌ، وَهَاجَت بَلاَبِـلٌ ... بِصَبٍّ عَمِيدٍ مُدنَـفٍ ذِي حَـرَارَة
20. وَمَـا قَالَ مُنشِدٌ أَسِـيرُ مَحَـبَّة ... رَعَى اللهُ بَدرًا زَاهِـيًا بِقَـرَارَة

وَعَلَيكَ السَّلاَم وَالرَّحمَة وَالبَرَكَةُ وَالإكرَام، وَعَلَى جَمِيعِ الإخوَان مَا أَمطَرَت الخَضرَاء بِصَوبِ الغَمَام، وَضَمَّت الغَبرَاءُ بِخَيرِ الأَنَام، مَولاَنَا مُحَمَّد عَلَيه الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَمَا دَامَت الأَيَّام وَاللَّيَالِي، وَنَظَمَت رَهِيدَةٌ سُمُوط اللَّآلِي، وَتَغَرَّدت الحَمَامُ عَلَى الأَغصَان، وَانطَوَت المَحَبَّة فِي الأَذهَان، وَتَنَسَّمَت رِيَاح الأَنظَار، وَتَفَتَّحَت رَيَاض الأَفكَار، وَنَاحَت بَلاَبِلُ الهَوَى، وَهَاجَت لَوَاعِج الجَوَى، وَلاَحَ بَرقٌ عَلَى قُلَلِ الحِمَى، وَدَرَّ شَارِقٌ عَلَى قُنَّة الهِضَاب وَالكُدَى، من ذِي وَجدٍ وَكَآبَةٍ وَكَلَفٍ وَصَبَابَة، وَشَغَفٍ وَحَرَارَة، وَغَرَامٍ غَير ذِي نِهَايَة، وَالسَّلاَمُ عَلَيكَ وَعَلَى مَن كَانَ تَحتَ لِوَائِكَ. بتاريخ أوّل يَومٍ من صفر سنة 1207هـ (1794م).

رثاءُ الشَّيخ بابه بن محمد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم

وفي الشيخ بَابَ بن امحمد[2] حينَ تُوفِّيَ ـرحمهُ اللهـ (بحر الطويل)

1. تأوَّبَنِـي دَاءٌ دَخِيـلٌ مُـوزَّعُ ... بِهِ كَادَتِ النُّفُوسُ تُـوذَى وَتُـتَرَعُ
2. وَبِتُّ عَلَى طُولِ اللَّيَالِي مُـسَهَّدًا ... لَدِيغَ الشَّوَى وَالعَينُ مِنِّـي تَـدمَعُ
3. بَكَيتُ دُمُوعًا مِن عُيُونٍ كَلِيـلَةٍ ... كَوَابِلِ صَوبٍ وَالفُـؤَادُ مُـقطَّعُ
4. رُمِيتُ بِخَطبٍ هَادِمٍ كُلَّ شَـامِخٍ ... يُزِيلُ الجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ وَيَقـلَعُ
5. وَصِرتُ بِهِ نَحِيلَ جِسمٍ مُوصَّبٍ ... سَمِيرَ هُمُـومٍ بِالكَآبَـةِ يَهلَـعُ
6. نُعِيتُ بِيَوم الإربِعَاء[3] مُبَـارِكٍ ... غَدَاةَ صَبَاحٍ مِنهُ وَالـشَّمسُ تَطلُـعُ
7. بِفَقدِ ضِيَاءِ الدِّينِ خَيرِ مُهـذَّبٍ ... إِمَـامٌ عَـظِيمٌ فَاضِـلٌ مُتَبَـرِّعُ
8. هُوَ الشَّيخُ إِبرَاهِيمُ نَجـلُ مُحَمَّدٍ ... سُلَالَـةُ قَاسِمٍ خَبِـيرٍ سَمَـيدَعُ
9. كَرِيمٌ أَرِيبٌ مَاجِـدٌ ذُو مَهَـابَةٍ ... نَجِيبٌ فَرِيدُ العَصرِ طَودٌ مُضَعـضَعُ
10. تَقِيٌّ نَقِـيٌّ بِالمَحَاسِـنِ مُـرتَدٍ ... سَرِيٌّ ذَكِيٌّ كَامِلُ العَقـلِ أَسـنَعُ
11. رَحِيبٌ رَبِيطُ الجَأشِ سَيفٌ مُهَنَّدٌ ... صَبورٌ عَلَى الأَذَى قَـنُوعٌ مُقَنِّـعُ

1 – العنوان من وضعي، أمّا الشيخ بابه بن امحمّد بن فهو ابن الشيخ "حمو والحاج"، سبق التعريف به.

2 – بَابَ أو بابه: هو إبراهيم نفسه، ولا يزال في مزاب كثير من النّاس يتداولون هذه التسمية وغيرها، مثالها "بافُّو" للمدعو يوسف، كما يقال "الحاج إبراهيم" للمدعو "بُهُون" بعد عودته من الحج...
لقاء مع الحاج سليمان بكاي، قيّم مكتبة الاستقامة ببني يسجن، بتاريخ 12 أفريل 2005م.

3 – هذا التاريخ هو الذي أعتمد في معجم أعلام الإباضية للتأريخ لوفاة الشيخ بابه، بالإضافة إلى توقيع الشاعر للقصيدة في الأخير.

12. حَدِيدُ الفُؤَادِ مِصقَـعٌ ذُو نَزَاهَةٍ ... فَلاَ مِثلَهُ يَخـشَى الإِلَـهَ وَيَخـضَعُ
13. عَلِيمٌ بِذَاتِ اللهِ سِـرًّا وَجَهـرَةً ... جَـذِيـرٌ بِهِ وَبِالدِّيـانَةِ أَسـرَعُ
14. وَقَد كَانَ ذَا بِرٍّ إِلَى كُـلِّ أَيِّـمٍ ... وَعَزمٍ وَحَزمٍ فِي الأُمُـورِ وَيَقطَـعُ
15. وَكَان لِكُلِّ النَّاسِ حِصنًا مُؤَرَّبًـا ... وَلِلدِّينِ كَهفًا ثُمَّ بِالحَـقِّ يَـصدَعُ
16. أَلاَ لَم تَلِد أُنثَـى لَـهُ بِمُمَـاثِلٍ ... أَبرُّ بِمِيثَـاقٍ وَبِالخَـطبِ أَرفَـعُ
17. لَهُ أَيدٍ فِي كُلِّ العُلُـومِ طَوِيـلَةٍ ... وَفِي نَيلِهِ إِلَى المَفَاخِـرِ أَوسَـعُ
18. وَوَادِ بَنِي مُـزَابَ ضَجَّ بِمَـوتِهِ ... وَعَالَ بِصَرخٍ كَادَ لِلنَّفسِ يَنـزَعُ
19. فَأَصبَحَ تَحتَ الأَرضِ بِـالرَّمسِ وَحِيدًا ... وَحِيشًا وَهُو بِاللَّحدِ أَضجَعُ
20. فَطُوبَى لِقَبرٍ قَد تَضَمَّـنَ سَيِّـدًا ... مُحِبٌّ حَبِيبٍ طَيِّبِ النَّفـسِ أَفـنَعُ
21. فَسُقيًا لِرَوضٍ قَد تُوُسِّـدَ بُرهَـةً ... لِجِـسمٍ أَبِي خَيرٍ يَضُـرُّ وَيَنفَـعُ
22. فَمَن لَكُم يَا آلَ [غَرْدَايَ][1] بَعدَهُ ... يُقِـيمُ بِدِينِ اللهِ حَـقًّـا وَيَقـمَعُ
23. قَد أَصبَحَ مَاؤُكُم نَضُوبًـا تَيَبُّـسًا ... فَهَـل لَكُم مِن بَعدُ عَيـنٌ تُـسِيَّعُ
24. أَلاَ جَـدِّدُوا للهِ بَعـدَهُ تَـوبَـةً ... وَابكُوا عَلَـيهِ وَانـدُبُوهُ وَشَـيِّعُوا
25. عَلَيهِ رِضَـاءُ اللهِ فِي كُلِّ سَـاعَةٍ ... وَرَحمَـتُهُ تَترَى وَعَفـوٌ يُـتبَعُ
26. أَمَولاَيَ أَفسِح رَوضَـهُ مُتَفَـضِّلاً ... وَأَبنِ لَهُ بَيتًـا بِـدُرٍّ يُـرصَّـعُ
27. فَلَو كَانَ مَبكًى يُغنِي عَنِّي فَتِيلَـةً ... بَكَيتُ عَلَيهِ مَا دَامَ الدَّهرُ يَـصدَعُ
28. وَلَكِن بُكَاءَ النَّفـسِ إِلاَّ تَعَـلُّلٌ ... فَهَل يُغنِي لِلعَـانِي بُكَـاءٌ وَيَنفَـعُ
29. رَجَعتُ عَلَى نَفسِي أَلُومُ مَلاَمَـةً ... وَصَبَّرتُـها كَيمَـا تُفِيقُ وَتُـسرِعُ

1 – هكذا في الأصل، وهي غرداية مسقط رأس الشيخ بابه ومكان إقامته.

30. فقُلتُ لَهَا: دَعِي، فَأَبَت وَأَعْرَضَت ... وَحَـارَت بِموتٍ لَم تَرَ كَيفَ تَصنَعُ

31. فقُلتُ لَهَا: يَا نَفسُ صَبرًا تَجَمَّلِـي ... وَلاَ تَجزَعِي وَالمَوتُ حَقٌّ يُشعِـشِعُ

32. فَهَذَا سَبِيلُ كُلِّ خَلقٍ وَإِنْ عَـلاَ ... بُرُوجًـا وَنَالَ كُـلَّ بَيتٍ بِبَلـقَعِ

33. إِلَى اللهِ أَشكُوا لَوعَتِي وَصَـبَابَتِي ... وَوُجـدِي غَرَامٌ بَعـدَهُ مُتـشَيِّعِ

34. عَلَى مَذهَبٍ قَد صَارَ يُتمًا مُجدِّلاً ... نَبِيذًا وَرَاءَ الظَّـهرِ لاَ يَتَـزَعزَعُ

35. أَمَولاَيَ صَلِّ ثُمَّ سَـلِّم تَفَـضُّلاً ... عَلَى مُرسَلٍ بِالخَيرِ مَا الشَّمسُ تَطلُـعُ

36. نَبِيٌّ كَرِيمٌ مَاجِدٌ هُوَ أَحـمَـدٌ ... عَظِيمٌ عَظِيمُ الـشَّأنِ لاَ يَتَضَعـضَعُ

37. وَمِنِّي عَلَيهِ بَعـدَهُ مُتَـطَفِّـلاً ... صَلاَةٌ وَتَسلِيـمٌ بِنَـشـرٍ يَلفَـعُ

38. دَوَامَ زَمَانٍ مَا الدُّمُوعُ تَحَـدَّرَت ... عَلَى خَدِّ مَحـزُونٍ كَـدُرٍّ يَلمَـعُ

39. وَمَا نَشَبَت بِـالخَلقِ يَومًـا مَنِيَّـةٌ ... مَخَالِبَهَا بِإِذنِ رَبِّـي تُشَعـشِعُ

40. وَمَا نَوَّحت خُودٌ وَعَالَت رَهِيـدَةٌ ... عَلَى فَقـدِ شيخٍ قَد ثَوَى وَهُو أَسنَعُ

41. وَمَا قَالَ مُنشِدٌ أَسِـيرُ مَحبَّـةٍ ... تَـأَوَّبَنِي دَاءٌ دَخِيـلٌ مُـوزَّعُ

بِتَاريخ أَوَاسِط صفر من سنة 1206هـ (1794م).

حَادِثَةُ صالح بَـاي[1]

توطئة:

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِـهِ وَسَلَّم

وَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ فِي سَنَةِ ستَّة وَمَائتَين وَألف من بَعد هجرَة سَيِّدنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد بن عَبد الله ـصَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّمـ من أُمُور عظَام، وَأَهوَال جسَام، وَمن جُملَتهَا أَنَّ عَدُوَّ اللهِ وَالمُسلمينَ " البَائي[2] صَالح " صَاحِبُ الوِلاَيَة الشَّرقِيَة[3] ـعَلَيه اللَّعنَةُ المُتَّصلَةُ إِلَى يَومِ الدِّين، وَالتَّصلِيَةُ بنَار الجحيم، وَالتَّعذِيبُ بِأَنوَاعِ العَذَاب الأَليم، قَد دَخَلَ بَلَدَ الجَزَائر وَاشتَرَى من المَولَى "حَسَن الدُّولاَتلي"[4] بِلاَدَ بَنِي مُزَاب أَن يَكُونَ أَميرًا عَلَيهِم بعدَّة من أُلُوف لاَ تُحصَى[5]، وَأَن يَجعَلَ أُمُورَهُم بيَده، وَجَهَّزَ لَهُ مَا جَهَّزَ، ممَّا لاَ يُعَدُّ وَلاَ يُستَقصَى، وَقَد تَمَنَّى ذَلكَ اللَّعينُ وَتَرَجَّى أَسرَهُم وَسَبيَ النِّسَاءِ وَالصِّغَار[6]، وَحَدَّثَ بِه نَفسَهُ آنَاءَ اللَّيلِ وَأَطرَافَ النَّهَارِ.

اضطَرَبت أَودِيَةُ بَنِي مُزَاب حِينَ سَمِعُوا ذَلكَ الخَبَرَ الشَّنِيعَ، وَصَحَّحُوا هَذَا الأَثَرَ الفَظِيعَ، وَزُلزِلُوا زِلزَالاً شَدِيدًا حَتَّى بَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ[7]، [فلتَجؤُا][8]

---

1 – العنوانين الكبير والجانبي من وضعي.

2 – البائي: هنا معناها المتكبّر، وهو يقصد بها أيضا "الباي" فهي قدْحٌ في تورية.

3 – عاصمتها قسنطينة، وتضمّ معظم الولايات الشرقية إلى الحدود التونسية، حتّى توقرت إلى وراجلان.
ينظر: عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، مكتبة العرب، تونس، 1344، ص448.

4 – الدولاتلي: رتبة في الجيش تعادل آغا العسكر، والآغا بالتركية هو القائد. ينظر: نفسه، ص256.

5 – لعلّها إشارة إلى الهدايا التي قدّمها الباي صالح للمولى حسن داي الجزائر قبل أن يطلب منه قبول مقترحه بضمّ منطقة مزاب إلى الولاية الشرقية.
ينظر توفيق المدني، محمّد عثمان باشا، المطبعة العربية بالجزائر، 1356هـ، ص149.

6 – ليث الشيخ فصّل في سبب تدبير الباي صالح لهذه المكيدة وتفكيره في سبي النساء والصّغار، ولعل الرّاجح إن كان الباي يفكر بذلك حقًا، أنه جاء للانتقام من التجار المزابيين مريدا إذلالهم من خلال ضم مزاب لولايته الشرقية حتى يتسنى له فعل ما يريد، والله أعلم...

7 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنون، هنالك ابتلي المومنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾[الأحزاب: 11، 12].

8 – هكذا في الأصل: وهي فالتَجؤوا.

إِلَى اللهِ سُبحَانَهُ بِجَمِيعِ الشَّرَاشِرِ[1]، وَتَضَرَّعُوا إِلَيه بِنيَّةٍ خَالِصَة، إِذ "لاَ مَلجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيه"[2]، وَخَضَعُوا لَهُ بِطَوِيَّةٍ صَافِيَة، فَآوَوا إِلَى قِرَاءَةِ القُرآنِ فِي الأَمَاكِنِ العَظِيمَةِ الشَّأنِ يَومَ الإِثنَينِ وَيَومَ الخَمِيسِ[3]، وَكَثَّرُوا بِالصَّدَقَةِ وَالمَعرُوفِ، وَسَوَّوا بَينَ الكَرِيمِ وَالخَسِيسِ، فَرَفَعُوا شُؤُونَهُم لِكتابه إبراهيم بن عبد الرحمان[4]، مُرِيدِينَ منه مَكتُوبًا يَكتُبُهُ لَهُم فِي ذَلِكَ الشَّأنِ، إِلَى ذَلِكَ السُّلطَانِ العَالِي القَهرَمَانِ الغَالِي، فَامتَثَلَ مَا أَتَوا بِه إِلَيه فِي السَّاعَةِ وَالحِينِ، وَأَرسَلُوهُ إِلَى ابنِهِم إِبراهِيم بن صالح الأمين[5]، وَأَدخَلَه إِلَيه عَلَى يَدِ صِهرِهِ الحاج عَلي بن عَبد اللَّطِيف[6]، الآتِي ذِكرُهُ الشَّهِير عَن التَّعرِيف، وَقُرِأَ عَلَيه وَأَصغَى إِلَيه غَايَةَ الإِصغَاءِ، وَأَثَّرَ فِي نَفسِه تَأثِيرًا عَجِيبًا، وَكَفَّه بِحَمدِ اللهِ سُبحَانَهُ عَنِ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَرَجَعَ فِي حِينِه وَسَاعَتِه عَمَّا فَعَلَهُ لِذَلِكَ اللَّعِينِ، وَنَقَضَ مَا أَبرَمَهُ لَهُ عَلَى رُؤُوسِ العَالَمِينَ، فَكَتَبَ إِلَيه أَن يَرجِعَ عَمَّا عَزَمَهُ وَيُخلِيَ سَبِيلَ بَنِي مُزَاب وَحَذَّرَهُ وَأَكَّدَ عَلَيه أَن لاَ يَذكُرَهُم وَلَو بِاللِّسَانِ، مَا دَامَ مُرُورَ الزَّمَانِ، فَلَمَّا وَصَلَهُ خَبَرُ المَولَى، أَنِفَ وَأَبَى وَاستَكبَرَ، وَعَلَى وَغَضِبَ غَضَبَ الخَيلِ عَلَى اللِّجَامِ، وَغَاظَهُ[7] الحَالُ حِينَ رَدَّ عَلَيه وَأَبطَلَ أَمرَهُ بَينَ الأَنَامِ، فَبَعَثَ إِلَيه بِاعتِزَالِه، وَبِمَن يَقُومُ بَدَلَهُ فِي مَكَانِه، فَاحتَالَ عَدُوُّ اللهِ وَرَسُولِه،

1 – الشّراشر: النّفس والمحبّة جميعا. اللسان، حرف الراء، فصل الشين، ج4، ص402.

2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتّى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه، ثمّ تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله هو التوّاب الرّحيم﴾ [التوبة: 118].

3 – لا تزال عادة تلاوة القرآن جماعة بمزاب يوم الاثنين والخميس إلى يومنا، وتكون في الأماكن العظيمة كالمقامات الجليلة وأضرحة الشيوخ، حيث تزار في مواسم محدّدة يخرج إليها الخاصّ والعام طلبا للغيث وحفظ الغلال من الله تعالى في فصل الربيع وتعرف بموسم الزيارة وتوزّع في مثل هذه التجمعات الصدقات المختلفة وفي العادة هي الخبز والتمر.
ينظر بتفصيل: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ط1، ص55.

4 – هو الشيخ صاحب الديوان.

5 – للأسف فإن تقييدات الشيخ يوسف بن حمو بن عدون، تبدأ بأمين المزابيين الذي يلي هذا مباشرة.

6 – هو الداي حاج علي، تولى هذا المنصب سنة واحدة (1815–1815)، وهو أيضا كما بيّن الشيخ صهر الداي حسن باشا، كما ويمكن أن يُعدُّ صديقا لأمين المزابيين بالعاصمة المدعو إبراهيم بن صالح.
ينظر: عثمان الكعاك تاريخ الجزائر العام، ص440، 441.

7 – غاظه: أي أغضبه، وقيل: الغيظ غضب كامن للعاجز، وقيل: هو سَوْرَتُه وأوّله.

إِلَى قَتلِ القَادِمِ عَلَيه وَجمعٍ مِنَ أَصحَابِه، فَقَتَلَ مِنهُم جَمًّا غَفِيرًا، فَجَدَّدَ إِلَيه الدَّولاَتلي رُؤُوسَ مَملَكَتِه فَأَخَذُوهُ وَمَزَّقُوهُ تَمزِيقًا عَظِيمًا، وَفَصَّلُوهُ عَلَى أَربَعَةِ أَجزَاءٍ وَشَتَمُوهُ تَشتِيمًا أَلِيمًا، وَفَعَلُوا بِه وَبِدَائِرَتِه مَا يَعتَبِرُ بِه جَمِيعُ الأَنَامِ[1]، وَيُذكَرُ مَا دَامَتِ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ بِبَرَكَةِ مَذهَبِنَا، وَحُرمَةِ مَنهَجِنَا، وَفَضلِ الطَّرِيقِ القَوِيمِ، وَحُسنِ المِنهَاجِ المُستَقِيمِ.

نَصُّ الرِّسَالَة:[2]

الحَمدُ للهِ سُبحَانَهُ مُولِي النِّعمِ، ومُزِيلِ النِّقَمِ، وَمُخرِجِ الوُجُودِ مِنَ العَدَمِ، وَبَارِئِ النَّسَمِ، وَمُنشِيءِ الظُّلَمِ، وَكَاشِفِ الغُمَمِ، وَجَاعِلِ أُمُورِ عِبَادِه بِيَدِ المُلُوكِ الحُنَفَاءِ، لِمَا أَودَعَ اللهُ تَعَالَى فِيهِم مِنَ الخَيرِ بَعدَ الأَئِمَّةِ الخُلَفَاءِ، وَصَيَّرَهُم مَولاَنَا فِي بِلاَدِه مِثلَ الأُسُودِ، وَأَلزَمَهُم مَرَاتِبَ الصُّعُودِ، وَأَنزَلَهُم مَنَازِلَ السُّعُودِ، فَلَولاَهُم لَتَفَطَّرَتِ السَّمَوَاتُ عَلَى العِبَادِ، وَخُسِفَت الأَرضُ بِمَن فِيهَا بِكَثرَةِ أَنوَاعِ الفَسَادِ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَن ضُرِبَت عَلَيه قُبَّةُ الجَمَالِ، وَامتَدَّت إِلَيه أَغصَانُ الحُسنِ وَالبَهَاءِ، وَأُلبِسَ جُبَّةَ الكَمَالِ، سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد بن عبد الله المَنعُوتِ بِمَحَاسِنِ الأَفعَالِ وَمَكَارِمِ الأَخلاَقِ، المَبعُوثِ رَحمَةً لِمَن كَانَ فِي جَمِيعِ الآفَاقِ، المُقَدَّمِ عَلَى الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، المُؤَخَّرِ عَلَى الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ، صَلَّى اللهُ عَلَيه وَعَلَى آلِه الذِينَ أَسَّسُوا بُنيَانَهُم عَلَى التَّقوَى وَأَصحَابِه الذِينَ مَهَّدُوا نَمَارِقَ الدِّينِ وَشَيَّدُوا قُصُورَ الهُدَى، صَلاَةً وَسَلاَمًا يَدُومَانِ دَوَامَ الجَدِيدَينِ وَيُؤَبَّدَانِ تَأبِيدَ القَمَرَينِ.

1 – قصّة مقتل صالح باي مبثوتة على صفحات الكتب، وقد تداولها تقريبا معظم المؤرّخين الذين أرّخوا للعهد التركي بالجزائر. ينظر: أحمد توفيق المدني، محمّد عثمان باشا وخلاصة لتاريخ الجزائر في العهد التركي، ص149 وما بعدها؛ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، ج19، ج3، ص240 وما بعدها؛ حمو عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر، دار البعث، قسنطينة، ج1، ص230 وما بعدها؛ علي يحي معمر، الإباضية في موكب التاريخ، ج4؛ الإباضية في الجزائر، مطبعة الدعوة الإسلامية، ط1، 1979، ص337؛ الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، 1991، ص67 وما بعدها.

2 – هذا العنوان من وضعي.

وَبعدُ فَإِلَى سُلطَان سَلاَطين الإسلاَم، مَالك رِقَاب الأَنَام، ظِلُّ الله سُبحَانَهُ عَلَى جَمِيع العَالَمين، وَرُكنٌ شَدِيدٌ للإسلاَم وَالمُسلمينَ، وَحِصنٌ مَنِيعٌ يَلجَؤُونَ إِلَيه عِندَ كُلِّ مُلِمٍّ، وَمَلجأٌ رَفِيعٌ يَأوُون لَدَيه عِندَ كُلِّ مُهِمٍّ، السُّلطَان الأعظَم، القَهرَمَان الأَكرَم، ذِي الحَضرَة العَلِيَّة، وَالطَّلعَة السَّنِيَّة، الحَائِز قَصَبَ السَّبق فِي مِضمَار الأَمَان، المُشيِّد مَدَارِجَ الدَّولَة السُّلطَانِيَة عَلَى مَمَرِّ الأَزمَان، نَخُصُّ بِهَذَا مَن دَانَت إِلَيه رِقَابُ المُلُوك وَالسَّلاَطين، المَنصُور عَلَى جَمِيع الأَعدَاء وَالشَّيَاطين، وَمَن اسمُه مُشتَقٌّ من الحُسن وَالبَهَاء، وَمَحَاسِنُهُ مَرقُومَةٌ كَنُجُوم السَّمَاء، سَيِّدُنَا وَمَولاَنَا أَبَانَا وَنَاصِرُنَا "الحسن" الجَميل "الدّولاتلي" [الباشى][1] المَرضِي، حَسَّنَ الله مَولاَنَا أَيَّامَهُ، وَأَعلَى مُقَامَهُ وَخَلَّدَ مُلكَهُ، لاَزالَت أَقطَارُ الأَرض مُزهِرَةً بِأَنوَارِه، وَأَغصَانُ الخَيرَات مُورِقَةً بِسَحَائِبه، وَلاَ بَرِحَت مَحَاسِنُهُ الجَمِيلَةُ إِلَيه مُنتَظِمَةً، وَمَكَارِمُهُ الجَلِيلَةُ عَلَيه مُشتَمِلَةً، من الكَامِلِ خَامِسِ البُحُور:

1. مَولَى مُلُوكِ الأَرضِ مَن فِي وَجهِهِ ... مِقبَاسُ نُورٍ أَيُّمَا مِقبَاس
2. بدرٌ مُحيًّا وَجهِهِ الأَسنَى لنا ... مُغنٍ عن القَمَرَينِ والنِّبرَاس
3. مِن أُسرَةٍ شَرُفَت وَطَابَت وَاعتَلَت ... مِن أَن يُقَاسَ عَلاؤُها بِقِيَاسِ
4. رَعُوا الخِلاَفَةَ كَابِرًا عَن كَابِر ... بِصَحِيحِ إِسنَادٍ بِلا إِلبَاس
5. فَرَوَى عَلِيٌّ[2] عَن رَسُولٍ مِثلَ مَا ... يَروِيهِ يُوسفُ عن عَمٍ ذِي أَلبَاس
6. ورَوَاهُ دَاوُدُ صَحِيحًا عن عَمر ... ورَوَى عليٌّ عنهُ للجُلاَّسِ
7. ورَوَاهُ عبَّاسُ كَذَلِكَ عَن عَلِيٍّ ... وَرَوَاهُ إِسمَاعِيلُ عَن عَبَّاسِ

1 – البَاشَى: هكذا في الأصل، وهي أيضا: الباشا.

2 – للأسف لم يفسّر الشيخ معنى هذه الأبيات، كما أنه لم يذكر نسب هذه الأعلام.

سَلاَمُ الله سُبحَانَهُ عَلَيكَ، وَعَلَى مَن تَحتَوِيه عِنَايَتُك، يَتبَعُه أَلفُ سَلاَم، بَعدَ أَلف ثَنَاء وَتَحِيَّة وَإِكرَام، مُتَعطِّرًا بِكَافُورٍ وَعَنبَرٍ وَأَتْجُوجَان[1]، مَشُوبًا بِمِسكٍ وَغَالِيَة وَزَعفَرَانٍ يَخُصُّكَ وَيَعُمُّ مَن كَانَ تَحتَ لِوَائِكَ وَعِزِّكَ، مِنَ الحُكَّام وَالكُبَرَاء، وَالوُلاَة وَالوُزَرَاء، الذِينَ هُم أُسُود الله فِي أَرضِه، وَجُنُودُهُ فِي بِلاَدِه، وَحِزبُهُ الغَالِبُونَ[2]، وَسُيُوفُهُ الصَّارِمُونَ، مِنَ المُسَلِّمِينَ عَلَيكَ خُدَّامكَ وَعَبِيدكَ جُمُوعِ بَنِي مُزَاب، المُشتَكِينَ إِلَيكَ مَا نَزَلَ بِهِم وَحَلَّ بِأَسمَاعِهِم مِنَ الأُمُورِ الصِّعَاب، التِي لا طَاقَةَ لَهُم عَلَيهَا بِلاَ سَبَبٍ مِنَ الأَسبَاب، وَهِي أَنَّك تُرِيدُ أَن تَضرِبَ عَلَيهِم الغَرَامَةَ المَالِيَةَ[3]، عَلَى يَدِ صَاحِبِ الوِلاَيَة الشَّرقِيَّة، غَيرَ مَا كَانُوا عَلَيه من قَدِيمِ الزَّمَان[4]، وَتُرِيدُ أَن تُبَدِّلَ أَحوَالَهُم المُسَطَّرَةَ مِنَ الأَسلاَف وَالأَجدَاد فِي الدِّيوَان، مَعَ أَنَّ مَا كَانُوا عَلَيه لاَ يُطَاقُ وَصفُهُ، وَلاَ يُحصَى عَدُّهُ، من تَحَمُّل الصَّنَائِع[5] عَلَى عَوَاتِقِهِم، وَالخَسَارَة التِي فِيهَا، المُطَوَّقَة عَلَى كَوَاهِلِهِم، وَقَد تَحَمَّلَهَا المُلُوكُ العِظَامُ، وَالسَّلاَطِينُ الجِسَامُ، وَسَلَّمُوهَا لَهُم فِي السَّاعَة وَالحِين، وَهَرَبُوا منهَا عَلَى رُؤُوسِ الأَشهَاد من العَالَمِينَ، فَانظُر يَا مَولاَنَا وَسَيِّدَنَا فِي هَذَا الأَمرِ وَالشَّان، وَخَمِّم فِيه بِعَينِ البَصِيرَة وَالجَنَان، وَفِي عَاقِبَتِه عَلَى مَمَرِّ الأَزمَان، فَإِنَّ الله سُبحَانَهُ لَم يَجعَلكَ فِي ذَلِكَ المَكَان، إِلاَّ لِتَزِيدَ لِقَوَانِين الأَوَّلِينَ إِحكَامًا، وَتُكَمِّلَ لِقَوَاعِدِهِم إِتقَانًا وَإِبرَامًا، وَتُدَبِّرَ عَلَى الدَّانِي وَالقَاصِي، وَتَأخُذَ الحَقَّ مِنَ المُطِيعِ وَالعَاصِي، وَتُنصِتَ لِكَلاَمِ الأَحرَارِ وَالعَبِيد، وَتَسمَعَ كَلاَمَ

1 – الأتْجوج: شجر كثير بأرض العرب من نواحي عُمان. اللسان، حرف الجيم، فصل الألف، ج2، ص372.

2 – اقتباس قرآني: ﴿ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾ [المائدة: 56].

3 – لاحظ تأدّب الشيخ، فهو يخاطب الداي وكأنّ هذا الأخير يوافق نوايا الباي صالح، وبالتالي فإن الشاعر إما يريد بذلك الشكاية للداي أو دفعه ليتقصّى الحقيقة إن كان لا يعلم بها.

4 – هنا إشارة إلى اتفاقية السالفة الذكر والمبرمة بين الشيخ بحيو موسى مع خير الدين بارباروس.

ينظر بتفصيل: الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص63؛ وأحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص208؛ وأيضا: حمو عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر، ج1، ص205–212.

5 – أشرت إلى القصّة في مظانها كاملة في معرض حديثي عن بني مزاب خلال القرن 18م. ينظر: التقديم.

الكَبِير وَالوَلِيد، فَإِنَّ هَذَا منكُم أَيُّهَا المُلُوكُ لاَ يَزِيدُ لَكُم إِلاَّ شَرَفًا وَتَعظِيمًا، وَمَجدًا وَفَخرًا وَتَكرِيمًا، وَتَبدِيلُ الأُمُورِ لَيسَ مِن شِيمَتِكُم، وَتَغيِيرُ الأَحوَالِ لَيسَ مِن طَبِيعَتِكُم، بَل شِنشِنَتِكُم[1] الضَّبطُ وَالإِحكَامُ، وَعَادَتُكُم الإِتقَانُ وَالإِبرَامُ، وَالجِدُّ فِيمَا فِيهِ صَلاَحُ الإِسلاَمِ، اقتِدَاءً بِنَبِيِّنَا مُحَمَّد عَلَيهِ الصَّلاَة وَالسَّلام، عَلَى أَنَّ فِي ظَنِّ بَنِي مُزاب، وَاعتِقَادِهِم المُسَاوِي لاعتِقَادِ العَسكَرِ الأَحبَاب أَنَّ مَا سَمِعُوهُ عَلَيكَ، وَحدَّثتَ بِه نَفسَكَ، إِنَّهُ لاَ يُمكِن وَلاَ يَقَعُ، فَكَيفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ "وَأَنَّهُم تَلاَقُوا مَعَ عَسكَرِ التُّرك الأَعلَى فِي يَومٍ وَاحِدٍ عَلَى مَا هُنَالِكَ، وَعَقَدُوا نِيَّةً وَاحِدَةً، وَأَخلَصُوا طَوِيَّة خَالِصَةً، وَرَسَمُوا ذَلِكَ فِي الدَّفتَرِ وَالدِّيوَان، وَسَطَّرُوهُ عَلَى مُرُورِ الدُّهُورِ وَالأَزمَان، خَلَفًا عَن سَلَف، صِيَانَةً مِن تَلَف"[2]، فَإِن قُلت يَا مَولاَنَا أَيُّهَ[3] النِّبرَاسُ، العَلِيِّ شَأنُهُ فَوقَ جَمِيعِ النَّاسِ، لاَبُدَّ مِن هَذَا فَإِنَّا لأَمرِ اللهِ تَعَالَى طَائِعُونَ، وَلِقَولِكَ سَامِعُونَ، فَسَرِّح حِينَئِذٍ أَولاَدَنَا الدَّاخِلِينَ بَلَدَ الجَزَائِرِ بِالأَمَان، الخَادِمِينَ صَنَائِعَهَا بِالإِحسَان، أَن يَقدِمُوا إِلَى مَا يُرِيدُونَه مِنَ البُلدَان، وَأَرض اللهِ وَاسِعَةٌ مَادَامَ الزَّمَان[4].

1 عَجِبتُ لِمَن يَعِيشُ بِغَيرِ عِزٍّ وَأَرضُ اللهِ وَاسِعَةٌ يَرَاهَا[5]

2 مَاذَا تَقُولُ لأَفرَاخٍ بِذِي مَرَخٍ زُغبِ الحَوَاصِلِ لاَ مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ[6]

وَفِي ذَلِكَ السُّلطَان مِنَ المُتَقَارِب الخَامِس عَشَر بَحرًا:

1 – الشِّنشِنَةُ: الطبيعة والخليقة والسَّجية. لسان العرب، حرف النون، فصل الشين، ج13، ص243.

2 – هذه العبارة هي الدليل على وجود اتفاق قديم بين الأتراك وبني مزاب، ولعله يقصد الاتفاق السابق.

3 – هكذا في الأصل، وهي: أيُّها.

4 – إن هذه العزّة لم يكن وراءها جاهٌ ولا مالٌ...وإنّما كان مصدرها اليقين التام بعدالة قضيّة بني مزاب وبنُصرة الله لهم كما تدلّ من جهة أخرى على مكانتهم المهمّة في الجزائر والمغرب الإسلامي عموما.

5 – اقتباس من قول أحد الشعراء، لكني لم أستطع نسبته لشاعر معين، فمعناه وعباراته متقاربة بين جملة من الشعراء.

6 – البيت للحطيئة يستعطف فيه الخليفة الفاروق بن عمر بن الخطاب ﷺ حين وضعه في السجن بسبب هجائه للزبرقان بن بدر... والقصّة معروفة ومبثوثة في كتب الأدب والسيرة.

1 أَقُولُ وَأَعنِي بِهَـذَا الخِطَـابِ هُمَامَ الإِسلاَمِ حَـسَنَ المَـآب

2 أَبَانَـا وَسَـيِّدَنَا حَـسَنًا جَمِيلَ المُحَيَّا عَظِيمًا مُـهَاب

3 كَرِيمًا ظَرِيفًـا أَدِيبًـا نَجِيبًـا رَحِيبَ الصُّدُورِ رَبِيطَ الحِجَاب

4 طَوِيلَ النِّجَادِ كَـثِيرَ الـرَّمَادِ فَصِيحَ اللِّسَانِ بِغَيرِ ارتِيَـاب[1]

5 مَلِيكَ الأَنَـامِ كَبَـدرِ الظَّـلاَمِ إِذَا لاَحَ فَوقَ الكُدَى وَالهِضَاب

6 رَؤُوفًا رَحِيمًـا لِمَـن جَـاءَهُ مُزِيلاً عَنِ النَّفسِ هَمَّ الـعَذَاب

7 بَـسِيلاً غَـضَنفَرًا ذَا قُـوَّةٍ بِجَيشِ النَّصَارَى كَمِثلِ التُّرَاب

8 وَقُـبَّةُ مَجدٍ لَقَـد ضُـرِبَت عَـلَيهِ فَـمَالَت إِلَيهِ الرِّقَـاب

9 فَمَـاذَا عَلَيكَ أَيَـا سَـيِّدِي إِذَا جُدتَ عَفوًا لِأَهلِ مُـزَاب

10 قَد أَذهَلَهُم عَنكَ مَـا سَـمِعُوا وَحيَّرَهُم مَا أَتَى فِي الكِتَـاب

11 أَنَّـكَ تُرِيـدُ شَـرَائَـهُم[2] إِلَى بَاءِي صَالِحٍ ذِي الاضـطِرَاب

12 فَكَيفَ تَطِيبُ لَهُـم عِيشَـةٌ وَأَنـت تُـسَاوِمُهُم بِالعَـذَاب

13 فَكَيفَ وَكَيفَ وَكَيـفَ يَكُـو نُ هَذَا، وَإِنَّ هَذَا مِن عُجَـاب

14 فَـدَع مَا هَوَيتَ فَإِنَّ الهَـوَى يَقُودُ النُّفوسَ إِلَى مَا يُعَـاب[3]

15 أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ أُمُـورَهُـم وأَمرَ عَسَاكِرَ تُـركٍ يُهَـاب[4]

16 فَـلا فَرقَ حِينَئِـذٍ بَينَـهُـم وَشَـأنُهُم لَيسَ فِيهِ ارتِـيَاب

1 – اقتباس من شعر الخنساء في أخيها صخر، سبق ذكره في أكثر من مرّة.

2 – تضمين للأسلوب القرآني: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾ [يوسف: 20].

3 – إنّ هذه النصيحة وأمثالها قلّما تقال للملوك والأمراء في زمان الشيخ حيث كان التزلّف والتقرّب عادة عند الكثير من شعراء تلك الحقبة.

4 – إشارة تأكيدية على المناصب المهمّة التي كان يتمتّع بها المزابيون في المجال العسكري والسياسي وحتّى الاجتماعي منذ عهد الشيخ بحيو موسى العطفاوي.

17 فَإن كَـان بَابٌ لَكُم مُغلـقَـا سيُفتَحُ بَـابٌ إذَا سُـدَّ بَـاب

18 وَإن لَم يَكُن جَاهُنَـا مُنفـقًـا إلَيكُم فَيُقضَى الذي فِي الكِتَاب

19 ويَتَّـسِعُ الحَـالُ من بَعـدما تَضيقُ المَذاهِبُ عِندَ الذَّهَـاب

20 إذَا ضِيـقَ أمرٌ دَنَى يُـسرُهُ كَمَا يَنجَلِي عَن سَمَاءٍ سَحَاب

21 فَـإن قُلـتَ إنَّ هذا مُمـكِنٌ فَسَرِّح عَبيدًا مِنَ أهلِ مُـزَاب

22 وَقَـد دَخلُـوا بَلـدَةً جَزائِـرَ يَا سَيِّدي بالصَّـوَاب

23 يَـرُوحُـوا إلَى أيِّ نَـاحيَـةٍ أرَادُوا وشَاؤُوا بغير انقِـلاَب

24 فَـإنَّ الأراضِـيَ وَاسِعَـةٌ وحَمدي لِرَبِّي جَزيلِ الثَّـواب

25 وَصَلَّى الإلاهُ عَلَى المُـصطَـفَى شفـيعِ الخَلائق يَومَ الحِسَـاب

26 وَمِنِّي صَـلاَةٌ عَلَى أحـمَدا نَبيًّـا كَرِيمًـا بغير ارتِيَـاب

27 دَوامَ زَمَـانٍ لِـما قُـلـتُـهُ أقُولُ وَأعني بِهَذَا الخِطَـاب

وَعَلَيكَ أيُّهَا الأَمير بِامتِثَالِ مَا فِي الآيَتَينِ الكَرِيمَتَينِ مِنَ القُرآنِ العَظِيمِ وَالذِّكرِ الحَكِيمِ:

﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلَى أهلِهَا، وَإذَا حَكَمتُم بَينَ النَّاسِ أن تَحكُمُوا بالعَدلِ﴾[1]، وَ﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدلِ وَالإحسَانِ وَإيتَاءِ ذِي القُربَى﴾[2] الآيَتين، فإنَّكَ يَا مَولاَنَا إذَا عَملتَ بمُقتضَاهُما يُعِزُّ اللهُ سُبحَانَهُ سُلطَانَكَ، ويُعلِي

1 – الآية من سورة المائدة وتمامها: ﴿إنّ الله يأمركم أن تودّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل، إنّ الله نِعمّا يعظكم به، إنّ الله كان سميعا بصيرًا﴾ [المائدة: 58].

2 – الآية من سورة النحل وتمامها: ﴿إنّ الله يأمركم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكرون﴾ [النحل: 90].

شَأنَكَ، وَيُخَلِّدُ مُلكَكَ، وَيُطِيلُ عُمرَكَ، فَكَيفَ لاَ وَهُوَ كَلاَمٌ مِن رَبٍّ رَّحِيم، وَتَنزِيلٌ مِن حَمِيدٍ حَكِيمٍ، سُبحَانَكَ يَا مَولاَنَا مَا أعَزَّ سُلطَانَكَ، وَأعظَمَ شَأنَكَ.

وَحَاصِلُ مَا ذُكِرَ مِنَ الأَمرِ وَالشَّأنِ أنَّ خَدمَةَ العَسكَرِ الأعلى وَالجُندِ الأَسنَى هُم بَنُوا مُزاب مِن قَدِيمِ الزَّمَانِ[1]، إمَّا أن تَسعَى فِيهِم بِقَوَاعِدِ الأَسلاَفِ وَالأَجدَادِ، وَتُجرِيَ عَلَيهِم قَوَانِينَ العَسكَرِ المَنصُورِ عَلَى العِبَادِ مِن غَيرِ تَبدِيلِ قَاعِدَةٍ، وَلاَ تَغيِيرِ ضَابِطَةٍ، أو تُسرِّحَهُم إلَى الخُرُوجِ مِن بَلَدِ الجَزَائِرِ كَمَا دَخَلُوها بِالأَمَانِ، لِيُدبِّرُوا عَلَى أنفُسِهِم مَا دَامَ الزَّمَانُ[2].

بِتَارِيخ ذي القعدة الحرام مِن سَنَة ستّ وَمائَتَين وَألف مِن بَعدِ الهِجرَةِ النَبوِيَّة المُحَمَّدِيَةِ الإسلاَمِيَة، عَلَى صَاحِبِهَا أفضَلُ الصَّلاَةِ وَأزكَى التَّحِيَّة.

1 – هذا هو التأكيد الصّريح على الاتفاقية السالفة الذكر، تمنيت أنّ لو أتيح لي الوقت الكافي حتى أصل إلى الأرشيف التركي باسطنبول فأبحث عن هذه الاتفاقية، لكن ما باليد حيلة فقلة الوسائل والإمكانيات حالت دون ذلك.

2 – لاحظ إصرار الشيخ على هذه النقطة بالذّات، ألا توحي بأنّ بني مزاب كانوا بالفعل يشكلون عصبًا رئيسيا ومحرّكا للتجارة، كما كانوا أربابا للحرف في عاصمة الجزائر، على ذلك العهد.

رسالة شُكر وَامتِنَان إلى الدَّاي حَسَن بَاشَا الدُّولاتلي عَلَى تَفَهُّمِه وَحُسن تَعامُله[1]

تَوطِئَة:

ثُمَّ لَمَّا بَعَثَ السُّلطَان العَالِي، القَهرَمَانُ الغَالِي، مَكتُوبَه المُشتمِلُ عَلَى الرِّضاء، وَقَضَاءِ المَأمُول[2]، تَلقَّاهُ جُمُوعُ بَنِي مُزاب بِالفَرَحِ وَالقَبُول، وَطَلَبُوا مِنِّي مُكَافَاةَ اللِّسَان، فِي شَأنِ ذَلك الهُمَامِ، العَلِيِّ المَقَامِ، الرَّفِيع الشَّأن، بِمَا سَنَحَ عَلَى الجَنَانِ فَقُلتُ:

نصُّ الرِّسالة:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَالعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ، فَلاَ عُدوَانَ إلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد بن عبد الله الأمين، وَعَلَى آله الطَّاهِرِينَ وَأَصحَابِه الطَّيِّبِينَ وَعَلَى كُلِّ بَارٍّ تَقِيٍّ إِلَى يَومِ الدِّينِ، وَبَعدُ فَإِلَى المَلِكِ الأَعظَم، السُّلطَان الأَكرَم، الأَمِير الأَمجَد، القَهرَمَان الأَسعَد، السَّيِّد المَصمُود، مَعدِن الكَرَمِ وَالجُود، سُلطَان الإسلاَم وَالمُسلِمِينَ، ظِلِّ الله تَعَالَى عَلَى جَمِيعِ العَالَمِينَ، الكَرِيمِ النَّجرِ[3]، العَلِيِّ الشَّأن، العَظِيمِ القَدرِ، الرَّفِيعِ المَكَان، ذِي الحَضرَةِ العَلِيَّة، وَالدَّولَةِ البَهِيَّة، وَالهِمَّةِ السَّنِيَّة، وَالسِّندَة[4] الحَسَنِيَّة، وَالمَخَافِرِ الحَمِيدَةِ وَالأَرَاءِ السَّدِيدَة، أَبِينَا وَمَولاَنَا، وَسَيِّدَنَا وَنَاصِرَنَا، المُعَظَّمِ المَنصُورِ، المُؤَيَّدِ المَشهُورِ، مَولاَنَا حَسَن الدُّولاَتلي، السَّيِّد البَاشَى[5] المَرضِي، خَلَّدَ الله سُبحَانَهُ مُلكَهُ، وَأَدَامَ بَقَاءَه، وَأَطَالَ عُمُرَهُ، وَأَعَزَّ شَأنَهُ، وَأَعلَى مَقَامَهُ، وَأَطيَب مَنَامَهُ، وَأَزكَى نَوَالَهُ، وَنَصَرَ جُندَهُ، وَأَمَدَّ عَسكَرَهُ، وَأَبَادَ عَدُوَّهُ، وَأَلبَسَهُ جُبَّةَ الكَمَال، وَتَوَجَّهُ تَاجَ الجَمَال،

1 – العنوان العريض وكذا العناوين الجانبية الصغيرة من وضعي.
2 – يعني نقض الداي لما أبرمه مع باي قسنطينة بخصوص ضمّ مزاب إلى الولاية الشرقية.
3 – النَّجرُ: الأصل والحسب. لسان العرب، حرف الراء، فصل النون، ج5، ص193.
4 – السّندة: هي الحمراء من جباب البرود. لسان العرب، حرف الدال، فصل السين، ج3، ص222.
5 – هكذا في الأصل، وهي الباشا.

وَأَعَانَهُ عَلَى تَأسِيسِ قَوَاعِدِ الإسلاَمِ، وَمَلَّكَهُ رِقَابَ جَمِيعِ الأَنَامِ، سَلاَمٌ عَلَيكَ وَعَلَى كَافَّةِ جُمُوعِكَ، وَعَامَّةِ جُنُودِكَ، وَمَن تَحتَوِيه عِنَايَتُكَ، وَمَن كَانَ تَحتَ لِوَائِكَ وَعِزِّكَ، وَتَعَلَّقَ بِأستَارِكَ، مِن خُدَّامِكَ جُمُوعِ بَنِي مُزاب، الذِينَ هُم خَدَمَةُ الدَّارِ السَّعِيدَةِ وَخُدَّامِ الجُندِ الأَكبَرِ الأَعلَى عَلَى الحَقِيقَةِ وَالصَّوَاب، وَهُم بِجَمِيعِهِم وَخَاصَّتِهِم وَعَامَّتِهِم، وَكَبِيرِهِم وَصَغِيرِهِم مُسَلِّمُونَ عَلَيكَ غَايَةَ السَّلاَمِ، مَعَ أَلفِ ثَنَاءٍ وَتَعظِيمٍ، وَنِهَايَةِ تَحِيَّةٍ مُبَارَكَةٍ طَيِّبَةٍ وَتَكرِيمٍ، مَادَامَتِ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي، وَنَظَمتُ الشَّذرَةَ الثَّمِينَةَ فِي سُمُوطِ اللَّآلِئ: (بحر البسيط)

1. خَلِيفَةٌ مَلَكَ الآفَاقَ سَطوَتُهُ ... وَالحَقُّ كَانَ مَدَاهُ آيَةً سَلَكَا
2. يَحُومُ حَولَ ذُرَاهُ العَالِمُون كَمَا ... تَرَى الحَجِيجَ بِبَيتِ الله مُعتَرِكَا
3. يُحيِي نَسِيمَ رِضىً مِنهُ الزَّمَانَ وَكَم ... مُكَافِحٍ بِلَظًى مِن سُخطِهِ هَلَكَا
4. أَطَارَ صَاعِقَةً من نَصلِهِ فَبِهَا ... إِلَى السِّمَاكِ لِوَاءُ الشَّرعِ قَد سَمَكَا
5. وَصَادَفَ الرُّشدُ مِنهُ كُلَّ مُعتَسِفٍ ... قَد كَانَ فِي ظُلُمَاتِ الغَيِّ مُنهَمِكَا
6. فَالدِّينُ صَارَ قَرِيرَ العَينِ مُبتَسِمًا ... وَالمُلكُ أَقبَلَ بِالإِقبَالِ مُمتَسِكَا
7. عَلاَ فَأَصبَحَ يَدعُوهُ الوَرَى مَلِكًا ... وَرَيثَمَا فَتَحُوا عَينًا غَدَى مَلِكَا[1]

هَذَا وَإِنَّ مَكتُوبَكَ الشَّرِيفَ وَخِطَابَكَ المُنِيفَ، قَد وَصَلَ بِأَيدِينَا، وَتَشَرَّفَ بِأَنَامِلِنَا، وَتَلَقَّينَاهُ بِالفَرَحِ وَالسُّرُورِ، وَقَبَّلنَاهُ تَقبِيلَ الحَجَرِ الأَسعَد لَدَى البَيتِ المَعمُورِ، وَشَرَّفنَاهُ فِي الغَايَةِ، وَعَظَّمنَاهُ فِي النِّهَايَةِ، وَأَقَامَ لَدَينَا مَقَامَ ذَاتِكَ الجَمِيلَةِ، وَأَزَالَ عَنَّا كُلَّ الحَيرَةِ وَالوَحشَةِ القَرِيبَةِ وَالبَعِيدَة، كَيفَ لاَ وَهُوَ كِتَاب مَولاَنَا، وَخِطَابُ سَيِّدِنَا، وَأَعَزِّ النَّاسِ عِندَنَا، لاَ زَالَت أَيَّامُهُ مُتَرَدِّدَةً فِي مَنَازِلِ السُّعُودِ، وَأَغصَانُ خَيرَاتِه مُتَدَلِّيَةً عَلَى جَمِيعِ الوُفُودِ، فَقُلتُ فِي ثَنَاءِ ذَلِكَ السَّيِّدِ الجَلِيلِ مِن البَحرِ الأَوَّلِ المُسَمَّى بِالطَّوِيلِ:

1 –تكرار هذه القصيدة في الديوان جاء تفصيلا لأحداث قصة صالح باي.

1. حَمَى اللهُ بَدرًا قَاطِنًا بِالجَزَائِر جَمِيلاً لَبِيبًا جَامِعًا للمَفَاخِر
2. أَدِيبًا نَجِيبًا، للمَحَاسِن كَاسِبًا بَسِيلاً غَضَنفَرًا هِزَبرُ الهَزَابِر
3. كَثِيرُ الرَّمَادِ مَعدنُ الجُودِ وَالنَّدَى صَدِيقُ اللِّسَانِ مَنبَتًا لِلجَوَاهِر
4. عَظِيمًا كَرِيمًا مَاجِدًا ذَا مَهَابَة حَلِيمًا رَؤُوفًا[1]، نَاهِيًا للمَنَاكِر
5. صَبُورًا عَلَى رَيبِ الزَّمَانِ وَبَأسِهِ شَدِيدًا عَلَى الكُفَّارِ من كُلِّ سَاكِر
6. أَبُونَا وَمَولاَنَا وَسَيِّدَنَا الذِي لَهُ شِيمَةٌ مِثلَ النُّجُومِ الزَّوَاهِر
7. لَهُ خَيمَةٌ، مَجدًا وَفَخرًا وَعِزَّةً وَأَيدٍ طَوِيلٌ فِي اقتِنَاءِ المَآثِر
8. أَدَامَهُ مَولاَنَا وَأَخلَدَ مُلكَهُ خُلُودَ الجِبَالِ وَالبُحُورِ الزَّوَاخِر
9. وَأَسعَدَ بُرجَهُ وَأَكمَلَ نُورَهُ وَأَعلَى مَقَامَهُ عُلُوَّ المَنَابِر
10. وَتَوَّجَهُ تَاجًا جَمِيلاً مُكَلَّلاً مِنَ الدُّرِّ عِندَ كُلِّ بَدوٍ وَحَاضِر
11. وَأَلبَسَهُ خَزَّ الكَرَامَةِ وَالنُّهَى وَطَوَّقَهُ طَوقَ الحَمَامِ الهَوَادِر
12. أَيَا سُلطَانَ الإِسلاَمِ وَالدِّينِ وَالهُدَى أَيَا مَالِكَ البَرَّينِ نُور الدَّيَاجِر
13. أَيَا هُمَامَ البَحرَينِ قَد جُدتَ بِالمُنَى وَفُزتَ بِنَيلِ إِربِ كُلِّ المَجَاوِر
14. عَلَيكَ سَلاَمٌ أَينَمَا كُنتَ قَاطِنًا سَلاَمًا يُحَاكِي عَبقَرِيَّ العَبَاقِر
15. عَلَيكَ سَلاَمٌ أَينَمَا كُنتَ ظَاعِنًا سَلاَمًا يُضَاهِي نَسجَ سُودِ المَحَابِر
16. عَلَيكَ سَلاَمٌ أَينَمَا كُنتَ صَاعِدًا سَلاَمًا كَمِسكِ الهِندِ بَل وَالعَنَابِر
17. مَشُوبًا بِصَندَلٍ وَبَانٍ وَزُرنُبٍ وَلُبنٍ وَكَافُورٍ وَزَهرِ الزَّوَاهِر
18. دَوَامَ زَمَانٍ مَا حَمَامٌ تَنَوَّحَت وَمَا غَرَّدَت وُرقُ الهَوَى بِالبَوَاكِر

1 – في الأصل: رَءُوفًا..

19. وَمَا طَرَبَت خُودٌ وَمَا لاَحَ بَارِقٌ وَصَاحَت بَلاَبِلُ الصَّبَا بِالخَوَاطِر
20. وَمَا قَالَ إِبرَاهِيمُ ذُو الوُجدِ وَالأَسَى حَمَى اللهُ بَدرًا قَاطِنًا بِالجَزَائِر

فَلَو وَجَدنَا غَرَضَنَا لَمَّا يَنطَوِي عَلَيهِ الخَاطِرُ، وَتَمِيلُ إِلَيهِ الأُذُنُ وَالنَّاظِر، لَقُلنَا فِي شَأنِهِ وَأَتَينَا بِجَمِيعِ أَوصَافِهِ، مَا يَكُونُ لَهُ فِيهِ ذِكرًا للأَوَّلِينَ، وَشَرَفًا للآخِرِينَ، لِقَولِ سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد الأَمِين صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ أَجمَعِين "مَن أَسدَى إِلَيكُم مَعرُوفًا، فَكَافِئُوهُ وَلَو بِاللِّسَانِ"[1] فَمَا جَزَاءُ الإِحسَانِ إِلاَّ الإِحسَان"[2] لَكِن القَافِلَةُ عَجَّلَت وَأَسرَعَت، مَعَ ضَيقِ الحَالِ، فَصَدَرَ مِنِّي مَا سَنَحَ عَلَى البَالِ، بِتَارِيخ أَوَائِل المُحَرَّم من سنة 1207هـ.(1794م)

1 – اقتباس من قول الرسول ﷺ وتمامه، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «قال من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه ومن أتى إليك معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتّى تعلموا أن قد كافأتموه» مسند أحمد، كتاب المكثرين من الصحابة، رقم: 5832، ص430.

2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان﴾. [الرحمان: 60].

رِسَالَةُ شُكرٍ وَتَقدِيرٍ إِلَى الحَاج عَلي بن عبد اللّطيف[1]

وَلَمَّا وَصَلَ بيَدِ جُمُوعِ بَنِي مُزَاب كِتَابٌ مُشتَمِلٌ عَلَى ثَنَاءٍ وَتَبجِيلٍ[2] من عند الحاج عَلي بن عبد اللّطيف قُلتُ فِي شَأنِه جَوَابًا لِمَكتُوبِه:

إِنَّ أَحسَنَ زِينَةٍ تَتَحَلَّى بِهَا عَرَائِسُ الطُّرُوسِ، وَأَنفَسُ مَا تَتَخَلَّقُ بِهِ عَزَائِمُ النُّفُوسِ، وَأَبهَى مِن سُمُوطِ الدُّرِّ وَعُقُودِ اللَّآلِي، وَأَزهَرُ مِن بُذُورِ التَّمِّ وَنُجُومِ اللَّيَالِي، وَأَبدَعُ مِن شَذرٍ وَمَرجَانٍ يُتَقَلَّدُ بِجِيدٍ غَيدَاءَ وَأَحرَى مِن جُمَانٍ، وَتَمِيمَةٍ تُتَعَلَّقُ بِنَحرٍ عَذرَاءَ، وَأَزهَرُ مِن نُورِ حَدِيقَةٍ هَزَّهَا رِيحُ النَّسِيمِ، وَأَطرَى مِن زَهرِ رَوضَةٍ هَبَّ عَلَيهَا رِيحُ الصَّبَاءِ بَعدَ سَقِيهَا مِن عَينِ التَّسنِيمِ، وَأَذكَى مِن نَشرِ مِسكٍ وَعَنبَرٍ وَرَيحَانٍ، وَأَغلَى مِن غَالِيَةٍ وَصَندَلٍ وَكَافُورٍ وَزَعفَرَانٍ، بَعدَ حَمدِ اللهِ سُبحَانَهُ المَلِكِ الدَّيَّانِ، وَشُكرِ مَولاَنَا جَلَّ وَعَلاَ العَظِيمِ الشَّانِ، الذي خَلَقَ الإِنسَانَ، وَحَلاَّهُ بِحِلْيَةِ النُّطقِ وَالبَيَانِ، وَفَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِن خَلقِه، وَخَصَّهُ بِمَعرِفَةِ أَوضَاعِ المَبَانِي وَتَرَاكِيبِ المَعَانِي دُونَ غَيرِه، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَن أَنَامَ الأَنَامَ، فِي ظِلِّ الأَمَانِ وَفِي عَبقَرِيِّ الإِسلاَمِ، وَسُندُسِ الإِيمَانِ، سَيِّدَنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد بن عبد اللهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الرَّسُولِ العَرَبِيِّ المَنعُوتِ بِالخِصَالِ الحَمِيدَةِ، المَبعُوثِ بِالدَّلاَئِلِ الجَمِيلَةِ، المُقَدَّمِ عَلَى الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، المُؤَخَّرِ عَلَى سَائِرِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِه الذِينَ حَازُوا كُلَّ وَسِيلَةٍ مُنِيفَةٍ، وَنَالُوا كُلَّ فَضِيلَةٍ جَمِيلَةٍ، وَأَصحَابِه الذِينَ شَيَّدُوا لِدِينِ اللهِ سُبحَانَهُ قُصُورًا عَالِيَةً، وَأَسَّسُوا لَهُ قَوَاعِدَ غَالِيَةً، وَمَهَّدُوا لَهُ نَمَارِقَ شَرِيفَةً، وَوَسَّدُوا لَهُ مَطَارِفَ أَنِيقَةً، سَلاَمٌ مُتَّصِلٌ، وَثَنَاءٌ مُشتَمِلٌ، وَتَبجِيلٌ تَامٌّ، وَإِحسَانٌ عَامٌّ، وَبَرَكَةٌ وَإِكرَامٌ وَتَمجِيدٌ وَإِنعَامٌ، وَتَحمِيدٌ وَتَكرِيمٌ،

1 – العنوان من وضعي، وقد سبق التعريف بشخص الحاج علي.

2 – للأسف مع طول البحث لم أعثر بعد على جواب أو مراسلة الحاج علي إلى جموع بني مزاب.

وَتَشرِيفٌ وَتَعظِيمٌ، وَتَحِيَّاتٌ صَافِيَاتٌ، وَتَسلِيمَاتٌ وَافِيَاتٌ، مَشُوبَةٌ بِمِسكٍ وَغَالِيَةٍ، وَكَافُورٍ وَصَندَلٍ وَأَزهَارٍ عَالِيَةٍ، مِن مُحِبٍّ قَد أَضنَاهُ تَبَارِيحُ الغَرَامِ، وَمُدنَفٍ قَد أَنحَلَهُ لَوَاعِجُ الأَسقَامِ، فِي وُجدٍ وَكَآبَةٍ وَكَلَفٍ وَصَبَابَةٍ، وَشَغَفٍ وَحَرَارَةٍ، المُتَيَّمِ الحَقِيرِ، الذَّلِيلِ الفَقِيرِ، إِلَى عَفوِ الغَفَّارِ، وَسِترِ القَهَّارِ، عبده إبرَاهِيم بن عبد الرحمان[1]، المُحتَاجِ إِلَى رَحمَةِ الرَّحِيمِ الرَّحمَانِ، إِلَى الأَخِ الحَبِيبِ النَّاصِحِ الأَرِيبِ، الأَمجَدِ اللَّبِيبِ، الأَسعَدِ النَّجِيبِ، الفَاضِلِ الذَكِيِّ، الكَامِلِ السَّرِيِّ الحَاذِقِ الوَجِيهِ، الصَّادِقِ النَّبِيهِ المَقبُولِ الكَلاَمِ، النَّافِذِ الأَحكَامِ، السَّيِّدِ العَالِي، السَّمَيدَعِ الغَالِي، الحَاج علي بنُ عَبدِ اللَّطِيف، الكَرِيمِ النَّجرِ الشَّرِيفِ، العَلِيِّ الشَّأنِ، الرَّفِيعِ المَكَانِ، الحَائِزِ قَصَبَ السَّبقِ فِي مِضمَارِ المَيدَانِ، الذي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى حِصنًا مَنِيعًا لِعِبَادِه يَلجَؤُونَ إِلَيهِ عِندَ المُهِمَّاتِ، وَمَلجَأً رَفِيعًا يَأوُونَ لَدَيهِ لَدَى المُلِمَّاتِ، وَقَد انفَتَحَ عَلَى يَدَيهِ مَا انغَلَقَ مِن الأَبوَابِ[2]، وَتَيَسَّرَ بَينَ إِمَامِه مَا تَعَسَّرَ مِنَ الأَسبَابِ، لاَ زَالَت مَحَاسِنُهُ الجَمِيلَةُ مُنتَظِمَةً فِي جِيدِ الأَيَّامِ عُقُودًا، وَمَكَارِمُهُ الجَلِيلَةُ مَضرُوبَةً عَلَيهِ وَلاَبِسَةً لَهُ مِن الثَّنَاءِ رِيطَةً وَبُرُودًا، وَأَيَّامُهُ مُتَّصِلَةً بِمَنَازِلِ السُّعُودِ، وَلاَ بَرَحَ مُقَدَّمًا عَلَى سَائِرِ الجُمُوعِ وَالوُفُودِ، وَمَا انفَكَّت مَسَاعِيهِ فِي نُصرَةِ الأَنَامِ، وَمَحَامِدُهُ مَذكُورَةً عَلَى مَمَرِّ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَمَا فَتِئَت الخَيرَاتُ تُبَاشِرُهُ، وَالشُّرُورُ تُجَانِبُهُ، وَلاَ زَالَ مَحَطَّ رِحَالِ المُسلِمِينَ، وَرُكنًا شَدِيدًا لِلعَالَمِينَ أَدَامَ اللهُ مَولاَنَا مَجدَهُ وَأَرفَعَ ذِكرَهُ، وَأَعلَى مَقَامَهُ، وَأَعَزَّ شَانَهُ، وَأَطيَبَ مَنَامَهُ، وَأَزكَى نَوَالَهُ، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ، وَأَزهَرَ رِيَاضَهُ، سَلاَمٌ عَلَيكَ وَعَلَى مَن يَلُوذُ بِجَانِبِكَ، وَمَن كَانَ تَحتَ لِوَائِكَ وَعِزِّكَ، مِن أَخٍ حَبِيبٍ وَخِلٍّ نَجِيبٍ وَوَلَدٍ وَحَفِيدٍ، وَغُلاَمٍ وَعَبِيدٍ،

1 – لعلك تلاحظ أن الشيخ في المراسلات الرسمية يكتب "عبد الرحمان"، وإلى أصدقائه من مزاب ولنفسه يكتب "بحمان" وهي التسمية البربرية لعبد الرحمان.

2 – يقصد دون شكّ إيصاله للرسالة وقراءته لها على الداي، بحيث صار السّبب في حلّ المشكلة وانفراج الأزمة.

مِنَ المُسَلِّمينَ عَلَيكَ العُلَمَاءِ الأَخيَارِ، السَّادَاتِ الأَبرَارِ، مِن جُمُوعِ بَنِي مُزَاب، آنَاءَ اللَّيلِ وَأَطرَافَ النَّهَارِ، مَا دَامَتِ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَمَا تَفَتَّحَتِ الأَزهَارُ فِي الأَكمَامِ، وَهَبَّ نَسِيمُ الصَّبَاءِ عَلَى زَهرِ الرُّبَى، وَمَا لَمَعَ بَرقٌ عَلَى شَنَاخِيب[1] الدُّرَى.

هَذَا وَإِنَّ كِتَابَكَ البَدِيعَ[2]، وَخِطَابَكَ الرَّفِيعَ، قَد تَوَجَّهَ إِلَينَا، وَوَصَلَ بَينَ أَيدِينَا فَاستَحسَنَتهُ الطِّبَاعُ، وَمَالَت إِلَيهِ الأَسمَاعُ، وَانشَرَحَت إِلَيهِ الأَفكَارُ، وَانفَتَحَت لِرُؤيَتِهِ الأَنظَارُ، وَتَلَقَّينَاهُ بِالقَبُولِ، لِمَا احتَوَى عَلَيهِ مِن نَيلِ المَأمُولِ، وَإِنَّه لَكِتَابٌ مُبِينٌ، وَخِطَابٌ مُستَبِينٌ، يُزِيلُ عَنِ النُّفُوسِ كُلَّ مُهِمٍّ، وَيَكشِفُ عَنهَا كُلَّ مُلِمٍّ، وَمِن حَقِّ ذَلِكَ السَّيِّدِ الجَلِيلِ، المُبَرَّعِ الجَمِيلِ، أَن يُضرَبَ عَن ثَنَائِهِ بِالمَنثُورِ صَفحًا، وَيُطوَى عَنهُ كَشحًا، وَيَرجِعَ بِهِ إِلَى المَنظُومِ لِتَمَكُّنِهِ فِي النُّفُوسِ أَشَدَّ تَمَكُّنٍ مَعلُومٍ، وَلِإِصغَاءِ السَّمعِ إِلَيهِ، وَمَيلِ الطَّبعِ لَدَيهِ[3]، وَلِأَنَّ الحَاصِلَ بَعدَ الطَّلَبِ، أَعَزُّ مِنَ المُسَاقِ بِلاَ تَعَبٍ، فَقُلتُ فِي ذَلِكَ مِن بَحرِ الخَفِيفِ الحَادِي عَشَرَ مِن البُحُورِ المُستَعمَلَةِ:

1. قَد أَتَانَا كِتَابُ خِلٍّ جَمِيلٍ ... سَيِّدٍ مَاجِدٍ لَبِيبٍ جَلِيلٍ
2. فَاضِلٍ رَابِطِ الفُؤَادِ حَكِيمٍ ... صَابِرٍ لِلبَسَاءِ طَبٍّ نَبِيلٍ
3. مُكرَمٍ، مِصقَعِ اللِّسَانِ نَجِيبٍ ... مَعدِنٍ لِلعَطَاءِ شَهمٍ بَذِيلٍ
4. مَاهِرٍ حَاذِقٍ ذِي بِرٍّ مُهَابٍ ... ذَكِيٍّ عِندَ كُلِّ خَطبٍ جَزِيلٍ
5. نَجلِ عَبدِ اللَّطِيفِ سَامٍ عَلِيٍّ ... سَرِيٍّ كَامِلِ النِّجَادِ طَوِيلٍ

1 – الشَّناخيبُ: من الجبال، رؤوسها. لسان العرب، حرف الباء، فصل الشين، ج1، ص507.

2 – لا أدري إن كان الحاج علي قد تولّى منصب كاتب الدّاي، وعلى ما أعلم ووصلت إليه من خلال المراجع المختلفة انّه تناول منصب الدّايويّة مدّة السنة تقريبا (1815) وربّما يكون تأثّر برسالة الشيخ على لسان قومه، فيما حكاه له أمين المزابيين بالجزائر فكتب ما يطمئن به النفوس، ويكرم به المخلصين.

3 – تلاحظ ميل الشيخ لنظم الشعر لمعرفته بخبايا النظم وبتأثيره على السامع أكثر من النثر.

6. كَانَ كَهفًا لِكُلِّ أَمرٍ مُهِمٍّ ... كَانَ حِصنًا لِكُلِّ عَبدٍ ذَلِيلٍ
7. كَانَ غَوثًا لِلمُسلِمِينَ جَمِيعًا ... نَافِعًا لِلوَرَى كَزَرعٍ حَقِيلٍ
8. قَد رَقَى وَارتَقَى وَسَادَ وَحَازَ ... كُلَّ فَضلٍ بَدَى وَفِعلٍ جَمِيلٍ
9. لَم تَلِد أُنثَى مِثلَهُ بِوَلِيدٍ ... لَم تَلِد أُنثَى مِثلَهُ بِمَثِيلٍ
10. وَهُوَ فِي جُرأَةٍ كَلَيثِ هِزَبرٍ ... وَهُوَ فِي مَجدِهِ كَنَجمٍ حَفِيلٍ
11. وَهُوَ فِي جُودِهِ كَصَوبِ غَمَامٍ ... وَهُوَ فِي شَأنِهِ كَسَيفٍ صَقِيلٍ
12. خَلَّدَن رَبُّ مُلكَهُ وَأَدَمَهُ ... وَارفَعَن شَأنَهُ كَرَفعِ الوَدِيلِ[1]
13. وَأَكمِلَن نُورَهُ وَزِدهُ بَهَاءً ... وَأَسعِدَنهُ مَا دَامَ غَرسُ الفَسِيلِ
14. فَسَلَامٌ مِنِّي عَلَيكَ وَأَلفٌ ... مِن ثَنَاءٍ مُمَاثِلٍ زَنجَبِيلِ
15. وَسَلَامِي كَزُرنُبٍ فِي رِيَاضٍ ... وَسَلَامِي كَوَسمِيٍّ سَلسَبِيلِ
16. وَسَلَامِي كَجَوهَرٍ فِي صَدَافٍ ... وَسَلَامِي كَسُندُسٍ وَجَدِيلِ
17. وَسَلَامٌ عَلَيكَ فِي كُلِّ صُبحٍ ... وَغُرُوبٍ وَبُكرَةٍ وَأَصِيلِ
18. وَسَلَامِي يَعُمُّ كُلَّ عَبِيدٍ ... وَوَلِيدٍ وَيَافِعٍ وَرَعِيلِ
19. وَسَلَامٌ مِنَ السَّلَامِ عَلَيكُم ... وَسَلَامٌ مِنَ العَظِيمِ الجَلِيلِ
20. أَنتَ لِي سَيِّدِي وَأَنتَ إِلَهِي ... حَافِظٌ لِي مِن كُلِّ ضُرٍّ بَسِيلِ
21. أَنتَ تَعلَمُ مَا تَمَرَّضَ قَلبِي ... أَنَا عَبدٌ عَاصٍ دَنِيُّ الرَّحِيلِ
22. إِنَّ لِي سَيِّدِي ذُنُوبًا عِظَامًا ... أَورَثَتنِي ضَيقًا بِدرعٍ شَلِيلٍ[2]
23. رَبِّ إِنِّي ذُو زَلَّةٍ وَأَثِيمٌ ... كَئِيبٌ حَزِينٌ بِزَادٍ قَلِيلٍ
24. رَبِّ إِنِّي إِلَيكَ عَبدٌ مُهِينٌ ... آئِبٌ تَائِبٌ فِي كُلِّ سَبِيلٍ

1 – هي الوذيل بالذال المعجمة، الفضّة المجلوّة. اللسان، حرف اللاّم، فصل الواو، ج11، ص723.

2 – يوجد شرح على الحواشي لكنّ معظمه للأسف انمحى ولم يبق إلاّ أثر لبعض الكلمات البسيطة.

25. فَقِنِي عَثرَتِي وَكُن لِي وَلِيًّا ... وَنَصِيرًا وَسَامِعًا لِهَذِيل
26. أَجِب لِي دَعوَتِي وَكُن لِي غَفُورًا ... سَاتِرَ العَيبَ لِي بِيَومٍ طَوِيل
27. وَآبَائِي وَالمُسلِمِينَ جَمِيعًا ... وَلِبَرٍّ وَرَاكِبٍ وَرَجِيل
28. فَبِفَضلِ الرَّسُولِ للخَلقِ طُرًّا ... أَحمَدِ الأُمِّيِّ الكَرِيمِ الأَصِيل
29. نَقِيًّا مُجتَبًا سِرَاجًا مُنِيرًا ... زَكِيًّا قَد أَتَى بِقَولٍ رَتِيل
30. فَعَلَيهِ مِن رَبِّنَا كُلَّ وَقتٍ ... أَلفُ أَلفُ تَحِيَّةٍ سَلسَبِيل
31. صَلِّ يَا رَبِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَيهِ ... مَا سَعَى بَدرُنَا بِسَعيٍ ذَمِيل[1]
32. مَا أَجَادَ فِكرِي وَفُهتُ بِنُطقِي ... قَد أَتَانَا كِتَابُ خِلٍّ جَمِيل

1 – الذميل: ضرب من سير الإبل، وقيل: هو السّير اللّين ما كان. اللسان، حرف اللاّم، فصل الذال، ج11، ص259.

قَصِيدَةٌ أُخرَى فِي مَدحِ الحَاجِ عَلِي بن عبد اللَّطِيف

ثُمَّ قُلتُ فِي شَأنِه أَيضًا مِن المتقارب:

1. أَتَانَا كِتَابٌ جَمِيلُ الثَّنَى ... غَرِيبٌ سَنِيعٌ بَدِيعُ الدُّمَى
2. بِلَفظٍ أَنِيقٍ وَمَعنًى لَطِيفٍ ... وَوَضعٍ عَجِيبٍ رَقَى وَسَمَى
3. نَسِيجٍ، ظَرِيفٍ أَدِيبٍ نَجِيبٍ ... جَمِيلُ المُحَيَّ[1] عَظِيمُ الدُّهَى
4. حَدِيدُ الفُؤَادِ طَوِيلُ النِّجَادِ ... كَثِيرُ الرَّمَادِ كَبَدرِ الدُّجَى
5. فَصِيحُ اللِّسَانِ كَشِقشِقَةٍ[2] ... رَحِيبُ الصُّدُورِ رَبِيطُ الحِجَى
6. كَرِيمٌ لَبِيبٌ ذُو بِرٍّ مُهَابٌ ... ذَكِيٌّ نَقِيٌّ صَفِيُّ النُّهَى
7. عَلِيُّ بن عبد اللّطِيف عَلَت ... مَحَاسِنُهُ فَوقَ نَجمِ السَّمَى
8. وَقَد كَانَ حِصنًا لِكُلِّ أَمرٍ ... وَرُكنًا شَدِيدًا لِمَن التَجَى
9. وَكَهفًا رَفِيعًا لِخَطبٍ فَظِيعٍ ... وَغَوثًا عَظِيمًا لأَهلِ الهُدَى
10. وَقُبَّةَ مَجدٍ عَلَيهِ حَوَت ... وَسَادَ وَفَازَ بِنَيلِ المُنَى
11. سَلاَمٌ عَلَيكَ أَيَا سَيِّدِي ... وَأَلفُ ثَنَاءٍ كَنَشرِ الكِبَى
12. وَمِنِّي عَلَيكَ أَيَا سَنَدِي ... تَحِيَّةُ صَبٍّ كَمِيدِ الحَشَى
13. سَلاَمٌ كَثِيرٌ، ثَنَاءٌ جَمِيلٌ ... عَلَى ذَلِكَ الشَّهمِ خَيرِ الوَرَى
14. مَشُوبًا بِمِسكٍ وَغَالِيَةٍ ... وَبَانٍ وَرَندٍ وَزَهرِ الرُّبَى
15. وَمِنِّي صَلاَةٌ عَلَى المُصطَفَى ... شَفِيعِ الخَلاَئِقِ يَومَ الجَزَى

1 – هكذا في الأصل، وهي المحيّا..

2 – الشِقشقة: لهاة البعير تخرج إذا هاج، تقال للخطيب إذا كثر كلامه تشبيها بالبعير. اللسان، ح القاف، ف الشين، ج10، ص185.

16. نبيٌّ كَـريمٌ مَجـيدٌ شَـريفٌ رَسُولٌ إِلَينَا جَمِـيلُ الـشَّـوَى
17. وَبَعدَ الصَّـلاَةِ سَـلاَمٌ عَلَيـهِ وَآلٍ وَصَحبٍ مِن أَهـلِ التُّـقَى
18. يَـدُومُ كَمَا لاَحَ بَـرقٌ سَنَـى وَمَا طَـرِبَت شِطـبَةٌ بِـالغَنَى
19. وَمَا فُهِـتُ نُطقًـا لِمَـا قُلتُـهُ أَتَانَا كِـتَابٌ جَمِـيلُ الثَّـنَى

وَعَلَيكَ السَّلاَمُ التَّامُ، وَالتَّحيَّةُ وَالإِكرَام، وَعَلَى كُلِّ حَبِيبٍ صَادِقٍ، وَأَخٍ حَاذِقٍ، وَقَد اصطَفَاكَ مَولاَنَا سُبحَانَهُ عَلَى الأَنَامِ، وَاختَارَكَ مِن بَينِهِم عَلَى التَّمَامِ، لِمَا عَلِمَ فِيكَ مِنَ الصَّلاَحِ وَالخَيرِ وَالفَلاَحِ، كَمَا قَالَ سَيِّدَنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: "إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبدًا رَدَّ إِلَيهِ حَوَائِجَ عِبَادِهِ" "وَمِنَ النَّاسِ نَاسٌ مَفَاتِيحٌ لِلخَيرِ، مَغَالِيقٌ لِلشَّرِّ"[1]، وَالتَّنوِيهُ بِشَأنِ أَمثَالِكَ كَمَا لاَ يَخفَى كَثِيرٌ وَشَهِيرٌ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَلاَ نُطِيلُ بِهِ.

بِتَارِيخ أواخر صَفر مِن سنة 1207هـ. (1794م).

1 – اقتباس من حديث رسول الله ﷺ وتمامه، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «إنّ من النّاس مفاتيح للخير مغاليق للشرّ وإنّ من النّاس مفاتيح للشرّ مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويل لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه». سنن ابن ماجة، كتاب المقدّمة، باب من كان مفتاحا للخير، رقم233، ص75.

رِسَالَة إِلَى الحَسَن بَاشَا الدُّولاتْلِي

فِي شَأن قبيلة أولاَد صَالَح[1]

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد وَآلِه وَصَحبِه وسَلَّم تسليمًا:

وَفِي كِتَابٍ بُعِثَ إِلَى الدُّولاَتلِي سَيِّدنا حَسَن فِي شَأن مَا فَعَلَ أَولاَد صَالَح[2] بِبَنِي مُزَاب وَلَم يَصِلهُ: الحَمدُ للهِ الذي جَعَلَ المُلُوكَ وَالحُكَّامَ مَلجَأً عَظِيمًا لِعِبَادِه يَلجَؤُونَ إِلَيهِم عِندَ المُهِمَّات، وَأَسكَنَ قُلُوبَ الأُمَرَاءِ وَالسَّلاَطِينِ رَأفَتَهُم وَرَحمَتَهُم لَدَى نُزُولِ المَضَرَّات وَحُلُولِ المُلِمَّات، وَصَيَّرَهُم فِي أَرضِه مِثلَ الأُسُودِ، وَأَنزَلَهُم فِيهَا مَنَازِلَ السُّعُودِ، وَحَلاَّهُم بِحلِيَةِ تَدبِيرِ العَوَاقِبِ، وَزَيَّنَهُم بِزِينَةِ الكَوَاكِب[3]، فَلَولاَهُم لاَلتَبَسَ عَلَى الخَلاَئِقِ مَعرِفَةُ النَّهَارِ مِنَ اللَّيَالِي، وَضَلُّوا عَن سُلُوكِ طُرُقِ النَّجَاةِ وَنَيلِ المَعَالِي، وَلَهُدِمَت الصَّوَامِعُ المُشِيدَةُ بِالإِسلاَمِ[4]، وَخُرِبَت المَسَاجِدُ المُؤَسَّسَةُ عَلَى بُنيَانِ التَّقوَى[5] لِذِي الجَلاَلِ وَالإِكرَامِ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّد بن عَبد اللهِ الآمِرِ بِالعَدلِ وَالإِحسَانِ، الهَادِمِ أَسَاسَ الجُورِ، النَّاهِي عَنِ الكُفرِ وَالطُّغيَانِ، وَعَلَى آلِه الذِينَ شَيَّدُوا مَدَارِجَ الدِّينِ، وَأَصحَابِه الذِينَ مَهَّدُوا مَطَارِفَ الإِسلاَمِ لِلمُسلِمِينَ، وَبَعد:

1 – هذا العنوان من وضعي.

2 – أولاد صالح: هي قبيلة كانت على جبال الشفة تتعرّض للقوافل الذاهبة إلى الجزائر أو الخارجة منها إلى مزاب. ينظر: إبراهيم طلاي: مزاب بلد كفاح، دار البعث قسنطينة، 1970م، ص45.

3 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿إنّا زيّنا السّماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ [الصافات: 6].

4 – اقتباس أيضا: ﴿للذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا الله، ولولا دفاع الله النّاس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويٌّ عزيز﴾ [الحج: 40.]

5 – اقتباس من قوله تعالى كذلك: ﴿لا تقم فيها أبدا، لمسجد أسّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه فيه رجال يحبّون ان يتطهّروا والله يحبّ المتطهرين﴾ [التوبة: 108].

فَإِلَى مَن سَدَّدَ المُلكَ وَشَيَّدَهُ وَجَدَّ فِي نُصرَةِ الدِّينِ وَأَيَّدَهُ، وَدَبَّرَ الأُمُورَ وَأَحكَمَهَا، وَأَتقَنَ عَوَاقِبَهَا وَأَبرَمَهَا، وَأَنَامَ عَبِيدَهُ فِي سُندُسِ أَمَانِه وَأَردِيَةِ عَوَاطِفِه، وَأَسَالَ عَلَى خَدَمِه أَودِيَةً مِن بُحُورِ عَوَارِفِه، وَقَد حَقَّ لَهُ المُلك وَالتَّدبِيرُ حَتَّى سَادَ فِي إِعلاَءِ الدِّينِ، سُلطَانُ سَلاَطِينِ الإِسلاَمِ وَالمُسلِمِينَ ظِلُّ اللهِ تَعَالَى عَلَى الخَلاَئِقِ أَجمَعِينَ، وَرُكنٌ شَدِيدٌ لِلعَالَمِينَ، السُّلطَانِ الغَالِي، الهُمَامِ العَالِي، الأَمِيرِ الأَسعَد، المَلِيكِ الأَمجَد، العَظِيمِ القَدرِ، الكَرِيمِ النَّجرِ، الحَامِي الذِّمَارِ وَالحَقِيقَة، المَاحِي لِلكُفرِ، النَّاصِرِ لِلشَّرِيعَة، الرَّافِعِ مَبَانِي العَدلِ وَالإِنصَاف، الهَادِمِ قَوَاعِدَ الظُّلمِ وَالاعتِسَاف، خَلِيفَةِ اللهِ سُبحَانَهُ فِي الأَنَام، مُغِيثِ المُسلِمِينَ وَالإِسلاَم، نَخُصُّ بِهَذَا الخِطَابِ مَن دَانَت إِلَيه رِقَابُ أُولِي الأَلبَاب، سَيِّدَنَا وَمَولاَنَا حَسَنًا الجَمِيلِ، الدُّولاَتلي الجَلِيلِ الذِي هُوَ غُرَّةُ وَجهِ اللَّيَالِي، وَبَدرٌ نَيِّرٌ فِي التَّعَالِي، نِبرَاسُ الهُدَى وَمِصبَاحُ الدُّجَى، الأَعَزِّ العَارِف، الأَكرَمِ الصَّارِف، البَاطِلَ عَنِ الحَقِّ بِالتَّحقِيقِ وَالصِّدق، لاَزَالَ بِعَينِ الرِّضَى مَلحُوظًا، وَمِن جَمِيعِ الآفَاتِ مَحفُوظًا، وَلاَ بَرِحَت أَيَّامُهُ مُنتَظِمَةً، وَمَحَاسِنُهُ مُلتَمِئَةً، وَمَحَامِدُهُ مَذكُورَةً، وَمَسَاعِيهِ مَشكُورَةً، سَلاَمٌ عَلَيكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ، وَعَلَى مَن تُحِيطُهُ عِنَايَتُكَ مِنَ الكَاتِبِ وَالوَزِيرِ، سَلاَمًا يُحَاكِي سُمُوطَ الفَرَائِد، وَيُضَاهِي بُدُورَ الدُّجَى وَعُقُودَ الخَرَائِد، مَختُومًا بِمِسكٍ وَزَنجَبِيلٍ، مِزَاجُهُ مِن تَسنِيمٍ[1] وَسَلسَبِيلٍ، مَا هَبَّ نَسِيمُ الصَّبَاءِ، وَلاَحَ بَرقٌ فِي السَّمَاءِ، مِن المُسَلِّمِينَ عَلَيكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبكَارِ، السَّائِلِينَ عَن أَحوَالِكَ آنَاءَ اللَّيلِ وَأَطرَافَ النَّهَارِ، خَدَمُكَ وَعَبِيدُكَ جُمُوعُ بَنِي مُزَاب، عَامَّتِهِم وَخَاصَّتِهِم ذَوِي الأَلبَاب، هَذَا وَإِنَّنَا يَا سَيِّدَنَا وَمَولاَنَا، أَردَنَا أَن نَشتَكِي إِلَيكَ مَا حَلَّ بِنَا مِن جِهَةِ الأَعدَاءِ الكَفَرَة، المَشهُورِينَ بِأَولاَدِ صَالِحٍ الفَجَرَة، فَإِنَّهُم مَرَّةً غَيرَ أُخرَى قَتَلُونَا، وَأَخَذُوا أَموَالَنَا وَسَلَبُونَا، بِظُلمٍ وَجُورٍ وَبَاطِلٍ وَزُورٍ، وَقَد جَاوَزُوا الحَدَّ فِي ذَلِك، حَتَّى سَدُّوا السُّبُلَ وَحَالُوا بَينَنَا وَبَينَكَ، فَالَّذِينَ هُم

1 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾. [المطففين: 27].

عِندَكَ اليَومَ مِن أَولاَدِنَا مَحبُوسُونَ، وَالَّذِينَ هُم عِندَنَا مَحصُورُونَ، فَنَحنُ أَردَنَا أَن نُوَجِّهَهُم إِلَى خِدمَةِ الصَّنَائِعِ وَتَعمِيرِهَا، وَالقِيَامِ بِحُقُوقِهَا وَالتَّدبِيرِ عَلَيهَا، إِمتِثَالاً لأَمرِكَ، وَسَمعًا وَطَاعَةً لَكَ، عَلَى مَا أَمَرتَنَا بِه فِي مَكتُوبِكَ الشَّرِيف، وَخِطَابِكَ المُنِيف[1]، فَلَم نَجِد سَبِيلاً إِلَى ذَاكَ، وَلاَ لَنَا دَلِيلٌ سِوَاكَ، فَهَؤُلاَءِ الأَعرَاب قَد بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا وَخَالَفُوا السُّنَّةَ وَحَوَّلُوا، وَقَلَبُوا ظَهرَهَا لِبَطنِهَا، وَجَعَلُوا عَالِيَهَا سَافِلَهَا[2]، وَلَم يَترُكُوا لِدِينِ اللهِ تَعَالَى حُرمَةً، وَلاَ عَهدًا وَلاَ ذِمَّةً وَلاَ هِمَّةً، إِلاَّ قَتلَ عِبَادِ اللهِ مِن غَيرِ حَقٍّ وَالإِغَارَةَ عَلَيهِم وَنَهبَ أَموَالِهِم[3]، إِن هُم إِلاَّ كَأَنعَامِهِم[4]، فَأَردَنَا مِنكَ يَا مَولاَنَا، أَن تَأخُذَ حَقَّنَا مِنهُم وَتُدَمِّرَهُم تَدمِيرًا، فَإِنَّهُم فِي قَبضَتِكَ، وَتَحتَ حُكمِكَ، وَلاَ يَستَغنُونَ عَن تَلٍّ مِن تُلُولِكَ، فَأَنتَ المُدَبِّرُ عَلَينَا، وَالنَّاصِرُ إِلَينَا، وَلاَ مَلجَأَ مِن اللهِ إِلاَّ إِلَيهِ وَإِلَيكَ[5]، فَتَفَضَّل عَلَينَا بِقَضَاءِ الحَوجَاءِ، بِمَا فَضَّلَ اللهُ عَلَيكَ، لأَنَّ المُكَافَاتِ عَلَى الإِحسَانِ، مَأمُورَةٌ شَرعًا وَلَو بِاللِّسَان، فَمَا ظَنُّكَ بِأَمثَالِكَ، وَاللهِ سُبحَانَهُ مَا أَمَدَّكَ بِالأَنعَامِ، وَفَضَّلَكَ عَلَى الأَنَامِ، إِلاَّ لِذَلِكَ.

فَعَدَلتُ عَمَّا هُنَالِكَ مِنَ المَنثُورِ إِلَى المَنظُومِ، لِكَونِ مَيلِ النَّفسِ إِلَيهِ ضَرُورَةً مِنَ المَعلُومِ، فَقُلتُ مِن البَحرِ الأَوَّلِ المُسَمَّى بِالطَّوِيلِ الكَثِيرِ الاستِعمَالِ بِعَرُوضِهِ اللاَّزِمَةِ القَبضِ وَضَربِهَا المُمَاثِلِ لَهَا:

1 – يقصد الشيخ هنا الرسالة التي وجّهها الداي حسن إلى جموع بني مزاب يطمئنهم فيها من جهة صالح باي، ولعل الداي قد حثّهم على المواصلة في امتهان حرفهم المعهودة وشجّعهم على ذلك، حين ذكره الشيخ في رسالته إليه يشتكي على لسان قومه من ظلم واعتساف الباي صالح، ويذكره فيها بالغرائم الباهضة المتلاحقة.

2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿فلمّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ [هود: 86].

3 – هي حقيقة واقعة، تتعرّض لها قوافل بني مزاب وفي كتب سيرهم أخبار كثيرة عن هذه الحوادث التي يقع السلب فيها بل حتّى القتل والسّبي. ينظر الحاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص47.

4 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أظلّ سبيلا﴾ [الفرقان: 44]. إنّ هذا الاقتباس كما يحوي قدحًا فهو أيضا يشير إلى حرفة الرعي التي ربّما كانوا يمتهنونها إلى جانب السلب، ذلك أنّهم على سهول خضراء تصلح للرعي فعلاً.

5 – اقتباس من قوله تعالى في سورة [التوبة: 118]، وقد سبق الإشارة إليها.

1. أَقُولُ وَقَلبِي جَمرَةٌ تَتَلَهَّبُ وَجسمِيَ مُوصَبٌ وَعَينِي تَسكُبُ
2. حَمَى اللهُ رَبعًا قَد حَوَى بِالجَزَائِرِ دِيَارًا إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ تُنسَبُ
3. سَقَاهَا مِنَ الوَسمِيِّ صَوبًا مُجَلجِلاً أَجَشَّ سِمَاكِيًّا إِلَيهَا أَطرَبُ
4. أَلاَ إِنَّهَا دَارٌ بِخَيرٍ تَوَسَّمَت وَنيلِ رَفِيعِ المَجدِ تَعلُو وَتَرسُبُ
5. وَفِيهَا أَمِيرٌ كَامِلُ النُّورِ زَاهِيًا يُضِيءُ حَنَادِيسَ[1] الظَّلاَمِ وَيَثقُبُ
6. نَجِيبٌ كَرِيمٌ بِالسَّمَاحَةِ مُرتَدٍ عَظِيمٌ عَظِيمُ القَدرِ مَولًى مُهَذَّبُ
7. جَمِيلُ المُحَيَّا سَيِّدُ كُلِّ رَاكِبٍ وَرَجلٍ شَرِيفِ النَّجرِ لَيثٌ مُعَنَدَبُ[2]
8. صَدِيقُ اللِّسَانِ مِصقَعٌ ذُو مَهَابَةٍ سَنِيعٌ سَمَيدَعٌ هُمَامٌ[3] مُوَرَّبُ[4]
9. حَقِيقٌ بِنَيلِ كُلِّ فَخرٍ وَسُؤدَدٍ عَلَى رُغمِ أَنفِ مَن عَلاَهُ مُذَبذَبُ[5]
10. بِذَا "حَسَنًا" عَنَيتُ مَولاَيَ سَيِّدِي بِبِرٍّ وَلِلمَعَالِي يُبنِي وَيَرسُبُ
11. وَقَد كَانَ لِلدِّينِ الحَنِيفِ مُشَيِّدًا وَلِلعُرفِ آمِرًا وَلِلمُنكَرِ يُذهِبُ[6]
12. وَكَانَ لأَهلِ الحَقِّ حِصنًا مُكَافِحًا وَتُرسًا إِلَيهِم وَهُو لِلغَيرِ يُرهِبُ[7]
13. يُعِينُ ذَوِي الإِسلاَمِ سِرًّا وَجَهرَةً وَيَنفِي جُمُوعَ الكُفرِ حَقًّا وَيُشعِبُ[8]
14. إِلَيكَ إِلَيكَ نَشتَكِي بِمُصَابِنَا وَمَا قَد دَهَانَا مِن غَشُومٍ يُشَغِّبُ[9]

1 – شدّة الظلمة.
2 – غضبان.
3 – سيّد شجاع.
4 – محكم.
5 – اضطراب و(كلمة غير واضحة).
6 – يزيل.
7 – يخوّف.
8 – يفرّقها.
9 – يقيم فتنًا.

15. عَنَيتُ بِذَا طُغَاةَ أَولاَدَ صَالِحٍ لُصُوصًا قِبَاحًا يَقتُلُونَ وَيَنهَبُ
16. وَقَد قَتَلُونَا مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ بِظُلمٍ وَعُدوَانٍ وَهَاجُوا وَأَسلَبُو
17. وَهُم قَطَعُوا كُلَّ الوَسَائِلِ بَينَنَا وَبَينَكَ فَانظُر مَا الَّوَا يَا مُهَذَّبُ
18. وَقَد جَاوَزُوا الحُدُودَ فِي قَطعِ مَنهَجٍ إِلَيكَ إِلَيكَ نَلتَجِي ثُمَّ نَذهَبُ
19. فَدَبِّر عَلَينَا مِنهُمُ بِخَلاَصِنَا وَتَدمِيرِهِم تَدمِيرَ حَقٍّ يُشَعِّبُ
20. تَفَضَّل وَخُذ حَقًّا لَنَا بِهَلاَكِهِم فَنَحنُ وَهُم تَحتَ اللِّوَا يَا مُطَيَّبُ
21. تَبَارَكَ مَن أَولاَكَ عِزًّا وَرِفعَةً وَمَجدًا رَفِيعًا مِثلَ دُرٍّ يُثَقَّبُ
22. فَلاَزِلتَ مَلحُوظًا وَلاَزِلتَ لاَحِظًا وَلاَزِلتَ تَرقَى لِلمَرَاقِي وَتَرسُبُ
23. عَلَيكَ سَلاَمُ اللهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ سَلاَمًا يُحَاكِيهِ رِيَاضٌ وَزُرنُبُ
24. عَلَيكَ سَلاَمٌ أَينَمَا كُنتَ صَاعِدًا سَلاَمًا يُضَاهِيهِ خَرُودٌ وَزَينَبُ
25. عَلَيكَ سَلاَمٌ أَينَمَا كُنتَ قَاعِدًا سَلاَمًا يَهِيجُ الشَّوقَ وَالعَينُ تَسكُبُ
26. دَوَامَ زَمَانٍ مَا الغَرَامُ مُلاَزِمٌ بِقَلبٍ عَمِيدٍ كَيفَ يُدنِي وَيَقرُبُ
27. وَمَا غَرَّدَت وُرقٌ وَمَا لاَحَ شَارِقٌ وَمَا زَالَت الخُودَا تَرِنُّ وَتَندُبُ
28. إِلَى اللهِ أَشكُو لَوعَتِي وَصَبَابَتِي وَعَيبِي وَكَيفَ لِي وَإِنِّيَ أُذنِبُ
29. أَمَولاَيَ أَغفِر ثُمَّ أَستُر جَرِيمَتِي لَجَأتُ إِلَيكَ لاَ لِغَيرِكَ أَذهَبُ
30. أَمَولاَيَ مِنكَ زِد صَلاَةً وَسَلِّمَن عَلَى مَن بِهِ خَتمُ النُّبُوَّةَ تَلزَبُ[1]
31. نَبِيٌّ مُمَجَّدٌ شَرِيفٌ مُحَمَّدٌ سُلاَلَةُ عَبدِ اللهِ يُنبِي وَيَنسُبُ
32. وَآلٍ لَهُ مِن بَعدِهِ ثُمَّ صَحبِهِ وَمَن كَانَ لِلدِّينِ الحَنِيفِ يُهَذِّبُ
33. وَمِنِّي عَلَيهِم بَعدَ ذَاكَ تَحِيَّةٌ وَأَلفُ ثَنَاءٍ مَا شُمَيسِيَ تَغرُبُ
34. وَمَا قَالَ مُنشِدٌ كَلاَمِي وَمَقوَلِي أَقُولُ وَقَلبِي جَمرَةٌ تَتَلَهَّبُ

1 – تلصَقُ.

قَصِيدَةٌ فِي ابنِه مُحَمَّد حين غَادَرَ مُزاب إلى مَنفَاه[1]

وفي ابني محمد وقد سافر من غير وداع.

1. يَا خَلِيلَيَّ عَرِّجَا بِعِنَانِ[2] لأَرَى رَسمَ طِفلَةٍ[3] بِعَيَانِ
2. وَقِفَا بِي عَلَى الطَّلاَلِ قَلِيلاً نَتَبَاكَى بِفَقدِ مَن قَد شَجَانِي
3. فَإِذَا مَا بَلَغتُمَا الدَّارَ حُطَّا تُسعِدَانِي عَلَى البُكَى تُسعِدَانِي
4. وَاذكُرَا لِي حَدِيثَ هِندٍ وَسَلمَى ثُمَّ أَسمَى وَزَينَبٍ وَعِنَانِ
5. ثُمَّ زِيدَا مِن جَانِبِ لِبُلَّيد[4] خَبَرًا عَن مَرَاتِعِ الغِزلاَنِ
6. الهَوَى رَاشِقِي بِغَيرِ سِهَامٍ الهَوَى قَاتِلِي بِغَيرِ سِنَانِ
7. وَبِقَلبِي مِن بَضَّةٍ[5] نَارُ صَبٍّ ذَاتُ دُرٍّ وَعَسجَدٍ وَبَيَانِ
8. طَالَ شَوقِي إِلَيهَا حِينَ تَمَاسَت فِي مَلاٍ وَعَقبَرٍ وَحِسَانِ
9. طَلَعَت فِي العَيَانِ شَمسًا فَلَمَّا أَفلَتَ أَشرَقَت بِأُفقِ جِنَانِ
10. مِن بَنَاتِ المُلُوكِ مِن دَارِ فُرسٍ مِن أَجَلِّ البِلاَدِ مِن أَصبَهَانِ
11. هِيَ بِنتُ العِرَاقِ بِنتُ إِمَامٍ وَأَنَا ضِدُّهَا سَلِيلُ يَمَانِ
12. هَل رَأَيتُم يَا مَعشَرِي أَو سَمِعتُم أَنَّ ضِدَّينِ قَطُّ يَجتَمِعَانِ
13. لَو تَرَانَا بِرَوضَةٍ نَتَعَاطَى أَكُوسًا لِلهَوَى بِغَيرِ بَنَانِ
14. وَالهَوَى بَينَنَا يَسُوقُ حَدِيثًا طَيِّبًا مُطرِبًا بِغَيرِ لِسَانِ

1 – هذا العنوان من وضعي.
2 – العنان: عنان اللّجام، الذي للفرس. اللسان، حرف النون، فصل العين، ج13، ص290.
3 – الشيخ لا يقصد من قوله طفلة جنس الأنثى، بل شبّه ابنه لضعف حيلته بطفلة رأفة عليه.
4 – لعلّه يقصد البليدة المدينة التي هاجر إليها ابنه محمّد.
5 – البضّة: الرّقيقة من النساء. اللسان، حرف الضاد، فصل الباء، ج7، ص119.

15. لَرَأَيتَ مَا يَذهَلُ العَقلُ فِيهِ يَمَنٌ وَالعِرَاقُ مُعتَنِقَانِ
16. كَذَبَ الشَّاعِرُ الذِي قَالَ قَبلِي وَبِأَسهُمٍ فِكرَةٍ قَد رَمَانِي
17. أَيُّهَا المُنكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيلاً عَمرَكَ اللهِ كَيفَ يَلتَقِيَانِ؟!
18. هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا استَقَلَّت وَسُهَيلٌ إِذَا استَقَلَّ يَمَانِ
19. إِنَّ لِي فِي رِيَاضِ عِشقٍ غَزَالاً يَرتَعِي بَينَ أَضلُعِي فِي أَمَانِ
20. طِفلَةٌ غَادَةٌ، نَهِيدَةُ تَتَهَادَى بِمِرطٍ[1] بَينَ الغَوَانِ
21. ذَاتَ ثَغرٍ مِزَاجُهُ زَنجَبِيلٌ ذَاتَ خَدٍّ كَوَردَةٍ فِي جِنَانِ
22. ذَاتَ عَينٍ غَضِيضَةٍ كَمَهَاةٍ ذَاتَ جِيدٍ مُمَاثِلٍ الغِزلاَنِ
23. ذَاتَ كَشحٍ جَدِيلَةٍ كَخَزُوزٍ ذَاتِ كَفٍّ مُخَضَّبٍ لِلبَنَانِ
24. ذَاتَ فَرعٍ سَوَادُهُ كَغُرَابٍ ذَاتِ نَحرٍ ضِيَاؤُهُ القَمَرَانِ
25. ذَاتَ وَجهٍ مُقَسَّمٍ كَصَبَاحٍ ذَاتِ قَدٍّ يُغَيِّرُ غُصنَ لُبَانِ
26. ذَاتَ فَخذٍ زَهَى كَبِيضِ نَعَامٍ ذَاتِ فَخرٍ، لَهِيَ بِنتُ عُمَانِ
27. فَإِذَا شَامَهَا رَهِيبٌ تَصَابَى أَخَذَت قَلبَهُ بِغَيرِ تَوَانِ
28. فَإِذَا سُمتَهَا ظَنَنتَ بَرِيقًا لاَمِعًا فَوقَ كُدَيَةٍ لِجَنَانِ
29. يَا لَهَا مِن غَزَالٍ مِثلَ حَمَامٍ يَا لَهَا مِن خَرُودٍ ذَاتَ حِسَانِ
30. إِنَّنِي رُوحُهَا وَهِيَ لَجِسمٌ إِنَّنِي بَدرُهَا بِكُلِّ مَكَانِ
31. إِنَّنِي سَيِّدٌ وَهِيَ لِعَبدٌ غَائِصٌ لُجَّةً فِي بَحرِ الهَوَانِ
32. أَفِقَن قَلبِ ثُمَّ دَع ذَا وَسَلِّم وَاترُكَن ذِكرَ عَزَّةٍ وَعِنَانِ

1 – المرط: قليلة الشعر، وهي من خصائص الجمال. اللسان، حرف الطاء، فصل الميم، ج7، ص399.

33. ثُمَّ سَلَّ الهُمُومَ عَنكَ وَشَجوًا ... بِوَلِيدٍ قَد غَابَ مُنذُ زَمَانِ

34. إِنَّهُ قَد ثَوَى بُلَيدَةَ[1] خَيرٍ ... وَسُرُورٍ وَنِعمَةٍ وَأَمَانِ

35. هَارِبًا[2] مِن بِلَادِهِ كَانَ فِيهَا ... ذَا شُجُونٍ وَضِيقَةٍ لِجِنَانِ

36. ثُمَّ سَارَ مَعَ الرِّكَابِ يَسَارًا ... خِفيَةً، ثُمَّ بَعدَ ذَاكَ شَجَانِ

37. إِنَّهُ قَد حَوَى مَصَاعِدَ فَضلٍ ... عَلَى أَترَابِهِ بِنَيلِ الأَمَانِي

38. لَم يَزَل رَاقِيًا مَدَارِجَ فَخرٍ ... لَم يَزَل غَائِصًا فِي عِلمِ المَعَانِي

39. لَم يَزَل خَائِضًا بِلُجَّةِ مَاءٍ ... مِن مَعَانٍ، كَصَوغِهِ لِلمَبَانِي

40. لَم يَزَل فِي رِيَاضِ عِلمٍ بَدِيعٍ ... سَابِحًا قَد سَمَى بُرُوجَ البَيَانِ

41. فَعَلَيهِ مِن رَبِّنَا دَعَوَاتٌ ... وَمَعُونٌ وَعِزَّةٌ فِي مَكَانِ

42. فَعَلَيهِ مِنِّي ذِكرٌ جَمِيلٌ ... وَثَنَاءٌ عَظِيمٌ كُلَّ أَوَانِ

43. فَعَلَيهِ مِنِّي كُلَّ صَبَاحٍ ... وَمَسَاءٍ، تَحِيَّةً بِلِسَانِ

44. فَعَلَيهِ مِنِّي كُلَّ غَدَاةٍ ... وَرَوَاحٍ، سَلَامَةً مِن جِنَانِ

45. وَسَلَامٌ عَلَيهِ فِي كُلِّ وَقتٍ ... وَدُمُوعِي إِلَيهِ تَنهَمِلَانِ

46. وَسَلَامٌ عَلَيهِ فِي كُلِّ نَجدٍ ... وَسُهُولٍ وَلَوعَتِي جَمرٌ آنِ

47. وَسَلَامٌ عَلَيهِ أَيُّ سَلَامٍ ... وَسَلَامٌ يُحَاكِي نَشرَ لُبَانِ

48. وَسَلَامٌ يَعُمُّ كُلَّ خَلِيلٍ ... وَرَقِيقٍ ذِي نَجدَةٍ وَبَيَانِ

49. مَا زَهَت رَوضَةٌ وَنَاحَت حَمَامٌ ... وَرَنَّت طِفلَةٌ رَنِينَ الغَوَانِي

50. وَأَجَادَ فِكرِي بِنَظمٍ عَجِيبٍ ... وَبِشِعرٍ حَوَى بَدِيعَ المَثَانِي

51. إِنَّ لِي سَيِّدِي ذُنُوبًا عِظَامًا ... أَورَثَتنِي ضِيقًا بِكُلِّ مَكَانِ

1 – هي مدينة البليدة المعروفة إلى اليوم، تبعد بـ 50 كلم جنوب العاصمة الجزائر.

2 – لم أصل للأسف إلى بيان سبب انتقال الابن إلى البليدة ولا إلى السنة التي راح فيها.

52. ضِقتُ ذَرعًا مِمَّا جَنَيتُ بِأَيدِي ... وَفُؤَادِي وَنَاظِرِي وَلِسَانِ

53. رَبِّ إِنِّنِي ذُو زَلَّةٍ وَأَثِيمٌ ... آئِبٌ تَائِبٌ بِكُلِّ زَمَانِ

54. رَبِّ إِنِّي إِلَيكَ عَبدٌ حَقِيرٌ ... كَئِيبٌ حَزِينٌ بِمَا قَد دَهَانِي

55. فَقِنِي عَثرَتِي وَكُن لِي غَفُورًا ... سَاتِرًا لِلعُيُوبِ يَومَ الدِّيَانِ

56. أَجِب لِي دَعوَتِي وَكُن لِي سَمِيعًا ... وَبَصِيرًا لِحَالَتِي وَبَيَانِي

57. فَبِفَضلِ خَيرِ الخَلَائِقِ طُرًّا ... أَحمَدِ الأُمِّيِّ صَفِيِّ الجِنَانِ

58. نَبِيًّا طَاهِرًا رَسُولاً كَرِيمًا ... سَيِّدًا مَاجِدًا شَرِيفَ المَكَانِ

59. صَلِّ يَا رَبِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَيهِ ... مَا أَجَادَ فِكرِي بِنَظمِ المَبَانِي

60. صَلِّ يَا رَبِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَيهِ ... مَا أَجَالَ فِكرِي فِي بَحرِ المَعَانِي

61. صَلِّ يَا رَبِّ ثُمَّ سَلِّم عَلَيهِ ... مَا زَهَت شِطبَةٌ بِرَوضِ الجِنَانِ

62. وَأَجَادَ فِكرِي وَفُهتُ بِنُطقِي ... يَا خَلِيلِي عَرِّجَا بِعِنَانِ

فَأَرسَلتُ هَذِهِ إِلَيهِ وَلَم تَصِلهُ وَوَجَدتُهُ قَد قَضَى نَحبَهُ لِمَا سَبَقَ فِي عِلمِ اللهِ سُبحَانَهُ فَقُلتُ مُتَعَكِّسًا هَذِهِ القَصِيدَةَ فِي مَرثِيَتِهِ:

وَفِي رثاء ابنه حين نُعي إليه وفاته[1]

1. يَا خَلِيلِيَّ عَرِّجَا بِعِنَانِ ... لأرَى رَسمَ ثَمرَةٍ للجِنَانِ
2. وَقفَا بِي عَلَى الأطلاَلِ قَلِيلاً ... نَتَبَاكَى بِفقدِ مَن قَد شَجَانِي
3. فَإِذَا مَا بَلَغتُمَا الرَّبعَ حُطَّا ... تُسعِدَانِي عَلَى البُكَا تُسعِدَانِي
4. وَاذكُرَا لِي حَدِيثَ نَعيِ وَلِيدٍ ... قَد تَوَارَى بِرَوضَةٍ فِي أَمَانِ
5. مِن جُمَادَى الأُولى سَابِعِ عشرٍ ... ينَ صَبَاحَ الخَمِيسِ يَومًا أَتَانِي
6. بَعدَ أَلفٍ وَمائَتَينِ وَعَشرٍ ... مِن سِنِينِ المَجِيدِ بَعدَ الثَمَانِي[2]
7. فَالبُكَا رَاشِقِي بِغَيرِ سِهَامٍ ... فَالبُكَا قَاتِلِي بِغَيرِ سِنَانِ
8. عَلَى فَقدِ الحَبِيبِ قُرَّةَ عَينٍ ... قَد ثَوَى بِبُلَيدٍ مُنذُ زَمَانِ
9. أَيُّ يَومٍ تَوَارَى جِسمُ وَلِيدٍ ... فِي مُلاٍ وَعَبقَرٍ وَحِسَانِ[3]
10. أَيُّ مَوتٍ أَتَتهُ وَقتًا وَحِينًا ... أَخَذَت رُوحَهُ بِغَيرِ تَوَانِ
11. أَيُّ رَوضٍ حَوَى عِظَامَ أَنِيسٍ ... زَائِلِ وَحشَةٍ فَصِيحِ اللِّسَانِ
12. إِنَّهُ طَاهِرٌ ذَكِيٌّ نَقِيٌّ ... سَامِي طَيِّبٌ صَفِيُّ الجِنَانِ
13. قَد عَلاَ وَارتَقَى وَحَازَ وَفَازَ ... عَلَى أَترَابِهِ بِنَيلِ الأَمَانِي
14. فَاقَ نَجمًا سَنَاهُ عِزًّا وَرِفعًا ... فَهو عَينٌ مِزَاجُهُ عُودُ بَانِ
15. لَم يَزَل رَاقِيًا مَدَارِجَ فَضلٍ ... لَم يَزَل غَائِصًا فِي عِلمِ المَعَانِي
16. لَم يَزَل خَائِضًا فِي لُجَّةِ مَاءٍ ... مِن مَعَانٍ كَصَوغِهِ لِلمَبَانِي

1 – هذا العنوان من وضعي.

2 – لقد كان تاريخ وفاة ابنه كما جاء هنا في يوم: الخميس 27 جمادى الأولى 1218هـ/ 1805م.

3 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾ [الرحمان: 56]

17. لَم يَزَل فِي رِيَاضِ عِلمٍ بَدِيعٍ ... سَابِحًا قَد سَمَى بُرُوجَ البُنيَانِ
18. لَم تَلِد أُنثَى مِثلَهُ بِوَلِيدٍ ... لَم تَلِد أُنثَى مِثلَهُ بِمَكَانِ
19. فَعَلَيهِ مِن رَبِّنَا صَلَوَاتٌ ... وَسُرُورٌ وَرَحمَةٌ فِي أَمَانِ
20. وَعَلَيهِ مِنِّي ذِكرٌ جَلِيلٌ ... وَثَنَاءٌ جَمِيلٌ كُلَّ أَوَانِ
21. وَسَلاَمِي عَلَيهِ فِي كُلِّ وَقتٍ ... وَدُمُوعِي عَلَيهِ جَمرَةُ آنِ
22. وَعَلَيهِ مِنِّي كُلَّ غَدَاةٍ ... وَرَوَاحٍ سَلاَمَةٌ مِن جِنَانِ
23. وَعَلَيهِ مِنِّي كُلَّ صَبَاحٍ ... وَمَسَاءٍ تَحِيَّةٌ بِلِسَانِ
24. مَازَهَت رَوضَةٌ وَنَاحَت حَمَامٌ ... وَبَكَت طِفلَةٌ بُكَاءَ الغَوَانِي
25. وَأَجَادَ فِكرِي بِنَظمٍ عَجِيبٍ ... وَبِشِعرٍ حَوَى بَدِيعَ المَثَانِي

وَفِي ابنِه أيضًا، مُشتَاقًا إِلَيهِ وَكَانَ حِينَهَا بِمَنفَاهُ فِي البُلِيدة[1]

1. إِلَى سَيِّدِي المَعبُودِ أشكُو مُصِيبَتِي ... وَمَا قَد دَهَانِي مِن أُمُورٍ عَظِيمَةِ
2. وَمَا حَلَّ قَلبِيَ مِن هُمُومٍ عَقِيمَةٍ ... تَدُكُّ الجِبَالَ الشُّمَّ كُلَّ صَبِيحَة
3. وَمِن زَيدِ عِلَّةٍ بِجِسمِي جَلِيلَةٍ ... وَشُعلَةِ شِيبَةٍ بِرَأسِي وَلِحيَتِي[2]
4. وَتَغيِيرِ حَالِي بَعدَ تَبدِيلِ خِلقَتِي ... وَكَونِي مُقِيمًا فِي بِلَادٍ كَرِيهَةِ
5. وَتَجرِيدِ عَصرٍ لِي سُيُوفَ عَدَاوَةٍ ... بِعَكسِ مُرَادٍ مِثلَ عَكسِ قَضِيَّةِ
6. وَإِفكٍ وَبُهتَانٍ وَزُورٍ وَصَولَةٍ ... وَمَا قِيلَ عَنِّي مِن مَقَالٍ وَكِذبَةِ[3]
7. وَتَقطِيعِ كِبدَةٍ وَتَمزِيقِ لَحمَةٍ ... بِتَبعِيدِ مَولُودٍ ثَوَى بِبُلِيدَةِ[4]
8. فَلِلَّهِ حَمدٌ أَن عَفَى عَنكَ وَشَفَى ... وَدَعوَةَ خَيرٍ تَحتَوِي كُلَّ لَحظَةِ
9. عَلَيكَ عَلَيكَ يَا مُؤنِسَ وَحشَةٍ ... وَيَا مُبعَدَ عَنِّي مِن غَيرِ حُجَّةِ
10. فَلَازِلتَ مَحرُوسًا وَلَازِلتَ حَارِسًا ... وَلَا زِلتَ مَلحُوظًا بِعَينِ البَصِيرَةِ
11. وَلَازِلتَ فِي بَحرِ البَلَاغَةِ غَائِصًا ... لِأَلفَاظِ جَوهَرٍ وَدُرٍّ نَفِيسَةِ
12. سَلَامٌ عَلَيكَ أَينَمَا كُنتَ ثَاوِيًا ... صَبَاحًا مَسَاءً أَيَّ يَومٍ وَلَيلَةِ
13. سَلَامٌ وَتَفسِيرُ السَّلَامِ سَلَامَةٌ ... سَلَامًا يَفُوقُ نَشرَ مِسكٍ وَرَوضَةِ
14. سَلَامٌ عَلَى رَبعِ الوَلِيدِ وَحِزبِهِ ... سَلَامًا يُحَاكِي الدُّرَّ أَغلَى ثَمِينَةِ
15. سَلَامٌ يَعُمُّ كُلَّ خِلٍّ مُوَافِقٍ ... جَلِيسٍ أَمَامَ الابنِ يَسمَعُ قَولَتِي

1 – هذا العنوان من وضعي.
2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿قال ربِّ إنّي وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا﴾ [مريم: 4].
3 – لم أصل من خلال البحث وسؤال العارفين إلى ما يمكن أن يكون قد اتُّهم به الشيخ _رحمه الله_.
4 – ذكرت أني لم أجد بعد طول بحث التهمة التي أوجبت عقوبة نفي الابن محمّد إلى البليدة.

16. أَلَا يَا حَمَامُ الأَيكِ إِن كُنتَ قَادِمًا ... إِلَى وَلَدِي بَلِّغ إِلَيهِ تَحِيَّتِي
17. سَأَلتُكَ يَا رَحمَانُ سِترَ مَثَالِبِي ... وَعَفوًا جَمِيلًا لِلذُّنُوبِ الكَثِيرَةِ
18. فَهَب لِي إِلهِي مِنكَ أَمنًا وَرَحمَةً ... وَفَوزًا وَرِضوَانًا وَخُلدًا بِجَنَّةِ
19. وَإِنِّي لَصَبَّارٌ لِصَولَةِ ظَالِمٍ ... وَسَطوَةِ عَتَّابٍ شَدِيدِ العَدَاوَةِ
20. أَلَا إِنَّهُ مِفتَاحُ خَيرٍ وَفُرجَةٍ ... فَحَسبِي أَنَّ اللهَ يَعلَمُ نِيَّتِي
21. وَمَا مِن يَدٍ إِلَّا يَدُ اللهِ فَوقَهَا[1] ... وَمَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُصلَى بِجَمرَةِ
22. وَمَن ذَا الذِي تُرضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَى المَرءُ عَقلًا أَن يُلَامَ بِعَثرَةِ[2]
23. وَصَلِّ وَسَلِّمَن وَعَظِّم وَبَارِكَن ... عَلَى أَفضَلِ المَولُودِ فِي خَيرِ بُقعَةِ
24. نَبِيًّا مُحَمَّدًا شَرِيفًا مُمَجَّدًا ... سِرَاجًا مُنِيرًا نَافِيًا لِلضَّلَالَةِ
25. وَآلٍ لَهُ سَمَى وَصَحبٍ لَهُ عَلَا ... وَكُلِّ تَقِيٍّ سَاعِيًا فِي هِدَايَةِ
26. دَوَامَ زَمَانٍ قِيلَ فِيهِ مَقَالَتِي ... إِلَى سَيِّدِي المَعبُودِ أَشكُو سَرِيرَتِي

1 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما﴾ [الفتح: 10].
2 – اقتباس من البيت الشعري الشهير للمتنبي، وتمامه:
ومن ذا الذي ترضى سجاياهُ كلّها ... كفى المرء نُبلاً أن تُعدّ معايبُهُ

قَصِيدَةٌ إلَى ابنِهِ وَقَد استَقَرَّ فِي مَنفَاهُ وَلَعَلَّهَا كانت الأولَى إلَيه[1]

1. أَتَانَا كِتَابٌ بِالسُّرُورِ وَبِالهَنَى[2] كِتَابُ وَلِيدٍ بِالبُلَيدَةِ مَسكَنَا
2. فَأَصبَحَ مَغمُورًا بِرَحمَةِ رَبِّهِ وَخَيرٍ وَنِعمَةٍ مَعَ العِزِّ يُقتَنَا
3. وَسِيقَت لَهُ الآمَالَ مِن كُلِّ جَانِبٍ وَدَامَ لَهُ الهَنَا وَطَابَت لَهُ المُنَى
4. وَبَاتَ فَرِيدًا فِي رِيَاضِ البُلَيدَةِ قَرِيبًا إلَى العُلاَ بَعِيدًا عَنِ الخَنَى
5. لَهُ فِي دِيَارِ المَجدِ بَيتٌ مُصَمَّدٌ وَأَيدٍ طَوِيلٍ فِي البَلاَغَةِ مُعلِنَا
6. لَهُ شِيمَةٌ لَم يُعطِهَا اللهُ غَيرَهُ لَدَى كُلِّ فَنٍّ يَا ابنَ أُمِّ وَخَالِنَا
7. بِبَحرِ المَعَانِي وَالبَيَانِ اغتِوَاصُهُ لأَلفَاظِ دُرَّةٍ نَفِيسَةِ الاجتِنَا
8. بِسَعدِ السُّعُودِ حَلَّ بُرجُ التِقَاطِهِ جَوَاهِرَ عِلمٍ لِلبَدِيعِ لِمَن دَنَى
9. إِذَا شِمتَ نَظمَهُ ظَنَنتَ ثُلاَثِيَا رَقَى فَهمُهُ مَتنَ الثَّرَيَّا وَأَذعَنَا[3]
10. فَلاَ مِثلَهُ يُلفَى وَلاَ مِثلَهُ يَرقَى مَدَارِجَ هَذَا الكَونِ يُسرًا وَمَيمَنَا
11. عَلَيهِ سَلاَمُ اللهِ فِي كُلِّ لَحظَةٍ عَلَيهِ سَلاَمٌ مَا الحَمَامُ تَرَنَّنَا
12. عَلَيهِ سَلاَمُ اللهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ عَلَيهِ سَلاَمٌ مَا الخُرُودُ تَزَيَّنَا
13. عَلَيهِ سَلاَمُ اللهِ فِي كُلِّ غَدوَةٍ عَلَيهِ سَلاَمٌ مَا المَفَاخِرُ تُقتَنَا
14. عَلَيهِ سَلاَمُ اللهِ فِي كُلِّ لَيلَةٍ عَلَيهِ سَلاَمٌ مَا سَمَى البَدرُ أَو سَنَى[4]
15. سَلاَمٌ عَلَى وَادِ الوَلِيدِ وَحِزبِهِ وَمَن كَانَ حَائِزَ المَفَاخِرِ وَالثَّنَى
16. يَدُومُ زَمَانَ المُنشِدِينَ لِقَولِنَا أَتَانَا كِتَابٌ بِالسُّرُورِ وَبِالهَنَاء

وَلَم تَصِلهُ حِينَئِذٍ.

---

1 – هذا العنوان من وضعي أيضا، ولقد جاءت القصائد الأخيرة هكذا متسلسلة بلا عناوين تفصل بينها.

2 – هكذا في الأصل، وهي الهناء.

3 – لا شك أنّه كما وصفه أبوه كان متضلّعًا في علم البيان وصاحب نظم بديع للشعر، لكن للأسف لم يصلنا شيء من آثاره على ما بحثت واستقصيت.

4 – على الهامش تعليق يقابل هذا البيت كتب فيه: [أو بمعنى الواو] هكذا، اطلع عليه الأستاذ الباحث يحي بوراس الخبير بخطوط علماء وادي مزاب، وقال لي الرّاجح أنّه لقطب الأئمة الشيخ أطفيش _رحمه الله_ بمقارنة الخطوط، فقلت لعله اطلع عليها وأفاد منها بعض التواريخ والأخبار، لأنه اشتغل _أعني القُطب_ بتسجيل بعض الملاحظات التاريخية المهمة حول وادي مزاب.

قَصِيدَةٌ فِي نَخِيلِ أَهلِ العَطف[1]

ثُمَّ قُلتُ فِيمَا جَرَى وَوَقَعَ فِي هَذَا الوَادِي[2] مِن الظُّلمِ وَالبَغيِ الذِي لاَ يُنكِرُهُ إِلاَّ مُصِرٌّ مُعَانِدٌ مِن الرَّجَزِ:

1. الحَمدُ للهِ العَلِيِّ الشَّانِ المَلِكِ المُهَيمِنِ الدَّيَّانِ
2. المُؤمِنِ المُقَدَّسِ الجَبَّارِ القَادِرِ المُنَزَّهِ القَهَّارِ
3. سُبحَانَهُ وَجَدُّهُ عَظِيمٌ وَأَمرُهُ فِي خَلقِهِ جَسِيمُ
4. ثُمَّ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أَبَدَا عَلَى رَسُولِ اللهِ أَعنِي أَحمَدَا
5. نَبِيِّنَا سَيِّدِنَا مُمَجَّدَا مُشَرَّفًا مُعَظَّمًا مُحَمَّدَا
6. هُوَ ابنُ عَبدِ اللهِ خَيرِ مُرسَلِ أَفضَلُ خَلقٍ آخِرٍ وَأَوَّلِ
7. صَلَّى اللهُ عَلَيهِ مَا دَامَ الحِجَى وَسَارَ بَدرٌ فِي غَيَاهِبِ الدُّجَى
8. وَآلِهِ ذَوِي العُلاَ وَالمَجدِ وَصَحبِهِ ذَوِي الهُدَى وَالرُّشدِ
9. مَادَامَتِ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي وَنُظِمَت خَرِيدَةُ اللَّآلِي
10. وَبَعدُ فَالمَقصُودُ بِذَا النَّظمِ إِبَانَةُ الحَقِّ وَدَفعُ الوَهمِ[3]
11. عَنِ القُلُوبِ، قَد غَشَّاهَا جَهلُ وَإِنَّمَا يُمضِي مَقَالاً فِعلُ

---

1 – ورد في نسخة الخزانة العامّة بمؤسسة عمي سعيد بغرداية مخرومة الآخر. بعد القصيدة الدالية:
« ثمّ قلت في نخيل أهل العطف من رجز سادس البحور».

2 – للأسف فإنّ الشيخ لم يفصل فيما وقع بالضبط في بلدة العطف، إلاّ أنّي وجدت أنّه في هذه السنة أي 1221هـ/1806م كانت قد وقعت فتنة في العطف بين أولاد عبد الله وبين أولاد الخلفي وأولاد جلمام، سعى في إصلاحها إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم العطفاوي وكيل مسجدها، لكنّه أخفق في ذلك فهاجر منها إلى غرداية، ولعلّ من أسباب الفتنة أو كان من نتائجها حرق نخيل الأطراف المتنازعة، فكتب بذلك الشيخ ابن بحمان هذه القصيدة مستنكرا.
ينظر: الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزاب، ص75.
ينظر كذلك: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص12.

3 – في عقيدة الإباضية إلى اليوم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونرى الشيخ يتولّى ذلك بشعره.

12. وَزَانَهَا مَا كَسَبَت يَدَاهَا وَشَانَهَا مَا جَهِلَت عُقبَاهَا
13. ضَلَّ عَنِ السُّلُوكِ فِي البِلاَدِ رَاكِبُ، مَتنِ الظُّلمِ فِي ذَا الوَادِ
14. الظُّلمُ حَقًّا ظُلُمَاتٌ يَا فَتَى[1] نَصَّ عَلَيهِ المُصطَفَى كَمَا أَتَى
15. وَمَرتَعُ الظُّلمِ أُخَيَّ وَخِيمٌ دَاءٌ عَظِيمٌ خَفِيٌّ جَسِيمُ
16. وَالظُّلمُ يَا صَاحِبِ لاَ يَدُومُ وَفَاعِلُ الشَّرِّ أُخَيَّ مَذمُومُ
17. إِن دَامَ دَمَّرَ، وَصَارَ خَائِفًا صَاحِبُهُ، لِكُلِّ شَيءٍ جَانِفًا
18. فَلَو بَغَى كَهفٌ عَلَى أَخِيهِ يَومًا لَدَكَّ دَكَّةً تَلِيهِ
19. تَبًّا لِقَومٍ أَوقَدُوا نِيرَانَا لِلظُّلمِ حَتَّى انتَهَكُوا حُرمَانَا
20. وَأَعلَنُوا بِالظُّلمِ وَالعُدوَانِ وَبَالَغُوا فِي الإِثمِ وَالخُسرَانِ
21. وَجَاوَزُوا الحُدُودَ فِي الفَسَادِ وَقَتلِ نَخلِ اللهِ فِي البِلاَدِ
22. قَاتِلُهَا كَقَاتِلِ سَبعِينَا لَهُ وَبَالٌ وَاصِبٌ مُبِينًا
23. مَع وُرُودِ النَّصِّ بِالوَعِيدِ فِي قَتلِهَا بِالأَلَمِ الشَّدِيدِ
24. لِكَونِهَا مِن طِينَةٍ أَبِينَا[2] حَمَى إِلَهِي قَائِلاً أَمِينَا
25. يَاعَجَبًا مِن أَهلِ هَذَا العَصرِ قَد جَاوَزُوا الحَدَّ فِي كَسبِ
26. وَشَرَعُوا سُنَّةَ أَهلِ الشِّركِ كَالسَّلبِ وَالخَدعِ وَثُمَّ الفَتكِ
27. وَقِسمَةِ الذَرَارِي وَالصِّبيَانِ وَسَفكِ الدِّمَاءِ وَالعِصيَانِ
28. مُسَلَّطًا عَلَيهِمُ الخُذلاَن مُستَحوِذٌ عَلَيهِم الشَّيطَان[3]
29. عَمُوا وَصَمُّوا مِنهُمُ كَثِيرُ ضَلُّوا وَتَاهُوا مِنهُمُ غَفِيرُ

1 – اقتباس من حديث الرسول ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».
2 – اقتباس من حديث الرسول ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة».
3 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ المجادلة: 19.

30. غَالِبُهُم قَد جَنَحُوا وَمَالُوا إِلَى فَسَادِ الدِّينِ حَتَّى قَالُوا:
31. "إِنَّا عَلَى بَصِيرَةٍ مِن أَمرِنَا وَفِي اقتِدَاءٍ بِمَن كَانَ قَبلَنَا"[1]
32. قَد زَعَمُوا مَطِيَّةَ الكَذَّابِ وَقَلَبُوا مَعَالِمَ الصَّوَابِ
33. وَجَعَلُوا عَالِيَهَا سَافِلَهَا[2] وَبَدَّلُوا وَغَيَّرُوا حُدُودَهَا
34. وَرَفَعُوا الخَيَالَ ثُمَّ وَضَعُوا مَنَارَةَ الإِسلاَمَ حَتَّى وَقَعُوا
35. فِي هُوَّةٍ عَمِيقَةٍ لِلقَاعِ وَحُفرَةٍ طَوِيلَةٍ لِلبَاعِ
36. يَا عَجَبًا مِن أَهلِ هَذَا الدَّهرِ قَد عَدِمُوا مَسلَكَ أَهلِ الخَيرِ
37. فَأَهلُهُ كُلُّهُم عَقَارِبٌ غَالِبُهُم كُلُّهُم ثَعَالِبُ
38. أَقوَالُهُم كَاذِبَةٌ نَمِيمَةٌ أَفعَالُهُم قَبِيحَةٌ ذَمِيمَةٌ
39. خُيُورُهُم مَقطُوعَةٌ مَمنُوعَةٌ شُرُورُهُم مَوصُولَةٌ مَحبُوبَةٌ
40. لِبَاسُهُم كَبَائِرُ النِّفَاقِ وَسَادُهُم جَرَائِمُ الشِّقَاقِ
41. قَد خَابَ مَن حَمَلَ ظُلمَ النَّاسِ وَسَنَّ فِيهِم سُنَّةَ الوَسوَاسِ
42. مُتَّخِذًا إِلَهَهُم مَعبُودًا وَرَاءَ ظَهرِ دِينِهِم مَنبُوذًا[3]
43. وَضَلَّ عَن طَرِيقِ أَهلِ الحَقِّ وَعَن سَبِيلِ الخَيرِ ثُمَّ الصِّدقِ
44. شَرُّ عِبَادِ اللهِ مَن عَصَاهُ بِمَا جَنَى وَكَسَبَت يَدَاهُ
45. مِنَ العُجَابِ بِغلَةٌ فِي ذَا الزَّمَن قَد وَلَدَت، وَالتَّيسُ يَحلُبُ اللَّبَن[4]

1 – هذه المقولة: قال لي الحاج سليمان بكاي المؤرّخ، كثيرا ما كان يردّدها الجهلاء للشيخ عمّي يحي أوّل ما انبرى للإصلاح ونشر العلم بوادي مزاب بعد عودته من جربة ومصر حوالي 1735م.
2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل﴾ الحجر: 74.
3 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿وإذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلا فبيس ما يشترون﴾ [آل عمران: 187].
4 – لا زال هذا القول يجري على ألسنة العامّة في مزاب بلهجتهم المحلية.

46. حَتَّى صَارَت قَضِيَّةُ الزَّمَانِ مَعكُوسَةً عِندَ ذَوِي البَيَانِ
47. عَكسُ نَقِيضٍ دَائِمٍ كَمَا بِنَصٍّ مَنطِقٍ عَلَيهِ يَا فَتَى
48. وَأَفضَلُ الخَلقِ عَلَى الإِطلَاقِ مَن اتَّقَى المَعبُودَ فِي الآفَاقِ
49. ثُمَّ رَعَى الحُدُودَ وَالرُّسُومَا وَلَازَمَ الفَرَائِضَ المَعلُومَا
50. مُستَغفِرًا رَبَّهُ مِن ذَنبِهِ مُستَبصِرًا بِمَا جَنَى مِن عَيبِهِ
51. مُعتَرِفًا للهِ مِنهُ خَائِفًا مِن أَي يَكُونَ فَاسِدًا وَزَائِفَا
52. إِلَى هُنَا قَد انتَهَى المَنظُومُ مُقَرَّرَ المُثبَتِ المَرسُومُ
53. فِي ذِهنِ عَبدٍ قَد جَنَى العُيُوبَا وَاكتَسَبَ الآثَامَ وَالذُّنُوبَا
54. قَد نَظَمَ المَنثُورُ فِي الأَذهَانِ وَرَقَّمَ المَسطُورَ فِي الجِنَانِ
55. سُبحَانَ رَبِّي العَظِيمِ الشَّأنِ العَلِيِّ المُدَبِّرِ الرَّحمَانِ
56. مُصَلِّيًا عَلَى الرَّسُولِ الأَمجَدِ سَيِّدِنَا نَبِيِّنَا مُحَمَّدِ
57. هُوَ النَّبِيُّ المَبعُوثُ بِالخَيرَاتِ لِكُلِّ خَلقِ اللهِ فِي الجِهَاتِ
58. هُوَ الزَّكِيُّ المَنعُوتُ المَشهُورُ العَلِيُّ المُفَضَّلُ المَنصُورُ
59. الطَّيِّبُ النَّجرِ الشَّرِيفِ الأَسعَدِ الطَّاهِرِ الأَصلِ المُنِيفِ المُفرَدِ
60. وَصَلِّ يَا رَبِّ عَلَى الإِمَامِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الكِرَامِ
61. الطَّاهِرِينَ الطَّيِّبِينَ الشُّرَفَا ذَوِي المَعَالِ وَالكَمَالِ وَالوَفَا
62. وَصَحبِهِ الأَبرَارِ وَالأَخيَارِ أَهلِ التُّقَى فِي اللَّيلِ وَالنَّهَارِ
63. مَا فَاهَ مَنظُومِي عَلَى اللِّسَانِ الحَمدُ للهِ العَلِيِّ الشَّانِ

بتاريخ أواسط صَفَر من سنة 1221 هـ. (1808م).

الرَدُّ على هَيَان بنُ مَيَان [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَولَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا

الحَمدُ للهِ الذِي شَرَعَ لَنَا الإِسلَامَ دِينًا، وَجَعَلَهُ عُروَةً وُثقَى وَعِقدًا مَتِينًا، وَبَعَثَ مَولَانَا مُحَمَّد بن عبد الله بِآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَدَلَائِلَ وَاضِحَاتٍ، وَمُعجِزَاتٍ سَاطِعَاتٍ، وَبَرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ، أَرسَلَهُ بِالذِّكرِ الحَكِيمِ وَالصِّدقِ وَدِينِ الهُدَى وَالحَقِّ، وَأَظهَرَهُ عَلَى جَمِيعِ الكَفَرَةِ[2]، وَأَيَّدَهُ بِالكِرَامِ البَرَرَةِ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ الذِينَ حَازُوا الوَسَائِلَ المُنِيفَةَ، وَأَصحَابِهِ الذِينَ نَالُوا الفَضَائِلَ الجَمِيلَةَ، وَشَيَّدُوا لِدِينِ اللهِ سُبحَانَهُ قُصُورًا عَالِيَةً، وَأَسَّسُوا لَهُ قَوَاعِدَ جَالِيَةً، وَمَدَارِجَ غَالِيَةً، وَمَهَّدُوا لَهُ نَمَارِقَ جَمِيلَةً، وَوَسَّدُوا لَهُ مَطَارِفَ شَرِيفَةً، وَفَازُوا بِمَكَارِمِ الأَخلَاقِ، وَعَلَى كُلِّ بَارٍّ تَقِيٍّ إِلَى يَومِ التَّلَاقِ، وَبَعدُ: فَإِلَى جَهُولٍ مُذَبذَبٍ، حِمَارٍ مُضَبضَبٍ[3]، حَلَّافٍ زَنِيمٍ، مَهِينٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ غَلِيظٍ[4]، ذِي خَبَاطٍ فَظِيظٍ[5]، أَزِيبٍ[6] جُنعَاظٍ[7]، ضَفِيطٍ[8] جُوَاظٍ[9]،

---

1 – هيان بن ميان: هي شخصية خيالية إذ لا وجود لهذا الاسم، إلاّ عند الشيخ صاحب الديوان وقطب الأئمّة الشيخ اطفيش. ويقال على ما روى الأستاذ الباحث الحاج أحمد بن حمو كروم انّه يستعمل للردّ على القادحين الذين يرسلون كتبا إلى المشايخ طعنًا ولا يذكرون أسماءهم، أو يتورّع ويترفّع الشيخ حتّى عن ذكر اسم الطاعن في الجواب فيضع له اسمًا من عنده هكذا.
مقابلة معه بدار إروان العطف، غرداية، 02 ماي 2005.

2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ لِيُظهِرَه على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾ [التوبة: 33].

3 – المضبضبُ: الغليظ السمين القصير الفحّاش الجافي. اللسان، ح الباء، ف الضاد، ج1، ص543.

4 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿ولا تطع كلّ حلاّف مهين، همّاز مشاء بنميم مناّع للخير معتد أثيم، عتلٍّ بعد ذلك زنيم﴾. القلم: 10–13.

5 – الفظيظ: ماء الكرش، وهو الشّرس الصعب الخُلق. اللسان، ح الظاء، ف الفاء، ج7، ص452.

6 – الأزيب: كثير الشعر الذميم. ج1، ص444.

7 – جنعاظ: القصير الرجلين، الغليظ الأشم، وقيل الأحمق، وقيل الجافي الغليظ. اللسان، ج7، ص439.

8 – ضفيط: الشيء الخلق. ج7، ص355.

9 – جواظ: المختال في مشيته، وقيل المتكبر الجافي، وقيل الفاجر، وهو الصّبّاح الشّرّير. ج7، ص439.

حَبَنطِيٍّ[1] سَنُوت[2]، جَعَنبِيٍّ[3] سَبُوت[4]، جَشِيب[5] كَعَّاب[6]، سَفِيه صَخَّاب، خُجَاءٍ[7] شَنظِيرٍ[8]، هُرَاءٍ شَنغِيرٍ[9]، غَشَمشَمٍ[10] مُعَندَبٍ[11]، قَفَندَرٍ[12] مُقَرتَبٍ[13]، حَقِيرٍ لَئِيمٍ، هَبِيتٍ[14] ذَمِيمٍ[15]، قَوَّادٍ[16] دَفِيرٍ[17]، دَيُوثٍ[18] مَكِيرٍ، هَمَّازٍ لَمَّازٍ[19]، كَزَّازٍ[20] نَبَّازٍ، لَذِيغٍ كَعَقرَبٍ، لَمِيجٍ[21] كَثَعلَبٍ، جَسِيسٍ[22] سَلِيطٍ، طَمُولٍ[23] رَطِيطٍ[24]، فَتَعسًا لَهُ وَوَيلاً، وَتَبًّا لَهُ وَشَلاً، قَد حَمَلَ رِجسًا، وَسَوَّدَ طِرسًا، بِمَعنًى رَكِيكٍ، وَلَفظٍ أَبِيكٍ، وَشَحنَهُ بِإِفكٍ وَشَتمٍ، وَعَارٍ وَجُرمٍ، وَفُحشٍ وَلَحنٍ وَعَيبٍ وَمَينٍ[25]، وَقَدحٍ فِي الدِّينِ القَوِيمِ، وَطَعنٍ فِي الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ، كَطَرِيقِ الوَهبِيَّةِ

1 – حبنطي: وهو المحبنطي: الممتلئ غضبا. ج1، ص57.
2 – السنوت: الرجل سيء الخلق. ج2، ص47.
3 – جعنبي: الحريص الشحيح. اللسان، ج1، ص268.
4 – سبُوت: كثير السّبَاب.
5 – الجشيب: البشع من كلّ شيء. اللسان، ج1، ص266.
6 – كذّاب: كثير الكذب.
7 – الخجاء: مشية فيها تبختر. ج1، ص64.
8 – الشنظير: الفحّاش السيّء الخلق. ج4. ص408.
9 – الشنغير: الفحّاش البذيء: ج4، ص431.
10 – الغشمشم: الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء. ج12، ص438.
11 – المعندب: الغضبان. اللسان، ج1، ص631.
12 – القفندر: القبيح المنظر. ج5، ص112.
13 – المقرتب: الغليظ. اللسان، ج1، ص661.
14 – الهبيت: الحمق، وقيل الذي لا عقل له. ج2، ص102.
15 – الذميم: القبيح. ج12، ص220.
16 – القواد: هو الدّيوث لا يغار على أهله. ج2، ص150.
17 – الدفير: شدّة نتانة الريح. ج4، ص306.
18 – الديوث: هو القواد لا غيرة له على أهله. ج2، ص150.
19 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿ويل لكلّ همزة لمزة﴾ [الهمزة: 1].
20 – الكزّاز: البخيل. ج5، ص400.
21 – اللميج: ذوّاق بفمه كالمتلمظ. ج2، ص358.
22 – الجسيس: الذي يظل متحسّسًا. ج6، ص43.
23 – الطمول: الفاحش اللسان. ج11، ص408.
24 – الرطيط: السارق. ج7، ص312.
25 – المين: الكذب. ج13، ص425.

الإِبَاضِيَة، وَمِنهَاجِ الفِرقَةِ المُرَابِيَة، القَائِمَةِ عَلَى المَذهَبِ الحَقِيقِيِّ وَالنَّهجِ المُحَمَّدِيِّ الحَنِيفِيِّ، الجَذِيرِ لِلأَعمَى أَن يُبصِرَهُ، الحَقِيقِ لِلأَصَمِّ أَن يَسمَعَهُ، وَإِنَّنَا وَلله الحَمدُ نُدِينُ بِشَهَادَةِ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحدَهُ، لاَ شَرِيكَ لَهُ، الوَاحِدِ الأَحَدِ، الفَردِ الصَّمَدِ، العَلِيِّ العَظِيمِ، الرَّحمَانِ الرَّحِيمِ، الرَّبِّ القَهَّارِ، العَدلِ البَارِّ، العَالِمِ بِجَمِيعِ المَعلُومَاتِ، القَادِرِ عَلَى جَمِيعِ المُمكِنَاتِ، المُرِيدِ لِجَمِيعِ الكَائِنَاتِ، السَّمِيعِ مِن غَيرِ أَصمَخَةٍ وَلاَ آذَانٍ، البَصِيرِ مِن غَيرِ حَدَقَةٍ وَلاَ أَجفَانٍ، المُتَكَلِّمِ بِلاَ شَفَةٍ وَلاَ لِسَانٍ، الحَيِّ الفَعَّالِ، ذُو العِزَّةِ وَالإِجلاَلِ، المُبدِئِ المُعِيدِ، ذُو العَرشِ المَجِيدِ، المُنجِزِ الوَعدَ وَالوَعِيدِ، ذُو الأَخذِ الأَلِيمِ، وَالبَطشِ الشَّدِيدِ، لاَ تُدرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ، وَلاَ تَبدُوا لَه البَدَوَاتُ فِي اللَّيلِ وَلاَ فِي النَّهَارِ، وَلاَ يَعزُبُ عَنهُ مِثقَالُ ذَرَّةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، يَعلَمُ خَائِنَةَ الأَعيُنِ، وَدَبِيبَ النَّملَةِ عَلَى الصَّخرَاءِ فِي اللَّيلَةِ الظَّلمَاءِ، لاَ يَشغَلُهُ شَأنٌ عَن شَأنٍ، وَلاَ يُقَيِّدُ بِزَمَانٍ وَلاَ مَكَانٍ وَلاَ يُوصَفُ بِنَومٍ وَلاَ سُبَاتٍ، وَلاَ تَحُلُّهُ دَوَاعِي الخَطَرَاتِ، لاَ مُعَقِّبَ لِحُكمِه وَلاَ مَرَدَّ لِقَضَائِه وَتَدبِيرِه، لاَ قَرِينَ يُعَادِلُهُ، وَلاَ شَبِيهَ يُمَاثِلُهُ، وَلاَ نِدَّ يُسَاوِيه، وَلاَ وَزِيرَ يُدَانِيه، المُتَنَزَّهُ عَنِ الاستِقرَارِ وَالحُلُولِ، المُتَقَدِّسُ عَنِ الصُّعُودِ وَالنُّزُولِ، المُتَعَالِي عَنِ الكُلِّيَةِ وَالجُزئِيَةِ وَالكَمِّيَّةِ وَالكَيفِيَةِ، وَالجِسمِيَةِ وَلَوَازِمِهَا، وَالمِثلِيَةِ وَتَوَابِعِهَا[1]، المُتَكَبِّرُ عَن كُلِّ نَقِيصَةٍ غَيرِ لاَئِقَةٍ بِذَاتِه، المُتَّصِفِ بِكَامِلِ أَسمَائِه وَصِفَاتِه وَأَفعَالِه وَسَائِرِ كَمَالاَتِه، هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ الغَنِيُّ عَنِ العَالَمِينَ، قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ، مُدَبِّرُ الخَلاَئِقِ أَجمَعِينَ، فَادعُوهُ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ[2]، وَبِشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا بنَ عَبدِ الله عَبدُه الأَمِين، وَنَبِيُّهُ المَأمُون، وَرَسُولُه المُبِين، المَبعُوثُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ، وَتَبلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَالصِّدقِ، فَبَلَّغَ مَا أُمِرَ بِه، وَنَصَحَ أُمَّتَهُ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ رَبِّه، حَتَى قَبَضَهُ إِلَى

1 – هذه المسائل أعيت الفقهاء والمفكرين الإسلاميين قديمًا، وقد نظر فيها علماء الإباضية مثل غيرهم.
ينظر: عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، ص71.
2 – اقتباس من قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم﴾ [آل عمران: 2]. وقوله أيضا: ﴿هو الحي لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله ربّ العالمين﴾ [غافر: 65].

جَنَّته، وَآوَاهُ إِلَى رَحمَته، صَلَّى الله عَلَيه وَعَلَى آله، وَأَصحَابه وَأَنصَاره، وَبالتَّصديق بمَلاَئكَة الله سُبحَانَهُ وَكُتُبه وَأَنبيَائه وَرُسُله، وَالمَوت وَالبَعث وَالحسَاب، وَالجَنَّة وَالنَّار، وَجَميع مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، فَالله تَعَالَى هُوَ المُكَوِّنُ لَهُ، وإنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ لاَ رَيبَ فيهَا، وَكُلّ مَا أَمَرَ الله به وَنَهَى عَنهُ حَقٌّ لاَ شَكَّ فيه، وَجَميع القَدَر خَيره وَشَرِّه، وَنَفعه وَضُرِّهْ، وَحُلوه وَمُرِّه حَقٌّ من عنده، وَبوَلاَيَة أَولياء الله[1] من أَوَّلهم وَآخرهم وَإنسهم وَجنِّهم وَحَيِّهم وَميِّتهم وَعَامَّتهم وَمَنصُوصهم وَخَاصَّتهم منَ المُرسَلينَ وَالأَنبيَاء وَالمَلاَئكَة وَالأَولياء، كَأَبي بَكر الصِّدِّيق وَعُمَرَ بن الخَطَّاب الفَارُوق عَلَى التَّحقيق، وَعَمَّار بن يَاسر، وَعَبدُ الله بن مَسعُود، وَجَابر[2]، وَبلاَل بن حَمَامَة، وَأَبي ذَرٍّ بن جُنَادَة، وَالعَبَّاس وَحَمزَة، وَجَعفَر بن عبد المطلب، وَزَيدُ بن حَارثَة، وَأُبَيّ بن كَعب وَعَبد الله بنَ وهب وَعَبد الرَّحمان[3] وَسَلمَانَ الفَارسي، وَمُعَاذ بن جَبَل وَحُذَيفَة بن اليَمَاني[4] وَغَيرهم من الصَّحَابَة الكرَام، وَالتَّابعينَ العظَام، وَتابعي التَّابعينَ لَهُم بالإحسَان إلَى يَوم الدِّين _رَضيَ الله عَنهُم أَجمَعينَ_، وَبالوُقُوف فيمَن لاَ نَعلَمُ حَالَهُ حَتَّى نَعلَمَهُ، وَبَرَاءَة أَعدَاء الله منَ الأَوَّلينَ وَالآخرينَ، وَالإنس وَالجنِّ، وَالمَنصُوص عَلَيه بالشَّرِّ وَالمَخصُوص الغَير المَوفِّي بالدِّين، وَجَميع مَن خَالَفَ المُسلمينَ في دِيَانَتهم، وَبتَحريم دمَاء المُسلمينَ وَأَموَالهم وَسَبي ذَرَاريهم لمَا مَعَهُم منَ تَوحيد خَالقهم، وتَحليلُ دمَاء المُشرِكينَ المُحَاربينَ وَأَموَالهم وَسَبي

1 – باب شهير في عقيدة الإباضية. ينظر: عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، ص56.

2 – هو أبو الشعثاء جابر بن زيد اليحمدي الأزدي العماني: (و:18هـ/639م – ت:93هـ/711م) تابعي جليل، روى عن ثلّة من خيرة الصحابة كعائشة أمّ المؤمنين، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر..، يعتبر إمام أهل الدعوة والاستقامة، وواضع قواعد الاجتهاد للمذهب الإباضي.
ينظر بتفصيل أكثر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص217 وما بعدها.

3 – هو عبد الرحمان بن رستم بن بهرام بن كسرى (حكم: 160هـ–171هـ / 777م–788م) صاحب فضل إمامة الظهور لإباضية المغرب، ومؤسّس الدولة الرستمية التي أطبقت شهرتها الآفاق.
ينظر بتفصيل أكثر: نفسه، ج3، ص515 وما بعدها.

4 – لم أتعرّض للتعريف بهؤلاء الأعلام كي لا أثقل الهوامش أكثر، وقد اكتفيت بذكر المغمورين كأئمة الإباضية مذهب الشيخ صاحب الديوان، أما الصحابة _رضوان الله عليهم_ فأخبارهم مبثوثة في مختلف كتب السيرة، وليس من دواعي التحقيق هنا التفصيل في حياتهم.

ذَرَاريهم لمَا مَعَهُم منَ الشرْك بخَالقهمْ، وَبامتثَال جَميع الطَّاعَات، ممَّا أَمَرَ الله تَعَالَى به بَعدَ التَّوحيد من إقَامَة الصَّلاَة في أَوقَاتهَا المَعلُومَة، بجَميع وَظَائفهَا وَشُرُوطهَا المَوسُومَة، وَأَدَاء الزَّكَاة لأَربَابهَا، عندَ وُجُود شُرُوطهَا، وَارتفَاع مَوَانعهَا، وَصيَام شَهر رَمَضَانَ بإخلاَص وَنيَّة، وَالحَجِّ للبَيت الحَرَام، عَلَى المُستَطيع منَ الأَنَام، وَالجهَاد للأَعدَاء الظَّاهرَة وَالبَاطنَة، وَالأمر بالمَعرُوف وَالنَّهي عَنِ المُنكَر عَلَى قَدر الطَّاقَة، وَبرِّ الوَالدَين، وَصلَة الأَرحَام، وَحَقِّ الصَّاحب وَابن السَّبيل، وَالجَار وَالضَّيف وَمَا مَلَكَت اليَمين، وَجَميع حُقُوق الله اللاَّزمَة، كَالوُضُوء وَالاغتسَال وَالطَّهَارَة وَباجتنَاب جَميع المَعَاصي، ممَّا نَهَى الله سُبحَانَهُ عَنهُ منَ الشِّرك به، وَإنكَار خَصلَة تَوحيد، وَجَميع النِّفَاق، من تَرك وَاجب دُونَ تَوحيد كَصَلاَة وَزَكَاة وَغَيرهمَا، وَفعل مُحَرَّم كَقَتل نَفس وَزنًى وَأَخذ مَال غَير، وَشُربَة خَمر، وَقَذف مُحصَن وَشَهَادَة زُور وَكتمَانهَا، وَكَذب وَغيبَة وَنَميمَة وَخيَانَة، وَلَمس بَدَن أَجنَبيَة وَلَو فَوقَ ثَوب، وَنَظَر بشَهوَة وَعَورَة، وَمُتَعَرِّض إلَيه وَحُكم بجُور، وَظُلم وَعُقُوق وَالد، وَيَمين غَامُوس وَتَزيين سلعَة بيَمين وَغشّ، وَخَدع وَمَكر وَحقد وَحَسَد، وَكبر وَرياء وَعُجب، وَقَطيعَة رَحم، وَسُوء ظَنّ بمُسلم، وَسحر، وَإيَاس من رَحمَة، وَأَمن عَذَاب، وَقسمَة إرث عَلَى وَجه غَير شَرعيّ، وَرَغبَة في غَير مُبَاح، وَحَميَّة وَعَصَبيَّة، وَبَيع حُرّ، وَدُخُول حَمَّام بلاَ إزَار، وَكُلّ كَبيرَة أَو صَغيرَة مُصرّ عَلَيهَا، وَبالتَّوبَة من كُلّ ذَنب، وَالاستغفَار لكُلّ عَيب، سرًّا وَعَلاَنيَةً، وَأَدَاء كُلّ مَظلَمَة لصَاحبهَا، وَحفظ كُلّ أَمَانَة، وَأَدَائهَا لرَبِّهَا خفيَةً وَجَهرَةً فَهَذَا دينُنَا وَاعتقَادُنَا، من لَدُن أَسلاَفنَا إلَى أَن صَارَ بَينَ أَيدينَا فَمَن عَمل به وَارتَضَاهُ فَهُو منَّا وَأَخُونَا، لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيه مَا عَلَينَا، وَمَن رَدَّهُ أَو طَعَنَ فيه فَحَسبُهُ الله وَكَفَى، وَهُو المُتَوَلِّي لَهُ في الدُّنيَا وَالأُخرَى، جَعَلَنَا الله منَ السَّالكينَ فيه هَذَا المنهَاجَ، وَالعَاملينَ به ببَرَكَة نَبيِّنَا مُحَمَّد خَاتم النَّبيئينَ وَسَائر المُرسَلينَ وَالحَمدُ لله، فَقُلتُ منَ الطَّوِيل المُثَمَّنِ الأَجزاء من عَرُوضه الأُولى، وضربه المماثل لها:

1. أَتَانَا كِتَـــابٌ مِن جَهُـــولٍ مُذَبذَبٍ[1] زَنِيمٍ[2] زَنِيمٍ[3] ذِي خَبَـــاطٍ[4] مُعَنذَبِ[5]
2. مَهِينٍ[6] وَحَلاَّفٍ[7] أَثِيـــمٍ[8] غَشَمشَمٍ[9] عُتُلٍّ[10] غَلِيظٍ[11] القَلبِ، فَظٍّ[12] مُضَبضَبِ[13]
3. جَشِيـــبٍ[14] حَبَنطَـــيٍّ[15] نَمِيـــمٍ[16] أَزِيـــبٍ[17] جَعَلْـــبَـــيٍ[18] لَمِـــيـــجٍ[19]
4. وَبِيطٍ[21] وَوَطوَاطٍ[22] خَنِيعٍ[23] وَخَنفَعٍ[24] ضَفِيطٍ[25] وَجَوَّاظٍ[26] سَفِيهٍ[27] مُقَرنَبِ[1]

1 – المتردّد المضطرب.
2 – الدعي.
3 – تأكيد.
4 – الجنون.
5 – الغضبان.
6 – الحقير.
7 – الكثير الحلف.
8 – البليغ في الإثم.
9 – الذي يركب رأسه لا يهمّه أحد.
10 – جافٍ، أكول، وضيع.
11 – خاس.
12 – خشن الكلام، سيء الخلق.
13 – الضخم السمين.
14 – البشع.
15 – الممتلئ غيظا.
16 – الساعي بفساد بين الخلق.
17 – لئيم شيطان.
18 – الشرير.
19 – كثير الأكل والجماع.
20 – الملقي برأسه للأرض غضبا.
21 – الخسيس.
22 – الضعيف الجبان.
23 – الفاجر.
24 – الأحمق.
25 – الضخم البطن.
26 – المتكبر الصيّاح.
27 – الخال عن عقل.

5. سَتُوتٍ[2] وَدَيُّوثٍ[3] هَبِيتٍ[4] وَجَنعَـــظٍ[5] سَبُـــوتٍ[6] وَصَخَّابٍ[7] وَلِصٍّ كَثَعلَبِ
6. دَفِيرٍ[8] وَقَوَّادٍ[9] طَمُـــولٍ[10] جَعَنظَـــرٍ[11] حَقِيرٍ[12] قَفَندَرٍ[13] ذَمِيـــمٍ عَجَرفَـــبِ[14]
7. مَكِيرٍ[15] وَشَنغِيرٍ[16] بِذِيءٍ[17] مُوَشَّمٍ[18] خُجَاءٍ[19] خَسِيسِ النَّفسِ ذِئبٍ مُكَلَّبِ[20]
8. هُرَاءٍ[21] وَشَنظِـــيرٍ[22] لَئِيمٍ مُفَنَّدٍ[23] سَلِيطٍ[24] لَـــذِيعٍ[25] مِثلَ سُمِّ لِعَقرَبِ

1 – السيئ الخلق.
2 – الكذّاب.
3 – الراضي بزنا أهله، لا غيرة فيه.
4 – ذاهب العقل.
5 – الغليظ الشره.
6 – الكثير النوم.
7 – الصَّيّاح.
8 – المنتن.
9 – الفاحش الذي لا يبالي.
10 – البليد.
11 – الأكول النهم.
12 – الذليل.
13 – القبيح المنظر.
14 – الخبيث المريب.
15 – الكثير المكر.
16 – الفاحش.
17 – البليغ الفحش.
18 – المعلم
19 – الثقيل.
20 – العقور.
21 – الفاسد المنطق، الذي لا نظام فيه.
22 – الفاحش في الكلام.
23 – خطا القول والفعل.
24 – الطويل شديد اللسان.
25 – القريع.

9. فَتَعسًا وَخُسرَانًا وَتَبًّا يَليهِمَا وَوَيلاً وَثَلاً[1] للجَهُولِ المُذَبذَبِ

10. يُسَوِّدُ طِرسًا قَبَّحَ اللهُ وَجهَهُ وَسَوَّدَهُ سَوادَ فَحمٍ وَغَيهَبِ

11. بِمَعنًى رَكِيكٍ وَاختِلالٍ للَفظِهِ وَلَحنٍ وَفُحشٍ ثُمَّ عَارٍ بِمَذرَبِ

12. وَإفكٍ وَشَتمٍ مَع عُيُوبٍ كَثيرَةٍ وَمَينٍ وَقَدحٍ فِي الطَّرِيقِ المُهَذَّبِ

13. فَنَحنُ عَلَى دِينِ الحَنِيفِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ صَلاةٌ فِي صَبَاحٍ وَمَغرِبِ

14. وَنَحنُ عَلَى الحَقِّ القَوِيمِ وَغَيرُنَا عَلَى البَاطِلِ الأَودَى بِتَعسٍ وَمَثلَبِ

15. طَرِيقَتُنَا الغَرَّى طَرِيقٌ حَقِيقَةٌ طَرِيقٌ صَفِيٌّ كَاللَّآلِي المُثَقَّبِ

16. فَدِينُ الهُدَى دِينِي وَنَهجِي وَمَذهَبِي طَرِيقُ أَبَاضٍ[2] قَد سَمَى فَوقَ كَوكَبِ

17. طَرِيقَةُ عَمَّارٍ[3] وَابنِ حَمَامَةٍ[4] وَجُلُّ صَحَابَةِ الرَّسُولِ بِيَثرِبِ

18. وَنَهجِ فَتًى أَسنَى، وَأَفضَلَ أُمَّةٍ بِنَصِّ نَبِيِّ اللهِ حِبِّ مُحَبَّبِ

19. وَمَذهَبِ فَارُوقٍ لِحَقٍّ وَبَاطِلٍ عَلَيهِم رِضَاءُ اللهِ وَأَحسَنُ مَطلَبِ[5]

20. فَمَن شَكَّ فِي هَذَا فَقَد خَابَ ظَنُّهُ وَأَصبَحَ صِفرَ الكَفِّ خَالِيَ مَذهَبِ

21. فَكَيفَ وَكَيفَ لاَ وَنَحنُ عَلَى الهُدَى نَدِينُ بِهِ فِي كُلِّ سَهلٍ وَمَصعَبِ

22. نَدِينُ بِأَنَّ اللهَ حَقٌّ حَقِيقَةً وَلَيسَ لَهُ مِثلٌ مُسَاوٍ كَمَشذَبِ[6]

---

1 – يبس في اليد.

2 – هو عبد الله بن إباض (ق1هـ/7م) تلميذ جابر بن زيد، نسب العرب إليه التسمية التي تشتهر بها فرقته اليوم للإباضية، وقد سبق التعريف به. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص5 وما بعدها.

3 – عمّار بن ياسر: من أعلام الصحابة قال فيه الرسول ﷺ: «صبرا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة».

4 – بلال بن حمامة: من أعلام الصحابة _رضي الله عنهم_، وهو أيضا بلال بن رباح حين يكنى لأمه يقال له كذلك.

5 – على هوامش النسخة المخطوطة شروحات كثيرة بخط برتقالي منها ما يصعب تفكيكه.

6 – المشذب: الطويل الحسن من كل شيء.

23. بِكُلِّ مَكَانٍ كَانَ بِالحِفظِ وَالحِمَى وَلَيسَ كَكَونِ الشَّيءِ فِي ظَهرِ مَثيَبِ[1]

24. هُوَ اللهُ رَبُّنَا قَدِيرٌ مُقَدِّرٌ عَلِيمٌ سَمِيعٌ مُبصِرٌ كُلَّ مَثلَبِ

25. مُرِيدٌ قَدِيمٌ ذُو حَيَاةٍ مُنَزَّهٌ عَنِ الكَيفِ وَالمَتَى وَحَدٍّ مُشَرعَبِ[2]

26. تَعَالَى[3] تَعَالَى[4] عَن قَرِينٍ مُعَادِلٍ وَعَن كُلِّ نُقصَانٍ مُحَاكٍ لِجُندُبِ[5]

27. تَقَدَّسَ عَن يَدٍ وَعَينٍ وَصُورَةٍ وَجَنبٍ وَسَاقٍ ثُمَّ جُزءٍ لُقُطرُبِ[6]

28. لَهُ المَثَلُ الأَعلَى لَهُ الأَمرُ وَالهُدَى لَهُ الخَلقُ وَالتَّدبِيرُ فِي كُلِّ مَذهَبِ

29. فَهَذَا اعتِقَادِي فِي إِلَهِي وَخَالِقِي مَمَاتِي وَمَحيَائِي بِصِدقٍ مُؤَرَّبِ[7]

30. نَدِينُ بِتَحرِيمِ المَعَاصِي جَمِيعِهَا صَغِيرًا كَبِيرًا فِي صَبَاحٍ وَمَغرِبِ[8]

31. بِتَحرِيمِ الحَرَامِ سِرًّا وَجَهرَةً وَبِتحلِيلِيَ الحَلاَلَ عِندَ التَّكَسُّبِ[9]

32. وَنَأمُرُ مَعرُوفًا وَنُنكِرُ مُنكَرًا وَنَأخُذُ حَقًّا مِن غَشُومٍ مُذَبذَبِ[10]

33. نُوَالِي ذَوِي الوَفَاءِ بِالدِّينِ كُلِّهِ وَنَبرَأُ مِن عَاصٍ مُصِرٍّ مُقَرتَبِ[11]

---

1 – أرض سَبِيكة، أو ما ارتفع منها.

2 – مطول في تحديد نهاية.

3 – تعالى: هنا بمعنى تسامى.

4 – تعالى: هنا بمعنى جدّه وعظمته...

5 – علم لرجل.

6 – تلميذ سيبويه لقّب به لكثرة سعيه إليه [كذا].

7 – محكم تام.

8 – إنّ جميع الشروحات السابقة من بداية القصيدة قد نقلت معظمها من على هوامش مخطوطة الشاعر، لأنني عندما عدت إلى مظانها من الكتب وأعلاها لسان العرب، لاحظت تساويها جميعها في العبارات، فقلت لاشك بأن الشيخ كان وبيده لسان العرب ينتقي منه ما شاء وينظم.

9 – طلب الرزق.

10 – متردّد.

11 – سيء الخلق.

34. نُقِيمُ حُدُودَ اللهِ فِـي كُـلِّ لَحظَـــةٍ عَلَى كُلِّ عَبدٍ ثُـمَّ حُـرٍّ مُهَـــذَّبِ

35. فَمَن مَاتَ مُصِرًّا عَلَى الذَّنبِ آبِـــيًا بِلاَ تَوبَةٍ يُـصلَى بِـذَاتِ التَلَهُّـــبِ

36. نُقِـرُّ بِمَـوتٍ ثُـمَّ بَعـثٍ وَبَعـدَهُ حِسَابٌ عِقَابٌ لِلجَهُـولِ المُكَـــذِّبِ

37. وَجَنَّـةُ خُلـدٍ لِلتَّـــقِيِّ المُطَهَّـــرِ يُلاَعِبُ حُورَ العَينِ فِيهَـا كَكَوكَـبِ

38. نُقِيمُ صَلاَةَ الفَـرضِ بَعـدَ شُـرُوطِهَا وَصَـومِيَ رَمَـضَانًا دِيَانَـةَ مَـذهَبِ

39. وَنُوتِي زَكَـاةَ المَالِ عِنـدَ وُجُوبِهَـا عَلَـى مُستَطِيعٍ حَجَّ بَيـتٍ وَيَثـرِبِ

40. وَمَسجِدُنَا بِـالعِلمِ وَالـذِّكرِ عَـامِرٌ لَدَى كُلِّ يَومٍ فِي صَبَاحٍ وَمَـغرِبِ

41. فَهَذَا اعتِقَادِي فِـي طَرِيـقِ مُحَمَّـدٍ أَبِي القَاسِمِ المَبعُوثِ بِأَفضَلِ مَـشعَبِ

42. نَبِيًّـا مُمَجَّـدًا كَرِيـــمًا مُعَظَّمًـا رَسُولاً مُـشَرَّفًا كَبَـدرٍ بِغَيـــهَبِ

43. عَلَـيهِ صَلاَةٌ بَعـدَ أَلـفِ تَحِيَّـــةٍ وَأَلفُ ثَـنَاءٍ مِـن إِلَهِـــي مُطَيَّـبِ

44. وَمِنِّي عَلَيـهِ بَعـدَ ذَاكَ مُطَفَّـــلاً[1] صَلاَةٌ وَتَسلِيمٌ مَـشُوبٌ بِـــزُرنُبِ[2]

وَلْيَكُن هَذَا آخِرِ مَا قَصَدتُهُ مِنَ المَكتُوبِ إِلَى هِيان بن ميان وَالحَمدُ للهِ الرَّحِيمِ الرَّحمن وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَولاَنَا مُحَمَّدٍ بن عبد الله الأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ. بتاريخ أوَاسط صَفَر من سَنة 1207هـ.(1794م)

انتهى الديوان بتوفيق الله وحمده.

1 – دخول من غير دعوة، والطَّفَل بالتحريك: بعد العصر إذا طَفَلت الشمسُ للغروب، والطَّفَل أيضاً: مَطَرٌ.
2 – الزُّرْنَبُ ضَرْبٌ من النَّباتِ طَيِّبُ الرَّائحة، وقيل الزُّرْنَبُ ضَرْبٌ من الطِّيب، وقيل هو شجر طَيِّبُ الرِّيح.

الخاتمة:

إلى هنا ينتهي عملي في جمع ودراسة ديوان الشيخ إبراهيم بن بحمان الثميني ـرحمه اللهـ، هذا العمل الذي أتمنى أن يكون قد أضاف جديدا إلى مكتبتنا الوطنية والعربية، وفتح أبوابًا جديدة للبحث والتنقيب في ماضي العلاقات الإنسانية المتنوعة، والتي تمثل في نظري أنبل عمل وأشرف مهمة، إذ التكامل والتواصل الحضاري للإنسان يفرضان عليه أن يضع أمامه أفقا يبني عليه مستقبله، وبناء هذا الأخير لا يتأتى جليًّا بأبعاده المختلفة والمتكاملة، إلا إذا عرف الإنسان من ماضيه هوية مجتمعه، واستطاع تحديد خصوصياته الحضارية التي استطاع بها الحفاظ على كيانه واستقراره في أنظمة حياتية تأكد أن البقاء لا يكون إلاّ للأصلح، ومتى فهم المسلم ذلك عرف أنه قد وجب عليه المحافظة على تراثه وترقيته، لأنه لم يعد ملكًا خاصا به فقط، يتصرف فيه كيف يشاء أو يتوهم أنه سينتهي بموته هو، كيف له ذلك وقد صار إرثًا يشترك فيه كل من يحيط به، حتى وإن لم يكونوا من خاصته، فللإسلام نصيبه منها لفضل الهداية والحق، وللعروبة نصيبها هي الأخرى في اللسان المبين، كما صار للإنسانية نصيبها أيضا من كل حضارة أعطت للبشرية دروسًا في التواصل البنَّاء.

لقد رأيت من خلال قراءتي لآثار الشيخ ابن بحمان المتنوعة، ومنها آثاره الشعرية، تنوّع مظاهر النّبوغ فيه، مما رسّخ جدوى جعل العلم في خدمة واقع الحياة، محتفيا بسير أسلافه ممن نبغوا في المعقول والمنقول، متحسِّرًا على واقعه المرير الذي شهد التخلف والخمول، فأراد بشعره استنهاض الهمم لعهد جديد يحيا بالعلم النافع لا غير، وكأني به واقف يردد قول الشاعر:

وهل إن كان حاضرنـا شقيًّـا نسُود بكـون ماضينـا سعيدا
فشـرُّ العـالمين ذوي خمـولٍ إذا فاخرتهم ذكـروا الجـدودا
وخير الناس ذو حسـب قديم أضاف لنفسه حسبًـا جديدا

كما أعطى من جهة أخرى شواهد ناصعة عن مزابي وجزائري تلك الفترة التي عاش شاعرنا وأرخ لها بقلمه، فقد نافح ودافع بقلمه البسيط عن جزائره من هيمنة

عساكر الترك التي لا حدَّ لها، ووقف لهم مدافعا عن كل شبر من ترابه الكريم الذي يرى فيه بطولات أجداده، ومنبت شبابه، وأحلام أبنائه، مُعتزا بإسلامه وبوطنيته مثل كل الوطنيين، غيورًا على دينه ومجتمعه، آثر الإخلاص لربه عن التزلف للدّايات وأصحاب السلطان، ولو شاء الجلوس إليهم لاشك أنه سيكون من خاصتهم ومقربيهم، فبقي بذلك قلمُ شاعرنا جزائريا محضًا نزيها ومنتقدا.

وفي مجال التأليف انبرى للكتابة دون قيد أو شرط فلم يكن للشّيخ إبراهيم طلبة يُملي عليهم، أوكتّابا يشتغلون بنسخ مخطوطاته رغم معاصرته للعديد منهم وازدهار حركة النّسخ في وقته بشكل كبير، إذ كتب الشّيخ كلّ كتبه بخطّه، ووقّعها بنفسه كذلك، إلاّ ما صار متداولا بعده بكثرة كُبرَدَته البديعة التي تدلُّ على ذيوع صيته في عصره ومِصره، وقد تجاوزت مؤلفاته ـ على ما وصلت إليه ـ أزيد من عشرين مؤلّفًا متنوعا، يعرض فيها شتى العلوم والفنون النثرية والشعرية.

لقد كانت هذا باختصار خلاصة لأهم ما يمكن الوقوف عليه في ديوان ابن بِحمان أو آثاره الشعرية، دون أن أنسى حجازيته البديعة في أدب الرحلة ثم بردته في مدح النبي محمد ﷺ وغيرها كثير، وقد حاولت من خلال دراستي إبراز بعض خصائصه الفنية المتنوعة، مثل المحافظة والتدبيج والتذييل، والتضمين والاقتباس، وقد مثلت لها في أثناء حديثي عن الخصائص الفنية، وهناك ما لم أمثل له وللقارئ المتذوق أن يلمسه كطول النفس والعاطفة والموسيقى.. وغيرها كثير.

لم يكن الشيخ ابن بِحمان ليتوفى بسنتين حتى قيَّض الله لبني يسجن ومزاب والجزائر والعالم الإسلامي علمًا آخر يخرج للوجود ويرى النور في بني يسجن، مدينة العلم والعلماء، يصبح بعد وفاة شاعرنا ابن بِحمان بسنوات، طودا آخر من أطواد مزاب والجزائر، حاملا لمشعل العلم والحق، يسير على خطى الشيخ ابن بِحمان في الموسوعية العلمية والتأليفية، ويبلغ صوته الآفاق، إنه قطب الأئمة الشيخ يوسف بن امحمد أطفيش ـ رحمه الله ـ الذي سار على خطى الأفضلي أبو زكرياء يحي بن صالح، وضياء الدين عبد العزيز الثميني، وشيخنا ابن بِحمان في محاربة الظلم والفساد، وأحيا العلم الذي كاد يندرس بموت العلماء الأعلام،

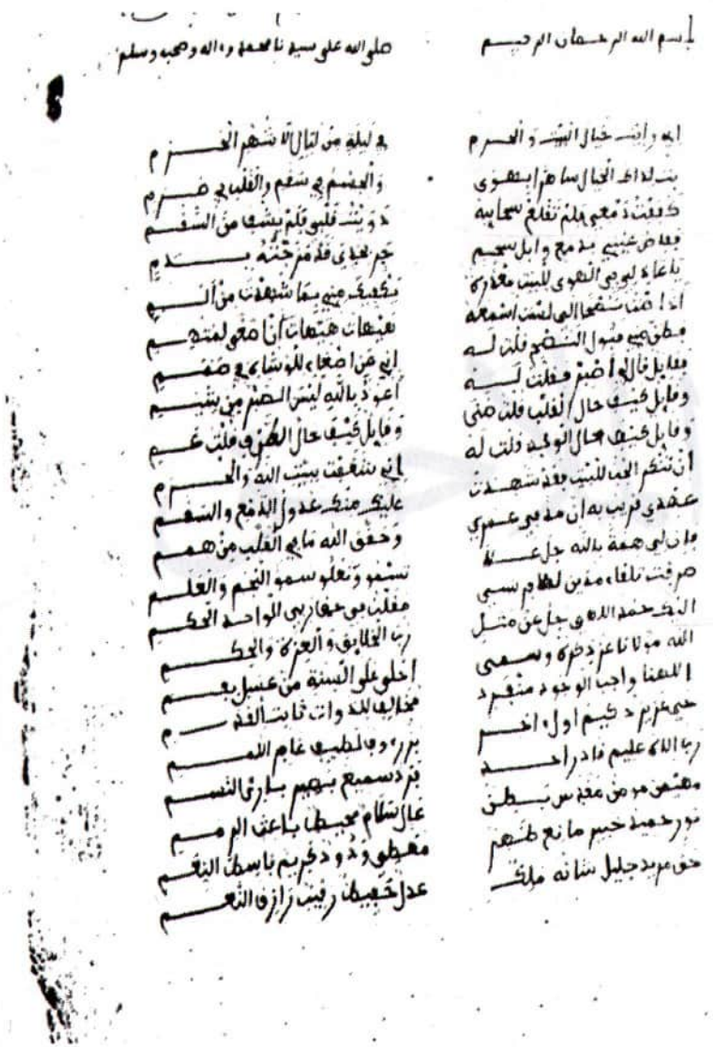
ودافع بقلمه الجليل عن دينه ووطنه من خلال مراسلاته وردوده المختلفة، وألّف في المعقول والمنقول ما عجز عنه مؤلفوا عصرنا الحاضر.

لقد وجب علينا نحن المسلمين مشرقا ومغربا، أن نقوي صلتنا بتراثنا وأمجادنا الغابرة، ومن هنا تأتي ضرورة نفض الغبار عن تراثنا المخطوط، بحفظه وتنظيمه، وفهرسته، والتعريف به من خلال دراسته والوقوف على كل ما كتب فيه، وتوجيه الأجيال للتمسك به ونحن نتجه للدخول في العولمة، حتى نفيد إيجابياتها ـ إن وجدت ـ ونتقي مضارها وسلبياتها التي تلقي بظلها الخطير على هويتنا الإسلامية والوطنية، ولا خوف على ثقافتنا الإسلامية في جميع الأحوال عندئذ، لأنها ثقافة كبرى في تاريخ البشرية تؤهلنا لأداء دور جديد في هذا التاريخ وصنع فكر إنساني جديد.

إن الاهتمام بالتراث الوطني هو حفاظ على الهوية الوطنية من الضياع والذوبان في هوية الآخرين أو هوية سوق العولمة التي لا تحترم الهويات القومية والوطنية ولا خصوصيات الشعوب، فارضة السيطرة العالمية للنظام الرأسمالي بحيث يصبح الاندماج المطلق فيها أو الانعزال المطلق عنها كلاهما انتحار حضاري.

إن التراث المخطوط الذي يحوي كنوز مؤلفات علمائنا السابقين وإبداعاتهم وعطاءاتهم الفكرية الخلاّقة في جميع مجالات العلوم والآداب والفنون لهو خير حافظ لنا من الذوبان في حضارة الآخرين، فعلينا إذن نفض غبار الزمن عنه وإعطائه من الرعاية والعناية ما يستحق، مدركين أن حماية التراث هو حفظ للذاكرة ونقل للتجارب الإنسانية الرائدة.

الملاحق



الورقة الأولى من قصيدة البردة، للشيخ إبراهيم بن بحمان المصعبي، وهي بخط يد صاحب الديوان ضمن مجموع مؤلفاته، وتقع في 87 و.



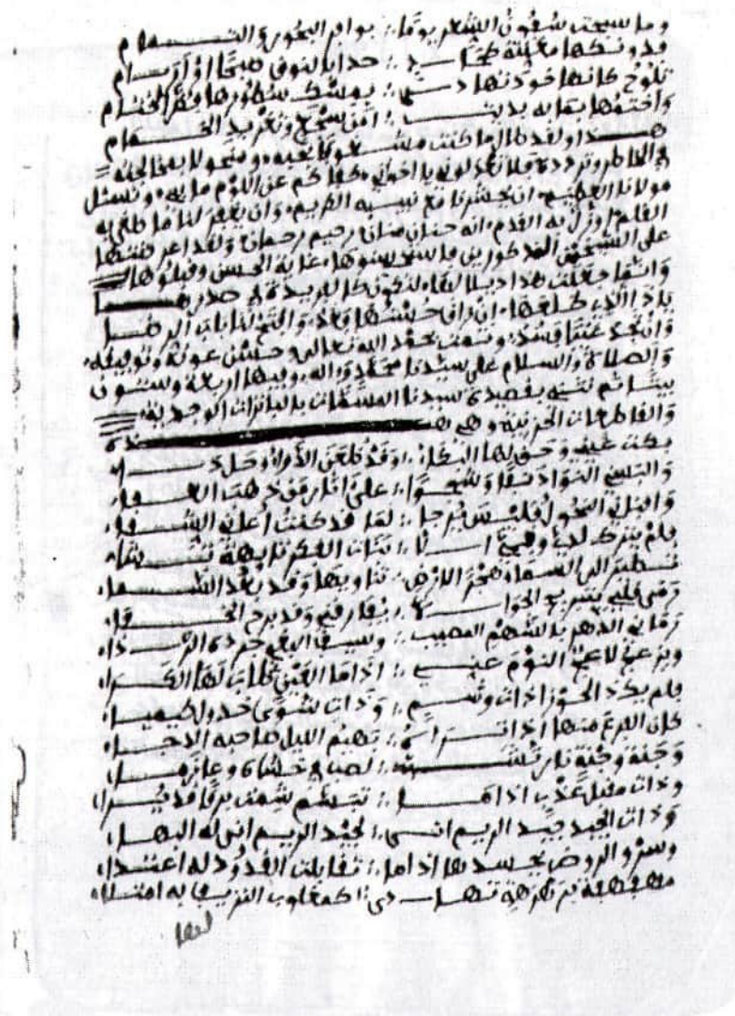
الورقة الأخيرة من قصيدة البردة، للشيخ ابن بحمان، وهي في 90 ظ.



الورقة الأولى من كتاب "مختصر المناسك ومهذب المسالك"،
للشيخ إبراهيم بن بِحمان، وهي بمكتبة القطب أطفيش ببني يسجن.



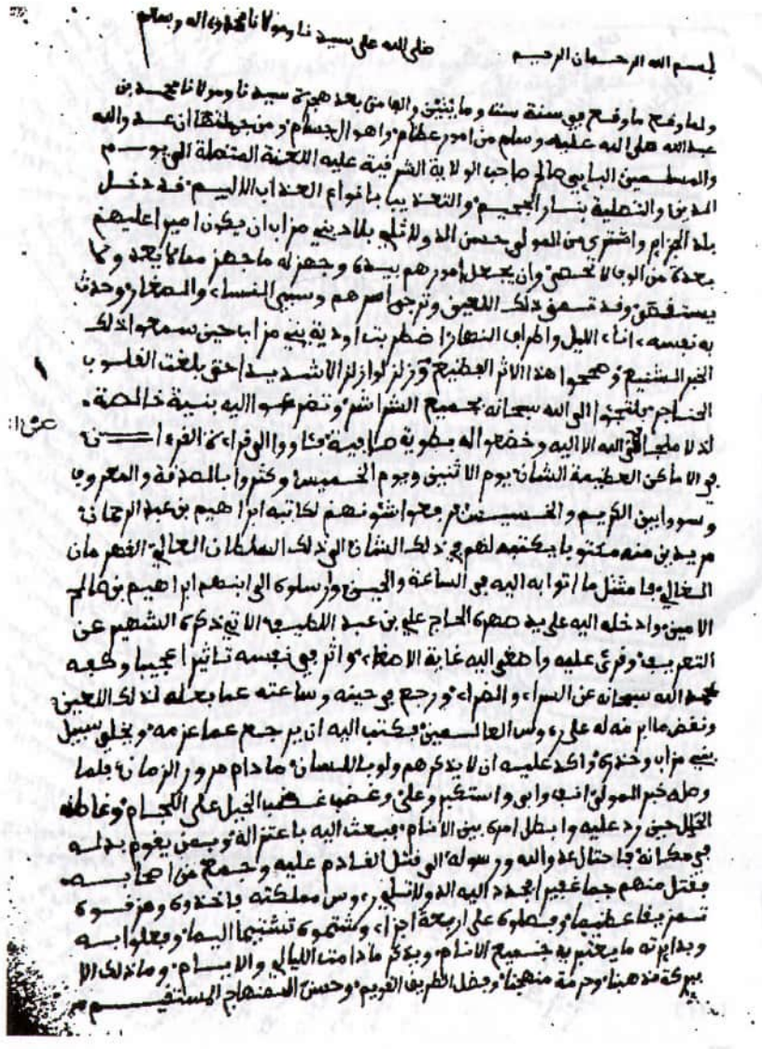
الورقة الأخيرة من كتاب مختصر المناسك ومهذب المسالك.



مطلع قصيدة "الباترات الوُجديَّة والقاطعات الحُزنيَّة"، للشيخ ابن بِحمان، المخطوطة بخط المؤلف، وهي بمكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي ببني يسجن.

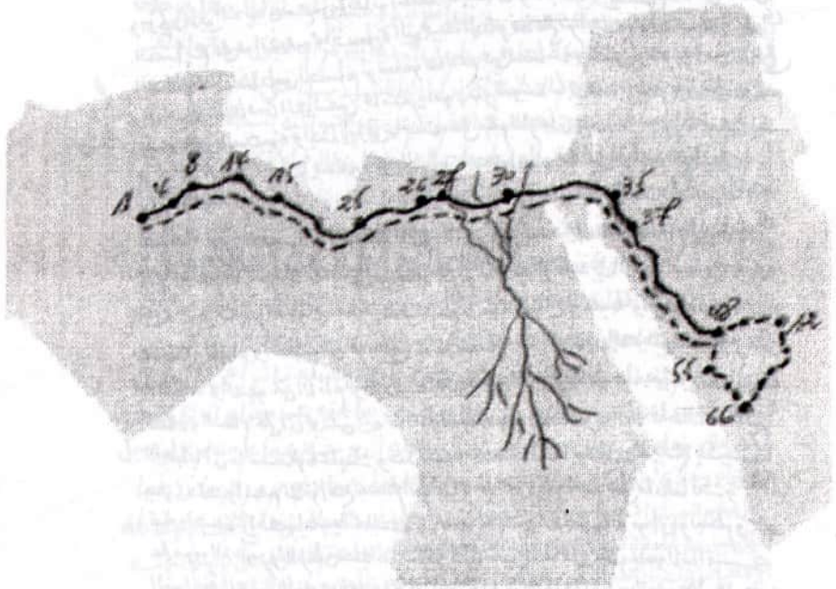


مطلع قصيدة "كشف الغم في مرثية الأم"، للشيخ ابن بِحمان، المخطوطة بخط المؤلف، وهي بمكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي ببني يسجن.



الديباجة التي تسبق رسالة الشيخ ابن بحمان إلى داي الجزائر حسن باشا الدولاتلي،
وفيها ملخص قصة صالح باي مع تجار قسنطينة من المسلمين المزابيين.
المخطوطة بخط المؤلف، وهي بمكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي ببني يسجن.

نص الرسالة الأولى من الشيخ ابن بحمان إلى داي الجزائر حسن باشا الدولاتلي،
وفيها الشكوى من بطش صالح باي على تجار قسنطينة من المسلمين المزابيين.
المخطوطة بخط المؤلف، وهي بمكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي ببني يسجن.



الشكل (———): يمثل المسلك الذي اتخذه المُصعبي في رحلته قاصدًا المشرق.

الشكل (-.-.-.-): يمثل مسلكه في أداء مناسك الحج والعمرة.

الشكل (- - - - -): يمثل مسلكه في رحلة العودة إلى وطنه.

المسلك الذي اتخذه المُصعبي قاصدًا المشرق على الخريطة (———):

1. بني يسجن
2. غرداية
3. مقام الشيخ حمو والحاج
4. الأغواط
5. براري (السهوب)
6. فج
7. واد خالد
8. بسكرة
9. الجريد
10. الزرائب
11. واد غسران
12. واد الجريد
13. حامة قابس
14. قابس
15. طرابلس
16. مهرة
17. عَرعَر
18. الزعفران
19. نعيم
20. الجواب
21. السلوك، 22. مفازة
23. واد التميم
24. أحذر
25. جرجوب
26. وادي عفون
27. برقة
28. كرداس
29. ميناء بولاق
30. طولون (طليون)
31. وكالة الجاموس
32. مصر (العاصمة)
33. نهر النيل
34. بركة الدرب
35. حمراء
36. ساحة عجرد
37. نابعة
38. واد التيه
39. النخيل
40. الزَّعلوك
41. سطح عقبة (الجبل)
42. رأس عقبة (الجبل)
43. قلعة بقاع عقبة
44. ظهر الحمار
45. أم العظام
46. أمغرة الرسول
47. عين قصب
48. أميلح
49. أبيار سلطان
50. زلم
51. إسطبل عنتر
52. بوش
53. حوراء
54. نبطا
55. ينبع
56. بندرا
57. عين زرقاء
58. بزوة
59. ربى
60. قديد
61. بركة الخليص
62. بركة ماء بعدها
63. عسفان
64. أبيار لشجر الدفلة
65. التنعيم، 66. البيت الحرام

* **الشكل (-.-.-.-): مسلكه في أداء مناسك الحجّ.**

1.ينبع
2.ذو الحليفة
3.يثرب
4.العقيق
5.بدر
6. البزواء
7.الجحفة
8.عسفان
9.مكة
10.عرفات(جبل)
11.مزدلفة(جُمَع)
12.واد المحسّر
13.منى
14.جدّة (الميناء)

* **الشكل(- - - - -): مسلك المُصعي عائـــداً إلى وطنه.**

1.جدّة
2.بحر القلزم البحر الأحمر
3.البجا
4.قوص
5.نفط
6.أخميم
7.أسيوط
8.أشمونين
9.نَمْبَسا
10.طَنبَدا
11.منية القائد
12.كرم شريك
13.بحيرة الإسكندرية
14.دير النّصارى
15.العُقَـــاب
16.لُبْنَة
17.رُمَّـــادة
18.شِماس
19.بئر ابن المكسر
20.تبارا
21.أَوْجلة
22.سَنْتِرية
23.قصر زلة (زويلة)
24.وُدّان
25.جبل الهاروج
26.تمزا (تمسا)
27.دَرَج
28.غَدَامِس
29.وَارِجْلان

الفهارس

الفهارس

فهرس الموضوعات 277
فهرس القبائل 280
فهرس الأعلام 281
فهرس الأماكن 288
فهرس الآيات القرآنية 295
فهرس الأحاديث النبوية 297
فهرس الاقتباسات الشعرية 298
فهرس المصادر المخطوطة 299
فهرس المصادر المطبوعة والمراجع 300
فهرس المقابلات والمراسلات 303

فهرس الموضوعات

1- فهرس التقديم لديوان ابن بحمان:

الموضوعات	الصفحة
- اختيار الموضوع.	05
- طريقتي في البحث.	08
- الرموز المستعملة ودلالتها الاصطلاحية.	12
- مدخل إلى جزائر القرن الثامن عشر الميلادي.	13
- مزاب خلال القرن الثامن عشر الميلادي.	15
- النهضة الفكرية في مزاب.	19
- جهود الشيخين "عمي يحي" و"ضياء الدين" في الإصلاح.	21
- الشاعر (نسبه ونشأته).	23
- أبناؤه.	25
- علاقته بمجتمعه.	26
- توليه المناصب.	27
- زملاؤه.	28
- مؤلفاته.	29
- تصحيح نسبة كتاب "مختصر المناسك ومهذب المسالك".	31
- وفاته.	34
- نظمه للديوان.	35
- الأغراض الشعرية في الديوان.	37
- أخلاقه.	38
- رحلة المُصعبي.	40
- تفاصيل الرحلة.	42
- قضية صالح باي.	52

- قصيدة البردة. 59
- بطاقة المخطوط. 61

أ- مؤلفات ابن بحمان المخطوطة بمكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي ، ببني يسجن. 62

ب- مخطوط خزانة الحاج محمد بن يوسف ببانو، ببني يسجن. 62

ج- قصائد الشيخ ابن بحمان المخطوطة بالخزانة العامة بغرداية. 68

د- قصائد الشيخ إبراهيم بن بحمان المخطوطة بمكتب قطب الأئمة ببني يسجن 69

- خصائص فنية في شعره. 71

2- فهرس ديوان ابن بحمان:

الموضوعات **الصفحة**

- قصيدة لوعة الاشتياق. 79
- قصيدة الباترات الوُجدية القاطعات الحُزنية. 87
- مدح الشيخ أبو يعقوب يوسف بن امحمد المُصعبي، الشهير بـــ "نزيل جربة". 91
- الكاشفة الهم الباترة الغم. 96
- كشف الغم في مرثية الأم. 103
- رسالة في مدح بعض أعيان القرارة. 111
- أخرى في أهل القرارة أيضا. 118
- قصيدة في شكوى الزمان والحال، وفي الشوق إلى الابن الغائب. 120
- قصيدة البردة. 126
- قصيدة في رثاء الشيخ أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي. 138
- في رثاء شيخه "ضياء الدين" عبد العزيز الثميني 143
- قصيدة أخرى في مدح سليمان بن ناصر الإسماعيلي العُماني. 147
- مدح سليمان بن ناصر العماني. 157
- في مدح بعض علماء بني يسجن 167
- رحلة المُصعبي. 176

- مدح واستعطاف حسن باشا الدولاتلي. 198
- مدح إبراهيم الشَّماخي. 200
- أخرى في مدح علي بن عياد الجربي. 201
- وله أيضا في مدح واستعطاف حسن باشا الدولاتلي. 202
- مدح الحاج بن أبي القاسم القراري الشهير بـــ " الشيخ بلحاج" 204
- رثاء الشيخ بابه بن محمد. 208
- حادثة صالح باي. 211
- توطـــئة. 211
- نص الرسالة. 213
- رسالة شكر وامتنان إلى الداي حسن باشا الدُّولاتلي على تفهمه وحسن تعامله. 220
- رسالة شكر وتقدير إلى الحاج علي بن عبد اللطيف. 224
- قصيدة أخرى في مدح الحاج علي بن عبد اللطيف. 229
- رسالة إلى الحسن باشا الدُّولاتلي في شأن قبيلة أولاد صالح. 231
- قصيدة في ابنه محمد حين غادر مزاب إلى منفاه. 236
- وفي رثاء ابنه حين نعي إليه وفاته. 240
- وفي ابنه أيضا، مشتاقا إليه وكان حينها بمنفاه في البليدة. 242
- قصيدة إلى ابنه وقد استقر بمنفاه، ولعلها كانت الأولى إليه. 244
- قصيدة في نخيل أهل العطف. 245
- الرد على هيان بن ميان. 249
- الخاتمة. 259
- الملاحق. 262

فهرس القبائل

القبيلة	الصفحة
- العثمانيين (الأتراك).	9، 15، 16، 55، 56، 186، 216.
- الدايات (الحُكام العثمانيون في الجزائر).	9، 13، 14.
- الكراغلة.	13.
- الفرنسيون (الاحتلال).	13، 16.
- بنو مزاب (بنو مصعب).	10، 13، 15، 16، 17، 19، 21، 23، 24، 34، 35، 45، 52، 54، 55، 56، 58، 66، 67، 89، 103، 111، 115، 123، 163، 165، 168، 169، 197، 199، 216، 219، 220، 224، 226، 231، 232، 245.
- الأعراب (أحلاف الصحراء).	16، 17، 111، 169، 182، 190.
- الأعراش (المخاليف، الأرباع، أولاد نايل)	16.
- الأسبان.	94، 198، 199.
- العزابة.	18، 20، 22، 26، 28، 59، 61، 112، 137، 161، 162، 163.
- الإبـــاضية.	8، 18، 20، 21، 24، 27، 34، 36، 80، 84، 91، 104، 112، 119، 127، 129، 136، 148، 149، 150، 162، 163، 164، 177، 178، 205، 208، 213، 245، 251.
- الركب الفلالي.	43، 45، 190.
- بني جلاب.	17.
- آل فضل (العشيرة).	28، 162.
- آل بارون (العائلة).	42، 185.
- أولاد صالح (القبيلة).	67، 169، 231، 232، 235.

- الشعانبة.	116.
- البَـــلاَت (العشيرة).	115.
- أولاد عكاز (القبيلة).	182.
- أولاد صولة (القبيلة).	182.
- بني جلال (القبيلة).	182.

فهرس الأعلام

الأعلام	الصفحات
_أ_	
- إبراهيم بن بحمان "صاحب الديوان"	تكرر اسمه في كل الديوان تقريبا.
- إبراهيم الشماخي.	65، 200.
- إبراهيم المصعبي.	29، 31، 34، 165.
- إبراهيم بن اسليمان.	29، 164.
- إبراهيم بن صالح الأمين (أمين المزابيين).	52، 212.
- إبراهيم بيك.	49، 177، 195.
- إبراهيم طلاي.	30، 231.
- أبرهة الأشرم.	132.
- أبناء الشيخ يوسف المصعبي، "نزيل جربة".	27، 62.
- أبو القاسم سعد الله "المؤرخ".	14، 39، 56.
- أبو بكر الصديق (ﷺ).	48، 194، 252.
- أبو بكر بن داود بن يوسف.	29، 164.
- أبو بكر بن محمد.	112.
- أبو بكر بن يوسف.	28، 75، 163، 167، 170.
- أبو ذر بن جنادة.	252.
- أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي، الشهير بـــ " الشيخ عمي يحي ".	10، 19، 63، 73، 81، 118، 138، 140، 170، 260.

- أبو عيسى بن إبراهيم. 29، 164.
- أبو مهدي عيسى بن اسماعيل. 19، 30.
- أُبي بن كعب (ﷺ). 252.
- أحسن النويري. 178، 179، 187.
- أحمد بن أبي بكر. 181.
- أحمد بن التومي بن ابراهيم. 45، 163.
- أحمد بن حمو. 249.
- أحمد بن قاسم. 29، 164.
- أحمد توفيق المدني. 13، 14، 54، 198، 213، 215.
- أمُّ الشيخ ابن بحمان "صاحب الديوان". 24، 310، 610.
- أم كلثوم (ﷺا). 135.
- أمرد بيك. 43، 177، 178، 187.
- ابن أدبداب. 114.
- أبي عمار عبد الكافي. 46.

ـب ـ

- بابه (أو- إبراهيم) بن احمد الغرداوي. 20، 66، 75، 162، 169، 208.
- بابه بن الحاج. 28، 112.
- بابه بن باسعيد. 115.
- باعمور بن أحمد بن ابراهيم. 29، 163.
- باعبد الرحمن الكرثي. 18.
- الشيخ بحيو موسى العطفاوي. 17، 94، 199، 217.
- بكير بن الحاج محمد بن بكير (أمين المزابيين). 17.
- بلال بن رباح (ﷺ). 256.
- البوصيري. 36، 60، 126، 136، 137.
- الشيخ بلحاج بن كاسي القراري، الشهير بـــ " الشيخ بلحاج القراري " 23، 29، 88، 164.

ـج ـ

- جابر بن زيد، أبو الشعثاء (ﷺ). 252.
- جعفر بن أبي طالب (ﷺ). 252.
- جويرية (ﷺا). 134.
- الجيطالي، إسماعيل بن موسى. 24، 30، 32.

ـد ـ

- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد. 8، 19، 46، 195.
- دُونْ قَارْصَيَـــا (المحارب الأسباني). 17.
- ديدن بن حجر. 83.

ـهـــ ـ

- هند (ﷺ). 83، 134، 236.
- هيان بن ميان. 74، 249، 258.

ـو ـ

- الوارجلاني، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم. 8، 21، 31، 78، 46، 85، 107، 110، 116، 176.

ـز ـ

- زهير بن سلمى. 87، 107، 155.
- زيد بن حارثة (ﷺ). 252.
- زينب (ﷺ). 120، 121، 122، 134، 235، 236.

ـح ـ

- الحاج اسعيد يوسف "المؤرخ". 23، 89، 123، 163، 166، 168، 182، 199، 206، 212، 215، 233، 245.
- الحاج سليمان بكاي (قيم مكتبة الاستقامة). 10، 22، 124، 168، 205، 208، 247. (ينظر الهوامش)

- الحاج علي بن عبد اللطيف (وكيل الحرج). 35، 52، 54، 55، 57، 67، 212، 224، 225، 229.
- الحاج محمد بن بالة. 112.
- الحاج محمد سوفغ ألم. 206.
- حذيفة بن اليمان (ﷺ). 252.
- حسن باشا الدولاتلي (داي الجزائر). 26، 31، 35، 56، 57، 65، 66، 73، 198، 202، 211، 212، 220، 270
- حسين بوحنك (الوزناجي). 57.
- حفصة (ﷺ). 134.
- حمزة بن عبد المطلب (ﷺ). 252.
- حمو بن اسماعيل. 115.
- حمو بن باحمد بكلي. 45.
- حمو عيسى النوري "المؤرخ". في الكثير من الهوامش.
- حمو والحاج الغرداوي (ضريحه). 20، 28، 75، 163، 169، 181، 208، 273.

ـي

- يحي بن إبراهيم بن احمد. 29، 163.
- يحي بن عيسى بن إبراهيم بن يحي. 29، 164.
- يحي بن عيسى بوراس "الباحث". 10، 32، 62، 150، 162، 244.
- يوسف بن احمد المصعبي،"نزيل جربة". 27، 62، 91، 93، 167، 173.
- يوسف بن حمو بن عدون، أبو يعقوب. 20، 27، 34، 162.
- يوسف بن عمرو. 184.
- يوسف بن محمد بن سعيد. 150.

ـك

- كسرى. 252.

ـم

- مبارك الميلي. 13، 57، 213.
- محمد بن صالح الثميني. 21.
- محمد قاسم ناصر بوحجام، الدكتور. 6.
- محمد رسول الله ﷺ. 9، 52، 60، 73، 79، 86، 87، 90، 91، 102، 104، 105، 111، 117، 120، 121، 126، 130، 134، 136، 137، 166، 176، وهو في معظم صفحات الديوان.
- محمد عثمان باشا. 13، 14، 15، 198، 211، 213.
- محمد، ابن الشيخ ابن بحمان. 25
- معاذ بن جبل (ﷺ). 252.
- امحمد بن يوسف. 62، 144، 167، 169، 176.
- موسى بن اسماعيل. 29، 164.
- موسى بن يحي بن صالح الأفضلي. 167، 162، 170، 173.
- موسى بن يعقوب بن موسى. 162.
- مية. 83.
- ميمونة (ﷺا). 134.
- محمد بن قاسم، الإمام. 164.

ـس

- سعيد بن لبابه. 115.
- سالم بن يعقوب. 94، 169.
- سعيد بن قاسم بن زكرياء. 28، 162.
- سعيد بن قاسم. 49، 196.
- سلمان (مسؤول وكالة الجاموس) 43.
- سلمان الفارسي (ﷺ). 134، 252.

- سلمان بن محمد. 115.
- سليمان بن أبي بكر. 112.
- سليمان بن حمو. 115.
- سليمان بن ناصر العُماني. 76، 147، 149، 154، 157، 160.
- سليمان بن يوسف. 29، 164.
- سيدي بوحجر (سيدي ابن لحلاوي). 56.

ـع ـ

- عائشة (ﷺ). 252.
- العباس بن عبد المطلب (ﷺ). 252.
- عبد الرحمان الجيلالي. 54، 57.
- عبد الرحمان بن رستم. 252.
- عبد العزيز بن الشيخ ابن بحمان. 24، 87.
- الشيخ إبراهيم بن عبد العزيز الشيبي، الشهير بـ "ضياء الدين". 6، 10، 20، 24، 27، 28، 63، 73، 80، 86، 118، 145، 171، 181، 260.
- عبد العزيز بن صالح بن احمد 28، 163.
- عبد الله بن محمد بن الشيخ ابن بحمان. 94.
- عبد الله بن مسعود (ﷺ). 252.
- عبد الله بن وهب الراسبي (ﷺ). 104، 149، 252.
- عبد الله بن يحي (طالب الحق). 104.
- عثمان الكعّاك. 14، 16، 211، 212.
- عدون جهلان. 129، 205، 251، 252.
- علقمة. 83.
- علي بن أبي طالب (ﷺ). 31.
- علي بن عمر بن عياد الجربي. 44، 51، 65، 188، 201.
- عمار بن ياسر (ﷺ). 252.

- عمر بن الخطاب (ﷺ). 31، 48، 194، 216.
- عمر بن بوشن. 115.
- عمر بن صالح. 28، 163.
- عمر بن ناصر. 115.
- عميرة بن حمو 115.
- عميرة بن كرين. 115.
- عيسى بن أحمد. 48، 194.
- عيسى بن سليمان. 48، 195.
- عمي سعيد الجربي. 18، 56.

ـف ـ

- فاطمة الزهراء (ﷺا). 46، 192.

ـص ـ

- صالح ابن الشيخ ابن بحمان. 90.
- صالح باي. 10، 17، 26، 31، 52، 54، 55، 211، 213، 215، 221، 233، 270.
- صالح بن امحمد بن اسليمان. 28.
- صالح بن يحمد بن سليمان. 162.
- صالح وابنه قاسم (من آل بارون). 185.
- صفية بنت حُيي (ﷺ). 134.

ـق ـ

- قطب الأئمة (الشيخ أطفيّش). 21، 124، 127، 144، 163، 169، 176، 178، 244، 249، 260، 266.

ـر ـ

- رملة بنت صخر (ﷺ). 134.
- رقية (ﷺ). 134.

ـ خ ـ

- خديجة (ﷺ). 46، 134، 135، 192.
- خير الدين بربروس. 16، 199، 215.

ـ ن ـ

- ناصر الدين سعيدوني "المؤرخ". 40، 41.

فهرس الأماكن

الأمـــاكن	الصفحة
ـ أ ـ	
- الأغواط.	17، 182، 273.
- أحذر.	43، 273.
- أم العظام.	44، 189، 273.
- أبيار سلطان.	44، 189، 273.
- أمغرة الرسول.	44، 189، 273.
- أميلح.	44، 49، 189، 196، 273.
- إصطبل عنترة.	44، 189.
- أحد.	134.
- أطرفاوي.	186.
ـ ب ـ	
- بني يسجن.	7، 10، 15، 20، 21، 23، 26، 28، 34، 61، 62، 63، 69، 75، 137، 149، 162، 168، 174، 196، 205، 206، 260، 266، 268، 273.
- بنورة.	10، 29، 163.
- بريان.	29، 115، 182.
- البليدة.	22، 25، 26، 63، 68، 72، 90، 105، 123، 236، 238، 242.

- بسكرة. 42، 89، 183، 190، 273.
- البيت الحرام. 32، 42، 46، 47، 60، 61، 126، 176، 178، 181، 191، 253، 273.
- برقة. 43، 185، 186، 273.
- بزوة. 45، 191، 273.
- بولاق (الميناء). 43، 186، 273.
- بركة الدرب. 44، 273.
- بحرالقلزم (البحر الأحمر). 44، 188، 274.
- بوش. 44، 190، 273.
- بندرا. 45، 190، 273.
- بركة الخليص. 46، 191، 273.
- البقيع (الروضة). 48.
- بدر. 133، 201، 274.

ـ ج ـ

- الجزائر (الجامعة). 6، 7.
- الجزائر (المدينة). 9، 10، 13، 14، 15، 16، 26، 35، 38، 41، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 57، 85، 93، 110، 116، 148، 163، 169، 190، 199، 202، 211، 218، 219، 222، 226، 234، 238، 270.
- جربة (الجزيرة). 17، 19، 42، 45، 93، 94، 119.
- جبال الشفة. 67، 231.
- جرجوب. 43، 186، 273.
- جبل عقبة. 44، 273.
- جزيرة العرب. 44.
- جبال عمور. 17، 45.

- جامع الأزهر. 20.
- الجريد. 42، 183، 273.
- الجواب. 43.

ـ و ـ

- واد الجريد. 42، 183، 273.
- واد التميم. 43، 186، 273.
- واد عفون. 43، 273.
- واد التيه. 44، 188، 273.
- وكالة الجاموس. 20، 43، 49، 178، 197، 273.
- وارجلان. 20، 21، 116، 274.
- واد أريغ. 20.
- واد خالد. 42، 183، 273.
- واد غسران. 42، 183، 273.

ـ ز ـ

- الزعفران. 43، 185، 273.
- الزعلوك. 44، 188، 273.
- زمزم. 46، 47، 191.
- الزرائب. 42، 183، 273.
- زلم. 44، 189، 273.
- زوارة. 184.

ـ ح ـ

- الحجاز. 41، 51، 67.
- حنين. 133.
- الحديبية. 134.
- حامة قابس. 42، 183، 273.
- حمراء. 44، 188، 220، 273.

- حوراء. 45، 190، 273.
- الحجر الأسود. 47، 194.
- حامة الجريد. 183.

ـ ط ـ

- طرابلس. 42، 149، 184، 185، 273.
- طولون. 43، 49، 178، 186، 273.

ـ ي ـ

- اليمن. 104، 132.
- ينبع. 45، 273، 274.
- يثرب. 49، 115، 117، 194، 196، 256، 258، 274.

ـ ك ـ

- كرداس. 43، 186، 273.
- كدية الصابون. 16.
- الكعبة. 46، 47، 132، 191، 193.
- كاف الدخان. 45.

ـ ل ـ

- ليبيا. 51، 119، 148، 184، 185.
- ليفيي (قُرب حسين داي). 17.

ـ م ـ

- مقبرة الشيخ عمي سعيد. 18.
- مصر. 19، 20، 41، 43، 44، 48، 50، 60، 67، 91، 185، 186، 190، 196، 197، 201، 273.
- مصراته. 185.
- مستر. 178، 187.

- مرمى الجمرات. 191.
- المدينة المنورة. 194.
- مكة. 33، 133، 189، 192، 274.
- مقام الشيخ حمو والحاج. 42، 273.
- منى. 46، 192، 274.
- المسجد الحرام. 47.
- مقام إبراهيم عليه السلام. 47، 193.
- مجلس الشيخ عمي سعيد الجربي. 26، 28، 56، 60.
- مزاب. 6، 7، 9، 15، 18، 19، 20، 21، 23، 26، 28، 30، 35، 41، 45، 48، 49، 54، 55، 56، 60، 67، 72، 75، 89، 91، 105، 115، 119، 141، 147، 160، 163، 164، 169، 174، 182، 198، 217، 218، 225، 232، 247، 260..
- مؤسسة الشيخ عمي سعيد (غرداية). 23، 61، 120، 162، 245.
- مكتبة الشيخ حاج صالح لعلي (بني يسجن). 23، 61، 62، 63، 205، 270.
- مكتبة قطب الأئمة الشيخ أطفيش (بني يسجن). 33، 61، 266.
- مكتبة الإستقامة (بني يسجن). 10، 21، 22، 23، 61، 124، 137، 168، 174، 205.
- مكتبة دار إروان (تجنينت) العطف. 34.
- مُليكة. 17، 26، 91، 116، 163، 182.

ـ ن ـ

- نفوسة. 119، 147، 149، 169، 184، 200.
- نهر النيل. 43، 186، 273.
- نابعة. 44، 273.
- نبطا. 45، 190، 273.
- نعيم. 43، 190، 273.

ـ س ـ

- السلوك. 43، 185
- ساحة عجرد. 44، 273
- سوق (بمكة). 46، 192
- سباو (المتيجة بالجزائر). 57.
- ساوة (البحيرة). 191

ـ ع ـ

- العطف (تجنينت). 29، 37، 45، 64، 68، 139، 164، 182، 206.
- عمان. 22، 24، 60، 98، 104، 119، 148، 152، 178، 206، 215، 237،
- العراق. 104، 236، 237.
- عين الشبيكة. 42.
- عرعر. 43، 100، 273.
- عين قصب. 44، 189، 273.
- عين زرقاء. 45، 190، 273.
- عين ربط (الجزائر). 55
- عسفان. 46، 191، 273.
- عرفات. 46، 192، 274.

ـ ص ـ

- الصفا. 47، 194.
- صفرى. 48، 195.

ـ ق ـ

- القسطنطينية. 13
- قسنطينة (الولاية الشرقية). 15، 26، 31، 54، 55، 211، 213، 220، 231، 270.

- القرارة. 23، 26، 29، 42، 48، 49، 62، 76، 89، 111، 119، 129، 163، 182، 195، 196، 205.
- قاع بزوة. 45، 191، 273.
- قديد. 45، 191، 273.
- قبر خديجة (ﷺ). 46، 192.
- قصر الداي (الجزائر). 55
- قابس. 42، 150، 183، 191، 273.

ـ ر ـ

- روضة أبي مهدي عيسى (مليكة). 19
- رُبى (عين). 45، 191، 226، 229، 273.
- الركن اليماني. 47، 194.

ـ ت ـ

- تونس. 14، 51، 44، 45، 91، 94، 119، 148، 169، 178، 183، 191، 211.
- التنعيم. 46.

ـ خ ـ

- الخندق. 134.
- خيبر. 134.

ـ ظ ـ

- ظهر الحمار. 44، 189، 273.

ـ غ ـ

- غرداية. 17، 26، 42، 61، 68، 75، 110، 120، 139، 162، 169، 170، 181، 206، 209، 245، 273.
- غسران. 42.
- الغيشة (بجبال عمور). 45.

ـ د ـ

- دمّد. 182.

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــات القرآنية	الصفحة
- ﴿وأن الفضل بيد الله يوتيه من يشاء..... ﴾ الحديد. 29	81
- ﴿.. فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ..... ﴾ ص. 22	97
- ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم..... ﴾ النور. 24	107
- ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا..... ﴾ مريم. 03	108
- ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل..... ﴾ الأعراف. 179	109
- ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم..... ﴾ البقرة. 255	129
- ﴿وفي الأرض قطع متجاورات..... ﴾ الرعد. 04	130
- ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله..... ﴾ التوبة. 40	135
- ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع..... ﴾ السجدة. 16	135
- ﴿ إنا أعطيناك الكوثر..... ﴾ الكوثر. 01	136
- ﴿ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا..... ﴾ الإنسان. 17، 18	144
- ﴿ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون... ﴾ المطففين. 04	138
- ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله.... ﴾ يوسف. 86	139
- ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان..... ﴾ النحل. 90	148
- ﴿أولئك حزب الله..... ﴾ المجادلة. 22	153
- ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف..... ﴾ يوسف. 10	158
- ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.... ﴾ البقرة. 256	165
- ﴿فهو في عيشة راضية في جنة عالية..... ﴾ الحاقة. 21 ـ 22	165
- ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان.... ﴾ يوسف. 43	165
- ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين..... ﴾ الأعراف. 54	167
- ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة..... ﴾ النور. 39	167
- ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم.... ﴾ نوح. 07	168
- ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة..... ﴾ الحديد. 27	168

- ﴿قال نوح رب إنهم عصوني..... ﴾ نوح. 21 — 169
- ﴿فكأي من قرية أهلكناها وهي ظالمة.... ﴾ الحج. 45 — 170
- ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ... ﴾ آل عمران. 118 — 178
- ﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم... ﴾ طه. 78 — 179
- ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره.... ﴾ البقرة. 236 — 187
- ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات..... ﴾ فاطر. 12 — 189
- ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم..... ﴾ الحج. 29 — 191
- ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم..... ﴾ الأحزاب. 12 — 211
- ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا..... ﴾ التوبة. 118 — 212، 233
- ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا..... ﴾ المائدة. 56 — 215
- ﴿ إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها..... ﴾ المائدة. 58 — 218
- ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة..... ﴾ يوسف. 20 — 217
- ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان..... ﴾ النحل. 90 — 218
- ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان..... ﴾ الرحمان. 60 — 223
- ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب.... ﴾ الصافات. 06 — 231
- ﴿للذين أخرجوا من ديارهم بغير حق.... ﴾ الحج. 40 — 231
- ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم... ﴾ التوبة. 108 — 231
- ﴿ومزاجه من تسنيم ..... ﴾ المطففين. 27 — 232
- ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها.... ﴾ هود. 86 — 233
- ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون..... ﴾ الفرقان. 44 — 233
- ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان.... ﴾ الرحمان. 56 — 240
- ﴿قال رب إني وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيبا.... ﴾ مريم. 4 — 242
- ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله..... ﴾ الفتح. 10 — 243
- ﴿إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.... ﴾ المجادلة. 19 — 246
- ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ الحجر. 74 — 247
- ﴿إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب.... ﴾ آل عمران. 187 — 247

- ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق.... ﴾ التوبة. 33 — 249
- ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين.... ﴾ القلم. 10 — 249
- ﴿ ويل لكل همزة لمزة..... ﴾ الهمزة. 01 — 250 ،75
- ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم... ﴾ آل عمران. 02 — 251
- ﴿ هو الحي لا إله هو.... ﴾ غافر. 65 — 251

فهرس الأحاديث النبوية

الأحاديث النبوية	السند	الصفحة
- ﴿ إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ.... ﴾ .	صحيح مسلم	172
- ﴿إن أمتي لا تجتمع على الضلالة.... ﴾ عن أنس بن مالك.	سنن ابن ماجه	123
- ﴿ من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم فأعطوه... ﴾ .	مسند أحمد	223
- ﴿ إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر.... ﴾ .	سنن ابن ماجه	230
- ﴿ الظلم ظلمات يوم القيامة.... ﴾.	/	246
- ﴿ أكرموا عمتكم النخلة.... ﴾.	/	246

فهرس الإقتباسات الشعرية

الأبيات الشعرية	الشاعر	الصفحة
– تحمل أهلها منها فبانوا على آثار من ذهب العفاء.	زهير	87
– لساني صارم لاعيب فيه وبحري لاتكدره الدلاء.	حسان بن ثابت	88
– ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل.	امرؤ القيس	96
– بلاد عريضة وأرض أريضة مدافع ماء في فضاء عريض.	امرؤ القيس	98
– ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب.	النابغة الذبياني	109
– رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا نبت البقل.	زهير	107، 155
– فدونكموها مثل عقد منظم، من الدر والياقوت صافي الجواهر.	الوارجلاني	110
– وأنشدها بكرا إذا ما تناشدت تصيخ لها الأسماع من كل شاعر.	الوارجلاني	116
– هم زهرة الدنيا وبهجة أهلها وسادة أهل الغرب باد وحاضر.	الوارجلاني	116
– سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا له حجبات مشرفات على الفال	امرؤ القيس	117
– مسح إذا ما السابحات على الوني أثرن الغبار بالكديد المركل.	امرؤ القيس	117
– له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل.	امرؤ القيس	117
– فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد.	طرفة بن العبد	120
– وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف الممدد.	طرفة بن العبد	121
– أولادنا كالجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البيِّن الفقد	ابن الرومي	123
– طويل النجاد رفيع العما د، ساد عشيرته أمردا.	الخنساء	153
– ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه	المتنبي	243
– كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليل تهاوى كواكبه.	بشار بن برد	76

فهرس المصادر المخطوطة

– مجموع مؤلفات الشيخ إبراهيم بن بحمان، مخ، بمكتبة الحاج صالح لعلي ببني يسجن، مج3، وبخزانة الشّيخ الحاج محمد ببانو رقم:233ب.

– قصيدتين مخطوطتين للشيخ إبراهيم بن بحمان، بالخزانة العامة بغرداية، رقمها في الفهرس:621، وفي الخزانة د. غ130.

– القصيدة الحجازية، الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني (500–570هـ).
عدة نسخ مخطوطة، منها نسختان بدار إروان، العطف، غرداية، الجزائر.

– دفتر صغير لعائلة الثميني، به تقييد مفصل عن نسب الشيخ الحاج إبراهيم بن بحمان. بحوزة الحاج اسليمان بكاي (بمكتبة الإستقامة) ببني يسجن، غرداية، الجزائر.

– بيان التواريخ التي علمت بها في زماني، الشيخ يوسف بن حمو بن عدون اليسجني، نسخة مصورة بحوزة الحاج اسليمان بكاي (قيم مكتبة الإستقامة) ببني يسجن.

– مختصر المناسك ومهذب المسالك، الشيخ إبراهيم بن بحمان. مخ، بمكتبة قطب الأئمّة ببني يسجن، غرداية، ومنه نسختان متأخرتان بدار إروان بالعطف، غرداية.

– الدرة الثمينية على المنظومة الميمية، الشيخ إبراهيم بن بحمان. مخ، (وهو شرح لقصيدة البردة) بمكتبة الإستقامة، ببني يسجن. غرداية، الجزائر.

– مجموع مؤلفات الشيخ إبراهيم بن بحمان، مخ، بمكتبة الإستقامة، ببني يسجن، غرداية، الجزائر.

فهرس المصادر المطبوعة والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، دار الفكر، بيروت لبنان، ط4، 1989.
- لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت. ط 6، 1998.
- معجم البلدان، أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي. دار إحياء التراث، بيروت. ط 4، 1992.
- الأعلام، خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت. ط 10، 1995.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث، القاهرة، ط1، 1996.
- معجم أعلام الإباضية، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية غرداية، 4 أجزاء، ط1، 1999.
- طبقات المشائخ بالمغرب، أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، تح: إبراهيم طلاي، ط1، 1970، مطبعة دار البعث، قسنطينة، جزئين.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986.
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986.
- ديوان امرؤ القيس، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986.
- ديوان الخنســـاء، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986.
- تحقيق النصوص ونشرها، د. محمد عبد السلام هارون. نشر مكتبة السنة، القاهرة، مصر، ط5، 1994.
- منهج تحقيق النصوص ونشرها، د. نوري حمودي القيسي، ود. سامي مكي العاني. مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1975.
- منهج البحث وتحقيق النصوص، د. يحي وهيب الجبوري. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993.
- من التراث التاريخي والجغرافي الغرب الإسلامي، د. ناصر الدين سعيدوني. دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999.

- الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، عزيز سامح التر، تر: محمود علي عامر. دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1989.
- تاريخ الجزائر الثقافي، د. أبو القاسم سعد الله. ج1 (1500-1830م)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.
- عمرو النامي مسيرة عطاء في درب الخير، سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني. سلسلة: من أفذاذ العصر01، بحث مرقون (معد للطباعة)، سلطنة عمان، 2005.
- اتفاقيات المجالس العامة لمزاب (1405-1928م)، تقديم بعمارة عيسى. دار الشهاب، باتنة، ط1، 1990.
- الإباضية في موكب التاريخ، الشيخ علي يحي معمر. الحلقة الرابعة: الإباضية بالجزائر، مطبعة الدعوة الإسلامية، مصر، ط1، 1979.
- تاريخ بني مزاب، الحاج سعيد يوسف، دراسة اجتماعية اقتصادية وسياسية. المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط1، 1992.
- دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، حمو بن محمد عيسى النوري. 4 أجزاء، مطبعة دار البعث، قسنطينة، ط2، 2002.
- موجز التاريخ العام للجزائر، منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، عثمان الكعّاك، مطبعة العرب بتونس، 1344هـ.
- محمد عثمان باشا، وخلاصة مفصلة عن تاريخ الجزائر في العصر التركي، أحمد توفيق المدني. المطبعة العربية بالجزائر، نشر المكتبة المصرية بالجزائر، 1365.
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك الميلي، 3 أجزاء. نشر مكتبة النهضة الجزائرية، طبع بمطابع بدران وشركائه، بيرزت لبنان، ط1، 1964.
- محمد أبو الأجفان، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1985.
- الفكر السياسي عند الإباضية، عدون جهلان. نشر جمعية التراث، ط1، 1990.
- مزاب بلد كفاح، إبراهيم طلاي. دار البعث قسنطينة، ط1، 1970.
- علماء جربة، تح: محمد قوجة. دارالغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.

المجلات والدوريات العربية

- المجلة التاريخية المغاربية، العهد الحديث والمعاصر، العددان 99/89، السنة 25.
نشر مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، ماي1998.
مقال: لـــ د. إبراهيم بحاز، ثلاث رسائل مخطوطة حول الإباضية المزابيين بـــالجزائر في العهـــد العثماني (عرض وتقديم). نسخة بحوزة جمعية الشيخ أبي اسحاق أطفيش لخدمة التراث، بغرداية.

فهرس المقابلات والمراسلات

- مقابلة مع الحاج اسليمان بكاي (قيِّم مكتبة الإستقامة)، ببني يسجن، غرداية. بتاريخ: 13 ديسمبر 2004، بمكتبة الإستقامة، ببني يسجن، ينظر: ص 19، و271 (هـــ).
- مقابلة أخرى مع الحاج اسليمان بكاي (قيِّم مكتبة الإستقامة)، بني يسجن، غرداية بتاريخ: 23 مارس 2005، بمكتبة الإستقامة، ببني يسجن. ينظر: ص 135 (هـــ).
- مقابلة مع الباحث حاج اسعيد محمد بن اسليمان البويري، بمنزله بالعطف، غرداية، بتاريخ: 30 مارس 2005، بمنزله بالعطف، غرداية، الجزائر. ينظر: ص 151 (هـــ).
- مقابلة مع الباحث يحي بن عيسى بوراس، ببني يسجن، غرداية، الجزائر.
بتاريخ: 10 أفريل 2005، بمكتبة الحاج صالح لعلي، بني يسجن. ينظر: ص 266(هـــ).
- مقابلة ثالثة مع الحاج اسليمان بكاي (قيِّم مكتبة الإستقامة)، بني يسجن، غرداية. بتاريخ: 27 مارس 2005، بمكتبة الإستقامة، ببني يسجن. ينظر: ص 183 (هـــ).
- مقابلة رابعة مع الحاج اسليمان بكاي (قيِّم مكتبة الإستقامة)، بني يسجن، غرداية.
بتاريخ: 03 أفريل 2005، بمكتبة الإستقامة، بني يسجن. ينظر: ص 190، و225 (هـــ).
- مقابلة خامسة مع الحاج اسليمان بكاي، بني يسجن، غرداية.
بتاريخ: 12 أفريل 2005، بمكتبة الإستقامة، ببني يسجن. ينظر: ص 228 (هـــ).
- مقابلة مع الأستاذ الحاج أحمد بن حمو كروم (قيِّم مكتبة دار إروان)، بالعطف.
بتاريخ: 02 ماي 2005، بمكتبة دار إروان (الطلبة)، بالعطف، ينظر: ص 272 (هـــ).
- مراسلة إلى الأستاذ الدكتور إبراهيم بحاز، الأستاذ بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عُمان.
بتاريخ: 10 مارس 2005. ينظر: ص 161 (هـــ).
- مراسلة إلى بعض الاخوة العمانيين، من عائلة الاسماعيلي، بسلطنة عُمان.
بتاريخ: 07 مارس 2005. ينظر: ص 161 (هـــ).

ISBN 9961 60 950 7